

أهل البيت عليهم السلام

تنوع أدوار ووحدة هدف

الشهيد السيد محمد باقر الصدر

تحقيق

عبد الرزاق الصالحي

مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر


بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين



أهل البيت عليهم السلام

تنوع أدوار ووحدة هدف

اسم الكتاب:	أهل البيت تنوع أدوار ووحدة هدف
تأليف:	الشهيد السيد محمد باقر الصدر قُدِّسَ سِرُّهُ
تحقيق:	عبد الرزاق الصالحي
إعداد:	مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر
الناشر:	دار الهدى ـ قم
المطبعة:	ظهور
عدد النسخ:	(٢٠٠٠) نسخة
الطبعة الثانية:	١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م

لبنان / بيروت / الغبيري ص.ب ٢٧٨ / ٢٥

قم/ايران/ ٥٩٨- ٣٧١٨٥ ـ هاتف: ٧٧٣٥٦٤٦ - ٧٧٤٦٥٤٦

info@Omalqora.net

شابك: ٧-٥١-٢-٥٦٠٢-٩٦٤

أهل البيت عليهم السلام

تنوع أدوار ووحدة هدف

تأليف:

الشهيد السيد محمد باقر الصدر قدس سره

تحقيق:

عبد الرزاق الصالحي

مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر

كلمة المؤسسة

الحكمة الإلهية اقتضت أن يكون للخلق رسالة وأنبياء يهدون الناس إلى صراط الهدى ، ويأخذون بأيديهم نحو السعادة الحقيقية والأبدية ، فكانت رسالة خاتم النبيين محمد ﷺ أفضل الرسالات وأكملها ، وانتهى بها أمد الأديان والمعتقدات السماوية السابقة، فكانت رسالة متناغمة مع فطرة الإنسان التي فطر الناس عليها ، وتميزت بشمولها لتبيان كل شيء بلسان عربي مبين ، وجعل من أمة محمد أمة وسطا تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، فكانت خير أمة أخرجت للناس .

فكانت حكمته الربانية تتنزل على هذه الأمة بأن جعل لها قادة يمسكون بزمام ركابها في خضم الصراعات والأمواج المتلاطمة، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[١] يمثلون الحق في كماله، فألزم الناس بالسير خلف نهجهم، والتمسك بحبلهم إتماما لنعمته وإكمالا لدينه.

فكانت الأهواء المضلة تتقاذف المسيرة ، وتمزق في أشلائها وتقطع من شرايينها متفرقين عن حبل الله منقلبين على أعقابهم ، يسعون في طمع زائل وفي حطام من الأرباح الجاهلية ، فأقصوا علي الطهر عليه السلام عما أراده الله له خدمة لدينه وقياما بعباده وتحقيقا لحكمته وإتماما لرضوانه ، فبدأت السقيفة يومها بانحراف فـ(منا أمير ومنكم أمير) فيتردد صدى الجاهلية ويتكرر تحت ذلك السقف، ثم يتجسد الطغيان ويترجم في خطوات متعاقبة ، فتسعى هذه الحركة الجديدة في فرض واقعها باسم

---

(١) الأنبياء: ٧٣.

الإسلام ، وتحقق أطماعها بغطاء من الدين ، فكان لابد للقادة الإلهيين من همة وحركة يفصلون الإسلام في منهجه وفكره عن الانحراف وخطه .

وإن الكتاب الذي بين يديك أيها القارئ قد تفوه به علم من أعلام الفكر ورمز من رموز الأمة وقائد من قادة الإصلاح شهيد الإسلام آيه الله العظمى السيد محمد باقر الصدر قدس سره التي ألقاها كمحاضرات علمية وموضوعية في أرض الرافدين مسلطا الضوء على الحركة الإصلاحية الإسلامية لأهل البيت عليهم السلام ودورها في كل مرحلة مبينا فيها طبيعة المرحلة من انحرافات وكيفية التصدي لها ومعالجتها ، مميزا بين العناصر الثابتة في حركتهم والعناصر المتغيرة ، ليستخلص في دراسته المباركة النظرة الكلية لمنهج أهل البيت عليهم السلام باعتبارهم حركة واحدة، فقد قال *طيب الله ثراه* عن منهجيته في المعالجة: **(وهذا الاتجاه الذي أريد أن أتحدث إليكم عنه، هو الذي يتناول حياة كل إمام ويدرس تاريخه على أساس النظرة الكلية).**

وقد تفضل الأستاذ *عبد الرزاق الصالحي* بجمع هذه المحاضرات مع الكتب المطبوعة منها ثم تنظيمها وترتيبها بشكل منهجي وموضوعي ، ووثق الأحداث التاريخية واستخرج مصادرها ، فكانت هذه الحلة الجديدة من جهوده المباركة فجزاه الله أحسن الجزاء .

ومؤسسة أم القرى إذ تقدم هذا الكتاب للمكتبة الإسلامية تأمل أن تساهم في الكشف عن التراث الإسلامي وتميزه عن تاريخ المسلمين ، ويكون ذلك مدعاة لتخليص الأمة من الشوائب العالقة بتراثنا وفكرنا الإسلامي ، مع تقديم خالص شكرنا وتقديرنا لكافة العاملين في المؤسسة .

مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر



مقدمة المحقق

إنّ القراءة الواعية في فكر السيد الشهيد محمد باقر الصدر رضي الله عنه تخلص مؤكـدةً أنّه صاحب مشروع نهضوي إحيائي. فهو السبّاق في التأسيس للنظرية الإسلامية في ميادين عديدة وفي الجانب المعرفي أيضاً، فقد تخطّى فيهما أزمة الخطاب الإسلامي وأغناه بالجديد والحيوي، وسعى إلى تجسيد ما آمن به من مبادئ وقيم كانت في رؤيته مظهراً لواقعية وحيوية الإسلام.

وقد أستلهم المفكر الشهيد تلك الرؤية التي تمزج بين النظر والفعل والقول والعمل من سيرة جده الإمام الحسين عليه السلام الذي خرج طالباً الإصلاح في أمة جده، فذهب شهيداً مُخلّداً وراءه رسالة الإسلام تنبض بالحياة والحركة والبقاء، فقد انطلق السيد الشهيد رضي الله عنه في تحرّكه معتمداً هذه الرؤية، فسعى كجده الحسين عليه السلام إلى الشهادة باعتبارها السبيل الوحيد لإيقاظ ضمير أجدب، وروح قُدِر لها أنْ تنفتح على الدنيا؛ إلا أنها انكفأت بفعل فتوى حرمة شق عصا الطاعة والخروج على الجماعة، أو فتوى حرمة الخروج

على السلطان، وإن كان فاسقاً فاجراً يخرج غانيته لتصلي بالمسلمين الجمعة وهي بزي الخلافة بعد أنْ أثمله المجون واللهو.. لا هم الرسالة والأمة...

وهذه الظاهرة التي برزت في الفضاء الإسلامي في عصر الإمام الحسين عليه السلام، تناولها السيد الشهيد رضي الله عنه بالبحث والتحليل في إحدى محاضراته والتي هي إحدى حلقات مباحث الكتاب، وسنجد معاً كيف ربط رضي الله عنه بين النفسي والاجتماعي، وبين مختلف ملابسات الظروف، وذلك في قراءته الواعية لهذا الحدث التاريخي وغيره من الأحداث التي شغلت بمجموعها صفحات هذا السفر الكريم.

إنّ كتاب ((أهل البيت، تنوّع أدوار ووحدة هدف)) واحد من أهم نتاجات السيد الشهيد رضي الله عنه التاريخية؛ لما تضمنه من دراسة تحليلية واعية لمجموعة من المفاصل المهمة في التاريخ الإسلامي والتي كان لها آثارُها الخطيرة على الحياة الإسلامية بما عطفت المسيرة الإسلامية باتجاهات كادت أنْ تقضي على الإسلام لولا جهاد أئمة أهل البيت عليهم السلام المبلور بأدوارهم في الحياة السياسية والاجتماعية والمتحد في هدف حفظ الرسالة وصيانتها من الانحراف.

لقد تناول كثيرٌ من المفكرين هذه المفاصلَ بالدراسة والتحليل، إلا أنّ ما يلحظ عليها ـ وبغض النظر عن المرتكزات التي انطلق منها الدارسون ـ عدمُ العمق، والتأثرُ بآراء السابقين، والتقوقعُ ضمن أطرهم. كما إنّها وإنْ كانت لا تخلو أحياناً من إشارات إلى مطالب هنا وهناك ـ حيث أخذت على

الماضين تجاهلاً أو جهلاً ـ إلا أنها في مجموعها لا تصلح لأن تعدّ قراءة واعية لتلك الأحداث والظواهر التي اكتنفت التاريخ الإسلامي، بقدر ما هي اجترار يؤدي بالضرورة إلى عدم الموضوعية وإلى ضبابية الرؤية وتشويه حركة التاريخ الإسلامي بعمومياتها أو بخصوصياتها، فلم تكن تلك الدراسات ناظرة إلى الانعطافات الخطيرة في ذلك التاريخ والتي يتطلب المنهج الموضوعي الشمولي لدراستها، التوقف عندها وقراءتها باعتبارها حلقات متصلة مع بعضها تؤدي وظائف مشتركة ومتضامنة عند النظر إليها وفقاً للمرجعية الإسلامية.

وهذا ما توافر على دراسته المفكر الكبير السيد الشهيد الصدر رضي الله عنه في كتابه الموسوم ((أهل البيت تنوّع أدوار ووحدة هدف)) فهذا الكتاب على الرغم من أنه عبارة عن مجموعة من المحاضرات[١] التي ألقاها السيد الشهيد رضي الله عنه في مناسبات عديدة وفي فترات زمنية متباعدة، إلا أنها تتسم جميعاً بوحدة الموضوع والهدف والمنهج الدراسي، فضلاً عن إلمامها الواسع بالتاريخ

(١) وقد أشير في مصدرين آخرين أن بعضاً منها بحوث، انظر: سلسلة اخترنا لك (١) ((هذه مجموعة من البحوث نشرت على شكل مقالات في مجالات متفرقة للسيد محمد باقر الصدر)) ، السيد محمد باقر الصدر، دار الزهراء، بيروت، ط١، (١٣٩٥ـ ١٩٧٥). وقد نشر في هذا الكتاب موضوع ((دور الأئمة في الحياة الإسلامية)) ، وهو موجود أيضاً في ((أهل البيت تنوّع..)) ، كما نُشرت مواضيع أخرى منها في دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، السيد حسن الأمين، دار التعارف، ط٥، ١٤١٢هـ.

الإسلامي بكل ما يزخر به من ظواهر وأحداث وملابسات.

قصّة الكتاب..

وقصة هذه المحاضرات[1] أنه كان قد احتفظ بها أحد تلامذة السيد الشهيد رضي الله عنه[2] إلى حين رؤيتها النور بعد عام ١٩٧٨مطبوعة في كتاب، ولم يُعْنَ بها بعد هذا التاريخ لا تصحيحاً ولا تحقيقاً. وربما يعزى ذلك إلى كثرة الشواهد والموارد التاريخية والروائية التي استند إليها السيد الشهيد رضي الله عنه تلميحاً وإشارة دون تصريحه بالنصوص أو الأشخاص أو الحوادث، الأمر الذي قد يبرّر الإحجام عن فكرة تحقيق هذا الكتاب الكريم.

وقد وقفت على حقيقة هذا الأمر قبل ما يقرب من سبع سنوات، وذلك حين هممت بتحقيقه، حيث واجهتني حينها متاعب كثيرة دعتني إلى التريّث

---

(١) وكانت هناك نسخة أخرى مخطوطة تتداول بين المؤمنين في العراق، وهي أول لقاء لي مع هذا الكتاب وكان ذلك في أحد الأشهر الثلاثة الأواخر من عام ١٩٧٨.

(٢) كانت هذه المحاضرات مسجلة لدى الأخ الشيخ فهد مهدي (لبناني) ـ وهو أحد تلامذة السيد الشهيد رضي الله عنه محتفظاً بها حتى عام ١٩٧٨، حيث طلبها منه السيد محمد الغروي فأرسلها له من أستراليا لتطبع في لبنان وتعم فائدتها. انظر: تلامذة الإمام الشهيد الصدر ملامحهم النفسية ومواقفهم الاجتماعية، السيد محمد الغروي، دار الهادي، بيروت، ط١ـ ١٤٢٢هـ: ٢٣٦ ـ ٢٣٧. ولم يشر السيد الغروي إلى عام طباعتها، وكذلك الطبعة الموجودة التي اعتمدناها، لا تحمل تاريخاً.

والتمهّل، لأنّه لا يصح إخراج الكتاب بدون ذكر هذه الشواهد والنصوص بالشكل اللائق.

هذا وكنت في وقتها قد أسهمت في كتابة التاريخ الإسلامي (العصر النبوي، وفترة الخلفاء) إثناء عملي في المؤسسة الكومبيوترية الإسلامية. كما كتبتُ خلال هذه الفترة حول حياة الأئمة الهادي والعسكري والإمام المهدي عليهم السلام (١)..

وكان من الطبيعي أنْ ينتج عن ذلك مخزونٌ تاريخيٌّ يفاد منه ولو بعد حين.

وقد أعدت بعيد ذلك بفترة وجيزة قراءةَ هذه الحقبة التاريخية ثانية، وكتبت دراسات توثيقية للفترتين أيضاً (٢).

وكانت أحداث ووقائع هاتين الفترتين ذات صلة وثيقة بالمباحث التي تناولها السيد الشهيد رضي الله عنه في كتابه المذكور، فكان لذلك ـ فضلاً عن إطلاعنا على مصادر تاريخية كثيرةـ الأثر البالغ في تشجيعنا على بدء العمل

---

(١) كنت مساهماً مع إخوة آخرين، وقد صدر هذا الجهد بعنوان: تاريخ الإسلام (أربعة أجزاء) ويدرّس الآن في الحوزة العلمية في قم وغيرها، ومما يؤسف له أنه لا يحمل أسماء الّذين ساهموا في إنجازه، بل نشر باسم غيرهم، وقد نشرته المنظمة العالميّة للحوزات والمدارس الإسلاميّة في قم.

(٢) أرجو أن أوفق لإنجازه بعونه تعالى.

على تحقيق هذه المحاضرات من أجل تجهيزها للنشر.

ونرجو أنْ نكون قد وفقنا في تحقيق الهدف المنشود، وذلك وفاءً منّا للسيد الشهيد رضي الله عنه وتأديةً لنزر يسير من حقوقه المفاضة علينا؛ فـ ((من ورخ مؤمناً فقد أحياه))[١]، وإحياءً منا لمبادئ آمن بها وضحّى من أجلها.

العمل المنجز في تحقيق الكتاب:

إنّ أول ما يجب الإشارة إليه هو أنّ لكتاب (أهل البيت تنوّع أدوار ووحدة هدف) نسخة وحيدة يتيمة أصلاً وطبعاً [٢]، لم يعنَ بها بعد صدورها، ولعلّ أحد مناشئ هذه الصعوبة يكمن في صعوبة ضبط متن الكتاب، الأمر الذي يعدّ ضرورياً لكي يتيسّر العمل عليه.

وقد اتّضح لنا من خلال القراءة الأولى أمران:

الأول: عدم وجود نصوص تاريخية أو روائية كاملة، إلا في النادر القليل.

الثاني: وجود بعض الخلل، من قبيل عدم وجود بعض الكلمات ضمن سياقها في بعض المقاطع، أو إنقاص حرف، أو إبدال حرف بآخر.. غير أنّ هذا

---

(١) أثرٌ نبوي مبارك.

(٢) نُقل لي عن السيد محمد الغروي أنّ هذه المحاضرات لم تكن تحمل هذا العنوان حين طباعتها، إلى أن تمّ اقتراحه من قبل الشيخ محمد جعفر شمس الدين وهو أحد تلامذة السيد الشهيد رضي الله عنه.

لا يشكّل نسبة يعتد بها، وذلك لوقوعه في أماكن محدودة من نص روائي أو تاريخي، حيث أمكن غالباً تصحيحه بعد الرجوع إلى مظانّ النصوص. ولعلّ هذا الأمر يظهر بوضوح في المحاضرة المعنونة بـ (دور الأئمة في الحياة الإسلامية) حيث تمّت المقارنة بين الأصل وبين موضعين آخرين نشر فيهما البحث كما تأتي الإشارة إليه إن شاء الله تعالى.

وبشكل عام يمكن الإشارة إلى مراحل العمل ضمن عدة نقاط:

١ـ المتن:

كانت التغييرات التي أجريت على المتن طفيفةً واضحةً ومحدودةَ الموارد، وقد أشرنا إلى بعضها دون البعض الآخر بعد أنْ كنّا نعتقد بأنّ الأعم الأغلب منها عبارة عن أخطاء مطبعية.

كما عثرنا على الكثير من علامات الاستفهام التي جعلت تارةً في مكان واحد وأخرى متفرقة؛ ولما لم يكن لها محلّ على كلّ حال عمدنا إلى حذفها. ومن هنا لم يتجاوز التغيير إضافة حرف أو حذفه بحسب المناسبة.

و هناك بعض النصوص التاريخية التي تمّت الإشارة إليها دون إجراء أي تغيير أو تعديل عليها، وذلك وفقاً للمصدر الذي خُرّجت منه. وقد حصرنا النص المضاف بين قوسين [[ ]]. وهي كذلك موارد محدودة عدداً، وتختص بـ ((دور الأئمة في الحياة الإسلامية)).

٢ـ العناوين:

أمـا بالنسـبة إلى عناوين المواضيع فقد احتفظنا بما كان في أصل الكتاب ولم نجرِ عليه أيّ تعديل يذكر، غير أنّنا عمدنا إلى إضافة بعض العناوين في الموارد الـتي يشـغل البحـث فـيها عـدداً كـبيراً مـن الصـفحات ولم تكن معنونة في الأصل، فوضعنا لها عناوين وجعلناها بين ❖❖.

٣ـ الآيات القرآنية:

أما فيما يتعلّق بالآيات القرآنية المباركة، فهي على قسمين:

الأول: مـا كـان مثبـتاً في المـتن، وهـو من أصل الكتاب. وقد قمنا بتخريجه بذكر السورة ورقم الآية.

الثاني: مـا كان منها في الهامش، وهو لم يكن في أصل الكتاب، وإنما دعت الحاجة إلى ذكره حيث هناك إشارة إلى ما ينسجم ومضمون الآية.

٤ ـ الروايات:

وفي مـا يختصّ بالروايات والأخبار التي أشار إليها السيد الشهيد رضي الله عنه ، فقـد أرجعـناها إلى مصادرها معتمدين في الأعم الأغلب مصادر التاريخ العام مـع الأخـذ بـنظر الاعتـبار القـدم مـن الناحية التاريخة، والإرجاع إلى مصادر الـتاريخ الخاص في الموادر التي لم تحملها مصادر التاريخ العام أو للمقارنة بين الـتاريخين أحـياناً.. هـذا وقـد نوثّق بأكثر من مصدر، وذلك يختلف باختلاف المناسبة.

كما إننا لم نعتمد المصادر القريبة العهد، ولم نُحل إليها إلا في موارد محدودة، من قبيل ما يتعلق بالمسيحية واليهودية، ومن قبيل ما ذكرناه في الهوامش في ثلاثة موارد حيث عنونّا بعضها بـ (تقارب رؤى)، وذلك لوجود مناسبة بين ما ذكره السيد الشهيد رضي الله عنه وما ذكره أمثال "سيد قطب" و"الدكتور حسين مؤنس". كما أنّ لـ"عبد الكريم الخطيب" موضوعاً تحت عنوان (خاطرة). وسنشير إلى ذلك كلّه في محلّه إنْ شاء الله تعالى.

٥ ـ تسلسل الأبحاث:

كانت المحاضرة المعنونة بـ (دور الأئمة في الحياة الإسلامية) آخر ما ختم به السيد الشهيد رضي الله عنه كتابه الموسوم، إلا أنّنا وجدنا أنه من الأنسب إدراجها في مطلع الكتاب، وذلك لضرورة منهجية وموضوعية واضحة، وذلك لأنّ السيد الشهيد رضي الله عنه قد أوضح فيها أسس منهجه في دراسة حياة الأئمة عليهم السلام ، كما دعا الدارسين أنْ ينتهجوه في قراءة حياتهم وسيرتهم عليهم السلام. إضافة إلى أنّ تاريخ إلقائها أقدم زماناً من تاريخ غيرها [١].

وقد قُدمت محاضرة ((التغيير والتجديد في النبوة)) ، وكذلك ((مضاعفات وفاة النبي صلى الله عليه وآله))، لضرورة منهجية ولمرتكزات موضوعية، ولما يتأسس عليها

---

(١) يعود تاريخها إلى عام ١٣٨٦هـ، والأُخريات عام ١٣٨٨هـ وما بعده.

في وعي دور الأئمة عليهم السلام.

٦ـ مادة الكتاب:

قلنا: إنّ المادة الأساسية لهذا الكتاب عبارة عن مجموعة المحاضرات التي تمّ نشرها في بيروت تحت عنوان " أهل البيت عليهم السلام تنوّع أدوار ووحدة هدف"، والتي كان السيد حسن الأمين قد نشر بعضاً منها في "دائرة المعارف الإسلامية الشيعية"، بيد أنّ بعض المنشور فيها تنقصه مقاطع كثيرة.

ومحاضرة (دور الأئمة في الحياة الإسلامية) هي المحاضرة الوحيدة التي تمّت مقارنتها مع ما جاء في "دائرة المعارف" السيد الأمين، بالإضافة إلى ما جاء في كتاب (اخترنا لك) الذي هو عبارة عن مجموعة من المقالات وبحوث متنوّعة للسيد الشهيد رضي الله عنه.

هذا وقد أضفنا إلى أصل الكتاب :

أولاً: محاضرتين نشرتا في مجلة الفكر الإسلامي[١]، تتعلّق إحداهما بالإمام الحسين عليه السلام، والأخرى بالإمام الجواد عليه السلام.

غير أنّنا لم نعتمد التخريجات الواردة في المجلة المذكورة لاعتمادنا في منهج التحقيق على المصادر التاريخية تبعاً لقدمها التاريخي، ولكونها معتمدة من قبل الدارسين والباحثين على مختلف مشاربهم وأهوائهم.

---

(١) نشرت في العدد ١٧، والعدد ١٨، وسنشير إلى ذلك في محله إن شاء الله تعالى.

ثانياً: موضوعاً آخر حول الإمام الحسين عليه السلام كان قد نشر في الجزء (١٣) من المجموعة الكاملة لمؤلفات السيد الشهيد رضي الله عنه والتي نشرتها دار التعارف في بيروت[١].

ثالثاً: وكان السيد الشهيد رضي الله عنه قد قدّم لإحدى طبعات الصحيفة السجادية بمقدمة إجمالية تناول فيها تحليلاً لمواقف الإمام علي بن الحسين عليهما السلام مع نبذة مختصرة عن حياته الشريفة، فارتأينا إضافتها إتماماً للفائدة.

رابعاً: موضوعين من كتاب رسالتنا أحدهما ((رسالتنا والتاريخ)) لما له من مدخلية في رؤية السيد الشهيد رضي الله عنه حول التاريخ، حيث به تكتمل منهجية الدراسة التاريخية التي اعتمدها السيد الشهيد رضي الله عنه في مجموعة كتبه التي تناول فيها مباحث تتعلق بالأئمة ومواقفهم الرسالية، وموضوع آخر ((رسالتنا في عصر الإمام الصادق)) والذي من خلاله يتجلى لنا دور الإمام عليه السلام ومواقفه، كخط عام يتحد ومنهج الدراسة الموضوعية حسب رؤية السيد الشهيد رضي الله عنه.

---

(١) ونسجّل هنا شكرنا للأخ أحمد أبو زيد (جزاه الله خيراً) لإرشادنا إلى هذه المحاضرات، والتي كانت لها أهمية في إيضاح المنهجية التي اتبعها السيد الشهيد رضي الله عنه في قراءته الواعية لمواقف الأئمة عليهم السلام. كما نثبت جزيل الشكر والثناء لأخوة آخرين أعانونا كثيراً، وندعو للجميع بالخير والتوفيق.

خامساً: بحث حول الإمام المهدي عليه السلام الذي كتبه السيد الشهيد رضي الله عنه مقدمة لموسوعة المرجع الشهيد محمد الصدر رضي الله عنه حول الإمام المهدي عليه السلام والتي صدر منها أربعة أجزاء(١)

وأخيراً... بعد خروج الكتاب بهذه الحلّة، نأمل أنْ يكون جهدنا في تحقيقه قد بلغ المستوى اللائق الذي كنا نطمح إليه. ونعتذر لجهدنا القاصر. والمحاولة أحسن.

وما توفيقي إلاّ بالله... والحمد لله رب العالمين

عبد الرزاق الصالحي

٢٤/محرم/١٤٢٣هـ

٩/٤/٢٠٠٢م

---

(١) وقد اعتمدنا في تحقيقه على طبعته الأولى التي صدرت عن دار التعارف. بيروت لبنان، عام ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالتنا والتاريخ[1]

ليس التاريخ شيئاً منفصلاً عن الإنسان ومتميزاً عنه، بل هو متلاحم معه لأن الإنسان هو الذي يتحكم في مجراه، ويوجهه الوجهة التي يريد.

وليس المجتمع ظاهرة مادية فحسب، وإنّما هو ظاهرة معنوية أيضاً، لأن المجتمع هو الصيغة المنظورة لعقيدةٍ ما، توجّه حياة طائفة من الناس وتطبّعها بطابعها. فلعل من المدركات البديهية أنّ الإنسان ـ هذا الكائن الذي ينشئ الحضارات، ويعمّر الكون ويغني الحياة ويجددها ـ هو كائن ذو عقيدة يسير عليها في حياته الدنيا.

ولم يحدث في الماضي ولن يحدث في المستقبل أيضاً أنْ يوجد مجتمع

---

(١) الموضوع مستل من رسالتنا، السيد الشهيد محمد باقر الصدر رضي الله عنه ، نشر توحيد، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ : ٧٨ ـ ٨٤.

يمـارس حياته بغير عقيدة تنظّم هذه الحياة، فان المجتمع ظاهرة معنوية كما قلنا، وحيث لا عقيدة ولا نظام فلا مجتمع على الإطلاق.

وعقـيدة الإنسـان هي النافذة التي يطل منها على العالم، وهي التي تحدّد له أسلوب تعامله في المحيط المادي والاجتماعي اللذين يكتنفانه، وإذن فالحركة ـ وهـي جـزء مُقوّم للتاريخ ـ لابدّ وأن تكون التعبير الحي المتجدّد عن العقيدة الحافزة والمنظمة للنشاط الإنساني، وعلى هذا فإن تاريخ أي مجتمع إنساني هو في الحقـيقة تـاريخ حركـته في نطـاق العقيدة الموجهة لـه، وهو في الوقت ذاته تـاريخ العقـيدة الـتي أملّـت عـلى المجتمع صياغة حياته بهذا الأسلوب المعّين وذلـك بمقدار تجاوب المجتمع مع عقيدته وتفاعله معها. وطبيعي أننا حين نقرر ذلـك لابـدّ لنا من افتراض أنّ العقيدة التي يصنع الإنسان تاريخه على ضوئها لابدّ وأن تكون هي بنفسها ذات صلة بهذه الحياة الواقعية للإنسان، وإلاّ فمن البديهي أنها لا تسهم في صنع التاريخ، وإنما يصنعه حينئذٍ حافز آخر غيرها.

وإذا كـان الأمـر كذلـك كـان لنا أنْ نتساءل عن وجهة نظر الإسلام إلى الـتاريخ: مـا موقفـه منه؟ ، وما مدى إسهامه فيه؟ ، وما هو واقعه الحاضر؟ وما هي احتمالات المستقبل ؟

الإسـلام: هـو الـنافذة الـتي يطل منها الإنسان المسلم على العالم لا من غيرهـا. فالإسلام لم يترك المسلم يتخبط في بحثه العشوائي عن الموقف المناسب الذي يتعيّن عليه أنْ يقف في حياته هذه، بل عيّن لـه الموقف الواقعي المنطقي

الصحيح وطلب إليه أنْ يلتزمه. والعالم بالنسبة إلى ـ المسلم من وجهة نظر الإسلام ـ، هو الميدان الذي يجب أنْ يمارس فيه الإنسان المسلم العملية التاريخية الكونية وفق مشيئة الله جلّ جلاله.

وكل عمل صغير أو كبير، جليل أو حقير، يقوم به المسلم وفق أحكام الإسلام له دوره في عملية التاريخ، وعلى المسلمين أنْ يكافحوا من أجل أنْ يجعلوا المجتمع مسلماً، أعني الصيغة المنظورة للإسلام. ومن هنا اشتمل الإسلام على المناهج التي يجب أنْ تُتّبع في بناء التاريخ وصياغة الحياة. فالإسلام ليس ديانة صوفية تحمل الإنسان على أنْ يتجرّد من الواقع ويرفضه ويتخلّص منه، بل ديانة ذات صلة حميمة بالواقع الإنساني. والتاريخ بالنسبة إلى الإنسان المسلم ليس شيئاً منفصلاً ومتميزاً عنه، بل هو متلاحم معه، لأنه هو الذي يصنعه ويتحكم في مجراه ويوجهه الوجهة التي يريد، فالإنسان في الإسلام هو صانع التاريخ؛ لأن الإنسان في الإسلام حر، وهو يتحمل مسؤولية حريته.

أما التاريخ في الماركسية فهو موجود مستقل عن إرادة الإنسان وعن اختياره والإنسان في الماركسية ليس حراً وليس مختاراً في توجيه العملية التاريخية الوجهة التي يريد كما هو الحال في الإسلام. بل هو محكوم لهذه العملية التاريخية، تسيّره وتتحكم بوجوده ومصيره وتُملي عليه الأسلوب الذي يجب أنْ يمارس به حياته.

وأما مسيحية الكنيسة فهي على الضدّ من الإسلام أيضاً. إنّ الكنيسة

تعتبر المسيحية عملية رفض إلهية للعالم الأرضي كلّه، والوسيلة الوحيدة للخلاص هي رفض التاريخ وتخطيه والتعالي عليه، وذلك لا يكون إلاّ بتدمير الإنسان ووأد كل الاستجابات التي تقوم بها الذات الإنسانية نحو العالم الخارجي.

الماركسية تقف موقفاً إيجابياً من التاريخ ولكنها تدمّر الإنسان حين تجعله عبداً للتاريخ وتسلبه كل حرية واختيار، والمسيحية تقف موقفاً إيجابياً ـ في الظاهر ـ من الإنسان حين تجعله خلاصة غايتها العليا، ولكنها تقف موقفاً سلبياً من التاريخ فتدمر الإنسان حين تحاول القيام بعملية فصل الإنسان عن واقعه الحي ووأد استجاباته لهذا الواقع. والإسلام وحده ـ بين جميع العقائد والأديان ـ هو الدين الذي وقف موقفاً إيجابياً من الإنسان ومن التاريخ، واعترف للإنسان بالحرية الداخلية التي بها يكون صانع التاريخ وموجّهه.

وإذن فالإسلام تاريخ، وقد لا تبدو هذه الحقيقة مثيرة ورائعة بالنسبة إلى كثير من الناس ولكنها ـ في الواقع ـ من أشد الحقائق إثارةً، إذ لاحظنا أنه ليس للمسيحية تاريخ ولا يمكن أنْ يوجد تاريخ للمسيحية؛ وذلك لأنها ترفض العالم الأرضي(١) وتقف منه موقفاً سلبياً بخلاف الإسلام الذي عرفت

---

(١) نصان : [[إن المسيح أيضا رأس الكنيسة. وهو مخلص الجسد]].

العهد القديم والجديد، مجمع الكنائس الشرقية: ٢/ ٣١٧، ٢٤.

[[لأننا نحن قد سمعنا ونعلم أن هذا هو بالحقيقة المسيح مخلص العالم]].

أنه يقف من التاريخ موقفاً إيجابياً فاعلاً خلاقاً.

لقد أثمرت دعوة الإسلام الحارة إلى الحياة والتفاعل معها والعمل فيها، حضارة من أروع الحضارات التي عرفتها البشرية في تاريخها الطويل، وقد أعطت مبادئه العظيمة مدينة لم تشهد لها الإنسانية مثيلاً في تاريخها القديم والحديث، وقدّم نموذجاً للإنسان فريداً لا تزال الإنسانية تكافح من أجل الوصول إليه، ولن تصل إليه إلا عن طريق الإسلام.

ونحن نعتبر أنّ الإنسان الذي قدمه الإسلام هو أعظم عطاياه للتاريخ، فلقد عرفت البشرية لأول مرة في تاريخها الإنسان السوي التكوين، الإنسان الذي لا يمزّقه الصراع بين مُثله العليا وبين واقعه الحي، وقد عرفته في مجموعات كبيرة من الناس وفي عدد كبير من الأصقاع وفي شتى الظروف والحالات، وهو إذن ليس فلتةً ولا شذوذاً، وإنما هو نتاج دين الإسلام، وقد تمثلت المدنية الإسلامية الفريدة في هذا الإنسان وقد صاغ الحضارة الإسلامية لهذا الإنسان.

وليس شيئاً هيّناً هذا الذي ذكرناه، فلم توجد عقيدة حققت هذا النجاح بهذا المقدار من الشمول والعمق والاستمرار، اللهم إلاّ في خاطفةٍ ورد ذكرها في القرآن الكريم.

---

(١) العهد القديم والجديد ـ مجمع الكنائس الشرقية : ٢ / ١٥٢.

الإنسان في القديم والحديث وفي جميع الأوطان يعاني من الصراع بين مُثله العليا وبين واقعه الحي. وحسبنا مثال واحد على ما نقول، الإنسان المسيحي أنشأ حضارات آخرها الحضارات الحديثة، ولكن الحضارات التي أنشأها المسيحي ليست نتاج المسيحية التي ترفض العالم الأرضي وترفض التاريخي، وإنما هي نتاج وثني اندفع إليه المسيحي بإلحاح علاقته كإنسان حي بواقعه الخارجي، وإذن فالحضارات التي أنشأها المسيحي رفضٌ للمسيحية وتخلٍّ عنها، ومن هنا نشأ الصراع في داخل الإنسان الغربي بين مثله العليا وبين واقعه الذي شيّده على أنقاض هذه المثل[1]

وما الماركسية ـ لدى التحليل ـ إلا تعبير عن هذا الصراع المدمّر بما يبدو أنه حل له، فالماركسية تمثل أزمة الروح المسيحية وقد بلغت قمتها، فلجأت إلى تزييل الروح الدينية نفسها بهذه الوسيلة، لكن الروح الدينية شيء دخيل في كيان الإنسان ذاته ولا يمكن التغلّب عليه أبداً، فما لم تُصحح المثل العليا نفسها لا يمكن أنْ يزول الصراع الداخلي بين المثل العليا وبين واقع الإنسان الحي.

وقد كف الإسلام عن صنع التاريخ حين نُحّي عن مركزه القيادي في

---

(١) انظر: اقتصادنا، مقدمة الطبعة الثانية، فقد تناول السيد الشهيد رضي الله عنه هذه الفكرة بالتحليل والنقد.

الحياة الإسلامية، ليس من همنا هنا أنْ نحدد وقت حدوث هذه المأساة [١] ـ مأساة الفصل بين مبادئ الإسلام البنّاءة وبين الواقع ـ وإنما يهمنا أنْ نقرر نتيجتها وهي أنّ حياة المسلمين المعاصرة حياة بعيدة عن الإسلام، لأنها ليست مستوحاة من الإسلام في أكثر من خطوطها الكبرى.

إنّ المسلم المعاصر لا يؤمن بالإسلام كما كان يؤمن به المسلمون البناة، وإنما يؤمن به إيماناً خالياً من الحياة والحرارة التي تجعل مبادئه طاقة شعورية تتوق إلى التعبير عن نفسها في صنع التاريخ.

وقد أفلح الاستعمار بما استولى عليه من مقاليد التوجيه الكامل للحياة الإسلامية في أنْ يثبّت في عقول الكثرة العظمى من مسلمي اليوم وجهة النظر الغربية إلى الدين، وهي أنه قضية تهم الفرد لنفسه ولا تتعداه إلى المجتمع ولذلك فلا علاقة للدين بالمجتمع وبالحياة العامة، ولا معنى لأن تكون للمجتمع هموم دينية؛ لأن الدين قضية شخصية تماماً. هذا الفهم المزوّر لوظيفة الدين زاد من ضلال الإنسان المسلم المعاصر. بُعْده عن الإسلام، بل ووقّفه منه موقفاً معادياً في بعض الأحيان.

---

(١) ويؤرخ لهذه المأساة منذُ تولى الأمر مَنْ ليس أهلاً له، فتحول إلى ملك عضوض ومن مظاهره وتجلياته الدولة الأموية وما أعقبها من كيانات. وسيتضح من تضاعيف المباحث إشارات السيد الشهيد رضي الله عنه إلى بدء هذه المأساة تاريخياً في دنيا الإسلام.

وإنّ هـذا الوعـي الجديـد الـذي انتشـر واسـتطار في العـالم الإسلامي، والـذي لا يـزال يتّسـع وينتشـر يومـاً بعد يوم الوعي الجديد للإسلام ولمبادئه ولمـدى مطابقـته لحاجـات الإنسان المعاصر ومطامحه، وإن إفلاس المدنية الحديثة وتخـبطها وعجـزها الفاضـح عـن أنْ تقـدم للإنسان الهدوء النفسي إلى جانب الـرخاء المـادي، وإن إخفاق النظم السياسية والاجتماعية في أنْ توفر للإنسان المعاصـر العدالـة الاجتماعية مع المحافظة على الجانب الإنساني فيه... كل هذا يحملـنا عـلى أنْ نكون متفائلين بمستقبل الإسلام في العالم الحديث واثقين بأن الإسـلام سـيقود الإنسـان مـن جديـد، لأنـه لا يخالف طبيعة الإنسان وفطرته ولابـد أنْ تعـبر الفطرة عن نفسها في نهاية المطاف، والإسلام هو دين الفطرة في مبـناه ومعـناه : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾(١).

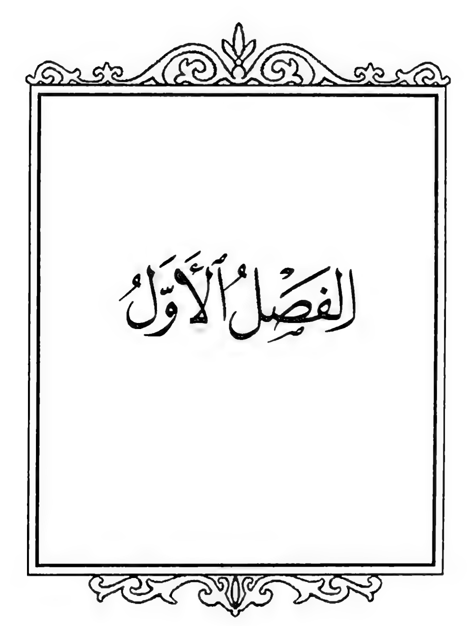
وقـد كـان الإسـلام ولا يزال وسيبقى أهم وأخطر وأنبل محاولة لتحقيق العدالـة بـين الـناس، ولـتكوين مجتمع إنساني كامل، ولصوغ تاريخ إنساني، ولتقديم نموذج للإنسان.

لله الأمر من قبل ومن بعد.

السيد الشهيد محمد باقر الصدر رضي الله عنه

---

(١) سورة الروم: ٣٠.



الفَصْلُ الأَوَّلُ

التغيير والتجديد في النبوة[1]

بمناسبة أروع ذكرى مرت في حياة الإنسان، في يوم هو أشرف يوم[2] في تاريخ الإنسان سواء قيّمنا الأيام بما تشتمل عليه من أحداث أو بما تتمخض عنه من نتائج، فان هذا اليوم يبقى هو اليوم الأول في تاريخ الإنسان، لأنه اليوم الذي استطاع فيه الإنسان أن يبلغ الذروة التي رشحته لها عشرات الآلاف من الرسالات والنبوات، فاصبح قاب قوسين أو أدنى[3]، متمثلاً في شخص النبي ﷺ.

وكذلك إذا لاحظنا ما تمخض عنه هذا اليوم العظيم، يمكننا أن نتصور المقدار العظيم من الطاعات والعبادات والأعمال النبيلة الزاخرة، بكل معاني

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة بتاريخ: ٢٧/ رجب المكرم /١٣٨٨.

(٢) هو يوم المبعث النبوي المبارك، وكان بعد أربعين سنة من عام الفيل ((٦١٠م).

(٣) الآية: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أو أَدْنَى﴾ (النجم: ٩).

النبل والأخلاق، التي أوتي بها بعد هذا اليوم.

ويمكننا أن نتصور العروش التي حُطمت والجبابرة الّذين قُضي عليهم، وعهود الظلم والطغيان، التي قوضت باسم هذا اليوم[١]

ويمكننا تصور الشخصيات العظيمة، والبطولات المستميتة في سبيل إقامة العدل على الأرض باسم هذا اليوم.

هذا اليوم هو اليوم الأول في تاريخ البشرية، سواء قيّمنا على أساس ما حدث فيه أو على أساس ما نتج عنه، لأنه يوم النّبوّة الخاتمة.

وبمناسبة النّبوّة الخاتمة[٢]، أريد أن أتحدث إليكم عن فكرة التغيير والتجديد في النّبوّة، فكرة التغيير والتجديد التي عاشتها ظاهرة النّبوّة في تاريخ الإنسان على مرّ الزمن، حتى وضع لها الحد النهائي، على يد الرسالة

---

(١) فبعد هذا اليوم المبارك بأقل من ثلاثة عقود لم يعد للإمبراطورية الفارسية أسم على خارطة العالم آنذاك، وحررت بلدان كثيرة من استبداد الرومان، وضمت إلى الدولة الإسلامية انظر: طبقات، ابن سعد، ج٢، فهو يشتمل على غزوات الرسول صلى الله عليه وآله، وفتوح البلدان، البلاذري. لاشتماله على الفتوحات التي حدثت في عهود ما بعد عصر النّبوّة المبارك.

(٢) الآية: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾، الأحزاب: ٤٠.

الإسلامية الخاتمة.

والتغيير والتجديد في النّبوّة له أسباب عديدة معقولة يمكن أن يقوم على أساس أي واحد من هذه الأسباب، كما يمكن أن يقوم على أساس اكثر من سبب واحد من هذه الأسباب.

السبب الأول:

استنفاد غرض النبوة

وهو فيما إذا كانت هذه النّبوّة قد استنفدت أغراضها واستكملت أهدافها، وأنهت شوطها المرسوم لها، ففي مثل هذه الحالة لابدّ لها وان تخلي الميدان؛ فتحمل أهدافاً جديدة وتحمل شوطاً جديداً، لابدّ أن تؤديه في خدمة الإنسان وتصعيده إلى المستوى المطلوب.

وأقصد بكون النّبوّة تستنفد أغراضها، أن تكون النّبوّة بالذات وصفة لمرض طارئ في حياة البشرية.

هناك نقاط من الضعف تطرأ بين حين وحين في بعض الأزمنة والأمكنة في بعض المجتمعات البشرية.

تطرأ بعض الأمراض المعيّنة من الناحية الفكرية والروحية والأخلاقية، وهذه الأمراض تستفحل بموجب شروط معيّنة موضوعية خاصة، وتحتاج هذه

الأمراض إلى نوع من العلاج يترفق المولى سبحانه وتعالى في إنزال وحي معيّن لأجل بيانه(١)

وبطبيعة الحال سوف تكون الوصفة المقدمة من قبل هذه الرسالة لعلاج هذا المرض قائمة على أساس هذا الحال الاستثنائي المنحرف الذي يعيشه إنسان عصر هذه النّبوّة، ومن المنطقي والمعقول أن لا تصح وصفة من هذا القبيل على كل زمان أو مكان، فكل إنسان منا قد يستعمل وصفة معيّنة في حالة مرضية، إلا أنّ هذه الوصفة نفسها لا يمكن أن تصبح غذاء اعتيادياً للإنسان في كل زمان أو مكان.

فحينما تكون النّبوّة في طبيعة تركيبها قد جاءت لعلاج مرض معيّن طارئ في حياة الإنسان، وتكون في طبيعة رسالتها قد صممت وفق هذه الحاجة، فحينما تكون هذه النّبوّة هكذا وتدخل شوط عملها وجهادها وتحارب وتكافح في سبيل استئصال هذا المرض الاستثنائي بعد هذا تكون النّبوّة قد

(١) أن التأمل في الآية المباركة يلقي ضوءً على هذه الفكرة: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾. المائدة: ٤٨.

استنفدت أغراضها؛ لأنها جاءت لمعركة جزئية محددة بظروف زمانية ومكانية خاصة، وهذه المعركة انتهت بانقضاء هذه الظروف.

فمثلاً ما يقال عن المسيحية: إنها كانت تتجه إلى نزعة روحية مفرطة وتركز على الجانب الطبيعي بدرجة اكبر بكثير من تركيزها على أي جانب من جوانب الحياة المعاشة المحسوسة.

يقال عادة: إنّ بعض التركيز على الجانب الغيبي اللامنظور، التركيز على جعل النفس منقطعة عن كل علائق الدنيا، هذا التركيز الذي قامت على أساسه بعد هذا فكرة الرهبنة، هذا التركيز كان علاجاً لمرض عاشه شعب بني إسرائيل حينما ظهرت المسيحية في ذلك الوقت(١).

هذا المرض: الانغماس المطلق في الدنيا وفي علائق الدنيا، هذه الحالة النفسية التي كانت تجعل الإنسان اليهودي مشدوداً إلى درهمه وديناره ويومه وغده، هذه الحالة كانت بحاجة إلى وصفة، هذه الوصفة تحاول أنْ تنتشل هذا الإنسان اليهودي من ضرورات يومه وغده وتذكره بأمسه وربه؛ لهذا كان في

---

(١) ورد في أنجيل متى: ١٥: ٢٤، إن المسيح قال: ((لم أرسل إلاّ إلى خراف بيت إسرائيل الضالّة)). وفي نفس الإنجيل: [[١٠: ٥-٦]]أوصى المسيح تلاميذه : ((إلى طريق أمم لا تمضوا، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا إلى خراف بيت إسرائيل الضالّة)).

المسيحية هذا النوع من الإفراط المناسب مع حالة موضعية زمانية معيّنة في التاريخ الطويل للإنسان.

أما هذا النوع من الإفراط حينما يؤخذ كخط عام للإنسان يعتبر شذوذاً وانحرافاً، لأنه دواء للمريض وليس طعاماً للصحيح.

فمن هذه الأسباب التي تجعل التغيير في النّبوّة أمراً معقولاً، هو أنّ النّبوّة تستنفد أغراضها وتستوفي أهدافها، باعتبارها رسالة صممت لعلاج حالة طارئة وقد استنفدت أغراض العلاج.

❖ السبب الثاني ❖

❖ محدودية حيوية تراث النّبوّة ❖

من جملة الأسباب المعقولة لتغيير النّبوّة هو أن لا يبقى منها تراث يمكن أن يقام على أساسه العمل والبناء...

إذا افترضنا أنّ نبوةً جاءت ومارست دورها في قيادة البشرية وهدايتها ووصلها بربها وتطهيرها من شوائبها، إلا أنّ هذه النّبوّة بعد أن مات شخص النبي تولدت ظروف وانحرافات أكلت كُلّ ذلك التراث الروحي والمفاهيمي الذي خلّفه ذلك النبي الذي قاد تلك المعركة، فبقيت النّبوّة مجرد رؤى تاريخيّة وشعار غامض غائم بارد، دون أن يكون ـ أي الشعار ـ مُعبّراً عن أي كيان فكري مفاهيمي محدد في أذهان القاعدة الشعبية المرتبطة بتلك النّبوّة.

في مثل هذه الحالة لا يمكن أن تواصل هذه الدفعة الإلهية المتمثلة في تلك

النّبوّة عملها، لان الدفعة الإلهية لا يمكن أن تواصل عملها بدون مصباح منير وبدون كتاب منير(١) ـ على ما يصطلح عليه القرآن الكريم ـ وهذا الكتاب المنير، عبارة عن ذاك التراث الفكري والمفاهيمي الذي يمثل القاعدة للعمل النبوي، ويمثل الإطار للحياة التي يقدمها النبي ويدعو إليها، فإذا ماتت تلك القاعدة وذلك الإطار باضمحلال ذلك التراث وبقيت النّبوّة مجرد مسألة تاريخية لا يوجد بالفعل في حياة الناس ما يجسد مفهومها ومنظارها إلى الحياة، ففي مثل ذلك لابدّ من دفعة جديدة لكي يستأنف العمل ويستأنف الشوط في سبيل إعادة البشرية إلى ربها، وإقامة دعائم العدل والحق والتوحيد على وجه الأرض.

وأيضاً هذا السبب نجده إلى درجة كبيرة في المسيحية بالذات. فالمسيحية بعد أنْ غادر السيد المسيح عليه السلام مسرح الدعوة والعمل لم يبق من المسيحية شيء حقيقي يمكن أنْ يُقام على أساسه العمل النبوي، الإنجيل الذي يحدّث عنه القرآن الكريم فُقد نهائياً، لان الإنجيل الذي يحدث عنه القرآن الكريم كتاب انزل على السيد المسيح عليه السلام، والأناجيل التي تعيش اليوم وكانت تعيش بالأمس هي كتب ألفّها طلاب السيد المسيح عليه السلام على أفضل

---

(١) ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾. فاطر: ٢٥. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾، لقمان: ٢٠.

التقادير[١]، فالرسالة المتمثلة في الكتاب السماوي قد انطفأت، والحواريون كانوا من حيث القلّة والتّشتّت واضطراب الذهن، ما يجعلهم غير قادرين على حماية التراث الباقي في أذهانهم من السيد المسيح عليه السلام، بدليل مراجعة هذه الأناجيل التي كتبوها، فإنّ هذه الأناجيل لا تحمل في الحقيقة وفي مجملها إلاّ سيرة السيد المسيح عليه السلام مع إبراز الجانب الغيبي والمعاجزي من هذه السيرة.

إذن لم يبق من السيد المسيح عليه السلام بعد انتهاء دوره على المسرح حصيلة مضيئة يمكن القيام على أساسها على الخط الطويل، العمل النبوي.

---

(١) ورد في الترجمة المسكونية فيما يتعلق بنصوص العهد الجديد: ((إن نص العهد الجديد قد نُسخ طوال قرون كثيرة بيد نساخ صلاحهم للعمل متفاوت، وما من واحد منهم معصوم من مختلف الأخطاء التي تحول دون أن تتصف أية نسخة كانت، مهما بذل فيها من جهد، بالموافقة التامة للمثال الذي أخذت عنه. يضاف أن بعض النساخ حاولوا أحياناً، عن حسن نية، أن يصوبوا ما جاء في مثالهم وبدا لهم أنه يحتوي أخطاء واضحة، أو قلة دقة في التعبير اللاهوتي، وهكذا أدخلوا إلى النص قراءات جديدة تكاد تكون كلها خطأ ولا يرجى في حال من الأحوال الوصول إلى الأصل نفسه)).

العهد الجديد، منشورات دار المشرق، بيروت: ٧ـ١٠، عن كتاب ((الإسلام والأديان الأخرى)) : ٦٣.

لم تبق إلا فكرة غائمة غامضة عن إنسان بعث ليصلح، وقال وعلّم، ثم انتهى، أمّا ماذا قال؟ وكيف انتهى ؟ وماذا خلّف ؟ وما هي شريعته ؟

كل هذا بقي غائماً غامضاً؛ ولهذا مُلئ بالتدريج بأيد بشرية [١]، تزعّمت بعد هذا المسيحية مَلئت هذه الفراغات الكبيرة التي تركها السيد المسيح عليه السلام ، خاصة بعد أن أصبحت المسيحية رومانية، ودخلت الإمبراطورية الرومانية في الديانة المسيحية رسمياً أولاً وشعبيا ثانياً في مثل هذه الحالة.

إذن هذه أيضاً من الأسباب المعقولة لتغيير النّبوّة، وهي أن لا يبقى من ذلك النبي تراث حي يمكن أن يقام على أساسه العمل، وترتكز بموجبه الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى.

(١) اتضح ذلك من نص الهامش السابق.

❖ السبب الثالث ❖

❖ محدودية نفس النبي ❖

وأيضاً من الأسباب التي يمكن أن يقام على أساسها التغيير في النّبوّة، هو أن تكون الرسالة التي هبطت على النبي محدودة باعتبار محدودية نفس النبي، وإن كان مفهوماً عاماً، إلا أنّ هذا المفهوم العام على ما يقول المناطقة: يصدق على أفراده بالتشكيك، هناك على ما تقول الروايات نبي للبشرية، ونبي للقبيلة[1]، وهناك نبوات تختلف من حيث السعة والضيق، باختلاف طبيعة

---

(١) لقد ورد في تفسير هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، هذا أمر من الله سبحانه لنبيه بإشهار الدعوة العامة، وهذه من خصائصه صلى الله عليه وسلم من بين سائر الرسل، فإنه صلى الله عليه وسلم بعث إلى الناس كافة وإلى الجن وكل نبي إنما بعث إلى فرقة دون العموم، تفسير الثعالبي، الثعالبي: ٣ /٨٥، وفي روضة الواعظين عن السجاد عليه السلام قال: إن أبا طالب سأل النبي صلى الله عليه وآله يا بن أخ إلى الناس كافة أرسلت أم إلى قومك خاصة؟ قال: لا بل إلى الناس ارسلت كافة الأبيض والأسود والعربي والعجمي، والذي نفسي بيده لأدعون إلى هذا الأمر الأبيض والأسود من على رؤوس الجبال ومن لجج البحار ولأدعون الفرس والروم. ويؤيده الحديث المروي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله قال: أعطيت خمسا ولا أقول فخرا : بُعثت إلى الأحمر والأسود وجُعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً واحل ليّ المغنم ولم يحل لأحد قبلي ونصرت بالرعب فهو يسير أمامي مسيرة شهر، وأعطيت الشفاعة ⇐

النبي نفسه، باعتبار مستوى كفاءة القيادة الفكرية والعملية في شخص النبي، فمحدودية الكفاءة القيادية في المجالين الفكري والعملي، مما يؤثر في تحديد الرسالة التي يحملها النبي، لان كل إنسان على الأرض، لا يمكن أن يحمل رسالة يحارب ويدافع عنها حقيقة، إلا إذا كان مستوعباً لها استيعاباً كاملاً شاملاً، وهذا الاستيعاب الكامل الشامل، يتطلب من هذا الداعية أن يكون على مستوى هذه الرسالة.

ومن الواضح أنّ الأنبياء كغير الأنبياء يتفاوتون في درجات تلقيهم للمعارف الإلهية عن طريق الوحي من قبل اللّه سبحانه وتعالى[1]؛ ولهذا كانت بعض الرسالات محدودة بحكم محدودية قابلية الأنبياء أنفسهم، حيث إنّ هذا النبي ليس مؤهلاً لان يحمل هموم البشرية على الإطلاق وفي كل زمان ومكان، بل هو مهيأ لان يحمل هموم عصره فقط، أو هموم مدينته فقط، أو

فادخرتها لأمتي يوم القيامة. (تفسير الصافي، الفيض الكاشاني: ٤ /٢٢٠).

(١) ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابن مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذين مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾. (البقرة: ٢٥٣)، ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾. (الإسراء: من الآية ٥٥).

هموم قبيلته فقط[1]، لأن ذاك الشخص الذي يحمل هموم البشرية على الإطلاق ويعيش مشاكلها على الإطلاق ليكتوي بنارها على الإطلاق، ليس إلا [[الذي بلغ]] الدرجة العالية [[من]][2] اللّه سبحانه وتعالى من الأنبياء والأوصياء.

فإذا كانت النّبوّة محدودة بطبيعة قابليات هذا النبي، كان لابدّ في خارج هذه الحدود الزمانية والمكانية من نبوة أخرى تمارس عملها في سبيل اللّه سبحانه...

---

(١) ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾. الصافات: ١٤٧. انظر: الهامش (٢) في الصفحة السابقة.

(٢) أضفت ما بين المعقوفتين لتستقيم العبارة وفي الأصل ((إلى الله)).

❖السبب الرابع ❖

❖ التطور البشري ❖

وأخيراً من جملة الأسباب التي تدعو إلى تغيير النّبوّة، هو تطور البشرية وتطور نفس الإنسان المدعو، لا محدودية الإنسان الداعي ـ كما سبق أن أشرنا ـ وكون الإنسان المدعو يتصاعد بالتدريج لا بالطفرة، وينمو على مرّ الزمن في أحضان هذه الرسالات الإلهية؛ فيكتسب من كل رسالة إلهية درجة من النمو، تهيئه وتُعدّه؛ لكي يكون على مستوى الرسالة الجديدة وأعبائها الكبيرة ومسؤولياتها الأوسع نطاقاً.

❖ مسار التطور الإنساني ❖

وفكرة التطور هنا لابدّ وأن تحدد ملامحها ومعالمها إجمالاً.

ويمكننا أن نبرز ثلاثة خطوط تتطور على وفقها الإنسانية، إلا أنّ عاملَ التطور في النّبوّة يرتبط بالتطور في خطين من هذه الخطوط الثلاثة، ولا يرتبط بالخط الثالث من هذه الخطوط، والخطوط هي:

خط وعي التوحيد...

المسؤولية الأخلاقية للدعوة لحمل أعباء الدعوة...

خط السيطرة على الكون والطبيعة...

الخط الأول:

خط وعي التوحيد

النّبوّة ترتبط بالواقع بالخطين الأول والثاني من هذه الخطوط الثلاثة: بالوعي التوحيدي عند الإنسان، وبخط المسؤولية الأخلاقية لحمل أعباء الدعوة في العالم، ولا ترتبط النّبوّة بالخط الثالث من خطوط التطور، وهو مدى سيطرة الإنسان على عالم الطبيعة والكون، ذلك لأن النّبوّة تستهدف أن تصنع الإنسان من داخله، تستهدف أن تصنع للإنسان قاعدة فكرية يقوم على أساسها بناؤه الداخلي ثم يقوم على أساس هذا البناء الخارجي، وهذه القاعدة الأساسية التي يقوم على أساسها البناء الداخلي وبالتالي البناء الخارجي هي: التوحيد.

فكرة التوحيد وربط الإنسان بكامل وجوده وجوانب حياته برب واحد أحد.

هذه الفكرة هي القاسم المشترك بين كل النبوات والرسالات التي عاشها الإنسان منذ أن خلقه اللّه سبحانه وتعالى على وجه الأرض[1]

---

(١) ﴿وَمَا أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. سورة التوبة: ٣١، ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾. سورة البقرة: ١٣٣.

إلاّ أنّ هـذه الفكـرة فكـرة التوحـيد ليسـت ذات درجـة حديـة، وإنما هي بنفسها ذات درجات من العمق والأصالة والتركيز والترسيخ، فهذه الدرجات متفاوتة، كـان لابـدّ بمقتضى الحكمة الإلهية أن يهيأ الإنسان لها بالتدريج. هذا الإنسان الذي غرق بمقتضى تركيبه العضوي والطبيعي في حسه ودنياه، حينما يدعـى إلى فكـرة التوحـيد، لابـدّ من أن ينتزع من عالم حسه ودنياه بالتدريج، لكي ينفتح على فكرة التوحيد التي هي فكرة الغيب.

فالغيـب يجـب أن يُعطـى لـه على مراحل، وعلى درجات، كل درجة تهيئ ذهنه لتلقّي التوحيد.

ونحن بإمكاننا الالتفات إلى فكرة التوحيد المعطاة من التوراة والإنجيل، والقرآن الكريم أن نفهمه مثالا على هذا المعنى، كل هذه الكتب تعطي فكرة التوحيد.

وبقولي التوراة والإنجيل أقصد التوراة والإنجيل الذي يعيش بيننا اليوم[١]؛

---

(١) ورد في إنجيل يوحنا الإصحاح : ٥، الفقرتين: ٧ـ٨: (لأن الشهود في السماء ثلاثة، الأب والكلمة، والروح القدس، وهؤلاء الثلاثة هم واحد، والشهود في الأرض، ثلاثة الـروح والماء والدم، وهؤلاء الثلاثة هم في واحد. وإن التحقيقات حول العهد الجديد، تـنفي وجـود فكـرة الـثالوث، في الأناجـيل القديمـة، والـتي كتبـت في اليونانـية، لذا الطبعات الحديثة تضع هذه العبارات بين أقواس للإشارة أنها ليست من الأصل.

انظر: الإسلام والأديان الأخرى. أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة، مصر، ط٢، ١٤١٩هـ.

لأن الـتوراة والإنجـيل الموجودَيـن بـين أيديـنا اليوم على أي حال قد يقصدان تصـوير الفكـرة الديـنية في شـعب موسـى وشعب عيسى في قوم موسى وقوم عيسى، ولا شك في أنّهما أيضاً يحتفظان بجزء من النص الديني إلى حد قليل أو كثير، خاصة في التوراة، ولهذا لا يمكن أن نستلهم من الكتابين في سبيل تقدير وتحديـد الـروح الديـنية العامـة لمرحلـتين مـن مراحل الإنسان التي عاشها مع النّـبوّة، بطبـيعة الحـال هـنا نرى فرقاً فارقاً بدرجة، وتطوراً في مفهوم التوحيد المعطـى، فبيـنما التوحـيد في الكتاب الأول يقوم على أساس إعطاء إله، وهذا الإلـه لا يستطيع هذا الكتاب أن ينزع عنه الطابع القومي المحدود، فيشد هذا الإلـه جماعـة معيّـنة إلى شـعب معـيّن، هذا الشعب المعيّن الذي قُدر أنْ تنزل الرسـالة فـيه أن يكـون النبي منه، فكانت التوراة باستمرار تقدم الإله في إطار قومـي كأنـه إلـه هـؤلاء في مقـابل الأصـنام والأوثـان الـتي هـي آلهة الشعوب والقـبائل، فـلم تَقـل الـتوراة: بكـل صـريح عميق لهؤلاء أنّ هَناك إلهاً واحداً للجمـيع، وإنّ هـذه الأصنام والأوثان يجب أن ترفضها البشرية، وإنما عوضت هـؤلاء بالخصـوص عن صنم ووثن معيّن، بإله يعبدونه بدلاً عن هذا الصنم، هـذا الشـيء الـذي يوجـد في نفـوس هـؤلاء القـوم تاريخياً الشعور بالاعتزاز والشـعور بالـزهو والخـيلاء على بقية الشعوب الأخرى، هذا الشعور الذي لم يوجد في شعوب متأخرة نزلت فيها نبوات التوحيد على أساس أن الإله الذي أُعطـي إلـيهم كـان إلهـاً مشوباً بشيء من المحدودية والطابع الذري؛ فخيل لهم

على مرّ الزمن أنّهم يحتكرون اللّه لأنفسهم[١]، بينما الشعوب والقبائل الأخرى هي ذات آلهة شتى وأصنام شتى، ويشير القرآن الكريم إلى فكرة الاحتكار التي كان يعتقدها اليهود بالنسبة إلى اللّه تعالى[٢].

في الكتاب الثاني صعدت فكرة اللّه مرتبة، وذلك لان الطابع القومي انتزع عن هذه الفكرة، أصبح الإله المقدم ـ من قبل تلامذة السيد المسيح عليه السلام للعالم ـ إلهاً عالمياً لا فرق فيه بين شعب وشعب، هو إله العالم على الإطلاق[٣] لم يغادر منطقة قريبة من ذهن الإنسان المحسوس، لم يجرد تجريداً كاملاً عن عالم الحس، بقي على صلة وثيقة جداً بالإنسان الحسي، كأنه أبوه وبهذا يعبّر في الأناجيل كثيراً عن الإنسان بأنه ابن اللّه. المسيحية الرسمية تفسر هذا الإنسان بعيسى بن مريم، وإنّ عيسى بن مريم هو ابن اللّه، لكني لا أظن أن يقصد به

---

(١) جاء في سفر الخروج٣: ٢ـ١٠، أنا إله أبيك إله إبراهيم وإله إسحق.. قد رأيت مذلة شعبي الذي في مصر وسمعت صراخهم.. الآن هلم فأرسلك إلى فرعون وتخرج شعبي إسرائيل من مصر. عن كتاب (الإسلام والأديان الأخرى)، م. س: ٧٨.

(٢) ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾. المائدة: من الآية: ١٨.

(٣) ورد في أنجيل متى١٥: ٢٤ (لم أرسل إلا لخراف بني إسرائيل الضالّة). وهذا القول للمسيح يوضّح ما أشار إليه السيد الشهيد رضي الله عنه حول مسألة عالمية المسيحية.

هـذا، الأناجـيل تعـبّر عـن أي إنسـان انـه ابـن الّلـه لا عن عيسى بن مريم بالخصـوص انـه ابـن اللّـه؛ لأنهـا تعطـي فكـرة عن اللّه فكرة الأب الواحد لـلجماعة البشـرية لا فكـرة الخالق، السيد المطلق المقتدر الوالد الكبير، فكرة أب لــه أبناء، هؤلاء الأبناء لهم لغات شتى، ولهم اتجاهات شتى، ولهم مذاهب شتى، ولهذا يجب أن يتآخوا لأنهم أبناء أب واحد. بينما الكتاب الثالث ـ أي القـرآن ـ يعطي فكرة التوحيد بأنصع وأوسع مما يمكن من التنزيه الذي يبقى محـتفظاً بقدرته على تحريك الإنسان[١]؛ لأنه يجرد هذه الفكرة عن طابع الأُبوة والعلائـق الماديـة مع الإنسان على الإطلاق، يجرد اللّه عن أي علاقة مادية مع أي إنسـان حـتى مـع اشـرف إنسـان عـلى وجه الأرض، مع صاحب الرسالة بـالذات محمد صلى الله عليه وآله وسلم، يقف النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في لغة القرآن بين يدي اللّه، عبداً ذليلاً خاضعاً يتلقى الأوامر، وليس لـه إلاّ الطاعة وإلاّ أن يُنَفِّذ حرفياً [٢].

مـثل هـذه الفكـرة هـي أقصـى مـا يمكـن أن يصـل إليه التنزيه والتعميق والتنسيق في فكرة التوحيد مع الحفاظ على فاعلية الفكرة وعلى محركيتها.

هـذا الخـط، خط وعي التوحيد وفكرة التوحيد، هذا هو أول الخطوط التي

---

(١) ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلا بَشَراً رَسُولاً﴾، الإسراء: ٩٣.

(٢) ﴿وَلَـوْ تَقَـوَّلَ عَلَيْـنَا بَعْـضَ الأَقَـاوِيل، لَأَخَذْنَـا مِـنْهُ بِالْيَمِينِ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾، الحاقة: ٤٤، ٤٥، ٤٦.

تـتغير مواقـف النبوات بموجبها على أساس أنّ هذا الخط هو المرتبط بالقاعدة الفكـرية الأساسـية الـتي تعمـل بموجـبها كـل النبوات، فمهما صعدت درجة الوعـي لهـذه القـاعدة الأساسـية يجـب أن يعطـي لهـا الصيغة العميقة المعمّقة الأكبر.

الخط الثاني:

هـو خـط تحمل أعباء المسؤولية الأخلاقية للدعوة، يعني كون الإنسان بالغاً إلى درجـة تؤهلـه لأن يـتحمل أعـباء دعـوة لهـا ضـريبتها وواجـباتها وآلامهـا وهمومها.

مـثل هذا التحمّل أيضاً لـه درجات، ولم يستطع الإنسان بالطفرة أن يصل إلى درجـة أعـباء التحمل للرسالة العالميّة الواسعة غير محدودة الزمان والمكان، لم يسـتطع أن يصل إلى هذا بالطفرة، وانما استطاع أن يصل إلى ذلك عبر مران طويل على تحمل المسؤوليات.

البشـرية بقيـت تـتحمل المسـؤوليات عبر مران طويل، ونمت خلال مرانها الطويـل حتى استطاعت أن تتحمل مسؤولية رسالة لا حَدَّ لها ممتدة مع الزمان والمكان، وإلاّ فأي مسؤوليات كانت تتحملها أمم الأنبياء السابقين، الأمم التي تنكشف أمامنا اليوم تواريخها هي أمم موسى وعيسى؟.

ونحن بالمقارنة بين موسى وعيسى والمسؤوليات التي تحملتها الأمة الإسلامية حيـنما نـزل الوحي على النبي ﷺ بالرسالة الخاتمة، المقارنة ما بين هذا وذاك

تكشف درجة كبيرة في تحمل المسؤوليات، تعبّر عن نمو الاستعداد على مرّ الزمن[١]، وموسى مات وشعب بني إسرائيل في التيه، يعني وجّه حياته وجّه كلّ أعماله بكل ما يمكن من جهاد وتضحية في سبيل أداء رسالته، ولكنه أنهى حياته وشعب بني إسرائيل في التيه، كتب اللّه جل جلاله عليهم التيه أربعين سنة لأنهم لم يستجيبوا لمتطلبات الرسالة، لم يستجيبوا أبداً لما تقتضيه رسالة موسى بالنسبة إليهم حتى خلّفهم موسى حيارى ومات.

---

(١) ويمكن توضيح هذه المقارنة من خلال موقف المقداد يوم استشار الرسول صلى الله عليه وآله أصحابه قبل وقعة بدر، النص: ثم قام المقداد بن عمرو، فقال: يا رسول الله أمض لما أمرك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيها ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ المائدة: : ٢٤، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون، والذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا برك الغماد من وراء مكة بخمس ليال من وراء الساحل مما يلي البحر، وهو على ثمان ليال من مكة إلى اليمن.

السيرة النبوية، ابن هشام الحميري : ٢ / ٤٤٧

الآيات التي تصف حالة بني إسرائيل: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾. المائدة: ٢٢. ﴿قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. المائدة: ٢٣.

أين هذا من أمة حملت أعباء الرسالة ؟

الخط الثالث:

وهو خط سيطرة الإنسان على الكون والطبيعة.

هذا الخط متطور قبل الإسلام وبعد الإسلام ولن يقف هذا الخط عند مرحلة من المراحل على الإطلاق.

والإنسان سوف لن تقف سيطرته بإذن اللّه جَلَّ جلاله، عند مرحلة من مراحل الاستيلاء على الكون والطبيعة، وإن انتهى استيلاؤه على الأرض سوف يفكر بالاستيلاء على السماء، في الاستيلاء على كل أبعاد الكون، إذن فهو في نمو مستمر لا ينقطع ولا توضع له حدود مفترضة من هذه الناحية.

فلو كانت النّبوّة مرتبطة بهذا الخط أيضاً لتحتّم أنْ تتغير النبوات على مرّ الزمن، والى يومنا هذا وإلى يوم القيامة، ولكن النّبوّة غير مرتبطة بهذا الخط؛ لأن النّبوّة لم تجد التيه لكي تأخذ بالإنسان في مجال السيطرة على الكون والطبيعة، وإنما جاءت لتصنع هذا الإنسان المسيطر على الكون بالدرجة التي هيأته لها هذه الظروف ـ ظروفه الموضوعية ـ أن تجعل من هذا الإنسان إنساناً فاضلاً نبيلاً مدبّراً حكيماً، سواء أكانت سيطرته على الطبيعة تهيئه لان ينتقل من بلد إلى بلد على رجليه، أو على الحمير، أو في الطائرات أو في الصواريخ.

على جميع هذه التقادير وفي جميع هذه المراحل التي تعبّر عن درجات من سيطرة الإنسان على الكون والطبيعة في جميع هذه المراحل، النّبوّة لا يختلف

دورها وطبيعة رسالتها.

ومن هنا ليس من الحتم أن تتغير النّبوّة بين الحين والحين وفقاً للخط الأول والخط الثاني، هذان الخطان اللذان ترتبط بهما التغييرات في النّبوّة، هذان الخطان لهما حد نهائي يصل إليه الإنسان، هذا الحد النهائي هو الحد النهائي الذي وصل إليه الإنسان(١) حينما جاء الإسلام.

الإسلام كرسالة شاملة كاملة عامة للحياة. جاءت على أبواب وصول الإنسان إلى رشده الكامل، من ناحية استعداده لتقبّل وعي توحيدي صحيح كامل شامل، ومن ناحية تحمله لمسؤولية أعباء الدعوة.

ونحن باستقراء تاريخنا المنظور، منذ جاء الإسلام إلى يومنا هذا، لا نجد أي تغير حقيقي في هذين الخطين، لا في مدى اتساع الوعي التوحيدي عند الإنسان ولا في اتساع التحملات الأخلاقية في أعباء الدعوة.

في كلا هذين الخطين لا نجد أي تغير حقيقي.

نعم نجد التغيير الواسع جداً في الخط الثالث الذي يعتبر خارجاً عن نطاق عمل النّبوّة ورسالتها.

والحمد للّه رب العالمين

---

(١) يُريد السيد الشهيد رضي الله عنه بذلك، الإنسان الكامل أي الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم.

مضاعفات وفاة رسول الله ﷺ

اليوم نجتمع بمناسبة أعظم فاجعة مرت على تاريخ البشرية على الإطلاق[١].

بمناسبة الفاجعة المزدوجة التي يمثل الجزء الأول منها انقطاع الوحي في تاريخ البشرية.

هذه الظاهرة التي لم يعرف الإنسان في تاريخه الطويل الطويل ظاهرة يمكن أن تماثلها وأن تناظرها في القدسية والجلال والأثر في حياة الإنسان وتفكيره، ويمثل الجزء الآخر من الفاجعة الانحراف داخل المجتمع الإسلامي على يد المؤامرة التي قام بها جناح من المسلمين بعد وفاة رسول الله ﷺ فانحرف بذلك الخط عما كان مقرراً له من قبل النبي ﷺ ومن قبل الله تعالى[٢].

كان هذا اليوم المشؤوم بداية انحراف طويل ونهاية عهد سعيد بالوحي،

---

(١) التحق الرسول الأعظم ﷺ بالرفيق الأعلى في الثامن والعشرين من صفر سنة إحدى عشر للهجرة.

(٢) مثّل هذا الجناح بعض المهاجرين ـ أبي بكر وعمر وأبي عبيدة ـ وجماعة من الأنصار ـ أُسيد بن حضير وبشير بن سعد ـ.

انظر: الإمامة والسياسة، ابن قتيبة: ١ / ٢٦. و تاريخ الطبري: ٢/٤٤٥ ـ ٤٥٥.

تمثل في مائة وأربعة وعشرين ألف نبي كما في بعض الروايات[١] وكان بداية ظلامٍ ومحنٍ ومآسٍ وفواجع وكوارث، من ناحية أخرى تمثل في ما عقب وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله من أحداث في تاريخ العالم الإسلامي[٢]، هذه الأحداث المرتبطة ارتباطاً شديداً وقوياً بما تم في هذا اليوم من الفاجعة على ما في زيارة الجامعة التي نقرؤها: ((ببيعتهم التي عم شؤمها الاسلام، وزرعت في قلوب أهلها الآثام، وعقت سلمانها، وطردت مقدادها، ونفت جندبها، وفتقت بطن عمارها، وحرفت القرآن، وبدلت الأحكام، وغيرت المقام، وأباحت الخمس للطلقاء، وسلّطت أولاد اللعناء على الفروج، وخلطت الحلال بالحرام واستخفت بالايمان والاسلام، وهدمت الكعبة، واغارت على دار الهجرة يوم

---

(١) انظر: بحار الأنوار، العلامة المجلسي: ١١/ ٣٢، وتفسير الميزان، السيد الطباطبائي: ٢/١٤٤.

(٢) وقد لاحظ ذلك وأشار إليه كثير من مفكري المسلمين وكتابهم من غير الشيعة، فالدكتور حسين مؤنس في كتابه، عالم الإسلام، يؤكد حقيقة ما أشار إليه السيد الشهيد، فيقول: لو أنا نظرنا في السنة نظراً سليماً لرأينا أن ما صنعناه نحن المسلمين يوم السقيفة، كان سبباً لكل المتاعب التي لقيتها أمة الإسلام.

عالم الإسلام، حسين مؤنس، طبع دار الزهراء للإعلام العربي، ١٤١٠هـ: ٥١.

وما جرى هو مصداق لقوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أو قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾. (آل عمران: ١٤٤)

الحـرة، وأبـرزت بـنات المهاجرين والأنصار للنكال والسوءة، وألبستهن ثوب العـار والفضـيحة، ورخصـت لأهـل الشبهة في قتل أهل بيت الصفوة وإبادة نسـله، واستيصـال شـافته، وسـبي حـرمه، وقـتل أنصاره، وكسر منبره، وقلب مفخره، وإخفاء دينه))[١] إلى غير ذلك من الأوصاف.

والجـزء الـثاني من الفاجعة الذي تم في هذا اليوم تحدّثنا عنه خلال الكلام عـن حياة الأئمة عليهم السلام ، وسوف نتحدّث عنه أيضاً خلال كلامنا عن مناسبات أخرى في حياة الأئمة عليهم السلام .

وأود الآن أن أقتصـر عـلى الجزء الأول من هذه الفاجعة، يعني أن انظر إلى الحـدث الـذي وقـع في هـذا الـيوم بوصفه حدثا قد وضع حداً لتلك الظاهرة العظـيمة الـتي اقترنـت مـع هبوط الإنسان على وجه الأرض، ظاهرة الوحي، ظاهرة ارتفاع الإنسان وتفانيه للاتصال المباشر مع الله سبحانه وتعالى.

ففـي مثل هذا اليوم وضع حد نهائي لهذه الظاهرة المباركة الميمونة، وفي بعض الـروايات أن جـبرائيل عليه السلام حينما ـ ارتفع ملائكة السماء بروح محمد صلى الله عليه وآله إلى ربها راضية مرضية ـ التفت إلى الأرض مودعاً ثم طار إلى سماواته[٢].

---

(١) المـزار الكـبير، محمـد بـن المشـهدي، مـتوفي ٦١٠هـ، مطبعة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ : ٢٩٧ – ٢٩٨.

(٢) قـال الإمـام الصـادق عليه السلام : (قـال جـبرائيل عليه السلام: يا محمد هذا آخر نزولي إلى ☜

❖ الوحي الإلهي ورقي الحس الإنساني ❖

هـذا الـيوم ـ أي يـوم وفاة الرسول صلى الله عليه وآله ـ كان يوم انقطاع الإنسانية عن الاتصال المباشر باللّه سبحانه بانتهاء حياة خاتم الأنبياء والمرسلين.

بهـذه المناسـبة أريـد أن أعطـي فكـرة موجـزة على مستوى بحث اليوم عن الوحي، الوحي الذي يتمثل في اتصال خاص بين الإنسان وبين الله.

فـالوحي هو ضرورة من ضرورات تخليد الإنسان على وجه الأرض، وبهذا خلـق الله الإنسـان وأودعـه الاستعداد الكامل والأرضية الصالحة بإفاضة هذه الموهـبة مـنه سـبحانه لأن ضـرورة الوحـي يمكـن أن توضع في قبال جانبين في الإنسان؛ الآن اقتصر على أحد الجانبين:

الإنسـان خُلق حسياً أكثر منه عقلياً، خُلق يتفاعل مع حسه أكثر مما يتفاعل مـع عقله، يعني أنّ النظريات والمفاهيم العقلية العامة في إطارها النظري، هذه المفاهـيم حتى لو آمن بها الإنسان إيماناً عقلياً حتى لو دخلت إلى ذهنه دخولاً نظـرياً مع هذا لا تهزه ولا تحركه ولا تبنيه ولا تزعزع ما كان فيه ولا تنشئه من جديـد إلا في حـدود ضـيقة جداً، على عكس الحس فان الإنسان الذي يواجه

الدنيا، إنما كنت أنت حاجتي منها).

إعلام الورى بأعلام الهدى، الشيخ الطبرسي : ١ / ٢٦٩. مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب: ١ / ٢٠٤.

حساً ينفعل بهذا الحس وينجذب إليه، وينعكس هذا الحس على روحه ومشاعره وانفعالاته وعواطفه بدرجة لا يمكن أن يقاس بها انعكاس النظرية والمفهوم المجرّد عن أي تطبيق حسي.

وليس من الصدفة أن كان الإنسان على طول الخط في تاريخ المعرفة البشرية أكثر ارتباطاً بمحسوساته من معقولاته وأكثر تمسكاً بمسموعاته ومنظوراته من نظرياته.

فإن هذا هو طبيعة التسليم الفكري والمعرفي عند الإنسان، وليس من الصدفة أن قُرن إثبات أي دين بالمعجزة، وكانت أكثر معاجز الأنبياء معاجز على مستوى الحس، لأن الإنسان يتأثر بهذا المستوى أكثر مما يتأثر بأي مستوى آخر إذن: (فالإنسان بحسب طبيعة جهازه المعرفي وتكوينه النظري خلق حسياً أكثر منه عقلياً) خلق متفاعلاً مع هذا المستوى من الانخفاض من المعرفة أكثر مما هو متفاعل مع المستوى النظري المجرد عن المعرفة، وهذا يعني أنّ الحس أقدر على تربية الإنسان من النظر العقلي المجرد ويحتل من جوانب وجوده وشخصيته وأبعاد مشاعره وعواطفه وانفعالاته أكثر مما يحتل العقل: المفهوم النظري المجرد.

بناء على هذا كان لابدّ للإنسانية من حس مربي زائد على العقل والمدركات العقلية الغائمة الغامضة التي تدخل إلى ذهن الإنسان بقوالب غير محدودة وغير واضحة.

إضافة إلى هذه القوالب كان لابدّ لكي يربى الإنسان على أهداف السماء على مجموعة من القيم والمثل والاعتبارات، كان لابدّ من أن يربى على أساس الحس، وهذا هو السبب في أنّ كل الحضارات التي يعرفها تاريخ النوع البشري إلى يومنا هذا إلى حضارة الإنسان الأوروبي التي تحكم العالم ظلماً وعدواناً، كل هذه الحضارات التي انقطعت عن السماء ربّاها الحس ولم يربها العقل؛ لأن الحس هو المربّي الأول دائماً، فكان لابدّ لكي يمكن تربية الإنسان على أساس حس يبعث في هذا الإنسان إنسانيته الكاملة الممثلة لكل جوانب وجوده الحقيقية كان لابدّ من خلق حس في الإنسان يدرك تلك القيم والمثل والمفاهيم ويدرك التضحية في سبيل تلك القيم والمثل إدراكاً حسياً لا إدراكاً عقلانياً بقانون الحسن والقبح العقليين فقط، وهذا يعني ما قلناه من أنّ ضرورة الإنسان في خط التربية تفرض أن يُودع في طبيعة تكوينه وخلقه أرضية تكون صالحة لأن تكوّن فيه حسياً [[الشعور]] بحسن العدل، بقبح الظلم، بآلام المظلومين أن تكوّن فيه حساً بكل ما يمكن للعقل إدراكه وما لا يمكن إدراكه من قيم ومثل واعتبارات.

وهذه الأرضية أو هذا الاستعداد الكامل الذي كان الارتباط المباشر مع الله سبحانه وتعالى، لكي تنكشف كل الصحف كل الستائر عن كل القيم وكل المثل وكل هذه الاعتبارات والأهداف العظيمة، لكي ترى رؤية العين وتسمع سماع الأذن لكي يلمسها بيده ويراها بعينه.

كـان لابـدّ مـن أن توجـد بـذرة مـثل هذا الحس في النوع البشري، إلاّ أنّ وجـدان هـذه الـبذرة في النوع البشري لا يعني أنّ كل إنسان سوف يصبح لـه مـثل هـذا الحـس وينفـتق إدراكه عنه؛ وإنما يعني أنّ الإمكانية الذاتية موجودة فـيه، إلاّ أنّ هـذه الإمكانـية لـن تخـرج إلى مـرحلة الفعلية إلا ضمن شروطها وظروفها وملابساتها الخاصة كأي إمكانية أخرى في الإنسان.

هـناك شـهوات وغرائـز موجـودة في الإنسان منذ[[ولادته]] (١) وهو طفل ولكنه لا يعيش تلك الشهوات ولا يعيش تلك الغرائز إلى مراحل متعاقبة من حـياته، فـإذا مـرّ بمراحل متعاقبة من حياته تفتحت تلك البذور حينئذٍ أصبح يعيش فعلية تلك الشهوات والغرائز كذلك على مستوى هذا الحس الذي هو أشرف واعظم وأروع ما أودع في طبيعة الإنسان.

هـذا قـد لا يعيشه مئات الملايين من البشر في عشرات الآلاف من السنين، قـد لا يتفـتّح يـبقى مجرد استعداد خام وأرضية ذاتية تمثل الإمكان الذاتي لهذه الصـيغة فقـط دون أن تتفـتّح عن وجود مثل هذا الحس؛ لأن تفتّحه يخضع لما قلناه من الملابسات والشروط التي لها بحث آخر أوسع من كلامنا اليوم.

أرضـية أن يحس الإنسان بتلك القيم والمثل تصبح أمراً واقعياً في أشخاص ممـيزين يختصـهم الله تعـالى بعنايـته ولطفـه واختـياره، وهـؤلاء هـم الأنبـياء

(١) في الأصل ((يخلق)) ، وبما أثبت العبارة أكثر استقامة.

والمرسلون الّذين يرتفعون إلى مستوى أن تصبح كل المعقولات الكاملة محسوسات لديهم يصبح كل ما نفهمه وما لا نفهمه من القيم والمثل أمراً حسياً لديهم يحسونه ويسمعونه ويبصرونه.

ذلك أنّ الأفكار التي ترد إلى ذهن الإنسان تارة ترد إلى ذهنه وهو لا يدرك إدراكاً حسياً مصدر هذه الأفكار، الأفكار التي ترد إلى الإنسان، كلنا نؤمن بأنها أفكار بقدرة الله وعنايته وردت إلى ذهن الإنسان وإلى فكره، لكن إيماننا بذلك إيمان عقلي نظري لا حسيّ لأن اللّه سبحانه وتعالى هو مصدر العلم والمعرفة والأفكار الخيرة في ذهن الإنسان، ولهذا أي فكرة من هذا القبيل تطرأ في ذهن الإنسان نؤمن عقلياً بأنها من اللّه سبحانه وتعالى.

لكن هناك فارق كبير بين حالتين: بين حالة أن ترد فكرة إلى ذهن الإنسان فيحس بأنّ هذه الفكرة ألقيت إليه من أعلى بحيث يدرك إلقاءها من أعلى كما تدرك أنت الآن أنّ الحجر وقع من أعلى، يدرك ـ أي الإنسان ـ هذا بكل حسه وبصره يدرك أنّ هذه القطرة هذا الفيض هذا الإشعاع قد وقع من أعلى أُلقي عليه من اللّه سبحانه وتعالى.

وأخرى لا يدرك هذا على مستوى الحس، يدركه عقلياً، يدرك أنّ هناك فكرة تعيش في ذهنه نيرة خيرة، لكنه لم ير بعينه أنّ هناك يداً قذفت بهذه الفكرة إلى ذهنه.

وهذه الأفكار التي تقذف في ذهن الإنسان فيتوفر لدى ذاك الإنسان حس

بها بأنها قذفت إليه من الله سبحانه وتعالى وأُفيضت عليه من واجب الوجود واهب الوجود وواهب المعرفة فهي أيضاً على أقسام.

لأن هـذا الإنسـان تـارة قـد بلغ حسه إلى القمة فاستطاع أن يحس بالعطاء الإلهي من كل وجوهه وجوانبه يسمعه ويبصره يراه في جميع جهاته يتعامل معه ويـتفاعل معه بكل ما يمكن للحس أن يتفاعل مع الحقيقة، هذا هو الذي يعبّر عنه بمصطلح الروايات ـ على ما يظهر من بعضها ـ بمقام عال من الأنبياء مقام الرسول الذي يسمع الصوت ويرى الشخص أيضاً(١).

ويمكـن أنْ نفـترض أنّ هـناك ألوانـاً أخـرى مـن الحـس تدعم هذا الحس السـمعي والبصـري عـند هذا الإنسان العظيم، فهو يحس بالحقيقة المعطاة من

---

(١) الـنص الـروائي : عـن زرارة قـال: سـألت أبـا جعفـر عليه السلام عـن قول الله عز وجل: ﴿ وَكَـانَ رَسُـولاً نَبِـيًّا﴾ علمـنا الرسول ومن النبي ؟ فقال: النبي هو الذي يرى في منامه ويسـمع الصـوت ولا يعـاين الملـك، والرسـول يعاين الملك ويكلمه، قلت: فالإمام ما منزلـته؟ قـال: يسمع الصوت ولا يرى ولا يعاين الملك، ثم تلا هذه الآية " وما أرسلنا مـن قـبلك مـن رسول ولا نبي (ولا محدث). الاختصاص ـ الشيخ المفيد: ٣٢٨. والنص القرآني:

﴿وَمَـا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أو مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أو يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾. (الشورى: ٥١)

الله تعالى من جميع جوانبها، يحس بها بكل ما أوتي من أدوات الحس. بالنسبة إليه هذه هي الدرجة العالية من الحس وقابلية الاتصال مع العمل الإلهي.

وأخرى يفترض انه يحس بها من بعض جوانبها وهو الذي عبر عنه بأنه يسمع الصوت ولا يرى الشخص هذا إحساس إلاّ انه إحساس ناقص. وقد يفترض انه أقل من ذلك، وهو الذي عُبر عنه في بعض الروايات بأنه يرى الرؤيا في المنام، هنا يرى هذه الرؤيا المناميّة وهي طبعاً تختلف عن الرؤيا في اليقظة من حيث درجة الوضوح.

فهنا فارق كيفي بين الحس والرؤيا المناميّة والرؤيا في عالم اليقظة والانتباه الكامل.

هناك درجات من الحس وعلى وفق هذه الدرجات وضعت مصطلحات الرسول والنبي والمحدّث والإمام، ونحو ذلك من المصطلحات، إنّه الذي يمثل أعلى هذه الدرجات هو الوحي المتمثل في ملك يتفاعل معه النبي تفاعلاً حسياً من جميع جوانبه كما كان يعيش سيد المرسلين صلى الله عليه وآله مع جبرائيل عليه السلام، هنا رسول الله صلى الله عليه وآله يعيش الحقيقة الإلهية عيشاً حسياً من جميع جوانبها. يعيشها كما نعيش نحن على مستوى حسناً ووجود رفيقنا وصديقنا. لكن مع فارق بين هذين الحسين بدرجة الفارق بين المحسوسين.

هذا الحس هو الذي استطاع أن يربي شخص النبي صلى الله عليه وآله وأعد لكي يكون المثل الأول والرائد الأول لخط هذه القيم والمثل والأهداف الكبيرة.

يعني هذا الحس قام بدور التربية للنبي ﷺ لأنه استنزل القيم والمثل والأهداف والاعتبارات العظيمة من مستواها الغائم المبهم من مستواها الغامض العقلي من مستوى النظريات العمومية؛ فأعطاها معالم الحس التي لا ينفعل الإنسان ـ كما قلنا ـ بقدر ما ينفعل بها بهذا تصبح الصورة المحسوسة التي هبطت على النبي ﷺ على أي نبي من الأنبياء ملء وجوده ملء روحه ملء كيانه تصبح همه الشاغل في ليله ونهاره لأنها أمامه يراها يحسها... يلمسها ويشمها بأروع مما نلمس ونشم ونسمع ونبصر.

ثم هذا الشخص الذي استطاع أن يربيه الحس القائم على الوحي يصبح هو حساً مربياً للآخرين. فالآخرون من أبناء البشرية الّذين لم تتح لهم الظروف، ظروفهم وملابساتهم، وعناية الله أن يرتفعوا هم إلى مستوى هذا الحس، الّذين لم يتح لهم هذا الشرف العظيم سوف يتاح لهم الحس لكن بالشكل غير المباشر حس بالحس لا حس بالحقيقة الإلهية مباشرة، حس بالمرآة الحقيقية الإلهية انعكست على هذه الحقيقة الإلهية يعني المعطى الإلهي ـ الثقافة الإلهية ـ انعكست على هذه المرآة، والآخرون يحسون بهذه المرآة، بينما النبي ﷺ نفسه كان يحس مباشرة بتلك الثقافة الإلهية بما هي أمر حسي لا بما هي أمر نظري، أما نحن نحس محمداً ﷺ بما هو رجل عظيم بما هو رجل استطاع أن يثبت للبشرية أنّ هناك اعتباراً وهدفاً فوق كل المصالح والاعتبارات فوق كل الأنانيات فوق كل الأمجاد المزيفة والكرامات المحدودة، إنّ هناك إنساناً لا ينقطع

نفسه إذا كان دائماً يسير على خط رسالة الله سبحانه وتعالى، هذا المضمون الذي للإنسان أن يدركه عقلياً، هذا المضمون الذي حشد أرسطو[١] وأفلاطون[٢] مئات الكتب بالبرهنة العقلية عليه على إمكانية الاستمرار اللامتناهي من اللامتناهي[٣].

---

(١) أرسطو (أرسطوطاليس) (٣٨٤ – ٣٢٢ق. م)، مدرس الإسكندر، فيلسوف من كبار مفكري البشرية، تأثرت بوادر التفكير العربي بكتبه التي نقلها إلى العربية إسحاق بن حنين مؤسس مذهب ((فلسفة المشائيين)) وله مؤلفات في المنطق والطبيعة والإلهيات والأخلاق. أهمها "المقولات" ،"الخطابة"، "السياسة"، "النفس".

المنجد/ الأعلام / : ٤٥.

(٢) أفلاطون (٤٢٧ – ٣٤٧ق. م) من مشاهير فلاسفة اليونان، تلميذ سقراط، ومعلم أرسطوطاليس، من مؤلفاته "الجمهورية"، "السياسي"، "المحاورات". وأكمل ما وصل منها مترجماً إلى العربية: "الشرائع".

المنجد: / الأعلام/ : ٢٥٥.

(٣) بعد أن حدد أرسطو أسس الاعتقاد في وجود اللامتناهي، قال لابد من حل مشكلة اللامتناهي ويكون ذلك بالتمييز بين نوعين من اللامتناهي:

اللامتناهي بالقوة واللامتناهي بالفعل، وهو يقر الأول، وينكر الثاني. فهو يقر باللامتناهي بالقوة، ونستخلص من هذا كله أن اللامتناهي لـه شيء من الوجود واذا كان كذلك، وليس لـه وجود من ناحية أخرى. فعلى أي أساس نستطيع أن نحدد طبيعة ☜

هذا المعنى اصبح لدى البشرية أمراً محسوساً خرج من نطاق أوراق أرسطو وأفلاطون التي لم تستطع أن تصنع شيئاً والتي لم تستطع أن تفتح قلب إنسان على الصلة بهذا اللامتناهي، وأصبحت أمراً حسياً يعيش مع تاريخ الناس، لكي يكون هذا الأمر المحسوس هو التعبير القوي دائماً عن تلك القيم والمثل، وهو المربي للبشرية على أساس تلك القيم والمثل.

فالوحي بحسب الحقيقة، إذن هو المربي الأول للبشرية الذي لم يكن بالإمكان للبشرية أن تربى بدونه، لأن البشرية بدون الوحي ليس لديها إلا حس بالمادة وما على المادة من ماديات، وإلاّ إدراك عقلي غائم قد يصل إلى مستوى الإيمان بالقيم والمثل وباللّه، إلا انه [[إدراك]] [(١)] عقلي ـ على أي حال ـ لا يهز قلب هذا الإنسان ولا يدخل إلى ضميره ولا يسمع كل وجوده ولا يتفاعل مع كل مشاعره وعواطفه[(٢)].

اللامتناهي؟

يجيب ارسطوا ان ذلك يكون بالتفرقة بين ما هو بالقوة وماهو بالفعل فيقول إن اللامتناهي له وجود بالقوة وليس له وجود بالفعل، فالقوة بالنسبة إلى اللامتناهي لا يمكن مطلقاً أن تصل إلى درجة الفعل.

(١) في الأصل ((إليهم)) ، ولا تستقيم العبارة بها ولا دلالتها.

(٢) قد نجد الملاحظ أن تنوع المشاكل وتباين في صيغها المطروحة في الحياة اليومية ولكن

﴿ مــع تجاوزنا لهذه الصيغ ونفوذنا إلى عمق المشكلة وجوهرها نحصل ومن خلال ذلــك على مشكلة رئيسية وثابتة وهذه المشكلة ذات جانبين: جانب سلبي يعبر عن مشــكلة الضــياع واللاانــتماء ، وجانب ايجابي يتمثل في مشكلة الغلو في الانتماء والانتســاب بــتحويل الحقائق النسبية التي ينتمي اليها إلى مطلق، ومن خلال ذلك المطلــق يــربط حركــته بالكون والوجود كله، ويحدد موقعه منه وعلاقته بالاطار الكوني؛ لان التحرك بدون مطلق تحرك عشوائي كريشة في مهب الريح.

الغلــو في الانتماء بتحويل النبي إلى مطلق وهي مشكلة تواجه الانسان باستمرار ، وهذا يتضــح ويصــدق على كل الآلهة التي صنعها الإنسان عبر التاريخ سواء في المرحلة الوثنــية، أو في المــراحل التالية من قبيل القبلية إلى العلم نجد هناك سلسلة من الآلهة أعاقــت الإنسان بتأليهها والتعامل معها كمطلق عن التقدم الصالح. انظر: نظرة في العبادات،: ٢١، الارتباط بالمطلق.

والإيمــان بالله هو العلاج: الايمان بالله يعالج كلا الجانبين من المشكلة السلبي والايجابي، فهو يعالج الجانب السلبي بأن يرفض الضياع والإلحاد، حيث يضع الإنسان في موضع المسؤولية بعد أن اناط بحركته وتدبيره الكون وجعله خليفة الله في الأرض.

وأمــا عــلاج الجانب الايجابي (مشكلة الغلو في الانتماء) فهذا يكون أولاً بعد أن كان تحويل المحدود النسبي إلى مطلق من خلال عملية تصعيد ذهني.

اما المطلق الذي يقدمه الإيمان بالله للإنسان فهو لم يكن من نسيج مرحلة ذهنية ولا وليد حاجة محدودة، بل ان الله تعالى مطلق لا حدود له ويستوعب كل المثل العليا للانسان ﴾

فكان لابدّ أن يستنزل ذلك العقل على مستوى الحس لابدّ أن تستنزل تلك المعقولات على مستوى الحس، وحيث أنّ هذا ليس بالإمكان أنّ يعمل مع كل الناس لأن كل إنسان [[ليس]] مهيأ لهذا؛ ولهذا استصفي لهذه العملية أُناس معيّنون(١) أوجد الله تبارك وتعالى فيهم الحس القائد الرائد هذا الحس رباهم هم أولاً وبالذات ثم خلق وجوداً حسياً ثانوياً هذا الوجود الحسي الثانوي كان هو المربي للبشرية.

والخلاصة لئن بقيت القيم والمثل والأهداف والاعتبارات عقلية محضة؛ فهي سوف تكون قليلة الفهم ضعيفة الجذب بالنسة إلى الإنسان، وكلما أمكن تمثيلها حسياً أصبحت أقوى وأصبحت اكثر قدرة على الجذب والدفع.

إذا كان هذا حقاً فيجب أن نخطط لأنفسنا ونخطط في علاقاتنا مع الآخرين على هذا الأساس.

يجب أن نخطط في أنفسنا على هذا المستوى، ومعنى أن نخطط في أنفسنا على هذا يعني أن لا نكتفي بأفكار عقلية نؤمن بها نضعها في زاوية عقلنا

الخليفة على الأرض من الادراك والعلم والقدرة والعدل. انظر: نظرة في العبادات: ٢٦، الإيمان بالله هو العلاج.

(١) النص القرآني: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، آل عمران: ٣٣.

كإيمان الفلاسفة بآرائهم الفلسفية، لا يكفي أن نؤمن بهذه القيم والمثل إيماناً عقلياً صرفاً بل يجب أن نحاول... أن نستنزلها إلى أقصى درجة ممكنة من الوضوح الحسي طبعاً، نحن لا نطمع أن نكون أنبياء ولا نطمع أن نحظى بهذا الشرف العظيم الذي انغلق على البشرية بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولكن مع هذا الوضوح مقول بالتشكيك على حسب اصطلاح المناطق[1] ليس كل درجة من الوضوح معناها النّبوّة، هناك ملايين من درجات الوضوح قبل أن تصبح نبياً. يمكن أن تكسب ملايين من درجات الوضوح، وهذه المراتب المتصاعدة قبل أن تبلغ إلى الدرجة التي أصبح فيها موسى عليه السلام في لحظة استحق فيها أن يخاطبه اللّه سبحانه وتعالى، أو قبل أن يصل الإنسان إلى الدرجة التي بلغ إليها محمد صلى الله عليه وآله وسلم حينما هبط عليه أشرف كتب السماء، هناك ملايين من الدرجات هذه الملايين بابها مفتوح أمامنا، ولابدّ أن لا نقتصر، أن لا نزهد في هذا التطوير العقلي للقيم والمثل الموجود عندنا، لابدّ لنا أن لا نقتصر وان نطمع

---

(١) المشكك: هو الكلي المتفاوتة أفراده في صدق مفهومه عليها، لذا يسمى ((الكلي المشكك)) والتفاوت يسمى ((تشكيكاً)) ، فالبياض والعدد، لو طبقتهما على أفرادهما لوجدت تفاوتاً بالاشتداد والكثرة، فبياض الثلج أشد من بياض القرطاس، وعدد الألف أكثر من عدد المائة.

المنطق، الشيخ محمد رضا المظفر، ١/٧٠.

في اكثر من هذا الوضوح وفي اكثر من هذا من التحدد ومن الحسية، لابدّ لنا أن نفكر في أن يُعبأ كل وجودنا بهذا القيم والمثل لكي تكون على مستوى المحسوسات بالنسبة إلينا.

من أساليب استنزال هذه القيم والمثل إلى مستوى المحسوسات، هو التأثير الذهني عليها باستمرار، حينما توحي إلى نفسك باستمرار بهذه الأفكار الرفيعة، حينما توحي إلى نفسك باستمرار بأنك عبد مملوك للّه سبحانه وتعالى وان الله تبارك وتعالى هو المالك المطلق لأمرك وسلوكك ووجودك، وهو المخطط لوضعك ومستقبلك وحاضرك، وإنّه هو الذي يرعاك بعين لا تنام في دنياك وآخرتك، حينما توحي إلى نفسك باستمرار بمستلزمات هذه العبودية من أنّك مسؤول أمام هذا المولى العظيم، مسؤول أنْ تطيعه أن تطبق خطه، أن تلتزم رسالته أن تدافع عن رايته أن تلزم شعاراته حينما تسر إلى نفسك وتؤكد على نفسك باستمرار أنّ هذا المعنى للعبودية لأنك دائماً وأبداً يجب أن تعيش مع الله.

حينما توحي إلى نفسك بأنك يجب أن تعيش للّه سوف تتعمّق دقة العيش للّه في ذهنك سوف تتسع سوف تصبح بالتدريج شبحاً يكاد أن يكون حسياً بعد أن كان نظرياً عقلياً صرفاً.

أليس هناك أشخاص من الأولياء والعلماء والصديقين قد استطاعوا أن يبصروا محتوى هذه القيم والمثل بأم أعينهم ؟ ولم يستطيعوا أن يبصروها بأم

أعينهم إلا بعد أن عاشوها عيشا تفصيلياً مع الالتفات التفصيلي الكائن، وهذه عملية شاقة جداً لان الإنسان كما قلنا ينفعل بالحس، وما أكثر المحسوسات من أمامه ومن خلفه، الدنيا كلها بين يديه، تمتع بحسه في مختلف الأشياء، ـ وهو يجب عليه دائماً وهو يعيش في هذه الدنيا التي تنقل إلى عينه مئات المبصرات وتنقل مئات المسموعات ـ ، يجب عليه أن يُلقّن نفسه دائماً بهذه الأفكار ويؤكد هذه الأفكار خاصة في لحظات ارتفاعه وفي لحظات تساميه، لان أكثر الناس ـ إلا من عصم الله ـ تحصل له لحظات التسامي، وتحصل له لحظات الانخفاض.

ليس كل إنسان يعيش محمداً صلى الله عليه وآله [مائة بالمائة][1]، وإلاّ لكان كل الناس من طلابه الحقيقيين، كل إنسان لا يعيش محمداً إلا لحظات معيّنة تتسع وتضيق بقدر تفاعل هذا الإنسان برسالة محمد صلى الله عليه وآله.

إذن ففي تلك اللحظات التي تمر على أي واحد منا ويحس بأنّ قلبه منفتح لمحمد صلى الله عليه وآله، وإن عواطفه ومشاعره كلها متأججة بنور رسالة هذا النبي العظيم صلى الله عليه وآله في تلك اللحظات يغتنم تلك الفرصة ليختزن ـ وأنا أؤمن بعملية الاختزان ـ يعني أؤمن بان الإنسان في هذه اللحظة إذا استوعب أفكاره وأكد على مضمون معيّن وخزنه في نفسه سوف يفتح له هذا الاختزان في لحظات الضعف، بعد

---

(١) في الأصل (مئة بالمئة).

هـذا حيـنما يفـارق هـذه الجلـوة العظيمة[1] حينما يعود إلى حياته الاعتيادية سوف يتعمّق بالتدريج هذا الرصيد هذه البذرة التي وضعها في لحظة الجلوة في لحظـة الانفتاح المطلق على اشرف رسالات السماء، تلك البذرة سوف تشعره وسـوف تقـول لـه في تلك اللحظة: إياك من المعصية إياك من أن تنحرف قيد أنملة عن خط محمد ﷺ.

كـلما ربـط الإنسـان نفسـه في لحظـات الجلـوة والانفتاح بقيود محمد ﷺ واسـتطاع أن يعـاهد نبيه العظيم ﷺ على أن لا ينحرف عن رسالته على أن لا يتمـلمل عن خطه على أن يعيشه ويعيش أهدافه ورسالته وأحكامه، حينئذٍ بعـد هـذا حيـنما تفارقـه هـذه الجلوة، وكثيراً ما تفارقه ـ إذا أراد أن ينحرف يـتذكر عهـده يـتذكر صـلته بمحمـد ﷺ، تصـبح العلاقة حينئذ ليست مجرد نظـرية عقلـية، بل هناك اتفاق هناك معاهدة هناك بيعة أعطاها لهذا النبي ﷺ

---

(١) الجلـوة خـروج العـبد مـن الخلـوة بالـنعوت الإلهية إذ عين العبد وأعضاؤه ممحوة عن الأنانـية والأعضـاء مضافة إلى الحق بلا عبد كقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّـهَ رَمَى﴾. الأنفال: من الآية١٧، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِين يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ الفتح: ١٠.

الـتعريفات، علـي بن محمد الجرجاني، متوفي ٨١٦، تحقيق إبراهيم الأنباري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ : ١٠٤.

في لحظة حس في لحظة قريبة من الحس.

كان كأنه يرى النبي أمامه فبايعه.

لو أنّ أي واحد منا استطاع أن يرى النبي صلى الله عليه وآله بأم عينه، أو رأى إمامه، إمام زمانه عجل اللّه تعالى فرجه رأى قائده بأم عينه وعاهده وجهاً لوجه على أن لا يعصي على أن لا ينحرف على أن لا يخون الرسالة، هل بالإمكان لهذا الإنسان بعد هذا لو فارقته تلك الجلوة ولو ذهب إلى ما ذهب ولو عاش أي مكان وأي زمان هل بإمكانه أن يعصي ؟

هل يمكنه أن ينحرف ؟ أو يتذكر دائماً صورة ولي الأمر عجل اللّه تعالى فرجه وهو يأخذ منه هذه البيعة وهذا العهد على نفسه.

نفس هذه العملية يمكن أن يعملها أي واحد منا لكن في لحظة الجلوة في لحظة الانفتاح.

كل إنسان من عندنا يعيش لحظة لقاء الإمام عجل اللّه تعالى فرجه من دون أن يلقى الإمام عجل اللّه تعالى فرجه ولو مرة واحدة في حياته هذه المرة الواحدة أو المرتين والثلاثة، يجب أن نعمل لكي تتكرر لأن بالإمكان أن نعيش هذه اللحظة دائماً، هذا ليس أمراً مستحيلاً، بل هو أمر ممكن والقصة قصة إعداد وتهيئة، لأن نعيش هذه اللحظة حتى في حالة وجود لحظات أكثر بكثير تعيش فيها الدنيا تعيش فيها أهواء الدنيا ورغبات الدنيا وشهوات الدنيا مع هذا يجب أن تخلف فينا هذه اللحظة رصيداً يجب أن تخلق فينا: بذرة

مـناعة، عصـمة، قوة قادرة على أن تقول: لا، حينما يقول الإسلام : لا، ونعم حينما يقول الإسلام ذلك.

هذه اللحظة يجب أن نغتنمها، ويجب أن نختزنها لكي تتحول بالتدريج هذه المفاهـيم إلى حقـائق، وهذه الحقائق إلى محسوسات وهذه المحسوسات إلى جهاد نعيشه بكل عواطفنا ومشاعرنا وانفعالاتنا آناء الليل وأطراف النهار، ونحن ما أحوجنا إلى ذلك لان المفروض أننا نحن الّذين يجب أن نبلغ للناس نحن الّذين يجب أن نشع بنور الرسالة على الناس.

نحـن الّذيـن يجب أن نحدد معالم الطريق للأمة والمسلمين، إذن فما أحوجنا إلى أن يتـبين لـنا الطـريق تبيـناً حسـياً تبيـناً أقـرب مـا يكون إلى تبين الأنبياء وطرقهم.

لـيس عبـثاً وليس صدفة أن رائد الطريق دائماً كان إنساناً يعيش الوحي؛ لأنه كان لابدّ له أن يعيش طريقه بأعلى درجة ممكنة للحس، حتى لا ينحرف، حتى لا يتململ، حتى لا يَضيع حتى لا يكون سبباً في ضلال الآخرين.

ونحـن يجـب أنْ ندعو، أنْ نتضرع إلى اللّه دائماً، أنْ يفتح أمام أعيننا معالم الطـريق، أنْ يريـنا الطـريق رؤيـة عـين لا رؤية عقل فقط، أنْ يجعل هذه القيم وهـذه المـثل والطـريق إلى تجسـيد هـذه القـيم، وهذه المثل شيئاً محسوساً بكل مـنعطفات هـذا الطريق وبكل صعوبات هذا الطريق وما يمكن أن يصادفه في أثناء هذا الطريق.

لابدّ لنا أن نفكر في أن نحصل اكبر درجة ممكنة من الوضوح في هذا الطريق هذا بيننا وبين أنفسنا..

وأما العبرة التي نأخذها بالنسبة إلينا مع الآخرين، نحن أيضاً يجب أن نفكر في أننا سوف لن نطمع في هداية الآخرين عن طريق إعطاء المفاهيم فقط عن طريق إعطاء النظريات المجردة فقط، وتصنيف الكتب العميقة كل هذا لا يكفي، إلقاء المحاضرات النظرية لا يكفي.

لابدّ لنا أن نبني تأثيرنا في الآخرين أيضاً على مستوى الحس يجب أن نجعل الآخرين يحسون منا بما ينفعلون به انفعالاً طيباً طاهراً مثالياً؛ فإن الآخرين مثلنا، الآخرون هم بشر والبشر ينفعلون بالحس أكثر مما ينفعلون بالعقل؛ فلابدّ إذن أن نعتمد على هذا الرصيد أكثر مما نعتمد على ذلك الرصيد.

كتاب، مائة كتاب نظري لا يساوي أن تعيش الحياة التي تمثل خط الأنبياء، حينما تعيش الحياة التي تمثل خط الأنبياء بوجودك بوضعك بأخلاقك بإيمانك بالنار والجنة، إيمانك بالنار والجنة حينما ينزل إلى مستوى الحس إلى مستوى الرقابة الشديدة إلى مستوى العصمة، حينما ينزل إلى هذا المستوى يصبح أمراً محسوساً يصبح هذا الإيمان أمراً حسياً؛ حينئذ سوف يكهرب الآخرين ولا نطمع بالتأثير عليهم على مستوى النظريات فحسب، فان هذا وحده لا يكفي وإن كان ضرورياً أيضاً، ولكن يجب أن نضيف إلى التأثير على مستوى النظريات تطهير أنفسنا وتكميل أرواحنا وتقريب سلوكنا من سلوك الأنبياء

وأوصـياء هـؤلاء الأنبـياء؛ لنسـتطيع أن نجسد تلك القيم والمثل بوجودنا أمام حـس الآخـرين قـبل أن نعطـيها بعقول الآخرين أو توأماً مع إعطائها لعقول الآخرين...

اللهم وفقنا للسير في خط أشرف أنبيائك والالتزام بتعاليمه.

غفر الله لنا ولكم جميعاً

دور الأئمة عليهم السلام في الحياة الإسلامية[1]

المنهج الموضوعي في دراسة حياة الأئمة عليهم السلام

[[بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على القادة من حملة الرسالة الكبرى محمد وآله الطاهرين الّذين نعيش الآن أيها الأخوة الأعزاء يوماً من أيامهم العظيمة، يوم مولد القائد الثاني من قادة الرسالة، والإمام الأول من أئمة أهل البيت علي بن أبي طالب عليه أفضل الصلاة والسلام. ومن الطبيعي لنا أنْ نلتقي مع

---

(١) أُلقي هذا البحث بمناسبة ولادة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في الجلسة الخامسة للموسم الثقافي لجمعية الرابطة الأدبية في النجف الأشرف سنة ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦. وتم إخراج هذا النص وتعديله اعتماداً على نصوص ثلاثة. الأول كتاب أهل البيت تنوع أدوار ووحدة هدف، وكتاب اخترنا لك، ودائرة المعارف الإسلامية الشيعية، السيد حسن الأمين. دار التعارف، ط٥، ١٤١٢هـ: ٤٨٧، وما بعدها.

هذا اليوم وغيره من أيامهم العظيمة التي تمر بنا في كلّ عام التقاء روحياً مخلصاً، والتقاء فكرياً واعياً، لكي نعمّق صلتنا الروحية بقادة الرسالة، ونبلور أكثر فأكثر مفهومنا ودراساتنا عنهم، ونستمد دائماً من تاريخهم العظيم قبساً ينير لنا الطريق.

وعلى هذا الأساس[١] أود أنْ أجعل من هذه المناسبة التي نعيشها الآن مجالاً للتعبير عن اتجاه معيّن من دراسة حياة الأئمة عليهم السلام]][٢]، وسوف لن يتسع الحديث في حدود هذه الفرصة أنْ نرسم اتجاهاً معيّناً، وإنما كلّ ما أحاوله، هو إثارة التفكير حول هذا الاتجاه، وإعطاء بعض الملامح العامة عن حياة الأئمة عليهم السلام.

وهذا الاتجاه الذي أريد أنْ أتحدث إليكم عنه هو الذي يتناول حياة كلّ إمام ويدرس تاريخه على أساس النظرة الكلية، بدلاً عن النظرة التجزيئية، أي ينظر إلى الأئمة عليهم السلام ككل مترابط ويدرس هذا الكل، ويكشف ملامحه العامة، وأهدافه المشتركة، ومزاجه الأصيل. ويتفهّم الترابط بين خطواته، وبالتالي الدور الذي مارسه الأئمة جميعاً في الحياة الإسلامية.

---

(١) وفي الأصل ((أريد في هذا الحديث أن أُعبر عن اتجاه معين،.. أهل البيت عليهم السلام: ١٤١.

(٢) النص بين الأقواس المعقوفة نقلناه عن كتاب، اخترنا لك (١)، السيد محمد باقر الصدر، دار الزهراء، بيروت – لبنان، ط٢، ١٤٠٠هـ: ٥٧.

ولا أُريد بهذا أنْ نرفض دراسة حياة الأئمة عليهم السلام على أساس النظرة التجزيئية، أي دراسة كل إمام بصورة مستقلة، بل إنّ هذه الدراسة التجزيئية نفسها ضرورة لإنجاز دراسة شاملة كاملة ملائمة ككل، إذ لابدّ لنا أولاً أنْ ندرس الأئمة بصورة مجزّأة ونستوعب إلى أوسع مدى ممكن حياة كل إمام بكلّ ما تزخر به من ملامح وأهداف ونشاط، حتى نتمكن بعد هذا أنْ ندرسه ككل ونستخلص الدور المشترك للائمة عليهم السلام جميعاً، وما يعبّرون عنه من ملامح وأهداف وترابط(١).

(١) وظاهرة أخرى تُعدُ مظهراً لوحدة الهدف في مواقف الأئمة عليهم السلام، وهي مسألة البشارة والتمهيد لإمامة المهدي المنتظر عليه السلام، فكلهم بشر به وأكد غيبته، وإنّه الذي يملأ الأرض عدلاً وقسطاً بعدما تملأ ظلماً وجوراً. أنظر كمال الدين وتمام النعمة للشيخ الصدوق رحمه الله.

❖ التنوّع في الأدوار ووحدة الهدف ❖

وإذا قمنا بدراسة أحوال الأئمة عليهم السلام على هذين المستويين، فسوف نواجه على المستوى الأول اختلافاً في الحالات، وتبايناً في السلوك وتناقضاً من الناحية الشكلية بين الأدوار التي مارسها الأئمة عليهم السلام. فالحسن مثلاً هادن[١]

---

(١) اشتملت معاهدة الصلح التي تم توقيعها من قبل الطرفين والإشهاد عليها على خمس مواد لم يفِ معاوية بها.

المادة الأولى: تسليم الأمر إلى معاوية على أن يعمل بكتاب الله وسنه رسوله صلى الله عليه وآله، وبسيرة الصالحين. البداية والنهاية، ابن كثير ٨: ٤١، شرح نهج البلاغة: ٤: ٨، الامامة والسياسية: ١٨٥، النصائح الكافية: ١٥٦، وتاريخ الخلفاء السيوطي: ١٩٤.

المادة الثانية: ان يكون الأمر للحسن عليه السلام من بعده ـ أي معاوية ـ فإن حدث به حدث فلأخيه الحسين عليه السلام وليس لمعاوية أن يعهد به إلى أحد. البداية والنهاية ٨ : ٤١، عمدة الطالب: ٥٢، شرح نهج البلاغة ٤: ٨.

المادة الثالثة: أن يترك سب أمير المؤمنين والقنوت عليه بالصلاة، وأن لا يذكر علياً إلاّ بخير. أعيان الشيعة ٣: ٤٣، مقاتل الطالبيين: ٢٦، وغيرها.

المادة الرابعة: استثناء ما في بيت مال الكوفة فلا يشمله تسليم الأمر، وعلى معاوية أن يفضل بني هاشم في العطاء والصلات على بني شمس، وأن يفرق في أولاد من قتل مع أمير المؤمنين يوم الجمل وصفين ألف ألف درهم وأن يجعل ذلك من خراج (دار أبجرد). الامامة والسياسة: ٢٠٠، تاريخ الامم والملوك ٦: ٩٦، البداية والنهاية ٨: ١٤، ↵

معاويـة، بيـنما حارب الحسين يزيد حتى قُتل، وحياة علي بن الحسين السجاد قائمـة عـلى الدعـاء بيـنما كانـت حـياة الـباقر قائمة على الحديث والفقه[١] وهكذا.

من صلح الإمام الحسن: ٢٦٠.

المادة الخامسة : ان الناس آمنون حيث كانوا من أرض الله، في شامهم وعراقهم وحجازهم ويمـنهم، وأن يؤمـن الاسـود والأحمر ، وأن يحتمل معاوية مايكون من هفواتهم، وأن لا يتبع أحداً بما مضى، وأن لا يأخذ أهل العراق بإحنة، وأن أصحاب علي وشيعته آمنون عـلى أنفسـهم وأموالهـم وأولادهـم ونسائهم، وأن لا يتعقب عليهم شيئاً ولا يتعرض لأحـد مـنهم بسوء، ويوصل إلى كل ذي حقٍّ حقه وعلى ما أصاب أصحاب علي حيث كانوا، وأن لا ينبغي للحسن بن علي ولا لأخيه الحسين ولا لأحد من أهل بيت رسول الله غائلة، سراً وجهراً ولا يخيف أحداً منهم في أفق من الآفاق.

وقـد كتـب معاويـة في خـتام المعـاهدة فـيما واثق الله عليه من الوفاء بها بما لفظه ((وعلى معاوية بن أبي سفيان بذلك عهد الله وميثاقه، وما أخذ الله على أحد من خلقه بالوفاء وبمـا اعطـى عـلى نفسه)). النصائح الكافية، ابن عقيل: ١٥٦، ط١، كشف الغمة، ابن أبـي الفـتح الاربلـي ٢: ١٩٤، بحـار الأنـوار ١٠: ١١٥، الامامة والسياسة ١: ١٨٥. وانظر صلح الإمام الحسن: ٢٦٢.

(١) انظر: إثبات الوصية، المسعودي: ١٣٢ ـ ١٥٣، والإرشاد، الشيخ المفيد: ٢/٥ ـ ١٧٦، وبحار الأنوار العلامة المجلسي : ٤٤، ٤٥، ٤٦، فهي تتضمن تفصيل وتوسعة عن سيرة ومواقف الأئمة عليهم السلام الّذين ذكرهم السيد الشهيد رضي الله عنه .

وأما على المستوى الثاني، حينما نحاول اكتشاف الخصائص العامة والدور المشترك للائمة عليهم السلام ككل، فسوف تزول كلّ تلك الخلافات والاختلافات والتناقضات، لأنها تبدو على هذا المستوى مجرد تعابير مختلفة عن حقيقة واحدة، وانما اختلف التعبير عنها وفقاً لاختلاف الظروف والملابسات التي مرّ بها كلّ إمام، وعاشتها القضية الإسلامية والشيعية في عصره عن الظروف والملابسات التي مرت بالرسالة في عهد إمام آخر.

ويمكننا عن طريق دراسة الأئمة عليهم السلام على أساس النظرة الكلية أنْ نخرج بنتائج أزخر من مجموع النتائج التي تتمخض عنها الدراسات التجزيئية، لأننا سوف نكشف الترابط بين أعمالهم.

وسوف أستخدم مثالاً بسيطاً لتوضيح الفكرة، فنحن نقرأ في حياة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه جمع الصحابة في خلافته واستشهدهم على نصوص الإمامة فشهد عدد كبير بالسماع من الرسول الأعظم[1]

---

(١) مجمع الزوائد، الهيثمي: ١٠٤/٩. والبداية والنهاية: ١٨٥/٥. وقد روي ذلك عن زيد بن أرقم، وأبي أيوب الأنصاري، ورباح بن الحارث، وكان الإمام قد نشد الناس في رحبة الكوفة: وهي رحبة مسجد الكوفة التي جمع بها الإمام علي عليه السلام الناس وناشدهم الله ان كل من سمع رسول الله يقول لعلي يوم غدير خم: (أليس الله أولى بالمؤمنين من أنفسهم. قالوا بلى! قال: اللهم من كنت مولاه فعلي مولاه الله والِ من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله).

ونقرأ في حياة الإمام الحسين أنه جمع في عرفة على عهد معاوية مَنْ تبقّى من الصحابة والمهاجرين وعدداً كبيراً من التابعين، وطلب منهم أنْ يحدثوا بنصوص النبي صلى الله عليه وآله في علي وأهل البيت عليهم السلام [١]. ونقرأ في حياة الإمام الباقر عليه السلام أنه قام بنفس العملية واستشهد التابعين وتابعي التابعين[٢]

---

(١) النص: (وأقبل الحسين عليه السلام على جماعة من قريش فقال: أنشدكم بالله إلا صدقتموني إنْ صدقت، أتعلمون أن في الأرض حبيبين كانا أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله مني ومن أخي؟ أو على ظهر الأرض ابن بنت نبي غيري وغير أخي؟ قالوا : اللهم لا. قال: وإني لا أعلم أن في الأرض ملعون ابن ملعون غير هذا وأبيه ـ أي مروان بن الحكم طريديّ رسول الله، والله ما بين جابرس وجابلق أحدهما بباب المشرق والآخر بباب المغرب رجلان ممن ينتحل الإسلام أعدى لله ولرسوله ولأهل بيته منك ومن أبيك إذْ كان، وعلامة قولي فيك أنك إذا غضبت سقط رداؤك عن منكبك)انظر: الاحتجاج، الطبرسي: ٢٣/٢. وما ورد من ذكر عن الإمام الحسين عليه السلام اثبتنا ذلك من كتاب (اخترنا لك) لأنّ في كتاب (أهل البيت تنوّع أدوار و..) يستشعر وجود سقط ما بين الكلام عن الإمام علي عليه السلام، وبين الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام. قارن ص١٤٢ (أهل البيت تنوّع أدوار و..)، وص ٥٩ ـ ٦٠، من أخترنا لك ودائرة المعارف الإسلامية الشيعية : ٤٨٧.

(٢) النص الروائي: فبعث أبو جعفر ـ الباقر ـ عليه السلام إلى جميع أبناء المهاجرين والأنصار فجمعهم، ثم خرج إلى الناس في ثوبين وأقبل على الناس كأنه فلقة قمر، فقال: الحمد لله

وحين ندرس الأئمة ككل ونربط بين هذه النشاطات بعضها ببعض ونلاحظ أنّ العمليات وزعت على مدى ثلاثة أجيال، نجد أنفسنا أمام تخطيط مترابط يكمل بعضه بعضاً يستهدف الحفاظ على تواتر النصوص عبر أجيال عديدة حتى تصبح في مستوى من الوضوح والاشتهار يتحدى كل مؤامرات الإخفاء والتحريف.

وفي عقيدتي، أنّ وجود دور مشترك مارسه الأئمة جميعاً، ليس مجرد افتراض نبحث عن مبرراته التاريخية، وإنما هو مما تفرضه العقيدة نفسها وفكرة الإمامة بالذات، لأن الإمامة واحدة في الجميع بمسؤولياتها وشروطها، فيجب أنْ تنعكس انعكاساً واحداً في سلوك الأئمة عليهم السلام وأدوارهم مهما اختلفت ألوانها الظاهرية بسبب الظروف والملابسات، ويجب أنْ يشكّل الأئمة بمجموعهم وحدة مترابطة الأجزاء، يواصل كل جزء في تلك الوحدة دور

---

(١) لله محّيث الحّيث ومكيّف الكيف ومؤيّن الأين. الحمد لله الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، له ما في السماوات وما في الأرض ـ إلى آخر الآية ـ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً صلى الله عليه وآله عبده ورسوله، اجتباه وهداه إلى صراطٍ مستقيمٍ. الحمد لله الذي أكرمنا بنبوته واختصنا بولايته، يا معشر أبناء المهاجرين والأنصار، مَنْ كانت عنده منقبة في علي بن أبي طالب عليه السلام فليقم وليتحدث، قال: فقام الناس فسردوا تلك المناقب. الكافي، الشيخ الكليني : ٨ /٣٥٠.

الجزء الآخر ويكمله[١].

---

(١) تم إجراء تعديل على النص وفقاً لكتاب اخترنا لك: ص٦٠، قارن مع كتاب أهل البيت تنوّع أدوار ووحدة هدف: ١٤٣.

الدور المشترك للأئمة عليهم السلام:

ما هو الدور المشترك للأئمة عليهم السلام ؟

هذا هو السؤال الذي يقتبس على ضوء ما تقدم.

وقد لا نحتاج إلى شيء من البحث لكي نتفق بسرعة على نوعية الدور المشترك الذي أُسند إلى الأئمة عليهم السلام في تخطيط الرسالة.

فكلنا يعلم أنّ الرسالة الإسلامية بوصفها رسالة عقائدية، قد خططت لحماية نفسها من الانحراف، وضمان نجاح التجربة خلال تطبيقها على مرّ الزمن، فأوكلت أمر صيانة التجربة وتنويرها وتوجيهها سياسياً إلى الأئمة عليهم السلام[1] بوصفهم الأشخاص العقائديين الّذين بلغوا في مستواهم العقائدي درجة العصمة من الانحراف والزلل والخطأ.

---

(١) النص: عن الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: ولقد حدثني جدي رسول الله صلى الله عليه وآله أن الأمر يملكه اثنا عشر إماماً من أهل بيته وصفوته. كفاية الأثر، الخزاز القمي : ١٦٢. وبدأ هذا التخطيط متزامناً مع إعلان الدعوة يوم الدار، وحتى حجة الوداع، ونزول آية إكمال الدين وإتمام النعمة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾. المائدة: من الآية٣، وآية البلاغ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾. المائدة: من الآية٦٧.

غير أننا حينما نحاول أنْ نحدد الدور المشترك الذي مارسه الأئمة عليهم السلام ككل في تاريخهم المرير، لا نعني هذا الدور القيادي في تزعّم التجربة الإسلامية، لأننا نعلم إنّ الأحداث المؤلمة التي وقعت بعد وفاة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم قد أقصت الأئمة عن القيام بدورهم القيادي في تزعّم التجربة، وسلّمت مقاليد الرسالة ومسؤولية تطبيقها إلى أشخاص آخرين انحرف معهم التخطيط واشتد الانحراف على مرّ الزمن.

وإنما نريد بالدور المشترك من تاريخ الأئمة عليهم السلام، الموقف العام الذي وقفوه في خضم الأحداث والمشاكل التي اكتنفت الرسالة بعد انحراف التجربة وإقصائهم عن مركزهم القيادي في زعامتها.

وهنا نجد تصوراً شائعاً لدى كثير من الناس الّذين اعتادوا أنْ يقيموا الأئمة بوصفهم أُناساً مظلومين فقط قد أُقصوا عن مركز القيادة، وأقرت الأمة هذا الإقصاء، وذاقوا بسبب ذلك ألوان الاضطهاد والحرمان، فهؤلاء الناس يعتقدون أنّ دور الأئمة في حياتهم كان دوراً سلبياً على الأغلب؛ نتيجة لإقصائهم عن مجال الحكم؛ فحالهم حال من يملك داراً فتُغصب منه، وينقطع أمله في إمكان استرجاعها.

وهذا التفكير بالرغم من أنه خاطئ، فإنّه يعتبر خطأ من الناحية العملية وأنه يحبب إلى الإنسان السلبية والانكماش والابتعاد عن مشاكل الأمة ومجالات قيادتها. ولهذا اعتقد أنّ من ضروراتنا الإسلامية الراهنة أنْ نثبت

خطأ ذلك التفكير، وندرس حياة الأئمة على أساس نظرة كلية لتتبين إيجابيتهم الرسالية على طول الخط، ودورهم المشترك الفعال في حفظ الرسالة وحمايتها.

إنّ الأئمة عليهم السلام بالرغم من التآمر على إقصائهم عن مجال الحكم، كانوا يتحملون باستمرار مسؤوليتهم في الحفاظ على الرسالة وعلى التجربة الإسلامية وتحصينها ضد التردي إلى الهاوية، هاوية الانحراف والانسلاخ من مبادئها وقيمها انسلاخاً تاماً.

فكلما كان الانحراف يقوى ويشتد، وينذر بخطر التردي إلى الهاوية، كان الأئمة عليهم السلام يتخذون التدابير اللازمة ضد ذلك، وكلما وقعت التجربة الإسلامية أو العقيدة في محنة أو مشكلة، وعجزت الزعامات المنحرفة عن علاجها بحكم عدم كفاءتها، بادر الأئمة عليهم السلام إلى تقديم الحل، ووقاية الأمة من الأخطار التي كانت تهددها.

بكلمة مختصرة، كان الأئمة عليهم السلام يحافظون على المقياس العقائدي والرسالي في المجتمع الإسلامي، ويحرصون على أنْ لا يهبط إلى درجة تشكّل خطراً ماحقاً، وهذا يعني ممارستهم جميعاً دوراً إيجابياً فعالاً في حماية العقيدة، وتبني مصالح الرسالة والأمة[1]

---

(١) وهذا الذي يقصده السيد الشهيد رضي الله عنه بوحدة الهدف في سلوكهم ومواقفهم عليهم السلام.

تمثل هذا الدور الإيجابي في إيقاف الحاكم عن المزيد من الانحراف كما عبّر الإمام عليه السلام حين صعد عمر بن الخطاب المنبر وتساءل عن ردّ الفعل لو صرف الناس عما يعرفون إلى ما ينكرون، فرد عليه الإمام عليه السلام بكل وضوح وصراحة:

إذن لقومناك بسيوفنا [١].

وتمثل في تعرية الزعامة المنحرفة إذ أصبحت تشكّل خطراً ماحقاً ولو عن طريق الاصطدام المسلح بها والشهادة في سبيل كشف زيفها وشل تخطيطها كما صنع الإمام الحسين عليه السلام مع يزيد.

وتمثل في مجابهة المشاكل التي تهدد كرامة الدولة الإسلامية، وعجز الزعامات المنحرفة عن حلها كما في المشكلة التي أحدثها كتاب ملك الروم، إلى عبد الملك بن مروان، إذ عجز عبد الملك عن الجواب على الكتاب في

---

(١) أخرج الموفق الخوارزمي بسنده إلى محمد بن خالد الضبي، قال: خطبهم عمر بن الخطاب فقال: لو صرفناكم عما تعرفون إلى ما تنكرون ما كنتم صانعين ؟ قال: فسكتوا، فقال: ذلك ثلاثا "، فقام علي عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين إذن كنا نستتيبك، فإن تبت قبلناك، قال: فإن لم أتب! قال: إذن نضرب الذي فيه عيناك. فقال: الحمد لله الذي جعل في هذه الأمة من إذا اعوججنا أقام أودنا.

المناقب، الموفق الخوارزمي: ٩٨ ـ ٩٩.

مستواه، فملأ الإمام السجاد عليه السلام هذا الفراغ وأجاب بالشكل الذي يحفظ للدولة كرامتها وللأمة الإسلامية هيبتها[١]

وتمثل أيضاً، في إنقاذ الدولة الإسلامية من تحدي الكافرين الّذين هددوا سيادتها، كالتحدي الذي واجهه عبد الملك من الروم بشأن النقد، وعجز عن الرد عليه، فكان الإمام الباقر عليه السلام في مستوى الرد على هذا التحدي فخطط للاستقلال النقدي[٢]

---

(١) النص التاريخي: كتب ملك الروم إلى عبد الملك : لأغزونك بجنود مائة ألف ومائة ألف ومائة ألف، فكتب عبد الملك إلى الحجاج أن يبعث إلى زين العابدين ويتوعده ويكتب إليه ما يقول؛ ففعل، فقال علي بن الحسين : إن لله لوحا محفوظا يلحظه في كل يوم ثلاثمائة لحظة ليس منها لحظة إلا يحيي فيها ويميت ويعز ويذل ويفعل ما يشاء، وإني لأرجو أن يكفيك منها لحظة واحدة؛ فكتب بها الحجاج إلى عبد الملك، فكتب عبد الملك بذلك إلى ملك الروم، فلما قرأه قال : ما خرج هذا إلا من كلام النّبوّة.

مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب: ٢٩٩/٣. وانظر: تاريخ دمشق، ابن عساكر: ٥٤/ ٣٣٢، وفيه أن عبد الملك كتب إلى محمد بن الحنفية. وكنز العمال، المتقي الهندي: ٤/ ٢٥٥.

(٢) النص التاريخي: أخرج البيهقي، عن الكسائي، قال: دخلت على الرشيد ذات يوم وهو في إيوانه وبين يديه مال كثير؛ فقال : هل تعلم من أول من سن هذه الكتابة على الذهب والفضة. فقلت: عبد الملك بن مروان، قال: فما كان السبب في ذلك، قلت

﴿لا أعلم.

فقال: سأُخبرك... كانت القراطيس للروم، وكان أكثر من بمصر نصرانياً على دين الملك (ملك الروم) وكانت تُطرّز بالرومية، وكان طرازها أباً، وابناً، وروحاً. فلم يزل كذلك صدر الإسلام كله يمضي على ما كان عليه إلى أن مَلَكَ عبد الملك فتنبه عليه وكان فطناً. فبينما هو ذات يوم إذ مرّ به قرطاس ، فنظر إلى طرازه فأمر أن يترجم بالعربية، ففُعل ذلك، فأنكره، فقال: ما أغلظ ذلك في أمر الدين والإسلام، لأن هذه القراطيس تخرج من مصر، فتدور في الآفاق والبلاد، وقد طُرّزت بشرك مثبت عليها، فأمر عامله على مصر (عبد العزيز بن مروان) أن يبطلها، فلما علم ملك الروم بذلك كتب يتوعد عبد الملك: وأحلف بالمسيح لتأمرن برد الطراز إلى ما كان عليه، أو لآمرن بنقش الدنانير والدراهم، فينقش عليها من شتم نبيك ما إذا قرأته ارفض جبينك له عرقاً. فلما قرأ عبد الملك الكتاب غلظ عليه، وضاقت به الأرض، وقال: أحسبني أشأم مولود ولد في الإسلام ؛ لأني جنيت على رسول الله صلى الله عليه ـ وآله ـ وسلم من شتم هذا الكافر ما يبقى غابر الدهر ـ لأن الدراهم والدنانير كانت تعمل في بلاد الروم، ولا ينقشها غيرهم ـ وجمع أهل الإسلام واستشارهم، فلم يجد عند أحد منهم رأياً يعمل به. فقال له: روح بن زنباع: إنك تعلم الرأي والمخرج من هذا الأمر ولكنك تتعمد تركه، فقال: ويحك مَنْ ؟ قال روح: الباقر من أهل بيت النبي صلى الله عليه ـ وآله ـ وسلم، قال صدقت ولكنه أرتج عليّ الرأي فيه. فكتب عبد الملك إلى واليه على المدينة، أن أشخص إليّ محمد بن علي بن الحسين مكرماً، فلما وافى أخبره الخبر﴾

وتمثل الدور الإيجابي للأئمة أيضاً في تلك المعارضة القوية العميقة التي كان الأئمة عليهم السلام يواجهون بها الزعامات المنحرفة بإرادة صلبة لا تلين، وقوة

فقال له علي ـ والمفروض أنه الإمام الباقر عليه السلام ـ لا يعظمن هذا عليك؛ فإنه ليس بشيء من جهتين، إحداهما: أن الله جلّ وعز لم يكن ليطلق ما يهددك به صاحب الروم في رسول الله صلى الله عليه ـ وآله ـ وسلم، والأخرى وجود الحيلة فيه. قال عبد الملك وما هي ؟ قال الإمام عليه السلام: تدعو في هذه الساعة بصناع يضربون بين يديك سككاً للدراهم والدنانير وتجعل النقش عليها سورة التوحيد وذكر رسول الله صلى الله عليه ـ وآله ـ وسلم، أحدهما في وجه الدرهم والدينار، والآخر في الوجه الثاني. وتجعل في مدار الدرهم والدينار ذكر البلد الذي يضرب فيه والسنة التي يضرب فيها تلك الدراهم والدنانير، ثم شرح له عليه السلام مسألة أوزانها ومقاديرها وكيفيتها كي لا يزاد ولا ينقص وزنها.

المحاسن والمساوئ، محمد بن إبراهيم البيهقي، دار الصادر بيروت، لبنان (بدون تاريخ): ٤٦٧ ـ ٤٦٩. وانظر: البداية والنهاية: ١٢٢/٩، ففيه يذكر أن عبد الملك قد استقدم الإمام زين العابدين عليه السلام. وفي حياة الحيوان، للدميري، ٩٠/١ ـ ٩١، أن عبد الملك كتب للإمام الباقر عليه السلام حول تهديدات ملك الروم، فأجابه عليه السلام، وإن السيد الشهيد رضي الله عنه في تقديمه للصحيفة السجادية لم يذكر هشام، بل ذكر عبد الملك بن مروان.

وانظر: دائرة المعارف الإسلامية الشيعية: ٤٨٨.

نفسية صامدة لا تتزعزع؛ فإذن هذه المعارضة بالرغم من أنها اتخذت مظهر سلبية المقاطعة في أكثر الأحايين بدلاً عن مظهر الاصطدام الإيجابي، والمقابلة المسلحة.

غير أنّ المعارضة حتى بصيغتها السلبية كانت عملاً إيجابياً عظيماً في حماية الإسلام والحفاظ على مثله وقيمه، لأن انحراف الزعامات القائمة، كان يعكس الوجه المشوّه للرسالة، فكان لابدّ للقادة من أهل البيت عليهم السلام، أنْ يعكسوا الوجه النقي المشرق لها، وأن يؤكدوا عملياً باستمرار المفارقات بين الرسالة والحكم الواقع، وهكذا خرج الإسلام على مستوى النظرية سليماً من الانحراف، وإن تشوهت معالم التطبيق.

ويمكنني أنْ أذكر بهذا الصدد مثالاً جزئياً، ولكنه يعبر عن مدى الجهود التي بذلها الأئمة عليهم السلام في سبيل الحصول على هذا المكسب، مكسب خروج الإسلام على المستوى النظري سليماً من الانحراف، تصوروا أنّ الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قد هدّ السجن صحته، وأذاب جسمه، حتى أصبح حين يسجد لربه كالثوب المطروح على وجه الأرض، فيدخل عليه رسول الزعامة المنحرفة[١] فيقول له: إنّ الخليفة يعتذر إليك، ويأمر بإطلاق سراحك، على

(١) النص: قال الفضل بن الربيع عن أبيه، قال: بعثني هارون إلى أبي الحسن عليه السلام برسالة وهو في حبس السندي بن شاهك، فدخلت عليه وهو يصلي فهبته أن أجلس. ⇐

أنْ تـزوره وتعتذر إليه وتطلب رضاه، فيشمخ الإمام عليه السلام ويجيب بالنفي بكل صـراحة، يـتحمل مـرارة الكـأس لا لشـيء إلا لكي لا يحقق للزعامة المنحرفة هدفهـا مـن أنْ يبارك خطها، فتعكس معالم التشويه من التطبيق المنحرف على الرسالة نفسها.

وتمـثل الـدور الإيجـابي بالأئمة عليهم السلام، في تموين الأمة العقائدية بشخصيتها

فوقفـت متكـئا عـلى سـيفي، فكـان عليه السلام إذا صلى ركعتين وسلم واصل بركعتين أُخـريين، فلما طال وقوفي وخفت أن يسأل عني هارون وحانت منه تسليمة فشرعت في الكلام فأمسك، وقد كان قال لي: هارون لا تقل بعثني أمير المؤمنين إليك، ولكن قل : بعثني أخـوك، وهو يقرئك السلام ويقول لك : إنه بلغني عنك أشياء أقلقتني فأقدمتك إلـيّ، وفحصت عن ذلك فوجدتك نقي الجيب، بريئاً من العيب، مكذوباً عليك فيما رُميت به، ففكرت بين اصرافك إلى منزلك ومقامك ببابي، فوجدت مقامك ببابي أبرأ لصـدري، وأكـذب لقـول المسـرعين فـيك، ولكل إنسان غذاء قد اغتذاه وألفت عليه طبيعـته، ولعلـك اغتذيـت بالمديـنة أغذيـة لا تجـد من يصنعها لك ها هنا، وقد أمرت الفضـل أن يقـيم لـك مـن ذلك ما شئت، فمُره بما أحببت وانبسط فيما تريده، قال : فجعـل عليه السلام الجـواب في كلمـتين مـن غـير أن يلتفـت إلـيّ، فقـال : لا حاضـر مالي فينفعني، ولم أُخلق سؤولاً، الله أكبر. ودخل في الصلاة.

الـدر النظـيم: الـباب التاسـع، فصـل في ذكـر بعـض أخبار موسى عليه السلام (مخطوطة). عن الأنوار البهية، الشيخ عباس القمي : ١٩٤

الرسالية والفكرية من ناحية ومقاومة التيارات الفكرية التي تشكّل خطراً على الرسالة وضربها في بدايات تكونها من ناحية أخرى. وللإمام عليه السلام من علمه المحيط المستوعب ما يجعله قادراً على الإحساس بهذه البدايات الخطرة، وتقدير أهميتها ومضاعفاتها والتخطيط للقضاء عليها وقد يمكن أنْ يفسر على هذا الضوء اهتمام الإمام العسكري عليه السلام وهو في المدينة بمشروع كتاب يضعه الكندي وهو في العراق، حول متناقضات القرآن إذ اتصل به عن طريق بعض المنتسبين إلى مدرسته، وأحبط محاولته، وأقنع مدرسة الكندي بأنها على خطأ[(١)]

---

(١) يشير السيد الشهيد رضي الله عنه إلى إحباط محاولة الكندي ـ وهي تأليف كتاب حول تناقضات القرآن ـ من قبل الإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام: إن الكندي من كبار فلاسفة المسلمين، وقد عاصر الإمام أبي محمد العسكري عليه السلام، وكان بعض تلامذته من موالي الإمام العسكري عليه السلام. أخذ الكندي في تأليف كتاب حول تناقض القرآن وشغل نفسه بذلك، ودخل على الإمام العسكري عليه السلام أحد تلامذة الكندي؛ فقال له الإمام: أما فيكم رجل رشيد يردع أستاذكم الكندي عما أخذ فيه من تشاغله بالقرآن؟ فقال التلميذ: نحن تلامذته كيف يجوز منا الاعتراض عليه في هذا أو في غيره؟ فقال أبو محمد عليه السلام : أتؤدي إليه ما ألقيه إليك ؟ قال: نعم. قال الإمام عليه السلام: فصر إليه وتلطف في مؤانسته ومعونته على ما هو بسبيله فإذا وقعت الأنسة في ذلك

الإيجابية تنكشف في علاقات الأئمة بالأمة

في الواقع إن حياة الأئمة زاخرة كلها بالشواهد الإيجابية للدور المشترك الذي كانوا يمارسونه، فمن ذلك علاقات الأئمة بالأمة والزعامة الجماهيرية الواسعة النطاق التي كان إمام أهل البيت يتمتع بها على طول الخط، فإن هذه الزعامة لم يكن إمام أهل البيت يحصل عليها صدفة أو على أساس مجرد الانتساب إلى الرسول صلى الله عليه وآله ـ والمنتسبون إلى الرسول كُثر ـ بل على أساس

فقل : قد حضرتني مسألة أسألك عنها، فإنه يستدعي ذلك منك، فقل له: إن أتاك هذا المتكلم بهذا القرآن، هل يجوز أن يكون مراده بما تكلم به غير المعاني التي ظننتها وإنك ذهبت إليها؟ فإنه سيقول لك: إنه من الجائز لأنه رجل يفهم إذا سمع، فإذا أوجب ذلك فقل له : فما يدريك لعله أراد غير الذي ذهبت أنت إليه، فيكون واضعاً لغير معانيه، وصار الرجل إلى الكندي ولما حصلت الأنسة ألقى عليه تلك المسألة. فقال الكندي: أعد عليّ فتفكر في نفسه ورأى ذلك محتملاً في اللغة وسائغاً في النظر. فقال الكندي: أقسمت عليك إلا أخبرتني من أين لك ؟ فقال تلميذه: شيء عرض بقلبي فأوردته عليك، فقال: كلا ما مثلك من اهتدى إلى هذا ولا من بلغ هذه المنزلة فعرفني من أين لك هذا ؟ فقال: أمرني به أبو محمد عليه السلام. فقال: الآن جئت به، ما كان ليخرج مثل هذا إلا من ذلك البيت، ثم إنّ الكندي دعا بالنار وأحرق ما كان ألفه.

مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب: ٣/٥٢٥ ـ ٥٢٦.

العطاء والدور الإيجابي الذي يمارسه الإمام في الأمة بالرغم من إقصائه عن مركز الحكم، فإن الأمة لا تمنح على الأغلب الزعامة مجاناً، ولا يملك الفرد قيادتها وميل قلوبها من دون عطاء سخي منه تستشعره الأمة في مختلف مجالاتها وتستفيد منه في حلّ مشكلاتها والحفاظ على رسالتها.

إنّ تلك الزعامة الواسعة التي كانت نتيجة لإيجابية الأئمة عليهم السلام في الحياة الإسلامية، هي التي جعلت علي بن أبى طالب المثل الأعلى للثوار الّذين قضوا على عثمان بن عفان وهي التي كانت تتمثل بمختلف العلاقات التي عاشها الأئمة عليهم السلام مع الأمة.

انظروا إلى الإمام موسى بن جعفر عليه السلام كيف يقول لهارون الرشيد: أنت إمام الأجسام وأنا إمام القلوب (١).

انظروا إلى عبد اللّه بن الحسن حين أراد أنْ يأخذ البيعة لابنه محمد كيف يقول للإمام الصادق عليه السلام: (واعلم فديتك إنك إذا أجبتني لم يتخلف عني

---

(١) النص التاريخي: (ولما قال له الرشيد ـ أي للإمام الكاظم عليه السلام ـ حين رآه جالسا عند الكعبة: أنت الذي يبايعك الناس سراً ؟)، فقال: (أنا إمام القلوب وأنت إمام الجسوم).

ينابيع المودة لذوي القربى. القندوزي : ٣ /١٢٠.

أحد من أصحابك ولم يختلف عليَّ اثنان من قريش ولا من غيرهم)[١]، ولاحظوا مدى ثقة الأمة بقيادة أئمة أهل البيت عليهم السلام نتيجة لما يعيشونه من دور إيجابي في حماية الرسالة ومصالح الأمة.

لاحظوا المناسبة الشهيرة التي أنشد فيها الفرزدق قصيدته في الإمام زين العابدين عليه السلام كيف أنّ هيبة الحكم وجلال السلطان لم يستطع أنْ يشق لهشام طريقاً لاستلام الحجر بين الجموع المحتشدة من أفراد الأمة في موسم الحج[٢]، بينما استطاعت زعامة أهل البيت عليهم السلام أنْ تكهرب تلك الجماهير في لحظة وهي تحس بمقدم الإمام القائد، فتشق الطريق بين يديه نحو الحجر.

---

(١) مدينة المعاجز، السيد هاشم البحراني، متوفي ١١٠٧هـ، مؤسسة المعارف الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ: ٥ / ٢٧٧.

(٢) مطلع القصيدة:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقي النقي الطاهر العلم

إذا رأته قريش قال قائلها ... إلى مكارم هذا ينتهي الكرم

يكاد يمسكه عرفان راحته ... ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم

انظر: سير أعلام النبلاء، الناشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٣هـ، الذهبي: ٣٩٨/٤، وتاريخ دمشق، ابن عساكر: ٤٠٠/١٤.

ولاحظوا قصة الهجوم الشيعي الهائل الذي تعرض له قصر المأمون، نتيجة لإغضاب الإمام الرضا عليه السلام، فلم يكن مناص من الالتجاء إلى الإمام لحمايته من غضب الأمة، وقال له الإمام عليه السلام: ((اتق اللّه في أمة محمد صلى الله عليه وآله وما ولاك من هذا الأمر وخصك به، فانك قد ضيعت أمور المسلمين، وفوضت ذلك إلى غيرك يحكم فيها بغير حكم اللّه عز وجل))(١)

إنّ كل هذه النماذج والمظاهر للزعامة الشيعية التي عاشها أئمة أهل البيت عليهم السلام على طول الخط تبرهن على إيجابيتهم، وشعور الأمة بدورهم الفعال في حماية الرسالة.

الإيجابية تتكشف في علاقات الأئمة بالحكام

ويمكننا أنْ نتطرق لزاوية جديدة لنصل إلى نفس هذه النتيجة من زاوية علاقات الزعامات المنحرفة مع إمام أهل البيت عليهم السلام على طول الخط، فإن هذه العلاقات كانت تقوم على أساس الخوف الشديد من نشاط الأئمة عليهم السلام ودورهم في الحياة الإسلامية حتى يصل الخوف لدى الزعامات المنحرفة أحياناً إلى درجة الرعب، وكان محصول ذلك الاستمرار بتطويق إمام ذلك الوقت ووضع رقابة محكمة عليه ومحاولة فصله عن قواعده الشعبية، ثم التآمر على

---

(١) مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب: ٤٥٧/٣، تم تصحيح النص وفقاً للمصدر.

حـياته ووفاتـه شـهيداً بقصـد الـتخلص من خطره، فهل كان من الصدفة أو مجـرد تسـلية أنْ تـتخذ الـزعامات المنحرفة كل هذه الإجراءات تجاه أئمة أهل البيـت عليهم السلام؟ بالـرغم من أنها تكلفها ثمناً باهظاً من سمعتها وكرامتها، أو كان ذلـك نتـيجة شـعور الحكـام المـنحرفين بخطـورة الـدور الإيجابي الذي يمارسه الأئمة؛ وإلا فلماذا كل هذا القتل والتشريد والسجن والتبعيد ؟

❖ أئمة أهل البيت عليهم السلام ومحاولة تسلم السلطة ❖

هل كان الأئمة يحاولون استلام الحكم ؟

يبقى سؤال واحد قد يتبادر إلى الذهن هذا السؤال: وهو أنّ إيجابية الأئمة عليهم السلام ، هل كانت تصل إلى مستوى العمل لاستلام زمام الحكم من الزعامات المنحرفة، أو تقتصر على حماية الإسلام والرسالة الإسلامية ومصالح الأمة من التردي إلى الهاوية وتفاقم الانحراف ؟

والجواب على هذا السؤال: يحتاج إلى توسع في الحديث يضيق عنه المجال هنا، غير أنّ الفكرة الأساسية المستخلصة من نصوص وأحاديث عديدة أنّ الأئمة عليهم السلام لم يكونوا يرون الظهور بالسيف، والانتصار المسلح آنياً، كافياً لإقامة دعائم الحكم الصالح على يد الإمام.

إنّ إقامة هذا الحكم وترسيخه لا يتوقف في نظرهم على مجرد تهيئة حملة عسكرية، بل يتوقف قبل ذلك على إعداد جيش عقائدي يؤمن بالإمام وعصمته إيماناً مطلقاً، ويعي أهدافه الكبيرة ويدعم تخطيطه في مجال الحكم ويحرس ما يحققه للأمة من مصالح. وكلكم تعرفون قصد الخراساني الذي جاء إلى الإمام الصادق عليه السلام يعرض عليه تبني حركة الثوار الخراسانيين فأجل جوابه، ثم أمره بدخول النار فرفض وجاء ((هارون المكي))[1]؛ فأمره بذلك،

---

(١) في الأصل : ((أبو بصير)) والصحيح ما ذُكر، أنظر: الهامش التالي.

فسارع إلى الامتثال، فالتفت الإمام إلى ثوار خراسان وقال: لو كان بينكم أربعون مثل هذا لخرجت لهم(١).

وعلى هذا الأساس تسلم أمير المؤمنين زمام الحكم في وقت توفر فيه ذلك الجيش العقائدي الواعي متمثلاً في الصفوة المختارة من المهاجرين والأنصار والتابعين من أصحابه رضوان الله عليهم.

---

(١) النص التاريخي: روى ابن شهر آشوب بسنده: عن مأمون الرقي قال كنت عند سيدي الصادق عليه السلام إذ دخل سهل بن حسن الخراساني، فسلم عليه ثم جلس، فقال له: يا بن رسول الله لكم الرأفة والرحمة وأنتم أهل بيت الإمامة ما الذي يمنعك أن يكون لك حق تقعد عنه وأنت تجد من شيعتك مائة ألف يضربون بين يديك بالسيف، فقال له عليه السلام: اجلس يا خراساني رعى الله حقك، ثم قال: يا حنفية أُسجري التنور فسجرته حتى صار كالجمرة وابيض علوه، ثم قال: يا خراساني قم فاجلس في التنور، فقال الخراساني: يا سيدي يا بن رسول الله لا تعذبني بالنار أقلني أقالك الله، قال: قد أقلتك، فبينما نحن كذلك إذ أقبل هارون المكي ونعله في سبابته، فقال: السلام عليك يا بن رسول الله، فقال له الصادق: الق النعل من يدك واجلس في التنور؛ قال: فألقى النعل من سبابته ثم جلس في التنور، وأقبل الإمام يحدث الخراساني حديث خراسان حتى كأنه شاهد لها، ثم قال : قم يا خراساني وانظر ما في التنور. قال: فقمت إليه فرأيته متربعا فخرج إلينا وسلم علينا، فقال له الإمام : كم تجد بخراسان مثل هذا ؟ فقلت : والله ولا واحدا فقال عليه السلام : لا والله ولا واحدا أما إنّا لا نخرج في زمان لا نجد فيه خمسة معاضدين لنا نحن أعلم بالوقت. مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب: ٣ /٣٦٢ ـ ٣٦٣.

رعاية الشيعة بوصفها الكتلة المؤمنة بالإمام:

عرفنا أنّ الدور المشترك الذي كان الأئمة عليهم السلام يمارسونه في الحياة الإسلامية، هو دور الوقوف في وجه المزيد من الانحراف وإمساك المقياس عن التردي إلى الحضيض، والهبوط إلى الهاوية.

غير أنّ هذا في الحقيقة يعبّر عن بعض ملامح الدور المشترك، وهناك جانب آخر في هذا الدور المشترك لم نشر إليه حتى الآن، وهو جانب رعاية الشيعة بوصفهم الكتلة المؤمنة بالإمام عليه السلام، والإشراف عليها بوصفها المجموعة المرتبطة به والتخطيط لسلوكها وحماية وجودها وتنمية وعيها، وإسعافها بكل الأساليب التي تساعد على صمودها في خضم المحن وارتفاعها إلى مستوى الحاجة الإسلامية إلى جيش عقائدي وطليعة واعية.

ولدينا عدد كبير من الشواهد في حياة الأئمة عليهم السلام على أنهم كانوا يباشرون نشاطاً واسعاً في سبيل الإشراف على الكتلة المرتبطة بهم والمؤمنة بإمامتهم حتى أنّ الإشراف كان يصل أحياناً إلى درجة تنظيم أساليب الحل للخلافات الشخصية بين أفراد الكتلة ورصد الأموال لها، كما يحدّث بذلك المعلى بن خنيس، عن الإمام الصادق عليه السلام[1]

---

(١) النص الروائي: روى الشيخ الصدوق رضي الله عنه بسنده: عن المعلى بن خنيس قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ما حق المؤمن على المؤمن ؟ قال: سبع حقوق واجبات ←

وعلى هذا الأساس يمكننا أنْ نفهم عدداً من نصوص الأئمة عليهم السلام، بوصفها تعليم أساليب الجماعة التي يشرفون على سلوكها، وقد تختلف هذه الأساليب باختلاف ظروف الشيعة والملابسات التي يمرون بها.

هذه نقاط أحببت إثارتها عن دراسات الأئمة.

↵ما فيها حق إلا وهو عليه واجب إن خالفه خرج من ولاية الله وترك طاعته، ولم يكن لله عز وجل فيه نصيب، قال: قلت: جعلت فداك حدثني ما هن ؟ قال : يا معلى إني شفيق عليك أخشى أن تضيع ولا تحفظ وتعلم ولا تعمل، قلت: لا قوة إلا بالله. قال: أيسر حق منها أن تحب له ما تحب لنفسك، وتكره له ما تكره لنفسك، والحق الثاني أن تمشي في حاجته وتبتغي رضاه ولا تخالف قوله، والحق الثالث أن تصله بنفسك ومالك، ويدك ورجلك، ولسانك، والحق الرابع أن تكون عينه ودليله ومرآته وقميصه، والحق الخامس أن لا تشبع ويجوع، ولا تلبس ويعرى، ولا تروي ويظمأ، والحق السادس أن تكون لك امرأة وخادم وليس لأخيك امرأة ولا خادم أن تبعث خادمك فتغسل ثيابه، وتصنع طعامه، وتمهد فراشه، فان ذلك كله إنما جعل بينك وبينه، والحق السابع أن تبر قسمه، وتجيب دعوته، وتشهد جنازته، وتعوده في مرضه، وتشخص بدنك في قضاء حاجته، ولا تحوجه إلى أن يسألك، ولكن تبادر إلى قضاء حاجته، فإذا فعلت ذلك به، وصلت ولايتك بولايته، وولايته بولاية الله عز وجل. الخصال، الناشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرسين- قم، الشيخ الصدوق: ٣٥٠.

أحس أيها الأخوة أنّ ما قدمته كاف لإثارة النقاط التي أحببت إثارتها والتي يجب أنْ يرتكز عليها الأساس في دراساتنا للأئمة، أرجو أنْ يكون هذا منطلقاً للباحثين في حياة أهل البيت عليهم السلام.

ختاماً أبتهل إلى المولى سبحانه أنْ يجعلنا جميعاً من أتباع الأئمة والسائرين على هداهم والملتزمين بكل حدودهم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[١]

---

(١) تم إجراء جملة من التغييرات على النص وفقاً لما وجدناه في كتاب اخترنا لك من ص ٦١ ـ ٧٠ ودائرة المعارف الإسلامية الشيعية، للسيد حسن الأمين: ٤٨٧ ـ ٤٩٠. وأما ما يخص العناوين؛ فكنا نستخرجها من ذات النصوص أو بالاستعانة في بعضها بدائرة المعارف، مرة بتعديل طفيف، وأخرى نضع نفس العنوان. مع الإشارة إلى أن المتن في دائرة المعارف، فيه قطوع كثيرة، لذا اعتمدنا كتاب ((اخترنا لك)) في التصحيح.

بسم الله الرحمن الرحيم

ليلة جرح الإمام علي عليه السلام

هذه الليلة... لذكرى..(١)

ذكرى أشأم ليلة بعد يوم توفي فيه رسول الله صلى الله عليه وآله(٢)؛ فاليوم الذي توفي فيه رسول الله صلى الله عليه وآله كان اليوم الذي خلف فيه النبي صلى الله عليه وآله تجربته الإسلامية في مهب القدر، في رحبة المؤامرات التي أتت عليها بعد برهة من الزمن واليوم الذي اغتيل فيه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، كان اليوم الذي قضى على آخر أمله في إعادة خط تلك التجربة الصحيحة، هذا الأمل الذي كان لا يزال يعيش في نفوس المسلمين الواعين متجسدا في شخص هذا الرجل العظيم، الذي عاش منذ اللحظة الأولى هموم الدعوة وآلامها واكتوى بنارها وشارك في بنائها لبنة لبنة..... أقام صرحها مع أُستاذه صلى الله عليه وآله مدماكاً (٣) فوق مدماك.

---

(١) وهي الليلة التي ضرب بها ابن ملجم أمير المؤمنين عليه السلام في مسجد الكوفة ليلة، ١٩ /شهر رمضان المبارك / سنة ((٤٠هـ)). وليلة ١٩/ شهر رمضان/١٣٨٨ هجري، حيث ألقى السيد الشهيد رضي الله عنه المحاضرة بهذه المناسبة الأليمة في النجف الأشرف.

(٢) توفي النبي صلى الله عليه وآله في الثامن والعشرين من صفر في سنة إحدى عشر للهجرة.

تاج المواليد، العلامة الطبرسي: ٧

(٣) مدماك: دميكا والمدماك: الساف من البناء، والصف من اللبن أو الحجارة في البناء ☜

هذا الرجل الذي كان يعبّر عن كل هذه المراحل بكل همومها.... ومشاكلها وآلامها....

هذا الرجل هو الذي كان يمثل هذا الأمل الوحيد الذي بقي للمسلمين الواعين في أنْ تسترجع التجربة خطها الواضح الصريح وأسلوبها النبوي المستقيم.... حيث أنّ الانحراف في أعماق هذه التجربة كان قد طغى وتجبر واتسع بحيث لم يكن هناك أي أمل في أنْ يقهر هذا الانحراف.... اللهم إلا على يد رجل واحد كعلي بن أبى طالب عليه السلام ولهذا كانت حادثة اغتيال هذا الإمام العظيم.. حينما خر صريعا في مثل هذه الليلة تقويضاً حقيقياً لآخر أمل حقيقي في قيام مجتمع إسلامي صحيح على وجه الأرض إلى يوم غير معلوم، وأجل غير محدود.

كان هذا الاغتيال المشؤوم عُقيب حكم مارسه الإمام عليه السلام طيلة أربع أو خمس سنوات تقريباً [١] حيث بدأ ـ منذ اللحظة الأولى لتسلم زمام الحكم ـ

عند أهل الحجاز مدماك، وعند أهل العراق ساف، وهو من الدمك التوثيق، والمدماك خيط البناء والنجار أيضا. وقال شجاع: دمكت الشمس في الجو ودلكت إذا ارتفعت. وروي عن محمد بن عمير قال: كان بناء الكعبة في الجاهلية مدماك حجارة ومدماك عيدان من سفينة انكسرت. لسان العرب ، ابن منظور: ٤٢٩/١.

(١) امتدت خلافة الإمام علي عليه السلام من سنة ((٣٥ ـ ٤٠)) هـ، حيث تولى الأمر بعد

عقلـية التغـيير الحقيقـية في كيان هذه التجربة المنحرفة وواصل سعيه في سبيل إنجـاح عملية التغيير واستشهد، وخر صريعاً بالمسجد وهو في قمة هذه المحاولة أو في آخـر محاولـة إنجـاح عملية التغيير وتصفية الانحراف الذي كان قد ترسخ في جسـم المجتمع الإسلامي متمثلاً في معسكر منفصل[1] عن الدولة الإسلامية الأم.

❖ الموقف الرسالي وأنصاف الحلول ❖

والظاهـرة الواضـحة في هـذه الأربـع أو الخمـس سـنوات التي مارس فيها الإمـام عليه السلام عملـية الحكم ـ وإلى إنْ خرَّ صريعاً في سبيل إقامة عدل الله على

مقتل عثمان بن عفان عام ٣٥هـ.

تـاريخ الأمـم والملوك، محمد بن جرير الطبري، مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان: ٣/٤٥٠، وما بعدها.

(١) يشـير السـيد الشـهيد رضي الله عنه ، إلى امتـناع معاويـة بـن أبي سفيان عن بيعة الإمام عليه السلام واسـتقلاله في ولايـة الشـام، وكـان ذلـك مزامـناً لتولي الإمام الخلافة، عام ٣٥ هجـري. ((فـلما ذاق معاويـة أهـل الشام، وعرف مبايعتهم له، قال معاوية لجرير ـ وهو مـبعوث الإمـام عليه السلام إلـيه : ((إلحـق بصـاحبك وأعـلمه أني وأهل الشام لا نجيبه إلى البيعة)). الأخبار الطوال، الدينوري: ١٦٠.

الأرض ـ كان غير مستعد بأي شكل من الأشكال وفي أي صيغة من الصيغ لتقبل أنصاف الحلول بالنسبة إلى تصفية هذا الانحراف أو لتقبل أي معنى من معاني المساومة أو المعاملة على حساب هذه الأمة التي كان يرى بكل حرقة وألم أنها تهدر كرامتها وتباع بأرخص ثمن.

❖ التبرير السياسي والفقهي ❖

هذه الظاهرة تسترعي الانتباه سياسياً من ناحية وتسترعي الانتباه فقهياً من ناحية أخرى:

ـ أما من الناحية السياسية فقد استرعت انتباه أشخاص معاصرين للإمام عليه السلام واسترعت انتباه أشخاص حاولوا أنْ يحلّلوا ويدرسوا حياة الإمام عليه السلام.

فقد لوحظ على الإمام عليه افضل الصلاة والسلام: أنّ عدم تقبله بأي شكل من الأشكال لهذه المساومات وأنصاف الحلول كان يُعَقّدُ عليه الموقف ويثير أمامه الصعاب ويرسخ المشاكل ويجعله عاجزاً عن مواجهته لمهمته السياسية والمضي بخط تجربته إلى حيث يريد. فمثلاً: ذاك الشخص[1] الذي

---

(١) إن الشخص، هو المغيرة بن شعبة، ـ حسب المروي ـ وقد طلب من الإمام عليه السلام أن يقر معاوية على الشام وعبد الله بن عامر على البصرة؛ فلم يأبه الإمام عليه السلام لقوله. أما نص الحوار؛ فهو كما رواه اليعقوبي في تاريخه: أن المغيرة بن شعبة قال له: يا أمير ☜

جاء إليه بعقلية هذه المساومات واقترح عليه أنْ يبقي معاوية بن أبي سفيان والياً على الشام برهة من الزمن قائلاً: إنّ بإمكانك إبقاء معاوية والياً على الشام برهة من الزمن وهو في هذه الحالة سوف يخضع ويبايع، وبعد هذا يكون بإمكانك استبداله أو تغييره بأي شخص آخر بعد أنْ تكون قد استقطبت كل أطراف الدولة وقد تمت لك البيعة والطاعة في كل أرجاء العالم الإسلامي، فاشتر بإبقاء هذا الوالي أو ذلك الوالي هذا الحاكم أو ذلك الحاكم بإبقاء هذه الثروات المحرمة في جيب هذا السارق أو في جيب ذلك السارق برهة من الزمن، ثم بعد هذا يمكنك أنْ تصفي كل هؤلاء الولاة الفجرة وترجع كل هذه الثروات المحرمة إلى بيت المال.

فالإمام عليه السلام في جواب هذا الشخص[1] رفض هذا المنطق واستمر في خطه

المؤمنين! أنفذ طلحة إلى اليمن، والزبير إلى البحرين، واكتب بعهد معاوية على الشام، فإذا استقامت الأمور، فشأنك وما تريده فيهم!

تاريخ اليعقوبي: ١٨٠/٢. وانظر: تاريخ الطبري : ٣ / ٤٥٢.

(١) النص التاريخي: إن المغيرة بن شعبة جاء إلى علي بن أبي طالب عليه السلام فقال له اكتب إلى معاوية فولّه الشام ومره بأخذ البيعة لك فإنك إن لم تفعل وأردت عزله حاربك فقال علي عليه السلام ما كنت متخذ المضلين عضدا فانصرف المغيرة وتركه فلما كان من غد جاءه فقال إني فكرت فيما أشرت به عليك أمس فوجدته خطأ ووجدت

السياسي يرفض كل مساومة ومعاملة من هذا القبيل، ومن هنا قال معاصروه وقال غير معاصريه انه كان بإمكانه أنْ يسجّل نجاحاً كبيراً وأن يحقق توفيقاً من الناحية السياسية اكثر لو انه قبل أنصاف الحلول، ولو انه مارس هذا النوع من المساومات ولو بشكّل مؤقت.

ـ أما من الناحية الفقهية فهي ناحية التزاحم، الفقه يقول: بأنه إذا توقف واجب أهم على مقدمة محرمة فلابدّ من الحفاظ على ذلك الواجب الأهم، وفي سبيل حرمة المقدمة لا يجوز تبرير ترك الواجب الأهم، حينما يقال ذلك إذا توقف إنقاذ نفس محترمة من الغرق على اجتياز ارض مغصوبة لا يرضى صاحبها باجتيازها[1]؛ فلابدّ من اجتيازها حيث تسقط هنا حرية هذا المالك وعدم رضاه، لأن النتيجة أهم من هذه المقدمة، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله في بعض غزواته[2] مثالاً مشابهاً لهذا المثال حيث كان الجيش الإسلامي مضطراً

رأيك أصوب فقال له علي لم يخف علي ما أردت قد نصحتني في الأولى وغششتني في الآخرة ولكني والله لا آتي أمراً أجد فيه فساداً لديني طلباً لصلاح دنياي فانصرف المغيرة. الكامل في التاريخ ابن الأثير، دار الكتاب العربي بيروت: ٨٧/٣.

(١) دروس في علم الأصول، السيد الشهيد رضي الله عنه ، دار الكتاب اللبناني، ط٢، ١٤٠٦ هـ : ٢٢٦/٢.

(٢) وكان ذلك في غزوة الطائف، الطبقات الكبرى، ابن سعد : ١٥٧/٢.

إلى الخروج من المدينة عن طريق معيّن وهذا الطريق كان فيه مزرعة لأحد الصحابة وكان لابدّ للجيش حينما يمر على هذه المزرعة وبحكم طبيعة مروره كجيش من أنْ يتلف كثيراً من محاصيل هذه المزرعة ويصيبها بأضرار فصاحب المزرعة ما هان عليه أنْ يقدم هذه الأضرار في سبيل الله وفي سبيل الرسالة... احتج على ذلك وصرخ ثم جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : مزرعتي ومالي، فلم يجبه رسول الله صلى الله عليه وآله واصدر أوامره إلى الجيش، فمشى في هذه المزرعة حتى لم يبق في هذه المزرعة شيء مما كان يخاف تلفه صاحب المزرعة إلا وتلف.

كل ذلك لان النتيجة كانت أهم من المقدمة، كان هذا الجيش يسير لأجل أنْ يغير وجه الدنيا، ولأجل تغيير وجه الدنيا إذا تلفت مزرعة إذا ضاعت هناك ثروة صغيرة لشخص في سبيل أنْ يحفظ مقياس توزيع الثروات في العالم على الخط الطويل الطويل، فهذا أمر صحيح ومعقول من الناحية الفقهية، فمن الناحية الفقهية دائماً يقرر أنّ الواجب إذا توقف على مقدمة محرمة وكان ملاك الواجب أقوى من ملاك الحرمة: فلابدّ أنْ يقدم الواجب على الحرام.

وعلى هذا الضوء حينئذ تثار هذه القضية في هذه الظاهرة التي استوضحناها في حياة أمير المؤمنين عليه السلام كحاكم.

وهي انه لماذا لم يطبّق هذه القاعدة في سبيل استباحة كثير من المقدمات المحرمة، أليس إجماع الرأي عليه، أليس تملكه زمام قيادة مجتمع إسلامي، أليس

هـذا أمراً واجباً محققاً لمكسب إسلامي كبير، لأنه هو الذي سوف يفتح أبواب الخيرات والبركات ويقيم حكومة الله على الأرض، إذن فلماذا في سبيل تحقيق هـذا الهـدف إذا توقـف هـذا الهـدف على مقدمة محرمة من قبيل إمضاء ولاية معاويـة بن أبي سفيان برهة من الزمن، أو إمضاء الأموال المحرمة التي نهبها آل أمـية[1]، أو غيرهـم مـن الأسـر الـتي وزع علـيها عـثمان بـن عفـان أمـوال

---

(١) المـنقول الـتاريخي: إن سياسـة عـثمان المالـية ترتكز على ما قوله : (أيها الناس: إن أبا بكـر وعمـر كانا يتأولان في هذا المال ظلف أنفسهما وذوي أرحامهما وإني تأولت فيه صـلة رحمـي). الطبقات الكبرى، محمد بن سعد: ٣ / ٦٤. ولما زوج عثمان ابنته من عبد الله بـن خـالد بن أسيد، وأمر لـه بستمائة ألف درهم، وكتب إلى عبد الله بن عامر أن يدفعهـا إليه من بيت مال البصرة. وحدث أبو إسحاق عن عبد الرحمن بن يسار قال : رأيـت عـامل صـدقات المسـلمين على سوق المدينة إذا أمسى آتاها عثمان، فقال لـه : ادفعهـا إلى الحكـم ابـن أبـي العـاص. وكان عثمان إذا أجاز أحدا من أهل بيته بجائزة جعلها فرضا من بيت المال، فجعل يدافعه ويقول لـه : يكون فنعطيك إن شاء الله، فألح عليه، فقال: إنما أنت خازن لنا، فإذا أعطيناك فخذ، وإذا سكتنا عنك فاسكت.

فقـال : كذبـت والله ! مـا أنـا لـك بخازن، ولا لأهل بيتك، إنما أنا خازن المسلمين. وجاء بالمفتاح يوم الجمعة وعثمان يخطب، فقال : أيها الناس زعم عثمان أني خازن له ولأهل بيته، وإنمـا كنـت خازنـا للمسلمين، وهـذه مفاتـيح بيت مالكم. ورمى بها، فأخذها عـثمان، ودفعهـا إلى زيـد بـن ثابت. تاريخ اليعقوبي : ٢/ ١٦٨ ـ ١٦٩. ودخل ـ

المسلمين[١]. لماذا لا يكون السكوت مؤقتاً عن هذا النهب والسلب مقدمة للواجب الأهم.. ؟

ولماذا لا يكون جائزاً حينئذ على أساس توقف الواجب الأهم على ذلك...؟

عبد الرحمن بن عوف- على عثمان فقال له: إني إنما قدمتك على أن تسير فينا بسيرة أبي بكر وعمر فقد خالفتهما. قال (عثمان): كان عمر يقطع قرابته وأنا أصل قرابتي في الله فقال له عبد الرحمن: إني لا أكلمك أبداً.

جواهر المطالب في مناقب الإمام علي عليه السلام، ابن الدمشقي الشافعي: ٢ /١٧٥.

(١) وروى الطبري بسنده : عن عبد الله بن الحسن، قال: لما قتل عثمان بايعت الأنصار علياً إلا نفرا يسيرا منهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك ومسلمة بن مخلد وأبو سعيد الخدري ومحمد بن مسلمة والنعمان بن بشير وزيد بن ثابت ورافع بن خديج وفضالة بن عبيد وكعب بن عجرة كانوا عثمانية، فقال رجل لعبد الله بن الحسن: كيف أبى هؤلاء بيعة علي وكانوا عثمانية، قال: أما حسان فكان شاعراً لا يبالي ما يصنع، وأما زيد بن ثابت فولاه عثمان الديوان وبيت المال، فلما حصر عثمان، قال: يا معشر الأنصار كونوا أنصار الله مرتين فقال أبو أيوب ما تنصره إلا أنه أكثر لك من العضدان، فأما كعب بن مالك فاستعمله على صدقة مزينة وترك ما أخذ منهم له.

تاريخ الطبري : ٣ / ٤٥٢.

❖ موقف الإمام عليه السلام الضرورة العقائدية والرسالية ❖

الواقع هو أنّ الإمام عليه السلام كان لابدّ له أنْ ينهج هذا الطريق ولم يكن بإمكانه كقائد رسالي يمثل الإسلام وأهدافه لم يكن بإمكانه أنْ يقبل هذه المساومات وأنصاف الحلول[١] ولو كمقدمة وليس قانون باب التزاحم الفقهي هنا صالحاً للانطباق على موقف أمير المؤمنين عليه السلام وذلك بعد اخذ النقاط التالية بعين الاعتبار:

---

(١) تقارب رؤى: سيد قطب وموقف الإمام عليه السلام الرسالي: ((والذين يرون في معاوية دهاء وبراعة لا يرونها في علي، ويعزون إليهما غلبة معاوية في النهاية، إنما يخطئون تقدير الظروف، كما يخطئون فهم علي وواجبه. لقد كان واجب علي الأول والأخير، أن يرد للتقاليد الإسلامية قوتها، وأن يرد إلى الدين روحه، وأن يجلو الغاشية التي غشت هذا الروح على أيدي بني أمية في كبرة عثمان ووهنه، ولو جارى معاوية في إقصاء العنصر الأخلاقي من حسابه، لسقطت مهمته، ولما كان لظفره بالخلافة من قيمة في حياة هذا الدين. فما جدوى استبدال معاوية بمعاوية؟ إنّ علياً إما أن يكون علياً أو فلتذهب الخلافة عنه، أو فلتذهب حياته معها. هذا هو الفهم الصحيح الذي لم يغب عنه – كرم الله وجهه – وهو يقول: ((والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر. ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس)).

العدالة الاجتماعية في الإسلام، سيد قطب، دار الكتاب العربي، مصر (بدون تاريخ) : ١٨٨ – ١٨٩.

النقطة الأولى: إنّه لابدّ وأنْ يلحظ في المقام إنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يريد أنْ يرسخ قاعدة سلطانه في قطر جديد من أقطار العالم الإسلامي وهذا القطر هو العراق.

وكان شعب العراق وأبناء العراق مرتبطين روحياً وعاطفياً مع الإمام عليه السلام ولكن لم يكن شعب العراق ولا أبناء العراق يعون رسالة علي عليه السلام وعياً حقيقياً كاملاً، ولهذا كان الإمام بحاجة إلى أنْ يبني تلك الطليعة العقائدية، ذلك الجيش العقائدي الذي يكون أميناً على الرسالة وأميناً على الأهداف وساعداً له ومنطلقاً بالنسبة إلى ترسيخ هذه الأهداف في كل أرجاء العالم الإسلامي، والإمام عليه السلام لم يكن يملك هذه القاعدة بل كان بحاجة إلى أنْ يبنيها.

إذن كيف يبني هذه القاعدة ؟

هل يمكن أنْ يبني هذه القاعدة في جو من المساومات وأنصاف الحلول ؟

حتى لو كانت هذه المساومات وأنصاف الحلول جائزة شرعاً إلا أنّ جوازها الشرعي لا يؤثر في هذه الحقيقة النفسية الواقعية شيئاً، وهي أنّ شخصاً لا يمكن أنْ يعيش في جو من المساومات وأنصاف الحلول فيكتسب روحية أبي ذر أو يكتسب روحية عمار بن ياسر روحية الجيش العقائدي الواعي البصير بأن المعركة ليست للذات وانما هي للأهداف الكبيرة التي هي أكبر من الذات [1].

---

(١) نموذج: إن في قصة حجر الخير وصحبه الأبرار رضي الله عنهم مثالاً لذلك الجيش العقائدي

هذه الروحية لا يمكن أنْ تنمو ولا يمكن لعلي عليه السلام أنْ يخلقها في من حوله في حاشيته وفي أوساطه وقواعده الشعبية في جو من المشاحنات والمساومات وأنصاف الحلول حتى لو كانت جائزة... إنّ جوازها لا يغير من مدلولها التربوي شيئاً ولا من دورها في تكوين نفسية هذا الشخص بأي شكل من الأشكال...

إذن فالإمام عليه السلام كان أمامه حاجة ملحة حقيقية في بناء دولته إلى قاعدة شعبية واعية يعتمد عليها في ترسيخ الأهداف في النطاق الأوسع وهذه القاعدة الشعبية لم تكن جاهزة له حينما تسلّم زمام الحكم حتى يستطيع أنْ

، روى الطبري : (فقال لهم رسول معاوية إنا قد أمرنا أن نعرض عليكم البراءة من علي واللعن له فإن فعلتم تركناكم وإن أبيتم قتلناكم وإن أمير المؤمنين ـ معاوية ـ يزعم أن دماءكم قد حلت له بشهادة أهل مصركم عليكم غير أنه قد عفى عن ذلك فابرؤا من هذا الرجل- أي من علي بن أبي طالب- نخل سبيلكم، قالوا: اللهم إنا لسنا فاعلي ذلك فأمر بقبورهم فحفرت وأدنيت أكفانهم وقاموا الليل كله يصلون فلما أصبحوا قال أصحاب معاوية يا هؤلاء لقد رأيناكم البارحة قد أطلتم الصلاة وأحسنتم الدعاء فأخبرونا ما قولكم في عثمان قالوا: هو أول من جار في الحكم وعمل بغير الحق فقال أصحاب معاوية : أمير المؤمنين كان أعلم بكم ثم قاموا إليهم فقالوا: تبرؤون من هذا الرجل قالوا: بل نتولاه ونتبرأ ممن تبرأ منه).

تاريخ الطبري: ٤ /٢٠٥.

يتفق معها.

على أنّ هذه المساومات وأنصاف الحلول إنها ضرورات استثنائية لا توجب الانحراف عن ذلك الخط... إنما كان على علي عليه السلام أنْ يبني ذلك الجيش العقائدي، كان على علي عليه السلام أنْ ينتزع الخيّر الخيّر الطيّب الطيّب من جماعته وحاشيته العراقيين لكي يشكّل منهم كتلة واعية من قبيل مالك الأشتر وغيره(١) وهؤلاء لم يكن بالإمكان ممارسة بناء نفسي وروحي وفكري وعاطفي حقيقي لهم في جو مليء بالمساومات وأنصاف الحلول... كانت المساومات، وأنصاف الحلول نكسة بالنسبة إلى عملية التربية لهذا الجيش العقائدي وكان فقدان هذا الجيش العقائدي، يعني فقدان القوة الحقيقية التي يعتمد عليها

---

(١) موقف: ((ثم قام عمرو بن الحمق، فقال: يا أمير المؤمنين، ما أجبناك لدنيا ولا نصرناك على باطل، ما أجبناك إلا لله تعالى، ولا نصرناك إلا للحق، ولو دعانا غيرك إلى ما دعوتنا لكثر فيه اللجاج، وطالت له النجوى، وقد بلغ الحق مقطعه، وليس لنا معك رأي)). الإمامة والسياسة، ابن قتيبة الدينوري، تحقيق الشيري : ١ / ١٤٤. وموقف آخر: (ثم قام الأشتر فقال: يا أمير المؤمنين، ما أجبناك لدنيا. إن معاوية لا خلف له من رجاله، ولكن بحمد الله الخلف لك، ولو كان له مثل رجالك لم يكن له مثل صبرك ولا نصرتك، فافرج الحديد بالحديد، واستعن بالله).

الإمامة والسياسة، ابن قتيبة الدينوري، تحقيق الشيري: ١ /١٤٤.

الإمام عليه السلام في بناء دولته، لأن أي دولة عقائدية بحاجة إلى طليعة عقائدية تستشعر بشكّل معمّق وموسع أهداف الدولة وواقع أهميتها وضرورتها التاريخية؛ ولهذا كان لابدّ من الحفاظ على صفاء وطهر عملية التربية لبناء هذا الجيش العقائدي، كان لابدّ لآلاف من مالك الأشتر أنْ يشهدوا إنساناً لا تزعزعه المغريات ولا يتنازل إلى أي نوع من أنواع المساومات حتى يستطيعوا من خلال حياة هذا الرجل العظيم أنْ يتبينوا المدلول الرسالي الكامل لأطروحته الأبعاد الواسعة للصيغة الإسلامية للحياة، إذن فكان على علي عليه السلام ـ لأجل ممارسة عملية التربية لبناء هذا الجيش العقائدي ـ كان لابدّ له أنْ يترفّع عن هذه المساومات والحلول الوسط، لكي يستطيع أنْ يخلق ذلك الجو الرفيع نفسياً وفكرياً وروحياً والذي سوف ينشأ في داخله وفي أعماقه... جيل يستطيع أنْ يحتضن أهداف أمير المؤمنين عليه السلام ويضحي من أجلها في حياته وبعد فاته...

النقطة الثانية: لابدّ من الالتفات أيضاً إلى أنّ أمير المؤمنين عليه السلام جاء في أعقاب ثورة ولم يجئ في حالة اعتيادية، ومعنى ذلك إنّ البقية الباقية من العواطف الإسلامية كل هذه العواطف تجمّعت ثم ضغطت ثم انفجرت في لحظة ارتفاع... وماذا ينتظر القائد الرسالي غير لحظة ارتفاع في حياة أمة لكي يستطيع أنْ يستثمر هذه اللحظة في سبيل إعادة هذه الأمة إلى سيرها الطبيعي...

كـان لابـدّ للإمـام عليه السلام أنْ يسـتثمر لحظة الارتفاع الثورية هذه، لأن المزاج النفسي والروحي وقتئذ لشعوب العالم الإسلامي لم يكن ذاك المزاج الاعتيادي الهـادئ السـاكن لكي يمشي حسب مخطط تدريجي، وانما كان هو المزاج الثوري الـذي اسـتطاع أنْ يـرتفع إلى مستوى قتل الحاكم والإطاحة به[١]، لأنه انحرف عـن كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله، إذن هذا الارتفاع الذي وجد في لحظة في حياة الأمـة الإسـلامية لم يكـن من الهين إعادته وبعد ذلك كان لابدّ للحاكم الذي يسـتلم زمـام المسـؤولية في مـثل هـذه اللحظة، أنْ يعمّق هذه اللحظة أنْ يمدد هذه اللحظة، أنْ يرسخ المضمون العاطفي والنفسي في هذه اللحظة عن طريق هذه الإجراءات الثورية التي قام بها أمير المؤمنين..

لـو أنّ الإمـام علـي عليه السلام أبقـى الـباطل مؤقتاً وأمضى التصرفات الكيفية الـتي قـام بهـا الحكـام من قبل، لو أنه سكت عن معاوية وسكت عن أحزاب أخـرى مشـابهة لمعاويـة بـن أبـي سـفيان إذن لهدأت العاصفة ولانكمش هذا التـيار العـاطفي النفسـي، وبعـد انكمـاش هـذا التيار العاطفي وهدوء تلك

---

(١) يشـير السـيد الشـهيد رضي الله عنه إلى الـثورة الـتي أطاحت بخلافة عثمان بن عفان عام ((٣٥)) هـ، وقـد شارك فيها الصحابة وأهل الأمصار، حيث قتل الخليفة، بعد حصار يزيد على الأربعين يوماً.

تاريخ الطبري: ٣/ ٣٩٩، وما بعدها.

العاصفة سوف لن يكون بمقدور الإمام عليه السلام أنْ يقوم بمثل هذه الإجراءات.

النقطة الثالثة: ولابدّ أيضاً من الالتفات إلى نقطة هي: أنّ الإمام عليه السلام كان حريصاً على أنْ تدرك الأمة كأمة أنّ واقع المعركة بينه عليه السلام وبين خصومه بينه وبين معاوية ليست معركة بين شخصين بين قائدين بين قبيلتين، وإنما هي معركة بين الإسلام والجاهلية (١).

---

(١) نص تاريخي يحمل هذه الدلالة: فلما رفعت المصاحف قال أهل العراق: نجيب إلى كتاب الله ونِيب إليه. قال أبو مخنف: حدثني عبد الرحمن بن جندب الأزدي عن أبيه أنّ علياً قال: عباد الله أمضوا إلى حقكم وصدقكم وقتال عدوكم، فإن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب بن مسلمة وابن أبي سرح والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، أنا أعرف بهم منكم، صحبتهم أطفالا، وصحبتهم رجالا، فكانوا شر أطفال وشر رجال، ويْحَكُم والله إنهم ما رفعوها إنهم يقرأونها ولا يعلمون بما فيها وما رفعوها إلا خديعة ودهاء ومكيدة.

البداية والنهاية، ابن كثير: ٧ /٣٠٢.

وروى الزبير بن بكار في الموفقيات، قال المطرف بن المغيرة بن شعبة : دخلت مع أبي على معاوية ، فكان أبي يأتيه ، فيتحدث معه ، ثم ينصرف إليَّ فيذكر معاوية وعقله ، ويعجب بما يرى منه ، إذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء ، ورأيته مغتما فانتظرته ساعة ، وظننت أنه لامر حدث فينا ، فقلت : مالي أراك مغتما منذ الليلة ؟ فقال : يا بني ، جئت من عند أكفر الناس وأخبثهم ، قلت : وما ذاك ؟ قال : قلت له ـ

كـان حريصـاً عـلى أنْ يفهـم الـناس أنّ واقع المعركة هو واقع المعركة بين رسـول الله ﷺ والجاهلـية الـتي حاربته في بدر وأُحد وغيرهما من الغزوات، وكـان هـذا الحـرص سـوف يمـنى بنكسـة كـبيرة لو أنه عليه السلام أقر معاوية وأقر مخلفـات عـثمان السياسـية والمالـية لو أنه أقر هذه المخلفات ولو إلى برهة من الـزمن، إذن لترسخ في أذهان الناس، وفي أذهان المسلمين بشكل عام شك في أنّ القضـية ليسـت قضية رسالية، وانما هي قضية أهداف حكم إذا انسجمت مـع واقـع هذه المخلفات فتلغي هذه المخلفات ذلك الشك الذي نما عند الأمة

---

(١) أي لمعاويـة ـ وقـد خلـوت بـه. إنـك قـد بلغت سنا يا أمير المؤمنين ، فلو أظهرت عـدلا، وبسـطت خـيرا فـإنك قـد كـبرت ، ولـو نظـرت إلى إخوتك من بني هاشم ، فوصـلـت أرحـامهم فـوالله مـا عـندهم الـيوم شيء تخافه ، وإن ذلك مما يبقى لك ذكره وثوابـه ، فقـال: هـيهات هـيهات ! أي ذكر أرجو بقاءه ! ملك أخو تيم فعدل وفعل ما فعل ، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره ، إلا أن يقول قائل : أبو بكر ، ثم ملك أخو عـدي، فاجـتهد وشمـر عشـر سـنين ، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره ، إلا أن يقول قـائل : عمـر ، وإن ابـن أبـي كبشـة ليصاح به كل يوم خمس مرات : (أشهد أن محمدا رسـول الله) فأي عمل يبقى ، وأي ذكر يدوم بعد هذا لا أبا لك ! لا والله إلا دفنا دفنا.

وأي تصريح أبلغ في الدلالة على روح الجاهلية والكفر الذي يحمله معاوية...

الموفقيات : ٥٧٦ – ٥٧٧. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد : ٥/ ١٢٩ – ١٣١.

في أمير المؤمنين عليه السلام بالرغم من انه لم يكن يوجد أي مبرر موضوعي للشك، وبالرغم من أنّ المبرر الوحيد للشك كان مبرراً ذاتياً، وبالرغم من هذا استفحل هذا الشك وقرر وامتحن هذا الإمام العظيم عليه السلام بهذا الشك ومات واستشهد والأمة شاكة... ثم استسلمت الأمة بعد هذا وتحولت إلى كتلة هامدة بين يدي الإمام الحسن عليه السلام هذا كله بالرغم من أنّ الشك لم يكن له مبرر موضوعي، فكيف إذا افترضنا أنّ الشك وجدت له مبررات موضوعية بحسب الصورة الشكلية.

كيف لو أنّ المسلمين رأوا أنّ علي بن أبي طالب عليه السلام الذي هو رمز الأطروحة ورمز الأهداف الرسالية هذا الشخص يساوم ويعمل ويبيع الأمة ولو مؤقتاً مع خيار الفسخ.

كيف يمكن للأمة أنْ تدرك الفرق بين بيع بلا خيار الفسخ وبين بيع يكون فيه خيار الفسخ، إنّ البيع على أي حال طبيعته هو البيع، وأمير المؤمنين عليه السلام كانت مهمته الكبرى هي أنْ يحافظ على وجود الأمة على أنْ لا تتنازل الأمة عن وجودها، الأمة التي قالت: لعمر بن الخطاب لأكبر خليفة تولى الحكم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، إذا انحرفت عما نعرف من أحكام الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله نقوّمك بسيوفنا [1]، هذه الأمة التي قالت هذه الكلمة بكل شجاعة لأكبر

---

(١) يشير السيد الشهيد رضي الله عنه إلى: ما رواه يحيى بن عيسى عن الأعمش عن إبراهيم رحمه الله

خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله[(١)]

كانت قد بدأت تتنازل عن وجودها أو بتعبير آخر كانت هناك مؤامرات عليها لكي تتنازل عن وجودها.

وكان على علي بن أبي طالب عليه السلام أنْ يحافظ على هذه الأمة ويحصّنها ضد أنْ تتنازل عن وجودها، عملية التنازل عن الوجود كان يمثلها معاوية بن

عن همام عن حذيفة قال: دخلت على عمر وهو قاعد على جذع في داره وهو يحدث نفسه فدنوت منه فقلت: ما الذي أهمك يا أمير المؤمنين، فقال هكذا بيده وأشار بها، قال: قلت: الذي يهمك والله لو رأينا منك أمرا ننكره لقومناك، قال: الله الذي لا إله إلا هو، لو رأيتم مني أمرا تنكرونه لقومتموه، فقلت: الله الذي لا إله إلا هو، لو رأينا منك أمرا ننكره لقومناك، قال: ففرح بذلك فرحا شديدا، وقال: الحمد لله الذي جعل فيكم أصحاب محمد من الذي إذا رأى مني أمرا ينكره قومني.

المصنف، ابن أبي شيبة الكوفي: ٨ /١٥٤؛ ح٤٧.

(١) روي أن عيينة بن حصين الفزاري، والأقرع بن حابس التميمي قدما إلى أبي بكر فطلبا منه قطعة أرض سبخة غير مستغلة وأخبراه أنهما سيحرثانها ويزرعانها فاستشار من حوله فقالوا: نرى أن تقطعهما إياها، وكتب لهما بذلك كتاباً وأمرهما أن يشهدا عليه عمر بن الخطاب، فلما قرءا عليه الكتاب مزقه، فعادا إلى أبي بكر متذمران، فقالا له: والله ما ندري أنت الخليفة أم عمر؟ فقال كلا بل هو لو شاء كان.

النزاع والتخاصم، المقريزي: ١٢٥، وكنز العمال، المتقي الهندي: ٣/٩١٤.

أبي سفيان وجذور معاوية في تاريخ الإسلام.

هذا الذي عبّر عنه وقتئذٍ، بأن الإسلام أصبح هرقلية وكسروية، الهرقلية والكسروية[١] كان يكنى بها عن تنازل الأمة عن وجودها، يعني تحولت التجربة الإسلامية من أمة تحمل رسالة إلى ملك وسلطان يحمل هذه الرسالة بمستوى وعيه لهذه الرسالة وإخلاصه لهذه الرسالة سلباً وإيجاباً، هذه المؤامرة الكبيرة التي نجحت بعد هذا والتي توجت بكل المآسي والمحن والكوارث التي كانت ولا تزال إلى يومنا هذا، هي نتيجة تنازل الأمة عن وجودها، نتيجة خداع الأمة وتحجيمها أو الضغط عليها حتى تنازلت عن وجودها في عقد لا يقبل الفسخ...

أمير المؤمنين عليه السلام كان يريد ـ قد أدرك الأمة في اللحظات الأخيرة من وجودها المستقل[٢] ـ أنْ يمدد هذا الوجود المستقل، أنْ يشعر الأمة بأنها

---

(١) لما آل أمر الخلافة إلى بني أمية، أطلق عليها أبناء الصحابة ومن بقي منهم هرقلية وكسروية، فلما جاءت بيعة يزيد إلى المدينة، قال عبد الرحمن بن أبي بكر، لمروان: جعلتموها والله هرقلية وكسروية. وبعث معاوية إليه بمائة ألف درهم بعد أن أبى بيعة يزيد، فقال لا أبيع ديني بدنياي.

البداية والنهاية، ابن كثير: ٩٦/٨.

(٢) إن نصوصاً كثيرة تشير إلى موقف الإمام من تصرفات عثمان: فلما أراد عثمان نفي ☜

ليست سلعة تباع وتشترى، إنها ليست شيئاً يساوم عليها، إذن كيف يشعرها بأنها ليست سلعة تباع وتشترى ؟

إذا كان هو يبيعها ويشتريها، ولو في عقود قابلة للفسخ.

كيف يستطيع أنْ يشعر الأمة بأنها لا تباع ولا تشترى ؟ ليست وفق رغبات السلاطين وليست وفق رغبات الحكام، وانما تمثل خلافة الله في الأرض، لأجل أنْ تحقق أهداف هذه الخلافة في الأرض كيف يمكن أنْ يفهم الأمة ذلك إذا كان هو يبيع قطاعات من هذه الأمة لحكام فجرة من قبيل معاوية بن أبي سفيان في سبيل أنْ يسترجع هذه القطاعات بعد ذلك.

بطبيعة الحال كان هذا معناه مواكبة المؤامرة التي كان روح العصر يتفجر أو يتمخض عن مثلها والتي كان أمير المؤمنين عليه السلام واقفاً لأجل أنْ يحبطها وينقذ الأمة منها، وحينئذٍ لا يمكن بحال من الأحوال أنْ نفترض إنّ الإمام عليه السلام يساهم في حبك هذه المؤامرة.

↩ عمار، ذهب الإمام إليه، وحذره مغبة سلوكه، وإن كثرة إساءاته لأصحاب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يسخط عليه الناس، وقال لعثمان: والله يا عثمان ما أنت بقادر على ذلك ولا واصل إليه، فروم ذلك إن شئت، ثم أتى عماراً وقال له: أجلس في بيتك ولا تبرح، فإن الله مانعك من عثمان وغير عثمان، وهؤلاء المسلمون معك.

الفتوح، ابن أعثم الكوفي: ٢/٣٧٩و٣٧٨. حسب تسلسل المطالب.

النقطة الرابعة والأخيرة: هي أنّ علي بن أبي طالب عليه السلام لم يكن يتعامل مع الفترة الزمنية القصيرة التي عاشها فقط وانما كان يحمل هدفاً أكبر من ذلك، أمير المؤمنين عليه السلام كان يحس بأنه قد أدرك المريض وهو في آخر مرضه، قد أدركه حيث لا ينفع العلاج، ولكنه كان يفكر في أبعاد أطول وأوسع للمعركة.

لم يكن يفكر فقط في الفترة الزمنية التي عاشها، وانما كان يفكر على مستوى آخر أوسع وأعمق، هذا المستوى يعني أنّ الإسلام كان بحاجة إلى أنّ تقدم له ـ في خضم الانحراف بين يدي الأمة، أطروحة واضحة صريحة نقية لا شائبة فيها ولا غموض، لا التواء فيها ولا تعقيد، لا مساومة فيها ولا نفاق ولا تدجيل[١]

---

(١) إن حوارات السقيفة ومادار بين الأطراف المتنازعة على (سلطان محمد)، تعد مرتكزاً لصحة رأي السيد الشهد رضي الله عنه ، فيما يذهب إليه من تحليل للظواهر التي أعقبت السقيفة، وبيعة (الفلتة) حسب قول عمر، فقد أمل أبو بكر وعمر الأنصار، ↵ ↵بأن يكونوا وزراءهم، فإنهم وزراء النبي صلى الله عليه وآله ووزراء أبي بكر، ولم يقع ذلك لا في خلافة أبي بكر ولا أيام عمر، بل قتل زعيم الخزرج في حوران أيام عمر، ورووا أن الجن قتلته، فهو لم يبايع أبا بكر ولا عمر، وقال لعمر لا أساكنك، وخرج إلى الشام من فوره. ومقتل مالك واختلاف عمر مع أبي بكر وإصراره على إقامة الحد على خالد ↵

لماذا.. ؟

لأن الأمة كتب عليها أنْ تعيش الحكم الإسلامي المنحرف منذ نجحت السقيفة في أهدافها، إذن فالإسلام الذي تعطيه السقيفة امتدادها التاريخي هذا الإسلام إسلام مشوه ممسوخ، إسلام لا يحفظ الصلة العاطفية فضلاً عن الفكرية بين الأمة ككل وبين الرسالة، بين أشرف رسالات السماء وأشرف أمم الأرض، لا يمكن أنْ يحفظ هذه الصلة العاطفية والروحية بين الأمة الإسلامية وبين الإسلام، على أساس هذا الإسلام المُعطى لهارون الرشيد ولمعاوية بن أبي سفيان ولعبد الملك بن مروان، هذا الإسلام لا يمكن أنْ يحفظ هذه الصلة، فكان لابدّ لحفظ هذه الصلة بين جماهير الأمة الإسلامية وبين هذه الرسالة من إعطاء صورة واضحة محدودة للإسلام، وهذه الصورة أعطيت نظرياً على مستوى ثقافة أهل البيت عليهم السلام، وأعطيت عملياً على مستوى تجربة

لأنه قتل امرءاً مسلماً ونزا بزوجته، مظهراً آخر على الخروج على المرجعية الإسلامية، ويتحدد لنا هدف الإمام علي عليه السلام من خلال قوله: اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منا تنافساً في سلطان ولا التماس شيء من فضول الحطام، ولكن لنرد المعالم من دينك ونظهر الإصلاح في بلادك فيأمن المظلومون من عبادك وتقام المعطلة من حدودك.

المعيار والموازنة، أبو جعفر الإسكافي، المتوفى، ٢٢٠هـ : ٢٧.

الإمـام عليه السلام، فكـان الإمام عليه السلام في تأكيده على العناوين الأولية في التشريع الإسـلامي وفي تأكيده على الخطوط الرئيسية في الصيغة الإسلامية للحياة كان في هـذا يريد أنْ يقوم المنهاج الإسلامي واضحاً غير ملوّث بلوثة الانحراف التي كتبـت على تاريخ الإسلام مدة طويلة من الزمن، وكان لابدّ لكي يتحقق هذا الهـدف مـن أنْ يعطـي هذه التجربة بهذا النوع من الصفاء والنقاء والوضوح دون أنْ يعمل ما أسميناه بقوانين باب التزاحم...

وهكـذا كـان وظـل الإمام عليه السلام صامداً مواجهاً لكل المؤامرات التي كانت الأمـة تسـاهم في صـنعها وفي حياكـتها على أساس جهلها وعدم وعيها وعدم شـعورها بـالدور الحقـيقي الـذي يمارسـه عليه السلام في سـبيل حمايـة وجودها من الضـياع وحماية كرامتها من أنْ تتحول إلى سلعة تباع وتشترى حتى خر صريعاً عـلى يد شخص من هذه الأمة التي ضحى في سبيلها... خر صريعاً في المسجد فقال: فزت ورب الكعبة..[1] .

---

(١) المـروي حـول ذلك: (فقعد ـ أي عبد الرحمن بن ملجم ـ لعلي حين خرج علي لصلاة الصـبح صـبيحة نهـار الجمعـة، لـيلة عشـر بقيت من رمضان سنة أربعين، فلما خرج للصـلاة وثـب عليه، وقال: الحكم لله لا لك يا علي، وضربه على قرنه بالسيف، فقال علي: فزت ورب الكعبة ثم قال: لا يفوتنكم الرجل).

الإمامـة والسياسـة، ابـن قتيـبة الديـنوري، تحقيق الشيري: ١٨٠/١. وفي ينابيع المودة،

لنحاسب علياً وهو في آخر لحظة من لحظات حياته عليه السلام حينما قال: فزت ورب الكعبة.

هل كان علي أسعد إنسان أو اتعس إنسان ؟

هنا مقياسان:

فتارة نقيس علياً عليه السلام بمقياس الدنيا.

وأخرى نقيس علياً بمقاييس الله سبحانه وتعالى...

لو كان قد عمل كل عمله للدنيا، لنفسه، فهو اتعس إنسان... ومن اتعس من علي عليه السلام الذي بنى كل ما بنى وأقام كل ما أقام من صرح ثم حرم من كل هذا البناء ومن كل هذه الصروح.

هذا الإسلام الشامخ العظيم الذي يأكل الدنيا شرقاً وغرباً هذا الإسلام بُني بدم علي عليه السلام بُني بخفقات قلب علي عليه السلام بني بآلام علي عليه السلام، بني بنار علي عليه السلام، كان علي هو شريك البناء بكل محن هذا البناء بكل آلام هذا البناء وفي كل مآسي هذا البناء أي لحظة محرجة وجدت بتاريخ هذا البناء، لم يكن علي عليه السلام هو الإنسان الوحيد الذي يتجه إليه نظر البنّاء الأول صلى الله عليه وآله وسلم(١)

للقندوزي: ٢٠٣/١، لما ضربه ابن ملجم، قال: فزت ورب الكعبة.

(١) تقارب رؤى: خاطرة! : وهذا الذي كان من علي في ليلة الهجرة، إذا نظر إليه في مجرى الأحداث التي عرضت للإمام علي في حياته بعد تلك الليلة، فإنه يرفع لعيني الناظر،

﴿إمارات واضحة، وإشارات دالة، على أن هذا التدبير الذي كان في تلك الليلة، لم يكن أمراً عارضاً، بالإضافة إلى علي، بل هو عن حكمة لها آثارها ومعقباتها! فلنا أن نسأل فلنا أن نسأل: أكان لإلباس الرسول صلى الله عليه وسلم شخصيته لعلي، تلك الليلة، ما يوحي بأن هناك جامعة تجمع بين الرسول وبين علي، أكثر من جامعة القرابة القريبة التي بينهما؟ وهل لنا أن نستشف من ذلك، أن إذا غاب شخص الرسول كان علي هو الشخصية المهيأة لأن تخلفه، وتمثل شخصه، وتقوم مقامه؟ وأحسب أن أحداً قبلنا لم ينظر إلى هذا الحدث نظرتنا هذه إليه، ولم يقف عنده وقفتنا تلك، حتى شيعة علي، والمبالغين في التشيع له! فأنا نراهم لا يلتفتون كثيراً إلى هذه الواقعة، ولا يقيمون منها شاهداً يشهد لعلي أنه أولى الناس برسول الله والقيام معه، على حين نراهم يتعلقون بكل شيء يرفع علياً إلى تلك المنزلة! ! وأحسب كذلك أننا لم نتعسف كثيراً، حين نظرنا إلى علي، وهو في برد الرسول، وفي مثوى منامه الذي اعتاد أن ينام فيه ـ فقلنا: هذا خلف رسول الله، والقائم مقامه! ثم نحن إذا نظرنا إلى علي وهو يواجه قريشاً، بعد أن فعل فعلته بها، وبعد أن صفعها تلك الصفعة المذلة المهينة، ثم تصفحنا هذه الوجوه المنكرة، وتلك الأعين المحدقة، وهي ترمي علياً بنظراتها الحادة المتوعدة، إذ خدعها عن (محمد)، ومكر بها، حتى أفلت (محمد) من بين ايديها ـ ألا يذكرنا هذا المشهد، بما كان من قريش لعلي، وإرهاقها له، وتجنيها عليه، بعد أن دخلت في الإسلام.. حيث لم ير منها إلا حنقاً عليه، وكيداً له، وازوراراً عنه! ؟ وإن لك أن تقول: إن الفرق كبير بين قريش الملحدة الكافرة، المتحدية للرسول، ولمن يجتمع﴾

﴿إلى الرسول، وبين قريش المسلمة، المستجيبة لرسول الله، والمجاهدة في سبيل الله!
ولكن.. لنا نحن أيضاً أن نقول: أنه إذا كان الإسلام قد ذهب بسخائم النفوس، وضمد جراحات القلوب، فإنه قد بقي في كثير من النفوس بعض هذه السخائم. مندسة خامدة، إذا حركتها الأحداث تحركت، وبقي في بعض القلوب ندوب، هي ساكنة ما سكنت الأحداث، فإذا طاف بها طائف من المواقف المتأزمة نَغَرتْ، وألقت بما فيها من قيح وصديد! إن هذا الذي كان من عليّ ليلة الهجرة، في تحديه لقريش. هذا التحدي السافر، وفي استخفافه بها، وقيامه بينها ثلاثة أيام يغدو ويروح ـ إن ذلك لا تنساه قريش لعليّ أبداً، ولولا أنها وجدت في قتله يومئذ إثارة فِتنة تُمزق وحدتها، وتشتت شملها، دون أن يكون في ذلك ما يبلغ غايتها في ((محمد)) ـ لولا ذلك لقتلته. وشفت ما بصدرها منه، ولكنها تركته، وانتظرت الأيام لتسوي حسابها معه! وأمر آخر! هاجر الرسول إلى المدينة، وترك وراءه في مكة قلوباً مضطغنة عليه، مغيظة منه، متحرقة إلى ضرّه وأذاه.. واستقبل في مهجره الجديد وجوهاً فياضة بالبشر، وقلوباً عامرة بالخير والحب. وها هو ذا عليّ يُخلف الرسول (صلوات الله وسلامه عليه) في هذا المجتمع المضطرب ومع هذه الجماعة الحانقة المبغضة.. يعيش معها أياماً ثم يلحق بالرسول في مهجره الجديد! ثم مضى الرسول إلى ربه، ولحق بالرفيق الأعلى، وأنتقل من دار إلى دار خير منها.. أشبه بانتقاله مهاجراً من مكة إلى المدينة.. وترك علياً وراءه يصدم بالأحداث، ويكابد الشدائد، حتى يلحق بالرسول في الرفيق الأعلى، كما لحق به في مهجره من قبل! ألا يبدو لنا من هذه الموافقات، ما نستشف منه أن لعليّ شأناً في﴾

ونظر المسلمين جميعاً لأجل إنقاذ عملية البناء، إذن فعلي عليه السلام كان هو المضحي دائماً في سبيل هذا البناء هو الشخص الذي أعطى ولم يبخل الذي ضحى ولم يتردد، الذي كان يضع دمه على كفه في كل غزوة في كل معركة في كل تصعيد جديد لهذا العمل الإسلامي الراسخ العظيم..

إذن شيدت كل هذه المنابر بيد علي عليه السلام واتسعت أرجاء هذه المملكة بسيف علي عليه السلام.

جهاد علي كان هو القاعدة لقيام هذه الدولة الواسعة الأطراف؛ لكن ماذا حصّل علي عليه السلام من كل هذا البناء في مقاييس الدنيا إذا اعتمدنا مقاييس الدنيا؟

لو كان علي عليه السلام يعمل لنفسه.

↵رسالة الرسول، ودوراً في دعوة الإسلام، ليس لأحد غيره من صحابة الرسول ؟ وبعد ـ فهذه خطرات، لا نحسبها على تلك القضية، ولا ندخل بها فيها، ولا نضيفها إلى حساب عليّ رضوان الله عليه، ولا نأخذ بها فيما به من مرويات التاريخ عنه. إنها ليست حقائق يمكن أن تقبض منها اليد على شيء، ولكنها خفقات قلب، تَهيجه الذكريات لمواقف خالدة، فيخشع لجلالها وينتشي بروعتها !

علي بن أبي طالب بقِيّةُ النّبوّة ـ وخاتَم الخلافة، عبد الكريم الخطيب دار المعرفة. بيروت، ط٢، ١٣٩٥هـ: ١٠٥ ـ ١٠٧.

فمـاذا حصّـل علي عليه السلام من كل هذه التضحيات من كل هذه البطولات؟ مـاذا حصـل ؟ غـير الحـرمان الطويل الطويل، غير الإقصاء عن حقه الطبيعي بقطـع الـنظر عن نص أو تعيين من الله سبحانه وتعالى، كان حقه الطبيعي أنْ يحكم بعد أنْ يموت النبي صلى الله عليه وآله لأنه الشخص الثاني عطاء للدعوة وتضحية في سـبيلها[١] أُقصـي مـن حقـه الطبـيعي قاسـى ألوان الحرمان أنكرت عليه كل

---

(١) إن مجموعـة من الأحداث والظواهر التي تواتر نقلها عن النبي صلى الله عليه وآله إضافة إلى مواقف الإمـام عليه السلام مـنذ بـدء الدعوة حتى التحاق الرسول صلى الله عليه وآله بالرفيق الأعلى تُعد مظهراً لكون الإمام هو الشخصية الثانية بعد الرسول، وتسلسلاً تبدأ من إعلان الدعوة ويوم الدار، والمبيت في الفراش، وإشارته صلى الله عليه وآله في العام الثاني من الهجرة في غزوة العشيرة، عـلى أن أشقى الآخرين هو الذي يخضب لحيتك من قرنك يا علي وكان معه عمار بن ياسـر، ويـوم خـبير، قـال صلى الله عليه وآله: ((سـأعطي الـراية رجـلاً يحـبه الله ورسـوله)) ، ويوم الأحـزاب لم يبرز لعمرو بن ود غيره عليه السلام، وبدر أيضاً شاخص آخر في ذات الدلالة، وفي تـبوك ما يلزم في كونه التالي حسب رواية الاستيعاب.. إلى كثير من الإشارات عن صاحب الرسالة صلى الله عليه وآله بهذا الاتجاه. وفي خطبة الزهراء عليها السلام أمام الخليفة أبي بكر إشارة واضـحة حـول كـون الإمام عليه السلام هو الشخص الثاني بعد الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، (.. حـتى إذا اخـتار الله لنبـيه صلى الله عليه وسلم دار أنبيائه ظهرت حسكة النفاق وسمل جلـباب الديـن ونطق كاظم الغاوين، ونبع خامل الآفلين، وهدر فنيق المبطلين، فخطر في عرصـاتكم، واطلـع الشـيطان رأسه صارخا بكم فدعاكم فألفاكم لدعوته مستجيبين ⇐

امتيازاته، معاوية بن أبي سفيان هو الذي يقول لمحمد بن أبي بكر، كان علي كالنجم في السماء في أيام رسول الله ﷺ ولكن أباك والفاروق إبتزا حقه[١] وأخذا أمره، وبعد هذا نحن شعرنا أنّ بإمكاننا أنْ ندخل في ميدان المساومة مع هذا الرجل ويقول عن نفسه، يحدث عن مقامه في أيام النبي ﷺ وكيف أخذ المقام هذا يتنازل بالتدريج نتيجة لمؤامرات الحاكمين عليه حتى قيل علي ومعاوية.

وللغرة ملاحظين، ثم استنهضكم، فوجدكم خفافا، وأحمشكم فألفاكم غضابا، فوسمتم غير إبلكم وأوردتم غير شربكم، هذا والعهد قريب؟ ! والكلم رحيب، والجرح لما يندمل، بماذا زعمتم: خوف الفِتنة؟ ألا في الفِتنة سقطوا)).

النزاع والتخاصم، المقريزي: ٩٩.

(١) وقد ذكر معاوية ذلك في كتاب لمحمد بن أبي بكر في جواب على رسالته : وقد كنا وأبوك معنا في حياة من نبينا صلى الله عليه ـ نرى حق ابن أبى طالب لازما لنا، وفضله مبرزا علينا، فلما اختار الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ما عنده، وأتم له ما وعده، وأظهر دعوته وأفلج حجته. قبضه الله إليه، فكان أبوك وفاروقه أول من ابتزه وخالفه. على ذلك اتفقا واتسقا، ثم دعواه إلى أنفسهم فأبطأ عنهما وتلكأ عليهما، فهما به الهموم، وأرادا به العظيم، فبايع وسلم لهما، لا يشركانه في أمرهما، ولا يطلعانه على سرهما، حتى قبضا وانقضى أمرهما.

وقعة صفين، ابن مزاحم المنقري : ١٢٠.

إذن فعلي عليه السلام حينما واجهه عبد الرحمن بن ملجم بتلك الضربة القاتلة على رأسه الشريف، كان ماضيه كله ماضي حرمان وألم وخسارة لم يكن قد حصل على شيء منه، لكن الأشخاص الّذين حصلوا على شيء عظيم من هذا البناء هم أولئك الذين لم يساهموا في هذا البناء هم أولئك الّذين كانوا على استعداد دائم للتنازل عن مستوى هذا البناء في أية لحظة من اللحظات أولئك حصلوا على مكاسب عريضة من هذا البناء، أما هذا الإمام الممتحن الذي لم يفر لحظة، الذي لم يتلكأ في أي آن، الذي لم يتلعثم في قول أو عمل، هذا الإمام العظيم لم يحصل على أي مكسب من هذا البناء بأي شكل من الأشكال، انظروا أنّ هذه الحادثة يمكن أنْ تفجر قلب الإنسان والإنسان غير العامل حينما ينظر في حال عامل على هذا الترتيب يتفجر قلبه ألماً لحال هذا العامل المسكين، لحال هذا العامل التعيس، الذي بنى فغير الدنيا ثم لم يستفد من هذا التغيير، ثم تعالوا انظروا إلى المستقبل الذي ينظره الإمام علي عليه السلام بعين الغيب، هذا ماضيه، فماذا عن مستقبله؟

كان يرى بعين الغيب أنّ عدوه اللدود سوف يطأ منبره[١]، سوف يطأ

(١) روي عنه عليه السلام قال لأهل الكوفة : (أما إنه سيظهر عليكم بعدي رجل رحب البلعوم، مندحق البطن، يأكل ما يجد، ويطلب ما لا يجد، فاقتلوه ولن تقتلوه، إلاّ وإنه سيأمركم بسبي والبراءة مني، فأما السب فسبوني فإنه لي زكاة ولكم نجاة، وأما البراءة ☜

مسجده، سوف ينتهك كل الحرمات والكرامات التي ضحى وجاهد في سبيلها، سوف يستقل بهذه المنابر التي شيدت بجهاده وجهوده ودمه، سوف يستغلها في لعنه وسبه عشرات السنين، هو الذي كان يقول لبعض الخلّص من أصحابه: إنّه سوف يعرض عليكم سبي ولعني والبراءة مني، أما السب فسبوني وأما البراءة مني فلا تبرؤوا مني[١].

فلا تتبرؤوا مني، فإني ولدت على الفطرة وسبقت إلى الإسلام والهجرة). فكان كما قال عليه السلام. ومن ذلك: أنه لما اخذ مروان بن الحكم أسيرا يوم الجمل فتكلم فيه الحسن والحسين عليهما السلام فخلى سبيله فقالا له: (يبايعك يا أمير المؤمنين) فقال: (ألم يبايعني بعد قتل عثمان، لا حاجة لي في بيعته أما إن له إمرة كلعقة الكلب أنفه، وهو أبو الأكبش الأربعة، وستلقى الأمة منه ومن ولده موتاً أحمر). فكان كما قال عليه السلام.

شرح نهج البلاغة : ١٢٠/٢.

(١) يشير السيد الشهيد رضي الله عنه، إلى حجر بن عدي الكندي وأصحابه رضي الله عنهم الّذين قتلهم معاوية صبراً في ((مرج عذراء)) بعد أن دعاهم للبراءة من أمير المؤمنين عليه السلام إلاّ أنهم رفضوا وأصروا على ولائه عليه السلام، فأمر معاوية بقتلهم، وكان ذلك عام (٥٠أو ٥١هـ) لاختلاف المروي حول ذلك، وقالت عائشة لمعاوية حين حج، ودخل إليها: يا معاوية ! أقتلت حجراً وأصحابه، فأين عزب حلمك عنهم؟ أما إني سمعت رسول الله يقول: يقتل بمرج عذراء نفر يغضب لهم أهل السماوات. قال: لم يحضرني رجل رشيد، يا أم المؤمنين. تاريخ اليعقوبي: ٢٣١/٢، وروي أيضا أنّ علياً ـ رضي الله عنه ـ قال: يا أهل

فهو كان ينظر بعين الغيب إلى المستقبل بهذه النظرة لم يكن يرى في المستقبل نوعاً من التكذيب يتدارك به هذا الحرمان، الأجيال التي سوف تأتي بعد أنْ يفارق الدنيا، كانت ضحية مؤامرة أموية جعلتها لا تدرك أبداً دور الإمام علي عليه السلام في بناء الإسلام.

هذا هو حرمان الماضي وهذا هو حرمان المستقبل.

وبالرغم من كل هذا قال عليه السلام: فزت ورب الكعبة، حينما أدرك أنها اللحظة الأخيرة وانه انتهى خط جهاده وهو في قمة جهاده وانتهى خط محنته وهو في قمة صلاته وعبادته قال: فزت ورب الكعبة، لأنه لم يكن إنسان الدنيا ولو كان إنسان الدنيا لكان اتعس إنسان على الإطلاق، لو كان إنسان الدنيا لكان قلبه يتفجر ألماً وكان قلبه ينفجر حسرة ولكنه لم يكن إنسان الدنيا، لو كان إنسان الدنيا فسوف يندم ندماً لا ينفعه معه شيء، لأنه بنى شيئاً انقلب عليه ليحطمه.

أي شيء يمكن أنْ ينفع هذا الشخص؟ إذا فرضنا أنّ شخصاً أراد أنْ يربي

↩ الكوفة سيقتل فيكم سبعة نفر هم من خياركم بعذراء، مثلهم كمثل أصحاب الأخدود. وحجر ممن وفد على الرسول صلى الله عليه وآله، وشارك في القادسية، وحضر اليرموك وأول مسلم كبر في مرج عذراء التي استشهد فيها.

طبقات ابن سعد، ٦/١٥. وتاريخ الطبري: ٤/١٨٨.

شخصاً آخر لكي يخدمه فلما ربى ذاك الشخص ونمى واكتمل رشده جاء ليقتله ماذا ينفع هذا الشخص ندمه غير أن يموت.

هذا الرجل العظيم قال: فزت ورب الكعبة، كان أسعد إنسان ولم يكن أشقى إنسان لأنه كان يعيش لهدفه، ولم يكن يعيش للدنيا، كان يعيش لهدفه ولم يكن يعيش لمكاسبه، ولم يتردّد لحظة وهو في قمة هذه المآسي والمحن في صحة ماضيه، وفي صحة حاضره، وفي انه أدى دوره الذي كان يجب عليه.

هذه هي العبرة التي يجب أنْ نأخذها.

نحن يجب أنْ نستشعر دائماً أنّ السعادة في عمل العامل لا تنبع من المكاسب التي تعود إليه نتيجة لهذا العمل.

يجب أنْ لا نقيّم سعادة العامل على أساس كهذا لأننا لو قيّمناه على هذا الأساس فقد يكون حظنا كحظ هذا الإمام الذي بنى إسلاماً ووجّه أمة، ثم بعد هذا انقلبت عليه هذه الأمة لتلعنه على المنابر ألف شهر[١].

---

(١) تاريخية اللعن الأموي: بداية خطة معاوية في لعن علي عليه السلام وكان معاوية يومئذ بالمدينة، فعند ذلك نادى مناديه وكتب بذلك نسخة إلى جميع البلدان إلى عماله: (ألا برئت الذمة ممن روى حديثا في مناقب علي بن أبي طالب أو فضائل أهل بيته وقد أحل بنفسه العقوبة). وقامت الخطباء في كل كورة ومكان وعلى كل المنابر بلعن علي بن أبي طالب عليه السلام والبراءة منه والوقيعة فيه وفي أهل بيته عليهم السلام بما ليس فيهم ☜

نحن يجب أنْ لا نجعل مقياس سعادة العامل في عمله هو المكاسب والفوائد التي تنجم عن هذا العمل وانما رضى الله سبحانه وتعالى وانما حقانية العمل،

والسلعنة لهم. كتاب سليم بن قيس: ٣١٤، حديث أم سلمة رضي الله عنها وسؤالها الشامي : هل يسب النبي عندكم، وروى الإمام أحمد والطيالسي وابن عساكر عن أم سلمة ـ رضي الله تعالى عنها ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: " من سب علياً فقد سبني، ومن سبني فقد سب الله. سبل الهدى والرشاد، الصالحي الشامي: ٢٩٣/١١ـ ٢٩٤. وروى اليعقوبي في أحداث سنة (٤٤) وفي هذه السنة عمل معاوية المقصورة في المسجد وأخرج المنابر إلى المصلى في العيدين، وخطب الخطبة قبل الصلاة، وذلك أن الناس، إذا صلوا، انصرفوا لئلا يسمعوا لعن علي، فقدم معاوية الخطبة قبل الصلاة، ووهب فدكا لمروان بن الحكم ليغيظ بذلك آل رسول الله.

تاريخ اليعقوبي : ٢٢٣/٢. ولما تولى عمر بن عبد العزيز (٩٩ـ١٠١)نكث عمر أعمال أهل بيته وسماها مظالم، وكتب إلى عماله جميعا: أما بعد، فإن الناس قد أصابهم بلاء وشدة وجور في أحكام الله، وسنن سيئة سنتها عليهم عمال السوء، قلما قصدوا قصد الحق والرفق والإحسان، ومن أراد الحج، فعجلوا عليه عطاءه، حتى يتجهز منه، ولا تحدثوا حدثا في قطع وصلب حتى تؤامروني، وترك لعن علي بن أبي طالب على المنبر، وكتب بذلك إلى الآفاق وأعطى بني هاشم الخمس، ورد فدكا، وكان معاوية أقطعها مروان، فوهبها لابنه عبد العزيز، فورثها عمر منه، فردها على ولد فاطمة.

تاريخ اليعقوبي : ٢ /٣٠٥ـ٣٠٦.

كون العمل حقاً وكفى، وحينئذٍ سوف نكون سعداء سواء أثر عملنا أو لم يؤثر، سواء قدّر الناس عملنا أم لم يقدروا، سواء رمونا باللعن أو بالحجارة على أي حال سوف نستقبل الله سبحانه وتعالى ونحن سعداء لأننا أدينا حقنا وواجبنا، وهناك من لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، لئن ضيّع هؤلاء السعادة ولئن ضيعوا فهمهم، ولئن استولى عليهم الغباء فخلطوا بين علي عليه السلام ومعاوية، لئن انصرفوا عن علي وهم في قمة الحاجة إليه فهناك من لا يختلط عليه الحال من يميز بين علي عليه السلام وبين أي شخص آخر، هناك من قد أعطى لعلي عليه السلام نتيجة لعمل واحد من أعماله مثل عبادة الثقلين[1].

ذاك هو الحق وتلك هي السعادة.

اللهم احشرنا معه واجعلنا من شيعته والمترسمين خطاه والحمد للّه.

---

(١) أخرج الحاكم بسنده عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قتل من بني عامر بن لؤي عمرو بن عبد ود قتله علي بن أبي طالب مبارزة، وعن سفيان الثوري عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((لمبارزة علي بن أبي طالب لعمرو بن عبد ود يوم الخندق افضل من أعمال أمتي إلى يوم القيامة)). المستدرك، الحاكم النيسابوري: ٣٢/٣، وشواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ١٤/٢.

❖شهادة أمير المؤمنين عليه السلام ❖

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

كنا نتحدث عن تلك الظاهرة الفريدة في المرحلة التي قضاها الإمام عليه السلام حاكماً متصرفاً ومصرفاً لشؤون المسلمين.

هذه الظاهرة الفريدة هي ما لمحنا إليها من أنّ الإمام عليه السلام كان حريصاً كل الحرص على إعطاء العناوين الأولية للصيغة الإسلامية للحياة، والوقوف على التكليف الواقعي الأولي بحسب مصطلح الأصوليين دون تجاوزه إلى ضرورات استثنائية تفرضها طبيعة الملابسات والظروف.

قلنا إنّ هذه النقطة بحثت من الناحية الفقهية ومن الناحية السياسية معاً، فقيل مثلاً:

لماذا لم يرتض الإمام بأنصاف الحلول أو بشيء من المساومة ؟

لماذا لم يسكت ؟

لماذا لم يُمضِ ولو بصورة مؤقتة الجهاز الفاسد الذي تركه وخلفه عثمان

---

(١) لقد ألقيت هذه المحاضرة بتاريخ: ٢٠/ شهر رمضان /١٣٨٨ هجري، وهي ليلة شهادة أمير المؤمنين عليه السلام وقد روى الكليني رضي الله عنه أنه قتل عليه السلام في شهر رمضان لتسع بقين منه ليلة الأحد سنة أربعين من الهجرة وهو ابن ثلاث وستين سنة.

الكافي، الشيخ الكليني: ١ /٤٥٢.

بعد موته ؟

لماذا لم يُمضِ الجهاز حتى إذا أطاعه هذا الجهاز وأسلم له القيادة بعد ذلك يستطيع أنْ يمارس بشكل أقوى وأعنف عملية التصفية ؟

كنا نعالج هذه المسألة وقلنا أنّ الجواب على هذا السؤال وتفسير هذه الظاهرة الفريدة في الحياة للإمام عليه السلام يتضح بمراجعة عدة نقاط استعرضنا من هذه النقاط أربع :

النقطة الأولى: هي أنّ الإمام عليه السلام كان بحاجة إلى إنشاء جيش عقائدي في دولته الجديدة التي كان يخطط لإنشائها في العراق، وهذا الجيش العقائدي لم يكن موجوداً، بل كان بحاجة إلى تربية وإعداد فكري ونفسي وعاطفي، وهذا الإعداد كان يتطلب جواً مسبقاً صالحاً لان تنشأ فيه بذور هذا الجيش العقائدي. وهذا الجو ما لم يكن جواً كفاحياً رسالياً واضحاً لا يمكن أنْ تنشأ في أحضانه بذور ذلك الجيش العقائدي، لو افترضنا أنّ الجو كان جو المساومات وأنصاف الحلول حتى في حالة كون أنصاف الحلول تكتسب الصفة الشرعية بقانون التزاحم على ما ذكرناه حتى في هذه الحالة تفقد الصيغة مدلولها التربوي.

النقطة الثانية: هي أنّ الإمام عليه السلام جاء لتسلّم زمام الحكم في لحظة ثورة لا في لحظة اعتيادية، ولحظة الثورة تستبطن لحظة تركيز وتعبئة وتجمّع كل الطاقات العاطفية والنفسية في الأمة الإسلامية لصالح القضية الإسلامية، فكان

لابدّ من اغتنام هذه اللحظة بكل ما تستبطنه من هذا الزخم الهائل عاطفياً ونفسياً وفكرياً.

النقطة الثالثة: التي ركّزنا عليها هي أنّ ظاهرة الشك[١] في مجتمع الإمام عليه السلام

---

(١) إن المنقول التاريخي يشير بوضوح على سعة هذه الظاهرة، كمواقف بعض الصحابة وموقف بعض من شهد حروب الإمام، فسعد بن أبي وقاص كان يطلب سيفا ناطقا، ومنهم لم يشهد حروبه عليه السلام إلا بعد مقتل عمار بن ياسر، وقصة جندب بن عبدالله الأزدي، دالة أخرى في هذا الاتجاه، روى أصحاب السيرة عن جندب بن عبد الله الأزدي قال: شهدت مع علي عليه السلام الجمل وصفين لا أشك في قتال من قاتله، حتى نزلنا النهروان فدخلني شك وقلت: قراؤنا وخيارنا نقتلهم ! ؟ إن هذا لأمر عظيم. فخرجت غدوة أمشي ومعي إداوة ماء حتى برزت فركزت رمحي ووضعت ترسي إليه واستترت من الشمس، فإني لجالس حتى ورد عليٌّ أمير المؤمنين عليه السلام فقال لي: " يا أخا الأزد، أمعك طهور؟ " قلت: نعم، فناولته الإداوة، فمضى حتى لم أره ثم أقبل وقد تطهر فجلس في ظل الترس، فإذا فارس يسال عنه، فقلت: يا أمير المؤمنين هذا فارس يريدك، قال: " فاشر إليه " فأشرت إليه فجاء فقال: يا أمير المؤمنين قد عبر القوم وقد قطعوا النهر، فقال: " كلا ما عبروا " قال: بلى والله لقد فعلوا، قال: " كلا ما فعلوا " قال: فإنه لكذلك إذ جاء آخر فقال: يا أمير المؤمنين قد عبر القوم، قال: " كلا ما عبروا " قال: والله ما جئتك حتى رأيت الرايات في ذلك الجانب والأثقال، قال: " والله ما فعلوا، وانه لمصرعهم ومهراق دمائهم " ثم نهض ⇐

هذه الظاهرة التي بيناها في محاضرات سابقة وكيف أنها عصفت بالتجربة واستطاعت أنْ تقضي على الآمال والأهداف التي كانت معقودة عليها، هذا الشك بالرغم من انه لم يكن يملك في سيرة الإمام عليه السلام أي مبرر موضوعي، وكانت مبرراته ذاتية محضة بالنحو الذي شرحناه تفصيلاً فيما مضى فقد استفحل وطغى، فكيف لو افترضنا أنّ هذه المبررات الذاتية أضيفت إليها مبررات موضوعية من الناحية الشكلية، إذن لكان هذا الشك أسرع إلى الانتشار والتعمّق والرسوخ وفي النهاية إلى تقويض هذه التجربة.

النقطة الرابعة: التي ختمنا بها الحديث بالأمس هي عبارة عن أنّ أنصاف الحلول أو المساومة هنا كانت في الواقع اشتراكاً في المؤامرة وكانت تحقيقاً

ونهضت معه. فقلت في نفسي: الحمد لله الذي ـ بصرني هذا الرجل، وعرفني أمره، هذا أحد رجلين. إما رجل كذاب جريء أو على بينة من ربه وعهد من نبيه اللهم إني أعطيك عهدا تسألني عنه يوم القيامة، إن أنا وجدت القوم قد عبروا أن أكون أول من يقاتله وأول من يطعن بالرمح في عينه، وان كانوا لم يعبروا (أن أقيم)على المناجزة والقتال. فدُفعنا إلى الصفوف فوجدنا الرايات والأثقال كما هي قال: فأخذ بقفاي ودفعني ثم قال: " يا أخا الأزد، أتبين لك الأمر ؟ " قلت: أجل يا أمير المؤمنين" قال: فشأنك".

الإرشاد، الشيخ المفيد: ١ / ٣١٧.

للمؤامرة من ناحية الإمام عليه السلام ولم تكن تعبيراً عن الإعداد لإحباط هذه المؤامرة، لان المؤامرة لم تكن مؤامرة على شخص الإمام علي عليه السلام لم تكن مؤامرة على حاكمية الإمام علي عليه السلام حتى يقال: انه يمهّد لهذه الحاكمية بشيء من هذه الحلول الوسط، وانما المؤامرة كانت مؤامرة على وجود الأمة الإسلامية على شخصية هذه الأمة على أنْ تقول كلمتها في الميدان بكل قوة وجرأة وشجاعة، على أنْ تَنسَلِخ عن شخصيتها وينصب عليها قيّم من أعلى يعيش معها عيش الأكاسرة والقياصرة مع شعوب الأكاسرة والقياصرة، هذا الذي كان يسمّى بالمصطلح الإسلامي بالهرقلية والكسروية[1]

هذه هي المؤامرة

وهذه المؤامرة هي التي كان يسعى خط السقيفة بالتدريج عامداً أو غير عامد إلى تعميقها إلى إنجاحها في المجتمع الإسلامي.

فلو أنّ الإمام عليه السلام كان قد مارس أنصاف الحلول، لو كان قد باع الأمة بيعاً مؤقتاً مع خيار الفسخ، إذن لكان بهذا قد اشترك في إنجاح وفي سلخ الأمة عن إرادتها وشخصيتها.

كانت الأمة وقتئذ بحاجة كبيرة جداً لكي تستطيع أنْ تكون على مستوى

---

(١) سبق إن أشرنا إلى مصدره. وخُرج النص حول هذا المطلب.

مسؤوليات ذلك الموقف العصيب وعلى مستوى القدرة للتخلص من تبعات هذه المؤامرة.

كان لابدّ من أنْ تشعر بكرامتها، بإرادتها، بحريتها، بأصالتها، بشخصيتها في المعترك، وهذا كله مما لا يتفق مع ممارسة الإمام عليه السلام لأنصاف الحلول.

النقطة الخامسة: التي لابدّ من الالتفات إليها في هذا المجال هي أنّ الإمام عليه السلام لو كان قد أمضى هذه الأجهزة الفاسدة التي خلفها عثمان الخليفة من قبله؛ فليس من المعقول بمقتضى طبيعة الأشياء أنْ يستطيع بعد هذا أنْ يمارس عملية التغيير الحقيقي في هذه التجربة التي يتزعمها.

وفي الواقع أنّ هذا الفهم لموقف أمير المؤمنين عليه السلام الذي اعرضه في هذه النقطة مرتبط بحقيقة مطلقة تشمل موقف أمير المؤمنين عليه السلام وتشمل أي موقف رسالي عقائدي آخر مشابه لموقف أمير المؤمنين عليه السلام أي موقف آخر يستهدف تغييراً جذرياً أو إصلاحياً حقيقياً في مجتمع أو بيئة أو حوزة أو في أي مجتمع آخر من المجتمعات، وهذه الحقيقة المطلقة: هي أنّ كل إصلاح لا يمكن أنْ ينشأ على يد الأجهزة الفاسدة نفسها التي لابدّ أنْ يطالها التغيير.

فلو افترضنا أنّ الزعيم المسؤول عن إصلاح تلك البيئة أقر الأجهزة الفاسدة التي يتوقف الإصلاح على إزالتها وعلى تبديدها، لو انه أقر هذه الأجهزة وتعاون معها وأمضاها ولو مؤقتاً، ثم بعد أنْ اكتسب القوة والمزيد من القدرة وامتد افقياً وعامودياً في أبعاد هذه التجربة التي تزعمها، بعد هذا

استبدل هذه الركائز بركائز أخرى، هذا المنطق منطق لا يتفق مع طبيعة العمل الاجتماعي ومع طبيعة الأشياء، وذلك لأن هذا الزعيم من أين سوف يستمد القوة؟ من أين سوف تتسع له القدرة ؟ من أين سوف يمتد أُفقياً وعامودياً ؟

هل تهبط عليه هذه القوة بمعجزة من السماء ؟

لا... وانما سوف يستمد هذه القوة من تلك الركائز نفسها...

أي زعيم في أية بيئة يستمد قوته وتتعمّق هذه القوة عنده باستمرار من ركائزه، من أسسه، من أجهزته التي هي قوته التنفيذية، التي هي واجهته على الأمة، التي هي تعبيره، التي هي تخطيطه، فإذا افترضنا أنّ هذه الأجهزة كانت هي الأجهزة الفاسدة التي يريد المخطط الإصلاحي إزالتها وتبديلها بأجهزة أخرى، فليس من المعقول أنْ يقول الزعيم في أية لحظة من اللحظات، وفي أي موقف من المواقف: دع هذه الأجهزة معي، دعني اعمل مع هذه الأجهزة حتى امتد حتى أشمخ، وبعد أنْ امتد، واشمخ أستطيع أنْ أقضي على هذه الأجهزة.

فإن هذا الشموخ الناتج من هذه الأجهزة لا يمكن أنْ يقضي على هذه الأجهزة، النتيجة منطقياً مرتبطة بمقدماتها والنتيجة واقعياً مرتبطة أيضاً بركائزها وأسسها، فهذا الشموخ المستمد من ركائز فاسدة، من أجهزة فاسدة، لا يمكن أنْ يعود مرة أخرى فيتمرد على هذه الأجهزة.

هذا الزعيم حتى لو كان حسن النية، حتى لو كان صادقاً في نيته وفي تصوره سوف يجد في نهاية الطريق أنه عاجز عن التغيير، سوف يجد في نهاية

الطريق انه لا يتمكن أنْ يحقق أهدافه الكبيرة، لان الزعيم مهما كان زعيماً، والرئيس مهما كان حاكماً وسلطاناً، لا يغير بيئة بجرة قلم، لا يغير بيئة بإصدار قرار بإصدار أمر، وانما تتغير البيئة عن طريق الأجهزة التي تنفذ إرادة هذا الزعيم، وتخطيط هذا الزعيم.

إذن كيف سوف يستطيع هذا الزعيم أنْ ينفذ إرادته، أنْ يحقق أهدافه، أنْ يصل إلى أمله ؟[١]

فطبيعة الأشياء وطبيعة العمل التغييري في أي بيئة تفرض على أي زعيم يبدأ هذا العمل أنْ يبني زعامته بصورة منفصلة عن تلك الأجهزة الفاسدة،

---

(١) إن موقف الإمام عليه السلام من مبايعته بعد مقتل عثمان، وما اشترطه عليهم يوضح ما يهدف إليه ويخطط له عليه السلام في المدى القريب والبعيد، روى الطبري واصفاً موقفه عليه السلام قال: فغشى الناس علياً، فقالوا: نبايعك، فقد ترى ما نزل بالإسلام وما ابتلينا به من ذوى القربى فقال علي دعوني والتمسوا غيري فإنا مستقبلون أمرا له وجوه وله ألوان، لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول فقالوا: ننشدك الله، ألا ترى ما نرى، ألا ترى الإسلام، ألا ترى الفِتنة، ألا تخاف الله فقال: قد أجبتكم لما أرى واعلموا إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم. وإن تركتموني فإنما أنا كأحدكم إلا أني أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم.

تاريخ الطبري: ٣/ ٤٥٦.

وهـذا مـا كـان يفـرض عـلى الإمام عليه السلام أنّ لا يمضي مخلفات عثمان الإدارية والسياسية[١]

النقطة السادسة: التي لابدّ من الالتفات إليها أيضاً في هذا المجال هي أنّ الإمـام عليه السلام لـو كـان قـد أمضى ولو مؤقتاً الأجهزة التي خلفها عثمان أمضى مـثلاً ولايـة معاوية بن أبي سفيان وحاكميته على الشام لحصل من ذلك على نقطة قوة مؤقتة.

❖ أنصاف الحلول وعملية التغيير الاجتماعي ❖

لـو باع الأمة من معاوية بيعاً مؤقتاً مع خيار الفسخ إذن لاستطاع بذلك أنْ يحصـل عـلى نقطة قوة، ونقطة القوة هي أنّ معاوية سوف يبايعه وسوف يبايعه أهـل الشـام، وهذه النقطة نقطة قوة في حساب عملية التغيير، لكن في مقابل هذا أيضاً سوف يحصل معاوية بن أبي سفيان على نقطة قوة كما حصل الإمام عليه السلام

---

(١) ومن كلام له عليه السلام فيما رده على المسلمين من قطائع عثمان: عن ابن عباس قال: إنّ علياً خطب ثاني يوم من بيعته في المدينة فقال: ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان وكل ما أعطـاه مـن مـال الله فهو مردود في بيت المال، فان الحق القديم لا يبطله شيء، والله لو وجدتـه قـد تـزوج بـه النسـاء، وملك به الإماء لرددته فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق.

نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام، محمد عبده : ١/ ٤٦.

على نقطة قوة، ونقطة القوة التي سوف يحصل عليها معاوية، هي اعتراف الإمام عليه السلام صاحب الأطروحة الجديدة، صاحب الخط الإسلامي الآخر المعارض على طول الزمن منذ تشكّلت السقيفة بشرعية معاوية بن أبي سفيان بأن معاوية رجل على أقل التقادير يوصف بأنه عامل قدير على تسيير مهام الدولة وعلى حماية مصالح المسلمين وعلى رعاية شؤونهم، هذا الاعتراف: هو المدلول العرفي الواضح لمثل هذا الإمضاء في الذهنية الإسلامية العامة، فنقطة قوة لمعاوية مقابل نقطة قوة لعلي عليه السلام.

ونحن إذا قارنا بين هاتين النقطتين فسوف لن ننتهي إلى قرار يؤكد أنّ نقطة القوة التي حصل عليها الإمام عليه السلام هي أهم في حساب عملية التغيير الاجتماعية التي يمارسها الإمام عليه السلام من نقطة القوة التي يحصل عليها معاوية، خاصة إذا التفتنا إلى أنّ تغيير الولاة في داخل الدولة الإسلامية وقتئذ لم يكن عملية سهلة ولم يكن عملية بهذا الشكل من اليسر الذي نتصوره في دولة مركزية تسيطر حكومتها المركزية على كل أجهزة الدولة وقطاعاتها.

ليس معنى أنّ معاوية يبايع أو يأخذ البيعة لخليفة في المدينة أنّ جيشاً في الحكومة المركزية سوف يدخل الشام وأن هناك ارتباطاً عسكرياً حقيقياً سوف يوجد بين الشام وبين الحكومة المركزية؛ وانما يبقى هذا الوالي بعد اخذ البيعة همزة الوصل الحقيقية بين هذا البلد وبين الحكومة المركزية لضعف مستوى الحكومة المركزية وقتئذ من ناحية، ومن ناحية أخرى لترسخ معاوية في الشام

بالخصوص لأن الشام لم تعرف حاكماً مسلماً قبل معاوية وقبل أخي معاوية[١]

ومنذ دشن الشام حياته الإسلامية فإنما دشنها على يد أولاد أبي سفيان، إذن ترسخ معاوية من الناحية التاريخية، والصلاحيات الاستثنائية التي أعطيت له من قبل عمر بن الخطاب في أنْ ينشئ له سلطنة وملكية في الشام بدعوى أنّ هذا يكون مظهر عز وجلال للإسلام في مقابل دولة القياصرة [٢].

---

(١) تولّى يزيد بن أبي سفيان قيادة الجيش الإسلامي، لتحرير الشام، وكان معاوية مصاحباً لأخيه، وقد ولاّه أبو بكر إمرة الجيش الذي أخرجه الخليفة لتحرير الشام عام ((١١)) هجرية، فتكرّس الوجود الأموي في الشام خلال حقبة تزيد على العقدين ((١١ ـ ٣٥)). تاريخ الطبري: أحداث عام ١١هجري.

تاريخ اليعقوبي : ١٣٣/٢.

(٢) يشير السيد الشهيد رضي الله عنه إلى لقاء عمر بمعاوية وهو في أبهة القياصرة، ولم يحاسبه، وقد روى ذلك الطبري في تاريخه: خرج عمر بن الخطاب إلى الشام فرأى معاوية في موكب يتلقاه وراح إليه في موكب فقال له عمر يا معاوية تروح في موكب وتغدو في مثله وبلغني أنك تصبح في منزلك وذوو الحاجات ببابك قال يا أمير المؤمنين إن العدو بها قريب منا ولهم عيون وجواسيس فأردت يا أمير المؤمنين أن يروا للإسلام عزا، فقال له عمر إن هذا لكيد رجل لبيب أو خدعة رجل أريب، فقال معاوية يا أمير المؤمنين مرني بما شئت أصر إليه قال: ويحك ما ناظرتك في أمر أعيب عليك فيه إلا تركتني ما أدرى آمرك أم أنهاك.

هذه الصلاحيات الاستثنائية التي أخذها معاوية من عمر بن الخطاب لأجل إنشاء مظاهر مستقلة في الشام، لا تشبه الوضع السياسي في الدولة الإسلامية في باقي الأقاليم وهذا مما رسخ نوعاً من الانفصالية في الشام عن باقي أجزاء جسم الدولة الإسلامية؛ ثم الصلاحيات التي أخذها بعد هذا من عثمان بن عفان حينما تولى الخلافة[1] وحينما شعر بأنه قادر على أنْ يستهتر بشكل مطلق بالأمر والنهي، بحيث لم يبق طيلة مدة خلافة عثمان أي ارتباط حقيقي بين الشام والمدينة، وانما كان هو الآمر والناهي في الشام مما جعل الشام يعيش حالة شبه انفصالية في الواقع وإن لم تكن انفصالية بحسب العرف الدستوري

تاريخ الطبري: ٤ / ٢٤٤ـ٢٤٥، ولم يحاسبه طول ولايته، في حين أن عمر قد ناصف أغلب ولاته وأمراء جنده أموالهم.

(١) إن الحوار الذي جرى بين الإمام علي عليه السلام وعثمان إبان محاصرته عام ((٣٥)) هجرية، يؤكد الصلاحيات المطلقة لمعاوية، قال عثمان ـ إي للإمام علي عليه السلام ـ هل تعلم أن عمر ولى معاوية خلافته كلها فقد وليته فقال علي أنشدك الله هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من يرفأ غلام عمر منه قال نعم قال علي فان معاوية يقتطع الأمور دونك وأنت تعلمها فيقول للناس هذا أمر عثمان فيبلغك ولا تغير على معاوية ثم خرج علي من عنده.

تاريخ الطبري: ٣ /٣٧٧.

للدولة الإسلامية وقتئذ، وهذا مما يعقد الموقف على أمير المؤمنين عليه السلام ويجعل نقطة القوة التي يحصل عليها وهي مجرد البيعة في الأيام الأولى نقطة غير حاسمة، بينما إذا أراد بعد هذا أنْ يعزل معاوية فبإمكان معاوية أنْ يثير - إلى جانب وجوده المادي القوي المترسخ في الشام - الشبهات على المستوى التشريعي والإسلامي.

لماذا يعزلني ؟

ماذا صدر مني حتى يعزلني بعد أنْ اعترف باني حاكم عادل صالح لإدارة شؤون المسلمين ؟ ما الذي طرأ وما الذي تجدد ؟ (١)

مثل هذا الكلام كان بإمكان معاوية أنْ يوجهه حينئذ إلى الإمام عليه السلام ولم يكن للإمام عليه السلام أنْ يعطي جواباً مقنعاً للرأي العام الإسلامي وقتئذ على

---

(١) إن سيرة معاوية السابقة تثبت وتؤكد ذلك؛ فمعاوية حين وصله كتاب الإمام علي عليه السلام يدعوه فيه إلى البيعة، جمع أهل الشام وخطبهم: "أيها الناس، قد علمتم أني خليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وأني خليفة عثمان بن عفان عليكم، وأني لم أقم رجلا منكم على خزاية قط، وأني ولي عثمان وقد قتل مظلوما، وأنا أحب أن تعلموني ذات أنفسكم في قتل عثمان ". فقام أهل الشام بأجمعهم فأجابوا إلى الطلب بدم عثمان، وبايعوه على ذلك.

وقعة صفين- ابن مزاحم المنقري: ٣٢.

مثل هذه الشبهة.

بينما حين يعزله من البداية يعزله على أساس انه يؤمن بعدم صلاحيته، وبأنه لا تتوفر فيه الشروط اللازمة في الحاكم الإسلامي[١] وهو لا يتحمل

---

(١) إنّ قول النبي صلى الله عليه وآله المشهور يوم فتح مكة لقريش: ((إذهبوا فأنتم الطلقاء)) كان له دويه وأثره في الذهنية الإسلامية فامتد فاعلاً فيها حتى سقوط الدولة الأموية، والغريب أن عمر يرى أن ليس للطلقاء ولا لأبنائهم في الخلافة نصيب، إلا أنه هو الذي مهد لهم بتولية يزيد بن أبي سفيان أولاً، ومن ثم معاوية، فقد روى ابن عبد البر في الإصابة قول عمر لأهل الشورى: إن عمر قال لأهل الشورى لا تختلفوا فإنكم إن اختلفتم جاءكم معاوية من الشام وعبد الله بن أبي ربيعة من اليمن فلا يريان لكم فضلا لسابقتكم، وإن هذا الأمر لا يصلح للطلقاء ولا لأبناء الطلقاء، الإصابة: ٧٩/٤ وفي تاريخ الطبري: روى إبان خلافة عثمان أن الأنصار تكلمت، فقالوا : أبت الطلقاء إلا عداوة.

تاريخ الطبري: ٤٧/٥، وفي حواريات صفين عن كثير من الصحابة، كقيس بن سعد بن عبادة، وصعصعة بن صوحان وعمار تجد كلمة (طليق) تتكرر مع معاوية وأصحابه كمورد ازدراء وحط من مكانة معاوية، انظر: الطبري أحداث (٣٦)صفين،

التحكيم، ووقعة صفين : ٤١٥، وأخرج عن عبد الرحمن بن أبزي عن عمر أنه قال: هذا الأمر في أهل بدر ما بقي منهم أحد، ثم في أهل أحد ما بقي منهم أحد وفي كذا وكذا وليس فيها لطليق ولا لولد طليق ولا لمسلمة الفتح شيء. تاريخ السيوطي، ←

مسؤولية وجوده كحاكم، في الفترة السابقة التي عاشها معاوية حاكماً من قبل عثمان أو من قبل عمر بن الخطاب.

النقطة السابعة: التي لابدّ من الالتفات إليها في هذا المجال هي: إنّ هذه الشبهة تفترض أنّ معاوية بن أبي سفيان لو أنّ الإمام عليه السلام أمضى حاكميته وأمضى ولايته لبايعه ولأعطى نقطة القوة هذه إلى أمير المؤمنين عليه السلام؛ لكن لا يوجد في الدلائل والقرائن التي كانت تكتنف موقف الإمام عليه السلام ما يوحي بصحة هذا الافتراض، فان معاوية لم يعص علياً لأجل انه عزل عن الولاية وانما كان ذلك في اكبر الظن جزءاً من مخطط لمؤامرة طويلة الأمد للأموية على الإسلام، الأموية كانت تريد أنْ تنهب مكاسب الإسلام بالتدريج، هذا النهب الذي عبّر عنه بأقسى صورة ـ أبو سفيان ـ حينما ركل قبر حمزة رضوان اللّه عليه بقدمه[1] وهو يقول: إنّ هذا الدين الذي قاتلتمونا عليه، هذا الدين

مطبعة السعادة، مصر، ١٩٥٢ : ١٤٤، وفي كلام ابن عباس مع أبي موسى الأشعري، وأعلم أن ليس في معاوية خصلة تقربه من الخلافة، انه طليق وابن طليق... إلى كثير من المرويات.

جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية، بيروت (بدون تاريخ): ٣٨٦/١.

(١) النص: قال أبو سفيان في أيام عثمان: وقد مرّ بقبر حمزة، وضربه برجله، وقال: يا أبا عمارة! إن الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمسى في يد غلماننا اليوم يتلعبون به!

شرح نهج البلاغة : ١٣٦/١٣، والنزاع والتخاصم : ٨٧ ، باختلاف في اللفظ.

الـذي بذلـتم دمـاءكم في سـبيله، وضـحيتم في سبيله قوموا واقعدوا وانظروا كيف اصبح كرة في يد صبياننا وأطفالنا(١)

---

(١) لما ولي عثمان الخلافة، دخل عليه أبو سفيان، فقال: يا معشر بني أمية إن الخلافة صارت في تيم وعدي حتى طمعت فيها، وقد صارت إليكم فتلقفوها بينكم تلقف الكرة، فوالله ما من جنة ولا نار – هذا أو نحوه – فصاح عثمان: قم عني فعل الله بك وفعل.

الأغاني : ٦ / ٣٧١. ويقول أبو الفرج : ولأبي سفيان أخبار من هذا الجنس كثيرة يطول ذكرها، وفيما ذكرت منها مقنع. وروى أحمد بن عبد العزيز أن أبا سفيان، قال لما بويع عثمان: كان هذا الأمر في تيم، وأنى لتيم هذا الأمر ! ثم صار إلى عدي فأبعد وأبعد ثم رجعت إلى منازلها، واستقر الأمر قراره، فتلقفوها تلقف الكرة، قال أحمد بن عبد العزيز: وحدثني المغيرة بن محمد المهلبي قال: ذاكرت إسماعيل بن إسحاق القاضي بهذا الحديث، وأن أبا سفيان قال لعثمان: بأبي أنت ! أنفق ولا تكن أبي حجر، وتداولوها يا بني أمية تداول الولدان الكرة، فوالله ما من جنة ولا نار وكان الزبير حاضرا، فقال عثمان لأبي سفيان: أعزب، فقال: يا بني أهاهنا أحد ! قال الزبير: نعم والله لا كتمتها عليك. وروى أحمد بن عبد العزيز، قال: جاء أبو سفيان إلى علي عليه السلام، فقال: وليتم على هذا الأمر أذل بيت ـ بيت أبي بكر ـ في قريش.

شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٢ /٤٤ـ٤٥.

كـان الشـرف الأمـوي[١] يريد أنْ يقتنص وأن ينهب مكاسب البناء الإسلامي والوجـود الإسلامي، وكانت هذه المؤامرة تنفذ على مستويات وكانت المرحلة الأولى مـن هـذه المؤامـرة ترسـخ الأخويـن في الشـام يـزيد بن أبي سفيان ثم معاويـة بعد يزيد بن أبي سفيان[٢] ومحاولة استقطاب معاوية للشام عن طريق

---

(١) إن رسـالتي هـند وأبـي سـفيان إلى معاويـة بعد توليه الشام بُعيد موت أخيه يزيد تُعد مظهـراً للطمـوح الأموي؛ قالت هند: لمعاوية فيما كتبت به إليه: والله يا بني إنه قل أن تلـد حـرة مـثلك، وإن هـذا الـرجل ـ أي عمـر بـن الخطاب ـ قد استنهضك في هذا الأمـر، فـاعمل بطاعته فيما أحببت وكرهت. وقال له أبوه: يا بني إن هؤلاء الرهط من المهاجـرين سـبقونا وتأخـرنا فرفعهم سبقهم وقدمهم عند الله وعند رسوله، وقصر بنا تأخيرنـا فصـاروا قـادة وسـادة. وصـرنا أتـباعا، وقـد ولـوك جسـيما مـن أمورهم فلا تخالفهم، فإنك تجري إلى أمد فنافس فإن بلغته أورثته عقبك، فلم يزل معاوية نائبا على الشام في الدولة العمرية والعثمانية مدة خلافة عثمان. البداية والنهاية، ابن الكثير: ٨ / ١٢٦ – ١٢٧.

(٢) لمـا عقد أبو بكر الألوية لقتال أهل الردة عقد له ـ أي لخالد بن سعيد الأموي ـ فيمن عقـد فـنهاه عـنه عمـر، وقـال: إنـه لمخذول وإنه لضعيف التروية ولقد كذب كذبة لا يفـارق الأرض مدل بها وخائض فيها فلا يستنصر به، فلم يحتمل أبو بكر عليه وجعله ردءً، نادى أبو بكر في الناس بالخروج، وأميرهم خالد بن سعيد، وكان خالد من عمال رسول الله باليمن، فقدم وقد توفي رسول الله، فامتنع عن البيعة، ومال إلى بني هاشم ←

بقائه هذه المدة الطويلة فيها.

ثم كان معاوية بن أبي سفيان بنفسه ينتظر الفرصة الذهبية التي يتيحها مقتل عثمان بن عفان، هذه الفرصة الذهبية التي تعطيه سلاحاً غير منتظر يمكن أن يمسكه ويدخل به إلى الميدان.. ولهذا تباطأ عن نصرة عثمان بن عفان كان عثمان يستنصره ويستصرخه ويؤكد له انه يعيش لحظات الخطر ولكن

↵فلما عهد أبو بكر لخالد قال له عمر: أتولي خالدا وقد حبس عنك بيعته، وقال لبني هاشم ما قد بلغك ؟ فوالله ما أرى أن توجّهه. فحل لواءه، ودعا يزيد ابن أبي سفيان، وأبا عبيدة بن الجراح، وشرحبيل بن حسنة، وعمرو بن العاص. تاريخ اليعقوبي: ٢ / ١٣٣، وكان خالد بن سعيد بن العاص باليمن زمن النبي صلى الله عليه وسلم وتوفي النبي صلى الله عليه وسلم وهو بها، وقدم بعد وفاته بشهر وعليه جبة ديباج؛ فلقى عمر بن الخطاب وعلي بن أبى طالب، فصاح عمر بمن يليه مزقوا عليه جبته أيلبس الحرير، وهو في رجالنا في السلم مهجور فمزقوا جبته فقال خالد: يا أبا الحسن يا بني عبد مناف أغلبتم عليها فقال علي عليه السلام أمغالبة ترى أم خلافة، قال: لا يغالب على هذا الأمر أولى منكم يا بني عبد مناف، وقال عمر لخالد: فض الله فاك والله لا يزال كاذب يخوض فيما قلت ثم لا يضر إلا نفسه؛ فأبلغ عمر أبا بكر مقالته؛ فلما عقد أبو بكر الألوية لقتال أهل الردة عقد له فيمن عقد فنهاه عنه عمر، وقال: إنه لمخذول وإنه لضعيف التروية ولقد كذب كذبة لا يفارق الأرض مدل بها وخائض فيها فلا يستنصر به، فلم يحتمل أبو بكر عليه وجعله ردءً. تاريخ الطبري : ٢ / ٢٨٦.

معاويـة كـان يـتلكأ في إنقـاذه وكان معاوية ـ على أقل تقدير ـ قادراً على أن يؤخر هذا المصير المحتوم بعثمان إلى مدة أطول لو انه وقف موقفا إيجابياً حقيقياً في نصـرة عـثمان بـن عفـان إلا انه تلكأ وتلعثم، وكان يخطط لكي يبقى هذا التـيار كاسـحاً ولكي يخرج عثمان بن عفان على يد المسلمين ميتاً ثم بعد هذا لكـي يأتي ويمسك بزمام هذا السلاح ولكي يقول أنا ابن عم الخليفة المقتول، ومـن المعلوم أنّ معاوية سوف لن يتاح له في كل يوم أن يكون ابن عم الخليفة المقـتول(١)، هـذه الفرصـة الذهبـية الـتي كانت على مستوى الأطماع والآمال

---

(١) روى ابـن شبة بسنده: حدثنا محمد بن منصور قال، حدثنا جعفر بن سليمان الضبعي قـال: حدثـنا جويرية قال: أرسل عثمان رضي الله عنه إلى معاوية رضي الله عنه يستمده، فبعث معاويـة رضي الله عنه يزيد بن أسد جد خالد القسري، وقال لـه: إذا أتيت ذا خشب فأقم بهـا (ولا تـتجاوزها، ولا تقـل الشاهد يرى ما) لا يرى الغائب قال: أنا الشاهد وأنت الغائـب. فأقـام بـذي خشب حتى قتل عثمان رضي الله عنه . فقلت لجويرية: لم صنع هذا ؟ قـال: صـنعه عمـدا ليقـتل عثمان رضي الله عنه فيدعو إلى نفسه. وروى أيضاً: حدثنا محمد بـن يحـيى قـال، حدثـني غسـان بن عبد الحميد قال، قدم المسور بن مخرمة على معاوية فدخـل علـيه وعـنده أهـل الشـام فقـال معاويـة رضي الله عنه : يا أهل الشام هذا من قتلة عـثمان، فقـال المسـور: إنـي والله مـا قتلـت عثمان، ولكن قتله سيرة أبي بكر وعمر، وكتب يستمدك بالجند فحبستهم عنه حتى قتل وهم بالزرقاء.

تاريخ المدينة، ابن شبة النميري: ١٢٨٨/٤ـ١٢٨٩، وفي تاريخ الطبري: فلما رأى عثمان ←

الأمويـة لنهب كل مكاسب الإسلام، هذه الفرصة الذهبية لم يكن من المظنون أنّ معاويـة سـوف يغيرهـا عن طريق الاكتفاء بولاية الشام، ولاية الشام كانت مرحلة، أما منذ قتل عثمان بدأ معاوية في نهب كل الوجود الإسلامي، وتزعّم كـل هـذا الوجـود، وكان هذا يعني أنّ تعيينه أو إبقاءه والياً على الشام سوف لـن يكـون على مستوى أطماعه في المرحلة الأولى التي بدأت بمقتل عثمان بن عفان من مراحل المؤامرة الأموية على الإسلام.

وأخـيراً لابـدّ مـن الالـتفات أيضاً إلى شيء آخر: هو أنّ الوضع الذي كان

↩مـا قـد نـزل به وما قد انبعث عليه من الناس كتب إلى معاوية بن أبي سفيان وهو بالشـام: بسـم الله الـرحمن الرحـيم أما بعد فإن أهل المدينة قد كفروا وأخلفوا الطاعة ونكـثوا البـيعة، فابعـث إلـيّ من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كل صعب وذلول فـلما جـاء معاويـة الكـتاب تربص به وكره إظهار مخالفة أصحاب رسول الله صلى الله علـيه وسلم وقد علم اجتماعهم فلما أبطأ أمره على عثمان كتب إلى يزيد بن أسد بن كـرز وإلى أهـل الشـام يسـتنفرهم ويعظـم حقـه عليهم، ويذكر الخلفاء وما أمر الله عز وجـل بـه مـن طاعـتهم ومناصـحتهم ووعدهم أن ينجدهم جند أو بطانة دون الناس وذكـرهم بـلاءه عـندهم وصـنيعه إلـيهم، فـان كان عندكم غياث فالعجل العجل فان القوم معاجلي.

تاريخ الطبري: ٣/٤٠٢.

يعيشه الإمام عليه السلام ـ في ملاحظة طبيعة الأمة في ذلك الوضع، وطبيعة الإمام عليه السلام في ذلك الوضع ـ، لم يكن ليوحي بالاعتقاد بالعجز عن إمكان النجاح لعملية التغيير دون مساومة.

ومن الواضح أنّ الفكرة الفقهية التي أشرنا إليها سابقاً عن توقّف الواجب الأهم على المقدّمة المحرّمة، إنما تكون فيما إذا كان هناك توقف بالفعل، بحيث يحرز أنّ هذا الواجب الأهم لا يمكن التوصل إليه إلا عن طريق هذه المقدمة المحرمة، والظروف وطبيعية الأشياء وقتئذ لم تكن توحي، ولم تكن تؤدي إلى اليقين بمثل هذا التوقف.

وذلك لأن المؤامرة التي كان علي عليه السلام قد اضطلع بمسؤولية إحباطها حينما تولى الحكم لم تكن قد نجحت بعد، بل كانت الأمة في يوم قريب سابق على يوم مقتل عثمان قد عبّرت تعبيراً معاكساً مضاداً لواقع هذه المؤامرة ولمضمون هذه المؤامرة.

هذه المؤامرة صحيح أنها تمتد بجذورها إلى أمد طويل قبل هذا التاريخ، المؤامرة على وجود الأمة الإسلامية، فإن الأمة الإسلامية التي سهر عليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على إعطائها أصالتها وشخصيتها وكرامتها ووجودها، حتى كان قد الزم نفسه والزمه ربه بالشورى والتشاور مع المسلمين لأجل تربية المسلمين تربية نفسية وإعدادهم لتحمل مسؤولياتهم، وإشعارهم بأنهم هم الأمة التي يجب أن تتحمل مسؤوليات هذه الرسالة حلفها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

وهـي تعـيش هذه الروحية وتعيش على هذا المستوى عاطفياً ونفسياً، وبدأت جـذور المؤامـرة للقضـاء عـلى وجـود الأمة كافة وتحويل الوجود إلى السلطان والحاكم.

أول جـذر مـن جـذور هـذه المؤامـرة أعطي كمفهوم في السقيفة حينما قال أحد المتكلمين فيها من ينازعنا سلطان محمد(١)

والسـقيفة وإن كانـت بمظهـرها اعترافـاً بوجـود الأمـة، لأن الأمة تريد أن تتشـاور في أمـر تعيين الحاكم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله؛ ولكن المفهوم الذي أُعطي في السـقيفة والـذي كُتب لـه أن ينجح يوم السقيفة، وأن يمتد بأثره بعد ذلك بعد يوم السقيفة هذه، المفهوم كان بحد ذاته ينكر وجود الأمة.

كـان يـنظر إلى النّبوّة عـلى أنهـا سلطان قريش، أنها سلطان عشيرة معيّنة وهـذه العشـيرة المعيّـنة هـي الـتي يجـب أن تحكـم وأن تسـود، نظـرية مالكية

---

(١) روى الطـبري أن عمـر ـ يـوم السـقيفة ـ قال للحبّاب بن المنذر بن الجموح: (والله لا ترضـى العـرب أن يؤمـروكم ونبيها من غيركم، ولكن العرب لا تمتنع أن تولي أمرها مـن كانـت النّبوّة فيهم وولي أمورهم منهم ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مُدْلٍ بباطل أو متجانف لإثم أو متورط في هلكة).

تاريخ الطبري: ٢ / ٤٥٧.

العشـيرة، الـتي تـتحدى وجـود الأمـة وتـنكر علـيها أصـالتها ووجودهـا وشخصـيتها، هـذه الـنظرية طُرحـت كمفهوم في السقيفة ثم بعد هذا امتدت واتسعت عملياً ونظرياً.

عمر بن الخطاب كان أيضاً يعمّق بشكل آخر هذا المفهوم[١]

في مـرة من المرّات سمع عمر بن الخطاب أنّ المسلمين يتحلقون حلقاً حلقاً، ويتكـلمون في أنّ أمـير المؤمـنين إذا أصـيب بشيء ؛ فمن يحكم المسلمين بعد عمـر؟[٢] المسـلمون أُنـاس يحملون، همّ التجربة، همّ المجتمع همّ الأمة تطبيقاً لفكرة: إنّ كل مسلم يحمل الهموم الكبيرة يفكر في أنّ عمر بن الخطاب حينما

---

(١) ومـن مظاهـر ذلـك، الـتفرقة في العطـاء بين المسلمين، تولية معاوية الشام، والشورى الـتي أُسند الفصـل فـيها إلى عـبد الرحمان بن عوف، والتي عدها الكثير من المفكرين والمؤرّخين أنها بادرة بُذرت لتثمر الدولة الأموية، والملك العضوض.

(٢) يشـير السـيد الشـهيد إلى مقولـة عمر: ثم إنه بلغني أن قائلا منكم يقول: والله لو قد مـات عمر بايعت فلانا، فلا يغترن امرؤ أن يقول: إنما كانت بيعة أبي بكر فلتة وتمت، إلا وإنهـا قـد كانـت كذلك، ولكن الله وقى شرّها، من بايع رجلا من غير مشورة من المسلمين فلا يبايع هو ولا الذي بايعه تغرة أن يقتلا.

السـنن الكـبرى، النسـائي: ٢٧٤/٤. الطـرائف، ابـن طـاووس : ٢٣٧. وسـبل الهـدى والرشاد، الصالحي الشامي: ١٢٧/١١.

يموت، من الذي يحكم المسلمين ؟

هذا تعبير عن وجود الأمة في الميدان.

انـزعج عمـر بن الخطاب جدّاً لهذا التعبير عن وجود الأمة. لأنه يعرف أنّ وجـود الأمـة في المـيدان معـناه وجود علي عليه السلام في الميدان، معناه وجود الخط المعـارض في المـيدان، كـلما نمـت الأمـة كـلما تأصّل وجودها اكثر واكتسبت إرادتهـا ووعـيها بدرجـة أعمـق كلما كان علي هو الأقدر وهو الأكفأ لممارسة عملـية الحكـم، لهذا صعد على المنبر وقال ما مضمونه: إنّ أقواماً يقولون ماذا ومـن يحكـم بعـد أمـير المؤمـنين ؟ ألا إنّ بـيعة أبـي بكر كانت فلتة وقى اللّه المسلمين شرها[١]

يعـني مـاذا يـريد أن يقول في هذا الكلام، يريد أن يقول في هذا الكلام بان المسلمين لا يجوز أن يعودوا مرة أخرى إلى التفكير المستقل في انتخاب شخص وانما الشخص يجب أن يعيّن لهم من أعلى.

لكـن لم يسـتطع ولم يجرأ أن يبيّن هذا المفهوم، وإلاّ هو في نفسه كان هكذا يرى...

كان يرى أنّ الأمة يجب أن تستمع منه هو يعين من أعلى هذا الحاكم، لا أنّ

(١) انظر: الهامش السابق.

الأمـة نفسـها تفكـر في تعـيين هذا الحاكم كما فكرت مثلاً عُقيب وفاة رسول الله ﷺ، كـان ذلـك فلـتة وقـى الله المسلمين شرها، والأمة يجب ألاّ تعود إلى هذه الفلتة مرة أخرى.

إذن فما هذا البديل ؟

هـذا البديل لم يبرزه، لكن البديل كان في نفسه، هو: إني أنا يجب أن أُعين هذا أيضاً، كان استمرارية لجذور المؤامرة، وبعد هذا عبّر عن هذا البديل بكل صراحة وهو على فراش الموت، وحينما طلب منه المتملقون[١] أن يوصي وألاّ يهمل أمة محمد ﷺ، حينما طلبوا منه ذلك عبّر عن هذا البديل بكل صراحة فأسند الأمر إلى ستة أيضاً كان فيه نوع من التحفظ، لأنه لم يعيّن واحداً وحيداً لا شريك له وإنّما عين ستة كأنه يريد أن يقول: بأني أعطيت درجة من المشاركة للامة عن طريق أني أسندت الأمر إلى ستة هم يعيّنون فيما

---

(١) ذكر المؤرّخون أن عمر لما طلب من عائشة أن يدفن في غرفتها، قالت لعبد الله بن عمر: يا بني أبلغ عمر سلامي، وقل له: لا تدع أمة محمد بلا راع، استخلف عليهم، ولا تدعهم بعدك هملا، فإني أخشى عليهم الفِتنة، فأتى عبد الله فأعلمه، فقال: ومن تأمرني أن أستخلف.

الإمامة والسياسة، الدينوري: ١ /٤٢، وانظر: تاريخ الطبري : ٢ /٤٥٧.

بينهم واحداً منهم[١]

انظروا كيف كانت المؤامرة على الأمة تنفذ بالتدريج.

كانت المؤامرة على وجودها، على كيانها، على إرادتها كأمة.. تحمل أشرف رسالات السماء.

طبعاً عبد الرحمان بن عوف الذي كان قطب الرحى في هؤلاء الستة[٢]

(١) روى الطبري مقالة عمر حين شارف الموت وفيها حدد مسار الدولة والأمة من بعده، قال: فما أريد أتحملها حيا وميتا عليكم هؤلاء الرهط الّذين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنهم من أهل الجنة سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل منهم ولست مدخله، ولكن الستة علي وعثمان ابنا عبد مناف، وعبد الرحمان وسعد خالا رسول الله صلى الله عليه وسلم والزبير بن العوام حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته وطلحة الخير ابن عبيد الله فليختاروا منهم رجلا فإذا ولوا واليا فأحسنوا مؤازرته وأعينوه، إن أئتمن أحدا منكم فليؤد إليه أمانته وخرجوا، فقال ـ أي عمر ـ إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم، وقد قبض رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو عنكم راض، إني لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم، ولكني أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس، فانهضوا إلى حجرة عائشة بإذن منها فتشاوروا واختاروا رجلا منكم، ثم قال: لا تدخلوا حجرة عائشة ولكن كونوا قريبا. الطبري٣/٢٩٣، الإمامة والسياسة، الدينوري: ١/٤١.

(٢) فقد أشار عمر عليهم أن الطرف الذي يكون فيه عبد الرحمان هو الراجح، ومنه يكون الخليفة، وكان ما أراده عمر. الطبري والإمامة والسياسة، المصدران السابقان.

أيضـاً لم يستطع في تلك المرحلة أن يطفئ دور الأمة، لم يحل المشكلة عن طريق الـتفاوض فـيما بـين هـؤلاء الستة في اجتماع مغلق، وإنما ذهب يستشير الأمة ويسـأل المسلمين من الذي ترشحونه من هؤلاء الستة ؟ إلى هنا كانت الأمة لا تـزال تحتفظ بدرجة كبيرة من وجودها بحيث إنّ عمر بن الخطاب لم يستطع أن يغفل وجود الأمة؛ يسأل هذا ويسأل ذاك من تريدون من هؤلاء الستة ؟

يقول ما سألت عربياً إلاّ وقال: علي بن أبي طالب عليه السلام وما سألت قرشياً إلاّ وقـال: عـثمان بن عفان[1] يعني جماهير المسلمين كانت تقول: علي بن أبي طالب عليه السلام وعشيرة واحدة معيّنة كانت تريد أن تنهب الحكم من الأمة كانت تقـول عـثمان لان عـثمان بن عفان كان تكريساً لعملية النهب بينما علي بن أبـي طالـب عليه السلام كـان تعـبيراً وتأكـيداً لوجود الأمة في الميدان، ولهذا أرادته الأمة، وأرادت العشيرة عثمان.

---

(١) روى ابن شبة أن عبد الرحمان كان يستحثهم على تولية أحدهم فقال لجماعة الشورى: إن الـناس قـد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم، وقد علموا من أميرهم. فقال سـعيد بـن زيـد: إنا نراك لها أهلا. فقال: أشيروا علي بغير هذا. فقال عمار: إن أردت أن لا يخـتلف المسـلمون فـبايع علـياً. فقال المقداد بن الاسود: صدق عمار، إن بايعت علياً قلنا سمعنا وأطعنا، وقال ابن أبي سرح: إن أردت أن لا تختلف قريش فبايع عثماناً. تاريخ المدينة، بن شبة النميري : ٣ / ٢٩

ثم بعد هذا جاء عثمان بن عفان، وفي دور عثمان بن عفان تكشفت المؤامرة أكثر فأكثر وامتدت أكثر فأكثر.

أصبحت العشيرة تحكم وتقول بكل صراحة: بأن المال مالنا والخراج خراجنا والأرض أرضنا، إن شئنا أعطينا للآخرين وإن شئنا حرمناهم.

لكن هذا كلام يقال خارج نطاق الدستور، أمّا في نطاق الدستور كانت لا تزال الصيغة الإسلامية وهي أنّ المال مال الله والناس سواسية، المسلمون كلهم عبيد الله لا فرق بين قرشيهم وعربيهم، وبين عربيهم وأعجميهم، بين أي مسلم وأي مسلم آخر.

هذه كانت الصيغة الدستورية حتى في عهد عثمان، لكن هذا الوالي الأموي المتغطرس، أو ذاك الأموي المتعجرف، أو هذا الأموي المستعجل والمتهور، كان ينطق بواقع آخر لا يعبّر عن الدستور، حيث ينظر إلى الأمة على أنها قطيع يتحكم فيه كيف يشاء، وعلى أنّ أرض الإسلام مزرعة [1] ينتفع

---

(١) إن ما أحدثه الوليد بن عقبة، وسعيد بن العاص، إبّان توليهما الكوفة، وموقف الأمة منهما، يوضح ما يشير إليه السيد الشهيد رضي الله عنه، المروي : استعمل عثمان بن عفان الوليد بن عقبة على الكوفة فرفعوا عليه أنه شرب الخمر فعزله عثمان وجلده الحد. تاريخ دمشق، ابن عساكر: ٢٢٠/٦٣، وفيه نزلت الآية المباركة من سورة الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾

﴿فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾. تاريخ دمشق: ٦٣/٢٢٨. ولما عزل عثمان الوليد بن عقبة بن أبي معيط عن الكوفة دعا سعيد بن العاص واستعمله عليها فلما قدم الكوفة قدمها شابا مترفا ليست له سابقة فقال: لا أصعد المنبر حتى يطهر فأمر به فغسل، ثم صعد المنبر فخطب أهل الكوفة وتكلم بكلام قصّر بهم فيه ونسبهم إلى الشقاق والخلاف فقال: إنما هذا السواد بستان لأغيلمة من قريش فشكوه إلى عثمان فقال: كلما رأى أحدكم من أميره جفوة أرادنا أن نعزله، فأضر بأهل الكوفة إضرارا شديدا وعمل عليها خمس سنين إلا شهرا، ورحل من الكوفة إلى عثمان الأشتر مالك بن الحارث، ويزيد بن مكفف، وثابت بن قيس، وكميل بن زياد النخعي، وزيد وصعصعة ابنا صوحان العبديان، والحارث بن عبد الله الأعور، وجندب بن زهير، وأبو زينب الأزديان، وأصغر بن قيس الحارثي يسألونه عزل سعيد بن العاص عنهم، ورحل سعيد وافدا على عثمان فوافقهم عنده فأبى عثمان أن يعزله وأمره أن يرجع إلى عمله، فخرج الأشتر من ليلته في نفر من أصحابه فسار عشر ليال إلى الكوفة فاستولى عليها وصعد المنبر فقال: هذا سعيد بن العاص قد أتاكم يزعم أن هذا السواد بستان لأغيلمة من قريش، والسواد مساقط رؤوسكم ومراكز رماحكم وفيؤكم وفيء آبائكم فمن كان يرى لله عليه حقا فلينهض إلى الجرعة، فخرج الناس فعسكروا بالجرعة وهي بين الكوفة والحيرة، وأقبل سعيد بن العاص حتى نزل العذيب، فدعا الأشتر يزيد بن قيس الأرحبي وعبد الله بن كنانة العبدي وكانا محربين فعقد لكل واحد منهما خمسمائة فارس وقال لهما، سيرا إلى سعيد بن العاص فأزعجاه وألحقاه بصاحبه فإن أبى ﴿

بخيراتها من يشاء هو ويحرم من خيراتها من شاء، ولكن منطق الدستور الإسلامي كان هو المتجذّر في نفوس أبناء الأمة هذا المنطق هو أنّ أرض السواد ملك الأمة وأن الأمة هي صاحبة الرأي فهي القائدة وهي سيدة الموقف، وهذا يعني أنّ المؤامرة لا تزال غير ناجحة بالرغم من الجذور، بالرغم من المقدمات، بالرغم من الإرهاصات النظرية والعملية، بالرغم من كل ذلك المؤامرة لم تكن ناجحة الأمة كانت هي الأمة، الأمة كانت تأتي إلى عثمان وتقول: لا نريد هذا الوالي لان هذا الوالي منحرف، منحرف لا يطبق كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله، ولم يكن يستطيع عثمان بن عفان أنْ يجيب بصراحة ويقول ليس لك إرادة، هذا الوالي يمثلني أنا، وأنا الحاكم أنا الحاكم المطلق، لم يكن يستطيع عثمان بن عفان أن يقول هذا وانما كان يعتذر ويقيل ويرجع،

فاضربا عنقه وأتياني برأسه فأتياه فقالا له: ارحل إلى صاحبك فقال: إبلي انضاء أعلفها أياما ونقدم المصر فنشتري حوائجنا ونتزود ثم أرتحل فقالا: لا والله ولا ساعة لترتحلن أو لنضربن عنقك فلما رأى الجد منهما ارتحل لاحقا بعثمان وأتيا الأشتر فأخبراه وانصرف الأشتر من معسكره إلى الكوفة فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: والله يا أهل الكوفة ما غضبت إلا لله ولكم وقد ألحقنا هذا الرجل بصاحبه وقد وليت أبا موسى الأشعري صلاتكم وثغركم وحذيفة بن اليمان.

الطبقات الكبرى، ابن سعد: ٥/٣٢.

وهكذا كان يناور مع الأمة، يشتغل بمناورات من هذا القبيل مع هذه الأمة التي بدأت تحس بالخطر على وجودها فعبّرت الأمة تعبيراً ثورياً عن وجودها وعن كرامتها، فقتلت هذا الخليفة وبعدها اتجهت طبيعياً إلى الإمام عليه السلام لكي يعبّر من جديد عن وجودها، لكي يحبط المؤامرة لكي يعيد إلى هذه الأمة كل كرامتها خارج نطاق الدستور، وداخل نطاق الدستور لكي يقضي على كل انحراف خرج به الحكام عن الدستور عن الصيغة الإسلامية للحياة.

فمن هنا كانت القضية لا تزال في بدايتها، لا تزال الأمة هي الأمة، لا تزال بحسب مظهرها على اقل تقدير هي تلك الأمة التي قتلت الحاكم في سبيل الحفاظ على وجودها، وعلي عليه السلام صاحب الطاقات الكبيرة هو الشخص الوحيد الذي يؤمل فيه أن يصفي عملية الانحراف.

فالظروف والملابسات لم تكن تؤدي إلى يأس... كانت تؤدي إلى أمل وما وقع خارجاً خلال هذه الأربع سنوات كان يؤكد هذا الأمل فان علياً عليه السلام لولا معاكسات جانبية لم تكن تنبع من حقيقة المشاكل الكبرى في المجتمع، لاستطاع أن يسيطر على الموقف.

لولا مسألة التحكيم[١] مثلاً، لولا أنّ شعاراً معيّناً طرح من قبل معاوية،

---

(١) إن مسألة التحكيم قد حدثت بعد أن كادت الهزيمة تلحق بمعاوية في وقعة صفين، وكان لرفع المصحف، وشعار ((هذا كتاب الله بيننا وبينكم)) أثره في ما حصل ←

هذا الشعار الذي انعكس بفهم خاطئ عند جماعة معيّنة في جيش الإمام عليه السلام، لولا هذا لكان بينه وبين قتل معاوية وتصفيته بضعة أمتار[١]

إذن كان الأمل في أنّ علياً عليه السلام يمكنه أنْ يحقق الهدف ويعيد للامة وجودها من دون حاجة إلى المساومات وأنصاف الحلول، كان هذا الأمل أملاً معقولاً وكبيراً، ولهذا لم يكن هناك مجوز لارتكاب أنصاف الحلول والمساومات.

ولكن هذا الأمل قد خاب كما قلنا. انتهى آخر أمل حقيقي في هذه التصفية حينما خر هذا الإمام عليه السلام العظيم صريعاً في مسجده صلوات الله

من اختلاف بين جند الإمام علي عليه السلام، ومن ثم إكراهه على قبول التحكيم. تاريخ الطبري: ٤/ ٣٤، وما بعدها.

(١) لقد حصل ذلك عندما حمل مالك الأشتر وقرب من فسطاط معاوية، وهمّ معاوية بالفرار، إلا أن خديعة ابن العاص قد غيرت مجرى الحرب، ولما حصل الهرج والفرقة قال الإمام لزيد النخعي: ويحك يا يزيد قل له ـ أي لمالك ـ أقبل إليّ فان الفِتنة قد وقعت فقال ألرفع المصاحف؟ فقال: نعم، قال: لقد ظننت أن ذلك يوقع فرقة كيف ندع هؤلاء وننصرف والفتح قد وقع، فقال يزيد: تحب أن تظفر وأمير المؤمنين يسلّم على عدوه أو يُقتل، ثم أقبل إليهم الأشتر وأطال عتبهم وقال: أمهلوني فواقا فقد أحسست بالفتح فأبوا فعذلهم وأطال في عذلهم فقالوا: دعنا يا أشتر قاتلناهم لله. تاريخ ابن خلدون٢/١٧٤. وفي الطبري أمهلوني عدوة الفرس، تاريخ الطبري: ٤/٣٥.

عليه وانتهى آخر أمل في هذه التصفية وقدّر للمؤامرة على وجود الأمة أن تنجح وأن تؤتي مفعولها كاملاً.

غير أنّ الإمام عليه السلام حينما فتح عينيه في تلك اللحظة العصيبة ورأى الحسن عليه السلام وهو يبكي ويشعر ويحس ويدرك بان وفاة أبيه هي وفاة لكل هذه الآمال أراد أن ينبهه إلى أنّ الخط لا يزال باقياً والى أنّ التكليف لا يزال مستمراً وان نجاح المؤامرة لا يعني أن نلقي السلاح.

نعم المؤامرة يا ولدي نجحت ولهذا سوف تشردون وسوف تقتلون، ولكن هذا لا يعني أنّ المعركة انتهت يجب أن تقاوم حتى تقتل مسموماً، ويجب أن يقاوم أخوك حتى يقتل بالسيف شهيداً[١]، ولابدّ أن يستمر الخط حتى بعد أن سرق من الأمة وجودها لان محاولة استرجاع الوجود إذا بقيت في الأمة فسوف يبقى هناك نفس في الأمة سوف يبقى هناك ما يحصن الأمة ضد التميّع والذوبان.

الأمة حينما تتنازل عن هذه الإرادة والشخصية لجبار من الجبابرة حينئذ تكون عرضة للذوبان والتميّع في أتون أي فرعون من الفراعنة.

لكن إذا بقي لدى الأمة محاولة استرجاع هذا الوجود باستمرار هذه

---

(١) كانت شهادة الإمام الحسن عليه السلام في يوم الخميس السابع من صفر عام خمسين هجري، وأما شهادة الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته عليهم السلام فكانت يوم العاشر سنة إحدى وستين هجرية. تاريخ الطبري: ٤/ أحداث عامي: ٥٠، ٦٠.

المحاولة التي يحاولها خط علي عليه السلام ومدرسة علي عليه السلام والشهداء والصديقون.

إذا بقيت هذه المحاولة فسوف يبقى ـ مع هذه المحاولة ـ أمل في أن تسترجع الأمة وجودها، وعلى أقل تقدير سوف تحقق هذه المحاولة كسباً آنياً باستمرار وهو تحصين الأمة ضد التميّع والذوبان المطلق في إرادة ذلك الحاكم وفي إطار ذلك الحاكم .

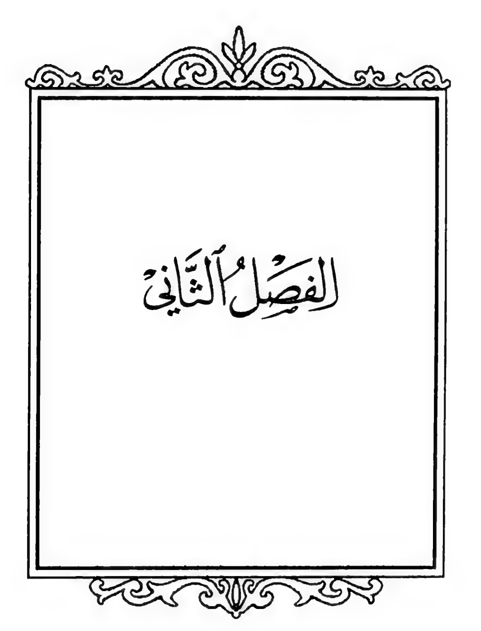
وهذا ما وقع.

من أبناء علي عليه السلام وشيعته[1]

أسأل اللّه سبحانه أن يجعلنا من أنصاره وشيعته والسائرين في خطه والمساهمين في هذه المحاولات.

---

(١) وقد بدأ تلك المحاولة حجر الخير بموقفه تجاه الانحراف الأموي، وشهادته وصحبه الأبرار عام (٥١) هجرية، وما تلا ذلك من مواقف شيعة أمير المؤمنين عليه السلام إزاء، السلاطين والولاة الأمويين، متتابعة مروراً بالطف، وثورة زيد عام (١٢١) هجري أيام تسلط هشام بن عبد الملك، وامتدت المحاولة متطاولة والكيان غير الشرعي حتى أودته صريعاً عام (١٣٢) هجري، وإن كانت ثماره قد جناها العباسيون وتبدأ هنا دورة أخرى لمحاولات التصحيح مع كيان آخر أشد ضراوة، واعظم استبداداً، تجاه أبناء علي عليه السلام وشيعته الأبرار. انظر: مقاتل الطالبيين، وتاريخ الطبري، من أحداث عام (٥١) وحتى عام ١٣٢، وتاريخ الدولة العباسية، ما بعد هذا التاريخ.



الفصل الثاني

علي بعد وفاة الرسول ﷺ[1]

الصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

حينما توفي رسول الله ﷺ خلّف أمةً ومجتمعاً ودولةً.

وأقصدُ بالأمة: المجموعة من المسلمين الّذين كانوا يؤمنون برسالته ويعتقدون بنبوته.

وأقصدُ بالمجتمع: تلك المجموعة من الناس التي كانت تمارس حياتها على أساس تلك الرسالة وتنشئ علاقاتها على أساس التنظيم المقرر لهذه الرسالة.

وأقصدُ بالدولة: القيادة التي كانت تتولى، تتزعّم التجربة في ذلك المجتمع، والاشتغال على تطبيق الإسلام وحمايته مما يهدده من أخطار وانحراف.

الانحراف الذي حصل يوم السقيفة، كان أول ما كان في كيان الدولة، لأن

---

(١) العنوان في الأصل [[دور الأئمة بعد وفاة النبي ﷺ]]، وثبتناه من دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، م. س : ١١٧. والعنوان أعلاه يحمل دلالة ومضمون البحث.

القيادة كانت قد اتخذت طريقاً غير طريقها الطبيعي، وقلنا بأن هذا الانحراف الذي حصل يوم السقيفة في زعامة التجربة ـ أي الدولة ـ ، كان من الطبيعي في منطق الأحداث أن ينمو ويتسع حتى يحيط بالتجربة نفسها؛ فتنهار الزعامة التي تشرف على تطبيق الإسلام.

هذه الزعامة باعتبار انحرافها وعدم كونها قادرة على تحمل المسؤولية(١)، تنهار في حياتها العسكرية والسياسية، وحينما تنهار الدولة، حينما تنهار زعامة التجربة ينهار تبعاً لذلك المجتمع الإسلامي؛ لأنه يتقوّم بالعلاقات التي تنشأ على أساس الإسلام، فإذا لم تبق زعامة التجربة لترعى هذه العلاقات وتحمي وتقنن قوانين لهذه العلاقات، فلا محالة ستتفتت هذه العلاقات وتتبدل

---

(١) روى ابن هشام في سيرته أن أبا بكر خطب المسلمين مبيناً منزلته ومكانته وأن فيهم من هو أفضل منه وأخير منه : فتكلم أبو بكر، فحمد الله، وأثنى عليه بالذي هو أهله، ثم قال: أما بعد أيها الناس، فإني قد وليت عليكم ولست بخيّركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني، سيرة النبي صلى الله عليه وآله، ابن هشام الحميري: ٤ / ١٠٧٥، وقد طلب أبو بكر من الأمة أن تقيله، روى ابن قتيبة: ثم خرج ـ أبا بكر ـ باكيا فاجتمع إليه الناس، فقال لهم: يبيت كل رجل منكم معانقا حليلته، مسرورا بأهله، وتركتموني وما أنا فيه، لا حاجة لي في بيعتكم، أقيلوني بيعتي.

الإمامة والسياسة: ٣١/١.

بعلاقـات أخرى قائمة على أساس آخر غير الإسلام، وهذا معناه زوال المجتمع الإسلامي.

تـبقى الأمـة بعـد هـذا وهي أبطأ العناصر الثلاثة تصدعاً وزوالاً، بعد أن زالـت الدولـة الشـرعية الصـحيحة، وزال المجـتمع الإسلامي الصحيح، تبقى الأمة، إلا أن هذه الأمة أيضاً من المحتوم عليها أن تتفتت وأنْ تنهار وأنْ تنصهر بـبوتقة الغزو الكافر الذي أطاح بدولتها ومجتمعها [١]، لأن الأمة التي عاشت الإسـلام زمـناً قصـيراً لم تستطع أن تستوعب من الإسلام ما يحصنها، ما يحدد أبعادها ما يقويها ما يعطيها أصالتها وشخصيتها وروحها العامة وقدرتها على الاجتماع على مقاومة التميع والتسيب والانصهار في البوتقات الأخرى.

هـذه الأمـة بحكـم أن الانحراف قصّر عمر التجربة وبحكم أنَّ الانحراف زوّر معـالم الإسـلام، بحكـم هذيـن السببين الكمي والكيفي، الأمة غير مستوعبة، الأمـة تتحصّن بالطاقات التي تمنعها وتحفظها عن الانهيار أمام الكافرين وأمام ثقافات الكافرين، فتتنازل بالتدريج عن عقيدتها عن آدابها عن أهدافها وعن أحكامهـا، ويخـرج الناس من دين اللّه أفواجا، وهذا ما أشارت إليه رواية عن

---

(١) يشـير السـيد الشـهيد رضي الله عنه إلى سـقوط الدولـة الإسـلامية عام ١٩٢٤، واحتلال الدول الغربية لأقطار العالم الإسلامي عُقيب الحرب العالميّة الأولى.

أحد الأئمة عليهم السلام[1]، يقول فيها بأن أول ما يتعطّل من الإسلام هو الحكم بما انزل اللّه سبحانه وتعالى، وآخر ما يتعطّل من الإسلام هو الصلاة، هذا هو تعبير بسيط عما قلناه من أنّ أول ما يتعطّل هو الحكم بما أنزل اللّه أي أنّ الزعامة والقيادة للدولة تنحرف، وبانحرافها سوف يتعطّل الحكم بما أنزل اللّه. وهذا الخط ينتهي حتماً إلى أن تتعطّل الصلاة، يعني إلى تمييع الأمة، تُعطل الصلاة هو مرحلة أنّ الأمة تتعطّل، أنّ الأمة تتنازل عن عقيدتها، أنّ الأمة تضيع عليها رسالتها وآدابها وتعاليمها.

الحكم بغير ما أنزل اللّه، معناه أنّ التجربة تنحرف[2]، أنّ المجتمع يتميّع...

---

(١) الروضة من الكافي: محمد بن يعقوب الكليني، الناشر دار الكتب الإسلامية، طهران، ط٢، ١٣٨٩هـ : ٨ / ٣٦ ـ ٤٢. والرواية عن الإمام الصادق عليه السلام وتقارب ما يشير إليه السيد الشهيد رضي الله عنه.

(٢) الآيات المباركة دالة على ما يشير إليه السيد الشهيد رضي الله عنه ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ الله فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾، المائدة ٤٤. ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ الله فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ المائدة ٤٥. ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ الله فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، المائدة٤٧.

❖ الأئمة ومواجهة منطق الانحراف ❖

في مقابل هذا المنطق وقف الأئمة عليهم السلام على خطين كما قلنا:

الخط الأول: هو خط محاولة تسلم زمام التجربة، زمام الدولة، محو آثار الانحراف إرجاع القيادة إلى موضعها الطبيعي لأجل أن تكتمل العناصر الثلاثة: الأمة والمجتمع والدولة.

الخط الثاني: الذي عمل عليه الأئمة عليهم السلام، هو خط تحصين الأمة ضد الانهيار بعد سقوط التجربة وإعطائها من المقّومات القدر الكافي، لكي تبقى وتقف على قدميها، وتعيش المحنة بعد سقوط التجربة، بقدم راسخة وروح مجاهدة، وبإيمان ثابت.

والآن، نريد أن نتبين هذين الخطين في حياة أمير المؤمنين عليه السلام، مع استلال العبر من خلال المشي على هذين الخطين.

على الخط الأول خط محاولة تصحيح الانحراف وإرجاع الوضع الاجتماعي والدولي في الأمة الإسلامية إلى خطه الطبيعي، في هذا الخط، عمل عليه السلام حتى قيل عن علي عليه السلام انه أشد الناس رغبة في الحكم والولاية[1]، اتهمه معاوية

---

(١) إن عمر بن الخطاب لما جمع أهل الشورى قال للإمام عليه السلام: وما يمنعني منك يا علي ☜

بن أبي سفيان، بأنه طالب جاه، وإنّه طالب سلطان، اتهمه بالحقد على أبي بكر وعمر[1]، اتهمه بكل ما يمكن أن يتهم الشخص المطالب بالجاه وبالسلطان وبالزعامة.

أمير المؤمنين عليه السلام عمل على هذا الخط خط تسلّم زمام الحكم، وتفتيت هذا الانحراف، وكسب الزعامة زعامة التجربة الإسلامية إلى شخصه الكريم، بدأ هذا العمل عُقيب وفاة رسول اللّه صلى الله عليه وآله مباشرة كما قلنا بالأمس، حيث

إلا حرصك عليها، وإنك أحرى القوم إن وليتها أن تقيم على الحق المبين والصراط المستقيم. الإمامة والسياسة: ١/٤٣.

(١) النص التاريخي، جواب الإمام عليه السلام على كتاب معاوية: (وذكرت حسدي الخلفاء، وإبطائي عنهم، وبغيي عليهم، فأما البغي فمعاذ الله أن يكون، وأما الإبطاء عنهم والكراهية لأمرهم فلست أعتذر إلى الناس من ذلك، إن الله تعالى ذكره لما قبض نبيه صلى الله عليه وسلم قالت قريش: منا أمير، وقالت الأنصار: منا أمير، فقالت قريش: منا محمد، نحن أحق بالأمر، فعرفت ذلك الأنصار، فسلمت لهم الولاية والسلطان، فإذا استحقوها بمحمد صلى الله عليه وسلم دون الأنصار فإن أولى الناس بمحمد أحق به منهم، وإلاّ فإن الأنصار أعظم العرب فيها نصيبا، فلا أدري: أصحابي سلموا من أن يكونوا حقي أخذوا، أو الأنصار ظلموا بل عرفت أن حقي هو المأخوذ وقد تركته لهم).

شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١٥/ ٧٨.

حاول إيجاد تعبئة وتوعية فكرية عامة في صفوف المؤمنين وإشعارهم بان الوضع وضع منحرف.

إلاّ أنّ هذه التعبئة لم تنجح لأسباب ترتبط بشخص علي عليه السلام استعرضنا بعضها بالأمس، ولأسباب أخرى ترتبط بانخفاض وعي المسلمين أنفسهم؛ لأن المسلمين وقتئذٍ لم يدركوا أنّ يوم السقيفة كان هو اليوم الذي سوف ينفتح منه كل ما انفتح من بلاء على الخط الطويل لرسالة الإسلام، لم يدركوا هذا، ورأوا أنّ وجوهاً ظاهرة الصلاح قد تصدّت لزعامة المسلمين ولقياداتهم في هذا المجال، ومن الممكن خلال هذه القيادة، أن ينمو الإسلام وان تنمو الأمة.

لم يكن يفهم من علي عليه السلام إلا أن له حقاً شخصياً يطالب به، وهو مقصّر في مطالبته، إلا أنّ المسألة لم تقف عند هذا الحد فضاقت القصة على أمير المؤمنين عليه السلام من هذه الناحية، ومن أننا نجد في مراحل متأخرة من حياة أمير المؤمنين عليه السلام المظاهر الأخرى لعمله على هذا الخط، لمحاولة تسلّمه أو سعيه في سبيل تسلّم زعامة التجربة الإسلامية وتفادي الانحراف الذي وقع، إلا أنّ الشيء الذي هو في غاية الوضوح من حياة أمير المؤمنين عليه السلام انه عليه السلام في عمله في سبيل تزعّم التجربة وفي سبيل محاربة الانحراف القائم ومواجهته بالقول الحق وبالعمل الحق وبشرعية حقه في هذا المجال، كان يواجه مشكلة كبيرة جداً، وقد استطاع أن ينتصر على هذه المشكلة انتصاراً كبيراً جداً أيضاً.

هذه المشكلة التي كان يواجهها هي مشكلة الوجه الظاهري لهذا العمل

والوجه الواقعي لهذه العمل.

قد يتبادر إلى ذهن الإنسان الاعتيادي لأول مرة أن العمل في سبيل معارضة زعامة العصر، والعمل في سبيل كسب هذه الزعامة، أنه عمل في إطار فكري، أنه عمل يعبّر عن شعور هذا العامل بوجوده، وفي مصالحه وفي مكاسبه، وبأبعاد شخصيته، هذا هو التفسير التلقائي الذي يتبادر إلى الأذهان من عمل يتمثل فيه الإصرار على معارضته في زعامة العصر على كسب هذه الزعامة، وقد حاول معاوية [١] كما أشرنا أن يستغل هذه البداهة التقليدية في مثل هذا الموقف من أمير المؤمنين عليه السلام.

إلاّ أنّ الوجه الواقعي لهذا العمل من قبل الإمام عليه السلام لم يكن هذا، الوجه الواقعي هو أنّ علياً كان يمثل الرسالة وكان هو الأمين الأول من قبل رسول اللّه صلى الله عليه وآله على التجربة على استقامتها وصلابتها، وعدم تَمَيُّعها على الخط الطويل، الذي سوف يعيشه الإسلام والمسلمون بعد النبي صلى الله عليه وآله. فالعمل كان بروح الرسالة ولم يكن بروحه هو، كان عملاً بروح تلك الأهداف الكبيرة، ولم

---

(١) وقد ورد ذلك في كتاب الإمام عليه السلام إلى معاوية : ((وأنا وإياك ـ يا معاوية ـ على غاية منها لم نبلغها بعد. وأما طلبك الشام، فإني لم أعطك اليوم ما منعتك أمس)). كتاب سليم بن قيس ـ تحقيق محمد باقر الأنصاري: ٣٣٧.

انظر: الإمامة والسياسة، ابن قتيبة الدينوري، تحقيق الشيري: ١/١١٥، ووقعة صفين: ٤٧١

يكـن عمـلاً بـروح المصلحة الشخصية[١]، لم يكن يريد أن يبني زعامة لنفسه، وإنما كـان يـريد أن يـبني زعامـة الإسلام وقيادة الإسلام في المجتمع الإسلامي، وبالتالي في مجموع البشرية على وجه الأرض.

هـذان وجهـان مختلفان، قـد يتعارضان في العامل نفسه، وقد يتعارضان في نفس الأشخاص الآخرين الّذين يريدون أن يفسروا عمل هذا العامل.

هذا العامل قد يتراءى لـه في لحظة انه يريد أن يبني زعامة الإسلام لا زعامة نفسـه، إلا انـه خلال العمل، إذا لم يكن مزوداً بوعي كامل. إذا لم يكن مزوداً بـإرادة قويـة، إذا لم يكـن قد استحضر في كل لحظاته وآنات حياته، إنّه يعيش هـذه الرسـالة ولا يعيش نفسه، إذا لم يكن هكذا، فسوف يحصل في نفسه ولو لا شـعورياً إنفصـام بـين الوجـه الظاهري للعمل وبين الوجه الحقيقي للعمل وبمـثل هـذا الانفصـام سـوف تضيع أمامه كل الأهداف أو جزء كبير من تلك الأهداف سوف ينسى، إنّه لا يعمل لنفسه، بل هو يعمل لتلك الرسالة سوف ينسـى انـه ملك غيره وانه ليس ملكاً لنفسه. كل شخص يحمل هذه الأهداف

---

(١) مـن خطـبة للإمـام عليه السلام ـ في المدينة ـ بعد توليه الخلافة جاء فيها: (لقد علمتم أني أحق الناس بها من غيري، ووالله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جور إلا علي خاصة.

شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٣٠٨/١.

الكبيرة، يواجه خطر الضياع في نفسه، وخطر أن تنتصر أنانيته على هذه الأهداف الكبيرة، فيسقط في أثناء الخط، يسقط في وسط الطريق، وهذا ما كان علي عليه السلام معه على طرفي نقيض، علي عليه السلام كان يصرّ دائماً على أن يكون زعيماً، يصرّ دائماً على أن يكون هو الأحق بالزعامة، علي الذي يتألم، الذي يتحسّر أنّه لم يصبح زعيماً بعد محمد صلى الله عليه وآله الذي يقول: ((لقد تقمصها ابن أبي قحافة وهو يعلم أنّ محلي منها محل القطب من الرحى))[1]، في غمرة هذا الألم، في غمرة هذه الحساسية، يجب أن لا ننسى أنّ هذا الألم ليس لنفسه، إنّ هذه الحساسية ليست لنفسه، إنّ كل هذا العمل وكل هذا الجهد، ليس لأجل نفسه بل من أجل الإسلام. وكذلك كان يربي أصحابه على أنهم أصحاب تلك الأهداف الكبيرة، لا أصحاب زعامته وشخصه، وقد انتصر

---

(١) الخطبة الشقشقية للإمام عليه السلام: أما والله لقد تقمصها ابن أبي قحافة وهو يعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى. حتى إذا مضى إلى سبيله فأدلى بها إلى فلان بعده! ! فيا عجبا ! ! ! بينا هو يستقيلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته، لشد ما تشطرا ضرعيها ! ! ! فصيرها في حوزة خشناء يغلظ كلامها، ويخشن مسها ويكثر العثار فيها والاعتذار منها ! ! !

المعيار والموازنة، أبو جعفر الإسكافي: ٤٨. وانظر: الغارات، إبراهيم بن محمد الثقفي: ٧٦/٢. وشرح نهج، ابن أبي الحديد: ١٥١/١.

علي عليه السلام انتصاراً عظيماً في كلتا الناحيتين.

انتصر علي على نفسه، وانتصر في إعطاء عمله إطاره الرسالي وطابعه العقائدي انتصاراً كبيراً.

علي ربّى أصحابه على أنهم أصحاب الأهداف لا أصحاب نفسه. كان يدعو إلى أنّ الإنسان يجب أن يكون صاحب الحق، قبل أن يكون صاحب شخص بعينه. علي هو الذي قال: ((اعرف الحق تعرف أهله))[١] كان يربّي أصحابه، يربى عماراً وأبا ذرّ والمقداد على أنكم اعرفوا الحق... ثم احكموا على علي في إطار الحق. وهذا غاية ما يمكن أن يقدّمه الزعيم من إخلاص في سبيل أهدافه، أن يؤكد دائماً لأصحابه وأعوانه ـ وهذا مما يجب على كل المخلصين ـ أنّ المقياس هو الحق وليس هو الشخص، أنّ المقياس هو الأهداف وليس هو الفرد.

هل يوجد هناك شخص أعظم من علي بن أبي طالب. لا يوجد هناك شخص اعظم من علي إلاّ أُستاذه، لكن مع هذا جعل المقياس هو الحق لا

---

(١) فقال عليه السلام : ((قدك فانك امرء ملبوس عليك إن دين الله لا يعرف بالرجال بل بآية الحق فاعرف الحق تعرف أهله، يا حار إن الحق احسن الحديث والصادع به مجاهد)). الأمالي الشيخ المفيد: ٥. والمحتضر، حسن بن سليمان الحلي، المطبعة الحيدرية ـ النجف الأشرف، الطبعة الأولى، ١٩٥١م : ٢٩ ـ ٣٠.

نفسه.

لما جاءه ذلك الشخص[1] وسأله عن الحق في حرب الجمل، هل هو مع هذا الجيش أو مع ذلك الجيش ؟ كان يعيش في حالة تردد بين عائشة وعلي، يريد أن يوازن بين عائشة وعلي، أيهما أفضل حتى يحكم بأنه هو مع الحق أو عائشة. جهودها للإسلام أفضل أو جهود علي أفضل، قال له: اعرف الحق تعرف أهله.

علي كان دائماً مصرّاً على أن يعطي العمل الشخصي طابعه الرسالي، لا طابع المكاسب الشخصية بالنسبة إليه، وهذا هو الذي يفسّر لنا كيف أنّ علياً عليه السلام، بعد أن فشل في تعبئته الفكرية عُقيب وفاة رسول اللّه صلى الله عليه وآله، لم يعارض أبا بكر وعمر معارضة واضحة سافرة طيلة حياة أبي بكر وعمر، وذلك أنّ أول موقف اعتزل فيه علي المعارضة بعد تلك التعبئة الفكرية وإعطائها شكلاً

---

(١) روى الشيخ الطوسي بسنده: عن أبي بكر الهذلي، قال: دخل الحارث بن حوط الليثي على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين، ما أرى طلحة والزبير وعائشة احتجوا إلا على حق ؟ فقال: يا حارث، إنك إن نظرت تحتك ولم تنظر فوقك جزت عن الحق، إن الحق والباطل لا يعرفان بالناس، ولكن اعرف الحق باتباع من اتبعه، والباطل باجتناب من اجتنبه.

تاريخ اليعقوبي: ٢/٢١٠. الأمالي، الشيخ الطوسي: ١٣٤.

واضحاً صريحاً كان عُقيب وفاة عمر، يوم الشورى حينما خالف أبا بكر وعمر، هذا عندما حاول عبد الرحمان بن عوف حينما اقترح عليه المبايعة أن يبايعه على كتاب اللّه وسنة رسول الله وسنة الشيخين، قال عليه السلام: بل على كتاب اللّه وسنة نبيه واجتهادي[١]. هنا فقط أعلن عن معارضة عمر، في حياة أبي بكر وعمر ـ بعد تلك التعبئة ـ، لم يبد موقفاً إيجابياً واضحاً في معارضتهما، والوجه في هذا، هو أنّ علياً عليه السلام كان يريد أن تكون المعارضة في إطارها الرسالي، وأنْ ينعكس هذا الإطار على المسلمين أن يفهموا أنّ المعارضة ليست لنفسه، وإنما هي للرسالة، وحيث أنّ أبا بكر وعمر كانا قد بدءا الانحراف، ولكن الانحراف لم يكن قد تعمّق بعد والمسلمون القصيرو النظر، الّذين قدّموا أبا بكر على علي عليه السلام ثم قدموا عمر على علي عليه السلام هؤلاء المسلمون القصيرو النظر، لم يكونوا يستطيعون أن يعمّقوا النظر إلى

---

(١) وكان ذلك يوم شرط عبد الرحمان بن عوف على الإمام عليه السلام أن يعمل بسنة أبي بكر وعمر كي يبايعه بالخلافة (شورى عمر السداسية): النص التاريخي: فقال عبد الرحمان: أشهدكم إنني قد أخرجت نفسي من الخلافة، على أن أختار أحدهما، فأمسكا، فبدأ بعلي عليه السلام، وقال له: أبايعك على كتاب الله، وسنة رسول الله، وسيرة الشيخين: أبي بكر وعمر. فقال: بل على كتاب الله وسنة رسوله واجتهاد رأيي. فعدل عنه إلى عثمان. تاريخ الطبري : ٣/ ٢٩٧. وشرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١ /١٨٨.

هـذه الجـذور التي نشأت في أيام أبي بكر وعمر، فكان معنى مواصلة المعارضة بشـكل جديـد أن يُفسـر ـ مـن أكـثر المسـلمين ـ ، بأنه عمل شخصي، وأنها منافسـة شخصـية مـع أبـي بكـر وعمـر، وان بـدأت بهـم بذور الانحراف في عهدهمـا إلاّ انـه حـتى هذه البذور كانت الأغلب مصبوغة بالصبغة الإيمانية، كانـا يـربطانها بالحرارة الإيمانية الموجودة عند الأمة، وحيث أنها حرارة إيمانية بلا وعي، ولهذا لم تكن الأمة تميّز هذا الانحراف.

عمـر مـيز بين الطبقات، إلا أنّه حينما ميز بين الطبقات، حينما أثرى قبيلة بعيـنها دون غيرهـا من القبائل... أتعرفون أي قبيلة هي التي أثراها؟ هي قبيلة الـنبي صلى الله عليه وآله، عمـر أغـنى قبـيلة الـنبي محمـد صلى الله عليه وآله أغنى عم محمد صلى الله عليه وآله أعطى زوجـات الـنبي عشـرة آلاف، كـان يعطـي للعـباس اثني عشر ألفاً، كان يقسم الأمـوال الضخمة على هذه الأسرة[1]، هذا الانحراف لا يختلف في جوهره عن

---

(١) روى ابـن شيبه في مصنفه أن عمر قال: إن أبا بكر رأى في هذا الأمر رأيا ـ إن أبا بكر سـاوى في العطاء بين الناس ـ ولي فيه رأي آخر، لا أجعل من قاتل رسول الله صلى الله علـيه وسـلم كمـن قاتل معه، ففرض للمهاجرين والأنصار ممن شهد بدرا خمسة آلاف خمسـة آلاف، وفـرض لمن كان له الإسلام كإسلام أهل بدر ولم يشهد بدرا أربعة آلاف، وفـرض لأزواج الـنبي صـلى الله علـيه وسـلم اثـني عشـر ألفا اثني عشر ألفا إلا صفية وجويـرية، فـرض لهمـا سـتة آلاف سـتة آلاف فأبـتا أن تقبلا، فقال لهما: إنما فرضت ←

انحراف عثمان بعد ذلك ـ عثمان حينما ميز ـ إلا أنّ عمر فقط ربط هذا الانحراف بالحرارة الإيمانية عند الأمة، لان الحرارة الإيمانية عند الأمة كانت تقبل مثل هذا الانحراف. هؤلاء أهل بيت النبي ﷺ، هذا عم النبي ﷺ هذه زوجة النبي ﷺ، إذن هؤلاء يمكن أن يعطوا يمكن أن يثروا على حساب النبي ﷺ، لكن عثمان حينما جاء لم يرد على هذا الانحراف شيئاً، إلا انه لم يرتبط بالحرارة الإيمانية، بدّل عشيرة النبي ﷺ بعشيرته هو، وهذا أيضاً انحراف مستمر لذلك الانحراف، إلا انه انحراف مكشوف. ذاك انحراف مقنّع، ذاك انحراف مرتبط بالحرارة الإيمانية عند الأمة، وهذا انحراف يتحدى مصالح الأمة، والمصالح الشخصية للأمة، ولهذا استطاعت الأمة أن تلتفت إلى انحراف عثمان بينما لم تلتفت بوضوح إلى انحراف أبي بكر وعمر، وبهذا بدأ علي بن أبي طالب عليه السلام معارضته لأبي بكر وعمر في الحكم بشكل واضح، بعد أن مات أبو بكر وعمر، لم يكن من المعقول تفسير هذه المعارضة على أنها معارضة شخصية بسبب طمع في سلطان، بدأ هذه المعارضة وأعطى رأيه بأبي بكر

⇐لهن للهجرة، فقالتا: إنما فرضت لهن لمكانهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان لنا مثله، فعرف ذلك عمر ففرض لهما اثني عشر ألفا اثني عشر ألفا، وفرض للعباس اثني عشر ألفا.

المصنف، ابن أبي شيبة الكوفي: ٧ /٦١٥. والطبقات الكبرى، ابن سعد: ٣/٣٠٤.

وعمر. علي بن أبي طالب عليه السلام بعد أن تم الأمر لعثمان، بعد أن بويع عثمان يوم الشورى.

قال: أن سوف اسكت ما سلمت مصالح المسلمين وأمور المسلمين(١)، وما دام الغبن عليّ وحدي، وما دمت أنا المظلوم وحدي، وما دام حقي هو الضائع وحدي أنا سوف اسكت سوف أبايع سوف أطيع عثمان، هذا هو الشعار الذي أعطاه بصراحة مع أبي بكر وعمر وعثمان، وبهذا الشعار أصبح في عمله رسالياً، انعكست هذه الرسالة على عهد أمير المؤمنين، وبقي عليه السلام ملتزماً بما تعهّد به من السكوت إلى أن بدأ الانحراف في حياة عثمان بشكل مفضوح، حيث لم يرتبط بلون من ألوان الحرارة الإيمانية التي ارتبط بها الانحراف في أيام الخليفة الأول وفي أيام الخليفة الثاني، بل أسفر الانحراف، ولهذا أسفر علي عليه السلام عن المعارضة وواجه عثمان بما سوف نتحدث عنه بعد ذلك.

فعلي عليه السلام في محاولته لتسلم زمام التجربة وزعامة القضية الإسلامية كان يريد أن يوفق بين هذا الوجه الظاهري للعمل، وبين الوجه الواقعي للعمل، واستطاع أن يوفق بينهما توفيقاً كاملاً، استطاع هذا في توقيت العمل،

---

(١) قال الإمام علي عليه السلام: ((لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين، ولم يكن فيها جور إلا عليّ خاصة)). نهج البلاغة، خطبة: ٧١.

واستطاع هذا في تربيته لأصحابه، على أنهم أصحاب الأهداف لا أصحاب الأشخاص، واستطاع في كل هذه الشعارات التي طرحها أنْ يثبت أنّه بالرغم من كونه في قمة الرغبة لأن يصبح حاكماً، لم يكن مستعداً أبداً لان يصبح حاكماً مع اختيار أي شرط من الشروط المطلوبة التي تنال من تلك الرسالة.

ألم تعرض عليه الحاكمية والرسالة بعد موت عمر بشرط أن يسير سيرته؟ فرفض الحاكمية برفض هذا الشرط(١)

علي بن أبي طالب عليه السلام بالرغم من انه كان في اشد ما يكون سعياً وراء الحكم، جاءه المسلمون بعد أن قتل عثمان، عرضوا عليه أن يكون حاكماً، قال لهم بايعوا غيري وأنا أكون كأحدكم، بل أكون أطوعكم لهذا الحاكم(٢)، الذي

---

(١) أخذ عبد الرحمان بن عوف بيد عثمان، فقال له: عليك عهد الله وميثاقه لئن بايعتك لتقيمن لنا كتاب الله وسنة رسوله وسنة صاحبيك، وشرط عمر أن لا تجعل أحدا من بني أمية على رقاب الناس، فقال عثمان: نعم. ثم أخذ بيد علي، فقال له: أبايعك على شرط عمر أن لا تجعل أحدا من بني هاشم على رقاب الناس، فقال علي عند ذلك: مالك ولهذا إذا قطعتها في عنقي؟ فإن علي الاجتهاد لامة محمد حيث علمت القوة والأمانة استعنت بها، كان في بني هاشم أو غيرهم.

الإمامة والسياسة، ابن قتيبة الدينوري، تحقيق الشيري: ١ /٤٥.

(٢) روى الطبري، توجّه المسلمين إلى الإمام عليه السلام يطلبون منه أن يتولى أمرهم فرفض ←

تبايعونه، ما سلمت أمور المسلمين في عدله وعمله، يقول ذلك، لان الحقد الذي تواجهه الأمة الإسلامية كبير جداً، تتمادى بذرة الانحراف الذي عاشه المسلمون بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى أن قتل عثمان، هذا الانحراف الذي تعمّق، الذي ارتفع، هذا الانحراف الذي طغى والذي استكبر، الذي خلق تناقضات في الأمة الإسلامية هذا عبء كبير جداً.

ماذا يريد أن يقول، يريد أن يقول: لأني أنا لا اقبل شيئاً إلا أنْ تصفّوا الانحراف، أنا لا اقبل الحكم الذي لا يصفى هذا الانحراف لا الحكم الذي يصفّيه هذه الإحجامات عن قبول الحكم في مثل هذه اللحظات كانت تؤكد الطابع الرسالي بحرقته بلوعته، لألمه لرغبته أن يكون حاكماً، استطاع أن

ذلك، النص التاريخي: (فغشى الناس علياً فقالوا: نبايعك فقد ترى ما نزل بالإسلام وما ابتلينا به من ذوى القربى فقال: علي دعوني والتمسوا غيري فإنا مستقبلون أمرا له وجوه وله ألوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول، فقالوا: ننشدك الله ألا ترى ما نرى، ألا ترى الإسلام، ألا ترى الفِتنة، ألا تخاف الله فقال: قد أجبتكم لما أرى واعلموا إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، وإن تركتموني فإنما أنا كأحدكم إلا أني أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم ثم افترقوا على ذلك واتعدوا الغد).

تاريخ الطبري : ٣/ ٤٥٦. وشرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد : ٧/ ٣٣.

ينتصر على نفسه، ويعيش دائماً لأهدافه، واستطاع أن يربي أصحابه أيضاً على هذا المنوال.

هذا هو الخط الأول وهو خط محاولة تسلمه لزمام التجربة الإسلامية.

أما على الخط الثاني:

وهو خط تحصين الأمة لقد كانت الأمة تواجه خطراً، وحاصل هذا الخطر، هو أنَّ العامل الكمي والعامل الكيفي، سوف يجعلان هذه الأمة لا تعيش الإسلام، إلا زمنا قصيراً.

بحكم العامل الكمي الذي سوف يسرع، في إفناء التجربة وسوف لن تعيش إلا مشوهة بحكم العامل الكيفي، الذي يتحكم في هذه التجربة، ولذا بدأ الإمام بتحصين الأمة، وبالتغلّب على العاملين: العامل الكمي والعامل الكيفي.

أما التغلّب على العامل الكمي فكان في محاولة تحطيم التجربة المنحرفة وتحجيمها وإفساح المجال للتجربة الإسلامية لتثبت جدارتها وذلك بأسلوبين:

الأسلوب الأول: هو التدخل الإيجابي الموجه في حياة هذه التجربة بلحاظ قيادتها.

القادة والزعماء الّذين كانوا يتولون هذه التجربة، كانوا يواجهون قضايا كثيرة لا يحسنون مواجهتها، كان يواجههم مشاكل كثيرة لا يحسنون حلّها، ولو حاولوا لوقعوا في أشد الأضرار والأخطار، لأوقعوا المسلمين في أشد التناقضات،

ولأصبحت النتيجة محتومة اكثر، ولأصبحت التجربة أقرب إلى الموت، وأقرب إلى الفناء وأسرع إلى الهلاك، هنا كان يتدخل الإمام عليه السلام وهذا خط عام سار الأئمة عليهم السلام كلهم عليه كما قلنا، كما سوف نقول، فكان الإمام عليه السلام يتدخل تدخلاً إيجابياً، موجهاً في سبيل أن ينقذ التجربة من المزيد من الضياع ومن المزيد من الانحراف، ومن المزيد من السير في الضلال.

كلنا نعلم، بأن المشاكل العقائدية التي كانت تواجهه عليه السلام والزعامة السياسية بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم. هذه المشاكل العقائدية التي كان يثيرها، وتثيرها القضايا الأخرى التي بدأت تندرج في الأمة الإسلامية والأديان الأخرى التي بدأت تعاشر المسلمين، هذه المشاكل العقائدية لم تكن الزعامات السياسية وقتئذ على مستوى حلها كان الإمام عليه السلام يعين تلك الزعامات في التغلّب على تلك المشاكل العقائدية.

كلنا نعلم بأن الدولة الإسلامية واجهت في عهد عمر خطراً من أعظم الأخطار، خطر إقامة إقطاع لا نظير له في المجتمع الإسلامي، كان من المفروض أن يسرع في دمار الأمة الإسلامية، وذلك حينما وقع البحث بين المسلمين بعد فتح العراق، في انه هل توزع أراضي العراق على المجاهدين المقاتلين، أو أنها تبقى ملكاً عاماً للمسلمين؟ وكان هناك اتجاه كبير بينهم إلى أن توزع الأراضي على المجاهدين الّذين ذهبوا إلى العراق وفتحوا العراق، وكان معنى هذا أن يعطي جميع العالم الإسلامي، أي يعطي العراق، وسوريا وإيران ومصر وجميع

العالم الإسلامي الذي أسلم بالفتح، سوف يوزع بين أربعة أو خمسة آلاف أو ستة آلاف من هؤلاء المسلمين المجاهدين[١]، سوف تستقطع أراضي العالم الإسلامي لهؤلاء، وبالتالي يتشكّل إقطاع لا نظير له في التاريخ.

هذا الخطر الذي كان يهدد الدولة الإسلامية، وبقي عمر لأجل ذلك أياماً متحيراً لأنه لا يعرف ماذا يصنع، لا يعرف ما هو الأصلح، وكيف يمكن أن يعالج هذه المشكلة.

علي بن أبي طالب عليه السلام هو الذي تدخّل كما تعلمون وحسم الخلاف، وبيّن وجهة النظر الإسلامية في الموضوع، وأخذ عمر بوجهة نظر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وأنقذ بذلك الإسلام من الدمار الكبير.

وكذلك له تدخلات كبيرة وكثيرة. النفير العام الذي اقترح على عمر والذي كان يهدد العاصمة في غزو سافر، كان من الممكن أن يقضي على

(١) النص التاريخي : عن حارثة بن مضرب أن عمر بن الخطاب أراد قسمة السواد بين المسلمين، فأمر أن يحصوا، فوجد الرجل منهم نصيبه ثلاثة من الفلاحين. فشاور أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك. فقال علي: دعهم يكونوا مادة للمسلمين، فأقر عمر بن الخطاب السواد لمن في أصلاب الرجال وأرحام النساء، وجعلهم ذمة تؤخذ منهم الجزية ومن أرضهم الخراج، وهم ذمة لا رق عليهم.

فتوح البلدان، البلاذري : ٢ / ٣٢٦.

الدولـة الإسـلامية هـذا الاقـتراح طرح على عمر، كاد عمر أن يأخذ به، جاء علـي عليه السلام إلى المسـجد مسـرعاً ـ عـلى ما أتذكر في بعض الروايات ـ تقول: جـاء مسـرعاً إلى عمر، قال لـه: لا تنفر نفيراً عاماً، كان عمر يريد أن يخرج مع تمـام المسـلمين الموجودين آنذاك في المدينة[١]، وعندما تفرغ عاصمة السلام مما

---

(١) مـا يشـير إلـيه السـيد الشـهيد رضي الله عنه هـو مـا جـرى عـام ٢١هجري بين المسلمين والفـرس في وقعـة نهـاوند والتي اسماها المسلمون بفتح الفتوح، وقد روى أحداث هذه الوقعـة الطبري وغيره من المؤرِّخين: لما أراد عمر أن يغزو الفرس ـ حين اجتمعوا بعد فـرقة لقـتال المسـلمين ـ استشار عمر الصحابة ولما أتم الصحابة وجهات نظرهم، قام علـي بـن أبي طالب فقال: أما بعد يا أمير المؤمنين فإنك إن أشخصت أهل الشام من شـامهم سارت الروم إلى ذراريهم، وإن أشخصت أهل اليمن من يمنهم سارت الحبشة إلى ذراريهـم، وإنك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك الأرض من أطرافها وأقطارهـا حـتى يكون ما تدع وراءك أهم إليك مما بين يديك من العورات والعيالات، أقـرر هـؤلاء في أمصـارهم، واكتـب إلى أهـل البصرة فليتفرقوا فيها ثلاث فرق: فلتقم فـرقة لهـم في حـرمهم وذراريهـم، ولـتقم فـرقة في أهـل عهدهم لئلا ينتقضوا عليهم، ولتسـر فـرقة إلى إخوانهـم بالكوفـة مددا لهم، إن الأعاجم إن ينظروا إليك غدا قالوا هـذا أمير العرب وأصل العرب فكان ذلك أشد لكلبهم والبتهم على نفسك، وأما ما ذكـرت مـن مسـير القوم فإن الله هو أكره لمسيرهم منك وهو أقدر على تغيير ما يكره، وأمـا مـا ذكـرت من عددهم فإنا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة ولكنا كنا نقاتل ⇐

يحميها من غزو المشركين والكافرين، منعه من النفير العام.

وهكذا كان علي عليه السلام يتدخل تدخلاً إيجابياً موجهاً في سبيل أن يقاوم المزيد من الانحراف، والمزيد من الضياع، كي يطيل عمر التجربة الإسلامية ويقاوم عامل الكم الذي ذكرناه.

هذا أحد أسلوبي مقاومة العامل الكمي.

الأسلوب الثاني: لمقاومة العامل الكمي كان هو المعارضة.

يعني كان تهديد الحكّام ومنعهم من المزيد من الانحراف، لا عن سبيل التوجيه، وانما عن سبيل المعارضة والتهديد.

بالنصر فقال عمر: أجل والله لئن شخصت من البلدة لتنتقضن عليَّ الأرض من أطرافها وأكنافها ولئن نظرت إلى الأعاجم لا يفارقن العرصة وليمدنهم من لم يمدهم وليقولن هذا أصل العرب فإذا اقتطعتموه اقتطعتم أصل العرب فأشيروا عليَّ برجل عراقي أُولّه ذلك الثغر غدا، فأشار عليه الإمام بالنعمان بن مقرن المزني، وقعة نهاوند أحداث عام ٢١هجري.

تاريخ الطبري، الطبري: ٣ /٢١٢، وفي الفتوح، ابن أعثم: أضاف، إن عمر قال للإمام : يا أبا الحسن ! لم لا تشير بشيء كما أشار غيرك؟ ؛ فأشار عليه الإمام بتأمير النعمان بن مقرن المزني.

الفتوح، ابن أعثم الكوفي، دار الندوة الجديدة، بيروت، (بدون تاريخ) : ٢ / ٣٧ـ ٤٠.

في الأول كنا نفرض أنّ الحاكم فارغ دينياً، وكان يحتاج إلى توجيه، والإمام عليه السلام كان يأتي ويوجّه، أما الأسلوب الثاني، فيكون الحاكم فيه منحرفاً ولا يقبل التوجيه، إذن فيحتاج إلى معارضة، يحتاج إلى حملة ضد الحاكم هذا، لأجل إيقافه عند حدّه، ولأجل منعه من المزيد من الانحراف.

وكانت هذه هي السياسة العامة للائمة عليهم السلام.

ألسنا نعلم بأن عمر صعد على المنبر وقال: ماذا كنتم تعملون لو أنا صرفناكم عما تعلمون إلى ما تنكرون[1]

كان يريد أن يقدّر الموقف.

وماذا سيكون لو أنا صرفناكم مما تعلمون إلى ما تنكرون ؟

لو انحرفنا شيئاً قليلاً عن خط الرسالة ماذا سيكون الموقف.

لم يقم له إلا علي عليه السلام قال له: لو فعلت ذلك لعدّلناك بسيوفنا.

كان هذا هو الشعار العام للإمام عليه السلام بالرغم من انه لم يتنزل في عملية تعديل عمر بالسيف خلال حكم عمر، لظروف ذكرناها، إلا انه قاد المعارضة لعثمان، واستقطب آمال المسلمين ومشاعر المسلمين، واتجاهات المسلمين، نحو حكم صحيح، ولهذا كان هو المرشّح الأساسي بعد أن فشل عثمان، واجتمع عليه المسلمون.

---

(١) المناقب، الموفق الخوارزمي : ٩٩.

الإمام علي عليه السلام يتصدى للمعارضة لأجل أن يوقف الانحراف.

هذان أسلوبان كانا هما الأسلوبان المتبعان لمواجهة العامل الجديد.

ثم هذه المعارضة نفسها كانت تعبّر من ناحية أخرى عن الخط الثاني، وهو المحافظة على الأمة الإسلامية من الانهيار بعد سقوط التجربة حيث إنّ المسلمين لم يعيشوا التجربة الصحيحة للإسلام، أو بعدوا عنها، والتوجيه وحده لا يكفي، لان هذا العمل لا يكفي لان يكسب مناعة. المناعة الحقيقية والحرارة الحقيقية للبقاء والصمود كأمة، إذن كان لابدّ من أن يجدد الموقف.

من أن يجدد الوجه الحقيقي للإسلام، في سبيل الحفاظ على الإسلام، وهذا الوجه الحقيقي للإسلام قدّمه علي بن أبي طالب عليه السلام من خلال معارضته للزعامات المنحرفة أولاً، ومن خلال حكم الإمام بعد أن مارس الحكم بنفسه.

من خلال هذين العملين، ومن خلال العمل السياسي المتمثل في المعارضة، والعمل السياسي المتمثل في رئاسة الدولة بصورة مباشرة، قدّم الوجه الحقيقي للإسلام، الأطروحة الصحيحة للحياة الإسلامية، الأطروحة الخالية من كل تلك الألوان من الانحراف.

طبعاً هذا لا يحتاج إلى حديث، ولا يحتاج إلى تمثيل لانه واضح لديكم.

أمير المؤمنين حينما تولّى الحكم، لم يكن يستهدف من تولّي الحكم تحصين التجربة أو الدولة، بقدر ما كان يستهدف تقديم المثل الأعلى للإسلام، لانه كان يعرف أنّ التناقضات، في الأمة الإسلامية بلغت إلى درجة لا يمكن معها أن ينجح عمل إصلاحي إزاء هذا الانحراف مع علمه أنّ المستقبل لمعاوية، وان

معاوية هو الذي يمثل القوى الكبيرة الضخمة في الأمة الإسلامية.

كان يعرف أنّ الصور الضخمة الكبيرة التي خلقها عمر وخلقها عثمان والتي خلقها الانحراف هذه القوى، كلها إلى جانب معاوية، وهو ليس إلى جانبه ما يعادل هذه القوى، لكن مع هذا قبل الحكم، ومع هذا بدأ تصفية وتعرية الحكم والانحراف الذي كان قبله، ومع هذا مارس الحكم وضحى في سبيل هذا الحكم بعشرات الآلاف من المسلمين، في سبيل أن يقدم الأطروحة الصحيحة الصريحة للإسلام وللحياة الإسلامية.

وقد قلت بالأمس، وأؤكد اليوم مرة أخرى بأن علي بن أبي طالب عليه السلام في معارضته، وعلي بن أبي طالب في حكمه لم يكن يؤثّر على انحراف الشيعة فقط، بل كان يؤثّر على مجموع الأمة الإسلامية، علي بن أبي طالب ربّى المسلمين جميعاً شيعة وسنة، حصّن المسلمين جميعاً شيعة وسنة[1]، علي بن

---

(١) نموذج معاصر: لقد كان واجب على الأول والأخير، أن يرد للتقاليد الإسلامية قوتها، وأن يرد إلى الدين روحه، وأن يجلو الغاشية التي غشت هذا الروح على أيدي بني أمية في كبرة عثمان ووهنه، ولو جارى معاوية في إقصاء العنصر الأخلاقي من حسابه، لسقطت مهمته، ولما كان لظفره بالخلافة من قيمة في حياة هذا الدين. فما جدوى استبدال معاوية بمعاوية؟ إنّ علياً إما أن يكون علياً أو فلتذهب الخلافة عنه، أو فلتذهب حياته معها. هذا هو الفهم الصحيح.

العدالة الاجتماعية في الإسلام، سيد قطب، دار الكتاب العربي، مصر (بدون تاريخ) : ١٨٩.

أبي طالب اصبح أطروحة ومثلاً أعلى للإسلام الحقيقي، من الذي كان يحارب مع علي بن أبي طالب؟ هؤلاء المسلمون الّذين كانوا يحاربون في سبيل هذه الأطروحة العالية في سبيل هذا المثل الأعلى، أكانوا كلهم شيعة بالمعنى الخاص؟ لا، لم يكونوا كلهم شيعة. هذه الجماهير التي انتفضت بعد علي بن أبي طالب على مرّ التاريخ، بزعامات أهل البيت بزعامات العلويين الثائرين من أهل البيت، الّذين كانوا يرفعون راية علي بن أبي طالب للحكم، هؤلاء كلهم شيعة ؟

كان أكثرهم لا يؤمن بعلي بن أبي طالب إيماننا نحن الشيعة، ولكنهم كانوا ينظرون إلى علي انه المثل الأعلى، انه الرجل الصحيح الحقيقي للإسلام، حينما أعلن والي عبد اللّه بن الزبير سياسة عبد اللّه بن الزبير، وقال بأننا سوف نحكم بما كان يحكم به عمر وعثمان[1]، وقامت جماهير المسلمين تقول:

---

(١) روى الطبري، أنه لما قدم عبد الله بن مطيع ـ والياً من قبل ابن الزبير على الكوفة ـ صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال: أما بعد فإن أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير بعثني على مصركم وثغوركم، وأمرني بجباية فيئكم، وأن لا أحمل فضل فيئكم عنكم إلا برضى منكم ووصية عمر بن الخطاب التي أوصى بها عند وفاته وبسيرة عثمان بن عفان التي سار بها في المسلمين، فاتقوا الله واستقيموا ولا تختلفوا، وخذوا على أيدي سفهائكم وإلا تفعلوا فلوموا أنفسكم ولا تلوموني، فوالله لأوقعنّ بالسقيم العاصي ولأقيمنّ درأ الاصعر المرتاب فقام إليه السائب بن مالك الأشعري فقال: أما أمر ابن ←

لا، بل بما كان يحكم به علي بن أبي طالب، فعلي بن أبي طالب كان يمثل اتجاهاً في مجموع الأمة الإسلامية.

والخلافة العباسية كيف قامت؟ كيف نشأت؟ قامت على أساس دعوة كانت تتبنى زعامة الصادق من آل محمد صلى الله عليه وآله. الحركة السلمية التي على أساسها نشأت الخلافة العباسية كانت تأخذ البيعة للصالح، للإمام الصادق من آل محمد صلى الله عليه وآله[1]، يعني هذه الحركة استغلت عظمة الإسلام، عظمة هذا الاتجاه، وتجمع المسلمون حول هذا الاتجاه، ولم يكن هؤلاء مسلمين شيعة، اكثر هؤلاء لم يكونوا شيعة، لكن كانوا يعرفون أنّ الاتجاه الصالح، الاتجاه الحقيقي،

الزبير إياك أن لا تحمل فضل فيئنا عنا إلا برضانا فإنا نشهدك أنا لا نرضى أن تحمل فضل فيئنا عنا وأن لا يقسم إلا فينا وأن لا يسار فينا إلا بسيرة على بن أبى طالب التي سار بها في بلادنا هذه حتى هلك رحمة الله عليه ولا حاجة لنا في سيرة عثمان في فيئنا ولا في أنفسنا فإنها إنما كانت أثرة وهوى ولا في سيرة عمر بن الخطاب في فيئنا... فقال يزيد بن أنس: صدق السائب بن مالك وبرّ، رأينا مثل رأيه وقولنا مثل قوله فقال ابن مطيع نسير فيكم بكل سيرة أحببتموها وهويتموها ثم نزل.

تاريخ الطبري، الطبري: ٤ /٤٩٠. والفتوح، ابن أعثم الكوفي : ٦ / ٨٧.

(١) إن الدعوة العباسية ((نادت بالخلافة إلى الرضا من آل محمد صلى الله عليه وآله من غير تسمية أحد)) وكان أبو مسلم الخراساني يقول: (إني أدعو إلى رجل من آل بني هاشم).

وفيات الأعيان، ابن خلكان : ٣ / ١٤٧.

الاتجاه الصلب العنيف كان يمثله علي بن أبي طالب عليه السلام، والواعون من أصحاب علي عليه السلام والواعون من أبناء علي عليه السلام. ولهذا كثير من أبناء العامة، ومن أئمة العامة، من أكابر أصحاب الإمام الصادق عليه السلام، كانوا أُناساً عاميين يعني كانوا أُناساً سنة، ولم يكونوا شيعة.

دائماً كان الأئمة عليهم السلام يفكرون، في أن يقدموا الإسلام لمجموع الأمة الإسلامية أن يكونوا مناراً أن يكونوا أطروحة أن يكونوا مثلاً أعلى[1]

كانوا يعملون على خطين، خط بناء المسلمين الصالحين، وخط ضرب مثلاً أعلى لهؤلاء المسلمين، بقطع النظر عن كونهم شيعة أو سنة.

هناك علماء ـ من أكابر علماء السنة ـ ، أفتوا بوجوب الجهاد، وبوجوب

---

(١) إن القارئ لتاريخ الدولة الإسلامية من عهد الخلافة وإلى عصر الإمام الحسن بن علي الخالص العسكري، يجد أن التحديات التي واجهة ملوكها وسلاطينها، كان لمواقف الأئمة عليهم السلام من أمير المؤمنين عليه السلام وحتى العسكري الدور البارز في إبعاد الدولة الإسلامية عن تلك الأزمات والتحديات، فالتحديات الرومية أيام معاوية وعبد الملك قد أنقذ الدولة منها على التوالي: الإمام الحسن بن علي، والإمام علي بن الحسين، والإمام محمد الباقر عليهم السلام ولما كادت الأمة أن ترتد أيام المعتمد العباسي أخرج الإمام العسكري من السجن ليدرك أمة جده (حسب تعبير المعتمد لما دعا الإمام).

ينابيع المودة، القندوزي: ٣/١٣٠ـ١٣٣. وما يخص مسألة القراطيس والنقود، المحاسن والمساوئ، البيهقي: ٣٦٧.

القتال بين يدي ثوار آل محمد صلى الله عليه وآله، وأبو حنيفة قبل أن ينحرف، قبل أن يرشيه السلطان ويصبح من فقهاء عمّال السلطان، أبو حنيفة نفسه الذي كان من نوّاب السنة، ومن زعماء السنة، هو نفسه خرج مفاتلاً ومجاهداً مع راية من رايات آل محمد وآل علي عليهم السلام، وأفتى بوجوب الجهاد مع راية من رايات علي عليه السلام، مع راية تحمل شعار علي بن أبي طالب، قبل أن يتعامل أبو حنيفة مع السلاطين(١)

إذن فاتجاه علي بن أبي طالب، لم يكن اتجاهاً منفرداً، اتجاهاً محدوداً، كان اتجاهاً واسعاً على مستوى الأمة الإسلامية كلها، لأجل أن يعرّف الأمة الإسلامية وان يحصن الأمة الإسلامية بالإسلام، وبأهداف الإسلام، وكيف يمكن للإنسان أن يعيش الحياة الإسلامية في إطار المجتمع الإسلامي.

المهم من هذا الحديث أن نأخذ العبرة وان نقتدي، حينما نرى أنّ علي بن أبي طالب عليه السلام على عظمته يربّي أصحابه على أنهم أصحاب الهدف، لا أصحاب نفسه. يجب أن لا أفكر أنا، ويجب أن لا تفكر أنت، بأن تربّي أصحابك على أنهم أصحابك، وانما هم أصحاب الرسالة، أي واحد منكم ليس صاحباً للآخر، ولهذا يجب أن نجعل الهدف دائماً مقياساً، نجعل الرسالة دائماً مقياساً. احكموا عليّ باللحظة التي انحرف فيها عن الهدف، لأن الهدف

---

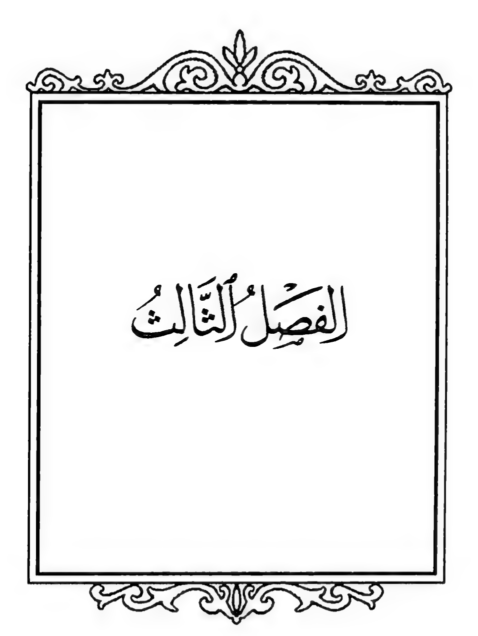
(١) ثورة زيد بن علي بن الحسين عليهم السلام، كانت عام [١٢١هـ].

هـو الأعـز والأغلى، هو رب الكون، الذي يجب أن تشعروا بأنه يملككم، بأنه بـيده مصـيركم، بـيده مسـتقبلكم، انـه هـو الـذي يمكـن أن يعطـيكم نتائج جهادكم.

هـل أنـا أعطيكم نتائج جهادكم، أو أي إنسان على وجه الأرض يمكن أن يعطـي الإنسـان نـتائج جهـاده، نتائج عمله، نتائج إقدامه على صرف شبابه، حياته، عمره، زهده، على تحمّله آلام الحياة، تحمّله للجوع تحمّله للظلم، تحمله للضيم، من الذي يعطي أجر كل هذا؟ هل الذي يعطي اجر هذا أنا وأنت، لا أنـا ولا أنـت يعطي اجر هذا، وانما الذي يعطي أجر هذا هو الهدف فقط. هذا هو الذي يعطي النتيجة والتقييم. هو الذي سوف يفتح أمامنا أبواب الجنة، هو الذي سوف يغير أعمالنا، هو الذي سوف يصحح درجاتنا.

إذن لا تفكـروا في أنّ أي واحـد مـنكم، في أن أي واحد منا، مرتبط مع أي واحد منا، بل فكروا هكذا: إن أي واحد منا مرتبط كله مع اكبر من أي واحد مـنا، هـذا الشـيء الذي هو اكبر، هو اللّه سبحانه، هو رضوان اللّه، هو حماية الإسلام، هو العمل في خط الأئمة الأطهار عليهم السلام.

وغفر لنا ولكم جميعاً.



الفصل الثالث

بداية الانحراف وبعض المشاكل التي واجهت أمير المؤمنين عليه السلام

❖ ضرورة عصمة القيادة ❖

إنّ المستلم للقيادة الفعلية، المتسلّم لزمام التجربة بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم مباشرة كان من المحتوم أن يجنح إلى الانحراف، لأنه كان يعيش رواسب جاهلية، وبالتالي لم يكن يُمثل الدرجة الكاملة للإِنصهار مع الرسالة، هذه الدرجة التي هي شرط أساسي لتزعّم هذه التجربة، وهي التي يمكن أن تفسّر موقف الشيعة من إشتراطهم العصمة لقيادة هذه التجربة.

الفكرة في هذا الحديث تقوم على هذا الأساس؛ على أساس أنّ قيادة التجربة يجب أن تكون على مستوى العبء، وهذا في الواقع ليس من مختصات الشيعة ليس من مختصات الشيعة الإيمان بأن الإمام يجب أن يكون معصوماً، بل هذا ما تؤمن به كل الاتجاهات العقائدية في العالم على الإطلاق.

أي إتجاه عقائدي في العالم، يريد أن يبني الإنسان من جديد في إطاره، ويريد أن ينشئ للإنسانية معالم جديدة، فكرية وروحية واجتماعية، يشترط لأن ينجح، وأن ينجز وان يأخذ مجراه في خط التاريخ، يشترط أن يكون القائد

الذي يمارس تطبيق هذا الإتجاه، معصوماً...

فالقائد في نظر الماركسية مثلاً بوصفها اتجاهاً عقائدياً، يريد أن يبني ويصنع الإنسان، ويبلوره في إطاره الخاص، يشترط فيه أن يكون معصوماً.

إلا أنّ مقاييس العصمة تختلف.

الاتجاه الماركسي يجب أن يكون القائد الذي يمارس تطبيقه معصوماً بمقاييس ماركسية، والقائد الذي يمارس زعامة التجربة الإسلامية، يجب أن يكون معصوماً بمقاييس إسلامية، والعصمة في الحالتين بمفهوم واحد، هو عبارة عن الانفعال الكامل بالرسالة، والتجسيد الكامل لكل معطيات تلك الرسالة، في النطاقات الروحية والفكرية والعملية[١]

العصمة

والشيعة لم يشذوا بإشتراط العصمة في الإمام، عن أي اتجاه عقائدي آخر، ولهذا نرى في الاتجاهات العقائدية الأخرى كثيراً ما يتهم القائد ـ الذي يمثل

---

(١) روى الشيخ الصدوق بسنده عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام : فقيل له ـ أي للإمام علي بن الحسين عليه السلام: يابن رسول الله فما معنى المعصوم ؟ فقال : هو المعتصم بحبل الله، وحبل الله هو القرآن لا يفترقان إلى يوم القيامة، والإمام يهدي إلى القرآن والقرآن يهدي إلى الإمام، وذلك قول الله عز وجل : " إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم". معاني الأخبار، الشيخ الصدوق : ١٣١ ـ ١٣٢.

الاتجاه ـ بأنه ليس معصوماً، يوجه إليه نفس التهمة، التي نوجهها نحن المسلمون الواعون أصحاب علي بن أبي طالب عليه السلام إلى الخلفاء الّذين تولوا الخلافة بعد رسول اللّه صلى الله عليه وآله.

نفس هذه التهمة يوجهونها إلى القادة الّذين يعتقدون بأنهم لم ينصهروا بإطروحاتهم ولم يتفاعلوا باتجاهاتها تفاعلاً كاملاً.

بالأمس القريب جزء كبير من الماركسية في العالم إنشطر على قيادة الاتحاد السوفيتي[١]، واتهم القيادة التي كان متمثلة في حكّام روسيا، بأنهم أُناس غير مهيئين لأن يكونوا قادة للتجربة الماركسية، يعني غير معصومين بحسب لغتنا.

إلاّ أن نفي العصمة عنهم بمقاييس ماركسية لا بمقاييسنا الخاصة، لا بمقاييس إسلامية.

فأصل الفكرة، تؤمن به كل الاتجاهات العقائدية، وإنما المقياس للعصمة يختلف بإختلاف طبيعة هذه الاتجاهات العقائدية.

نعم، العصمة في الإسلام ذات صيغة أوسع نطاقاً من العصمة في الاتجاهات العقائدية الأخرى، وهذه السعة في صيغة العصمة تنبع من طبيعة سعة

---

(١) يشير السيد الشهيد رضي الله عنه، إلى التجربة الصينية، واتجاهها الماوي، والذي يؤمن بالكفاح المسلح كسبيل آخر، مقابل ما زعمه ماركس من حتمية التحوّلات الاجتماعية، التي تتأثر بتغييرات وسائل وشكل الإنتاج.

الإسلام نفسها، لأن العصمة ـ كما قلنا ـ هي التفاعل الكامل والانصهار الشامل والتجاوب مع الرسالة في كل أبعاد الإسلام، والرسالة الإسلامية تختلف عن أي رسالة أخرى في العالم، لأن أي رسالة أخرى في العالم تعالج جانباً واحداً من الإنسان، الماركسية التي تمثل أحدث رسالة عقائدية في العالم الحديث تعالج جانباً واحداً من وجود الإنسان وتترك الإنسان حينما يذهب إلى بيته، حينما يذهب الإنسان إلى مخبئه، حينما يخلو الإنسان بنفسه، تترك الإنسان، ليس لها أي علاقة معه في هذه الميادين، وإنما تأخذ بيده في مجال الصراع السياسي والاقتصادي لا أكثر.

فصيغة الرسالة بطبيعتها صيغة منكمشة محدودة، صيغة تعالج جانباً من الحياة الإنسانية، فالعصمة العقائدية التي لابدّ أن تتوفر في قائد ماركسي مثلاً! هي العصمة في حدود هذه المنطقة التي تعالجها الرسالة العقائدية الماركسية.

أما الرسالة الإسلامية التي هي رسالة السماء على وجه الأرض فهي تعالج الإنسان من كل نواحيه، وتأخذه بيده إلى كل مجالاته، ولا تفارقه وهو على مخدعه في فراشه، وهو في بيته بينه وبين ربه، بينه وبين نفسه، بينه وبين أفراد عائلته، وهو في السوق، وهو في المدرسة، وهو في المجتمع، وهو في السياسة، وهو في الاقتصاد، وهو في أي مجال من مجالات حياته[1] ولهذا تكون الصيغة

(١) النص القرآني الذي يحمل هذه الدلالة: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾

المحدودة من العصمة على أساس هذه الرسالة أوسع نطاقاً وأرحب أُفقاً وأقسى شروطاً، وأقوى من ناحية مفعولها وامتدادها في كل أبعاد الحياة الإنسانية[1].

فعصمة الإمام عبارة عن نزاهة في كل فكرة وكل عاطفة وكل شأن، والنزاهة في كل هذا عبارة عن انصهار كامل مع مفاهيم، وأحكام الرسالة الإسلامية، في كل مجالات هذه الأفكار والعواطف والشؤون.

هذا كان استطرادا.

إذن فالعصمة التي هي شرط لمجموع الاتجاهات العقائدية، نحن أيضاً نؤمن بها كشرط في هذا الاتجاه.

وبطبيعة الحال فإننا عندما نقول: إنّ العصمة شرط في هذا الاتجاه، العصمة بحد ذاتها أيضاً ليست أمراً حتمياً غير قابل للزيادة والنقصان، والتشكيك،

﴿وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾. (النحل: من الآية٨٩)

(١) وإن أدنى تأمل في الآية المباركة: "﴿إِلا بَلاغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾، الجن: ٢٣: يُرشد إلى العصمة المطلقة للأنبياء عليهم السلام ومن يخلفوه أميناً على رسالاتهم وأممهم، فمن حيث كونهم القدوة للبشرية، لا يصح أن يصدر منهم ما لو اقتدى به غير الآثم أو ألمذنب، فالآية مانعة من ذلك، ومن جهة قرن معصيتهم بمعصية الله تعالى، فعصمتهم عليهم السلام ضرورة على وفق ذلك

نفس العصمة إذا حولناها إلى مفهوم النزاهة والتجاوب الكامل مع الرسالة فيكون أمراً مقولاً بالتشكيك في الشدة والضعف، وبوصف أنّ لأئمة أهل البيت عليهم السلام المرتبة الأسمى والأكمل من هذه المراتب المقولة بالتشكيك[١] المختلفة شدةً وضعفاً.

ومن هنا نأتي إلى ما كان موضوع الحديث، موضوع الحديث أنّ هؤلاء الّذين تسلموا أمر التجربة بعد النبي صلى الله عليه وآله لم يكونوا معصومين حتى بأدنى مراتب العصمة، حتى بالحد الأدنى من مراتب النزاهة والتفاعل مع الرسالة الإسلامية كما أشرنا إليه بالأمس، وحينئذ أن التجربة تجربة تمثل إتجاهاً عقائدياً واتجاهاً رسالياً، ليس اتجاه أُناس يمثلون وجهة نظر معيّنة في الكون والحياة والمجتمع، يمثلون رسالة لتغيير الحياة على وجه الأرض وتغير التاريخ، إذن هذه التجربة العقائدية الضخمة على هذا المستوى بحاجة إلى قيادة عقائدية معصومة تتوفر فيها فعالية عالية جداً من النزاهة والتجرّد والموضوعية والانفعال بمعطيات هذه الرسالة فكيف إذا لم تكن هذه المواصفات موجودة في القيادة؟

❖ عصمة الأمة ❖

قد يقال: إنها ـ [[أي العصمة]] ـ كانت موجودة في الأمة ككل[٢]، والأمة

---

(١) المنطق، الشيخ محمد رضا المظفر، ١/٧٠.

(٢) هـذا رأي تقـول به الفرق والمذاهب الإسلامية ـ غير الشيعة ـ ويستدلون عليه بالحديث: ↵

ككل كانت تمارس المراقبة وكانت تمارس التوجيه، وكانت تمارس المراقبة للحكم القائم حتى لا ينحرف، الأمة ككل كانت معصومة وإذا كانت الأمة ككل معصومة، إذن فالعصمة قد حصلنا عليها عن طريق الوجود الكلي للأمة.

إلا أنّ هذه الفكرة غير صحيحة، نحن نؤمن بأن الأمة في وجودها لم تكن معصومة أيضاً، كما أنّ الخلفاء الّذين تولوا الحكم بعد رسول اللّه صلى الله عليه وآله لم يكن يتوفر لديهم الحد الأدنى من النزاهة المطلوبة لزعامة تجربة من هذا القبيل، الأمة بوصفها الكلي وبوجودها المجموعي أيضاً لم تكن معصومة، طبعاً إذا استثنينا من ذلك الزعامة المعصومة الموجودة في داخل هذه الأمة الممثلة في اتجاه أمير المؤمنين عليه السلام، هذا بالرغم من أننا نعترف ونفتخر ونمتلئ إعتزازاً بالإيمان بأن الأمة الإسلامية التي أسسها وحرسها النبي صلى الله عليه وآله ضربت أروع نموذج للأمة في تاريخ البشرية على الإطلاق، الأمة الإسلامية التي أمكن للنبي صلى الله عليه وآله بوقت قصير جداً ـ في مدة لا تبلغ ربع قرن ـ أن ينشئ أمة لها من الطاقة والإرادة، لها من المؤهلات اللازمة القدر الكبير الذي لا يمكن أبداً أن يتخيل الإنسان الاعتيادي كيف أمكن إيجاده في ربع قرن، أو أقل ؟ هذه الأمة التي قدمت من التضحيات في أيام النبي صلى الله عليه وآله في سبيل رسالتها ما لم تقدم مثله

"لا تجتمع أمة على ضلال".

انظر: أحكام القرآن، الجصاص: ٢/٣٧، ونهج الإيمان، ابن جبر: ٥٣.

أي أمة من أمم الأنبياء قبل النبي صلى الله عليه وآله، هذا التسابق على الجنة، التسابق على الموت، الإيثار الذي كان موجوداً بين المسلمين، روح التآخي الذي شاع في المسلمين ـ المهاجرون والأنصار ـ كيف عاشوا، كيف تفاعلوا، كيف انصهروا؟ انظروا إلى أهل بلد واحد ينزح إليهم أهل بلد آخر فيأتون إليهم ليقاسموهم خيرات بلدهم ومعاشهم وأموالهم(١)، وهؤلاء يستقبلونهم برحابة صدر، ينطلقون معهم ينظرون إليهم على أنهم اخوة لهم يعيشون مجتمعاً واحداً،

---

(١) النص: عن حميد عن أنس: أن عبد الرحمان بن عوف قدم المدينة فآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري، فقال له سعد: أي أخي أنا أكثر أهل المدينة مالا فانظر: شطر مالي فخذه وتحتي امرأتان فانظر: أيهما أعجب إليك حتى أطلقها. وقال عبد الرحمان بن زيد بن أسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصار " إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم " فقالوا أموالنا بيننا قطائع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أو غير ذلك؟ " قالوا وما ذاك يا رسول الله ؟ قال: " هم قوم لا يعرفون العمل، فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر ". قالوا نعم ! وقد ذكر ابن كثير ما ورد من الأحاديث والآثار في فضائل الأنصار وحسن سجاياهم عند قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الحشر: ٩.

البداية والنهاية، ابن كثير: ٣ /٢٧٩ ـ ٢٨٠.

وكأنهم كانوا قد عاشوا مئات السنين، هذه الانفتاحات العظيمة في كل ميادين المجتمع التي حققتها الأمة بقيادة الرسول صلى الله عليه وآله هذه الانفتاحات التي لا مثيل لها بالرغم من كل هذا نقول: إن الأمة لم تكن معصومة.

❖ موقف الأمة بين الطاقة الحرارية والوعي الرسالي ❖

إنّ هذه الانفتاحات كانت قائمة على أساس الطاقة الحرارية التي كانت تمتلكها الأمة من لقاء القائد الأعظم، ولم تكن قائمة على أساس درجة كبيرة من الوعي الحقيقي للرسالة العقائدية.

نعم كان الرسول صلى الله عليه وآله الأعظم يمارس عملية توعية الأمة وعملية الارتفاع بها إلى مستوى أمة معصومة، هذه العملية التي كانت مضغوطة والتي بدأ بها النبي صلى الله عليه وآله لم ينجز شيئاً منها في الخط هذا، وإنما الشيء الذي أنجز في هذا الخط، خط عمل النبي صلى الله عليه وآله على مستوى الأمة ككل هو إعطاء هذه الأمة طاقة حرارية في الإيمان بدرجة كبيرة جداً، مثل هذه الطاقة الحرارية التي تملكها الأمة يوماً بعد يوم، وشهراً بعد شهر، وفي كل لحظة من لحظات انتصارها أو انكسارها، كانت هي المصدر وهي السبب في كل الانفتاحات العظيمة، روح القائد هي التي تجذب وهي التي تحصد وهي التي تقود هؤلاء إلى المثل العليا والقيم الضخمة الكبيرة التي حددها الرائد الأعظم صلى الله عليه وآله بين أيديهم، إذن فهي طاقة حرارية وليست وعياً.

وقلنا أيضاً: ـ فيما سبق ـ إنّ الطاقة الحرارية والوعي قد يتفاعلان ويتفقان في كثير من الأحيان، ولا يمكن أن نقارن في الحالات الاعتيادية بين أمة واعية وبين أمة تملك طاقة حرارية كبيرة دون درجة كبيرة من الوعي، المظاهر تكون مشتركة في كثير من الأحيان، لكن في منعطفات معيّنة من حياة هذه الأمة، في

لحظات حاسمة في حياة هذه الأمة، في مواقف حرجة من تاريخ هذه الأمة يتبين الفرق بين الوعي والطاقة الحرارية، [[كما]] يتبين الفرق [[أيضاً]] بين الوعي والطاقة الحرارية في لحظات الانفعال الشديد سواء كان انفعالاً موافقاً لعملية الانتقال أو انفعالاً معاكساً؛ لأن الوعي لا يتزعزع في لحظة الانفعال ويبقى صامداً ثابتاً، لا يلين ولا يتميّع وعي الإنسان، إيمان الإنسان بأهدافه ومسؤولياته فوق كل الانفعالات، فوق كل المشاكل، فوق كل الانتصارات، أي انتصار يحققه الإنسان لا يمكن أن يخلق انفعالاً يزعزع وعيه، إذا كان واعياً وعياً حقيقياً يبقى على الخط، لا يشط ولا يشذ ولا يزيد أو ينقص.

محمد صلى الله عليه وآله هذا الرجل العظيم، يدخل إلى بيت اللّه الحرام منتصراً في لحظة لم تزعزع هذه اللحظة من خلقه، لم تخلّف فيه نشوة الانتصار، وإنما خلفت فيه ذل العبودية للّه شعر بذل العبودية للّه أكثر مما يشعر بنشوة الانتصار، هذا هو الذي يمثل الوعي العظيم[1]، لكن المسلمين عاشوا نشوة الانتصار في

---

(١) كان ذلك عام الفتح ـ فتح مكة ـ سنة ثمان للهجرة المباركة، وفيه قال النبي صلى الله عليه وآله: لقريش ((اذهبوا فأنتم الطلقاء)) ، وإن سعد بن عبادة زعيم الخزرج لما أعطاه النبي صلى الله عليه وآله الراية ليدخل بها مكة نادى (اليوم يوم الملحمة اليوم تسبى الحرمة)، فأمر النبي علياً أن يأخذ الراية منه، وينادي ((اليوم تحمى الحرمة)).

سيرة ابن هشام: ٤/٨٧٠.

لحظات عديدة لحظات الصدمة، لحظات المشكلة، لحظات المأساة، الواعي يبقى ثابتاً، يبقى صامداً أمام المشكلة لا يتزعزع، لا يلين، لا يكف، لا يتراخى، يبقى على خطه واضحاً، النبي صلى الله عليه وآله لم يكن يبدو منه أي فرق بينه، وهو حال دخوله إلى مكة فاتحاً، وحال كونه مطروداً بالحجارة من قبائل العرب المشركين، يتوجّه إلى اللّه سبحانه وتعالى يقول له: لا يهمني ما يصنع هؤلاء إذا كنت راضياً عني[1] نفس الروح التي نجدها في لحظة انقطاعه، في لحظة مواجهته البشرية التي تحمل ألوان الشرور، في لحظة تمرد الإنسان على هذا الوجه الذي جاء ليصلحه، لم تتبدل حالته في هذه اللحظة وبين حالته، والإنسانية تستجيب والإنسانية تخضع، والإنسانية تطأطئ رأسها بين يدي القائد العظيم صلى الله عليه وآله هذا

---

(١) النص النبوي المبارك: " اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، لا حول ولا قوة إلا بك". وكان ذلك بعد وفاة أبي طالب (س)، حيث خرج النبي صلى الله عليه وآله من مكة إلى الطائف، فآذوه ولم يستجيبوا له.

السيرة النبوية، ابن كثير: ٢/١٥٠.

هو الوعي.

أما الأمة لم تكن هكذا، ولا نريد أن نكرر الشواهد مرة أخرى حتى يأتي البحث كاملاً اليوم، الشواهد على أنّ الأمة كانت غير واعية، وإنما هي طاقة حرارية مرت في الأيام السابقة، إذن فالأمة الإسلامية كانت تحمل طاقة حرارية كبيرة، ولم تكن أمة واعية بدرجة كبيرة، فلم تكن العصمة متوفرة لا في القيادة، ولا في الأمة بوجودها المجموعي، ومن أجل هذا كان الانحراف حتمياً على النحو الذي بيناه بالأمس، وهكذا بدأ الانحراف بعد النبي صلى الله عليه وآله، وقلنا إنّ الخط الذي بدأه الأئمة عليهم السلام هذا الخط ينحل إلى شكلين:

الأول: خط محاولة القضاء على هذا الانحراف بالتجربة، أليست التجربة تجربة المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية.

هذه التجربة انحرفت بإعطاء زمامها إلى أُناس لا يُؤْمَنُونَ عليها وعلى مقدّراتها، وعلى ممتلكاتها، الخط الأول كان يحاول أخذ هذه التجربة، تسلّم زمام التجربة.

الثاني: هو الخط الذي كان يعمله الأئمة عليهم السلام حتى في الحالات التي كانوا يرون أنْ ليس في الإمكان السعي وراء تسلّم زمام التجربة، وهو خط الضمان لوجود الأمة مستقبلاً.

قلنا إنّ التجربة حينما انحرفت، كان من المنطقي ـ في تسلسل الأحداث ـ أنْ يتعمّق هذا الانحراف، ثم يتعمّق حتى تنهار التجربة، وإذا انهارت التجربة

أمـام أول غـزو، أمام أول تيار، إذن فسوف لن تحارب عن إسلامها كأمة، فبعد أن تـنهار الدولة والحضارة الحاكمة وسوف تتنازل عن إسلامها بالتدريج لأنها لم تجـد في هـذا الإسـلام المنحرف مـا تدافـع عـنه، إذن مـاذا جنـت من هذا الإسلام؟

كـيف نقـدر أن نتصـور أنّ الإنسـان غير العربي يدافع عن الإسلام الذي يتبـنى زعامـة العربي لغير العربي ؟ كيف يمكن أن نتصور أنّ الإنسان العربي والفارسـي يدافع عن كيان يعتبر هذا الكيان هو ملك لأسرة واحدة من قبائل العرب، وهي أسرة قريش ؟ كيف يمكن أن نفرض أنّ هؤلاء المسلمين يشعرون بـأنهم قـد وجـدوا حقوقهـم، قـد وجدوا كرامتهم في مجتمع يضج بكل ألوان التفاوت والتمييز والاستئثار والاحتكار ؟ !

إذن كـانوا يـنازلون عـن هـذا الإسـلام حيـنما تـنهار الـتجربة بعد تعمّق الانحراف.

إلا أنّ الـذي جعل الأمة لا تتنازل عن الإسلام، هو أنّ الإسلام له مثل آخر قـدم لــه، مـثل واضـح المعالم، أصيل المُثِل والقِيم، أصيل الأهداف والغايات، قُدِمَـت هـذه الأطروحة من قبل الواعين من المسلمين بزعامة الأئمة عليهم السلام من أهـل البيـت عليهم السلام ، ولنعرف مسبقاً قبل أن نأتي إلى التفاصيل، أنّ هذه الأطروحة الـتي قدمهـا الأئمـة عليهم السلام للإسـلام لم تكـن تـتفاعل فقط مع الشيعة المؤمنين بإمامـة أهل البيت عليهم السلام فقط، هذه الأطروحة كان لها صدى كبير في كل العالم

الإسلامي، فالأئمة عليهم السلام كان لهم أطروحة للإسلام وكانت لهم دعوى لإمامة أنفسهم، صحيح أنّ الدعوى لإمامة أنفسهم لم يطلبوا لها إلا عدداً ضئيلاً من مجموع الأمة الإسلامية، ولكن الأمة الإسلامية بمجموعها تفاعلت مع هذه الأطروحة، إذن فكان الخط الكبروي للأئمة عليهم السلام هو تقديم الأطروحة الصحيحة للإسلام، النموذج والمخطط الواضح الصحيح الصريح للإسلام في كل مجالات الإسلام، في المجالات الخاصة، والمجالات العامة، في المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، والخلقية والعبادية، كانوا يقدمون هذه الأطروحة الواضحة التي جعلت المسلمين على مرّ الزمن يسهرون على الإسلام ويقيمونه وينظرون إليه بمنظار آخر غير منظار الواقع الذي يعيشونه، غير مناظر التجربة الفريدة التي يعيشونها.

هذا هو الخط الثاني الذي عمل عليه الأئمة عليهم السلام.

❖ الموقف عُقيب وفاة النبي صلى الله عليه وآله ❖

والآن، نبدأ بتحليل الموقف عُقيب وفاة النبي صلى الله عليه وآله.

إنَّ أمير المؤمنين حينما واجه الانحراف في التجربة قام بعملية تعبئة فكرية في صفوف المسلمين الّذين يذهب تفكيرهم إلى أنّ هذا الوضع الذي قام الآن جديداً وضع غير طبيعي، وضع منحرف عن الخط الإسلامي، واستعان بهذا السبيل ببنت رسول اللّه صلى الله عليه وآله الزهراء عليها السلام[1] لأجل أن يستثير في نفوس المسلمين عواطفهم ومشاعرهم المرتبطة بأعز شخص يحبونه ويجلّونه، وهو شخص النبي صلى الله عليه وآله، إلاّ أنه لم يستطع أن يستثير المسلمين بالدرجة التي تحول مجرى التجربة ويجعل هناك تبدّلاً أساسياً في الخط القائم لم يستطع ذلك، وهذا أمرٌ طبيعي، يعني من الطبيعي أن ينتهي أمير المؤمنين عليه السلام إلى عدم النجاح في

---

(١) النص التاريخي: وخرج علي كرم الله وجهه يحمل فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم على دابة ليلا في مجالس الأنصار تسألهم النصرة، فكانوا يقولون: يا بنت رسول الله، قد مضت بيعتنا لهذا الرجل، ولو أن زوجك وابن عمك سبق إلينا قبل أبي بكر ما عدلنا به، فيقول علي كرم الله وجهه: أفكنت أدع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته لم أدفنه، وأخرج أنازع الناس سلطانه ؟ قالت فاطمة: ما صنع أبو الحسن إلا ما كان ينبغي له، ولقد صنعوا ما الله حسيبهم وطالبهم.

الإمامة والسياسة: ٢٩/١.

القضاء على هذا الانحراف، يكفي لأن نفهم هذا أن نلتفت إلى نفس ما أصاب النبي صلى الله عليه وآله وهو الرائد الأعظم لهذه الرسالة من قلق وخوف وارتباك في سبيل تركيز خلافة علي بن أبي طالب عليه السلام.

هذا النبي الذي لم يتلكأ ولم يتوقف ولم يتردد عن أي لون من ألوان التركيز والعمل في سبيل تلك المهمات، هذا النبي العظيم الذي لم يشعر بالخوف ولم يخفق قلبه بأي لون من ألوان الوساوس والشكوك أو الضعف والانهيار، هذا النبي العظيم، وقف حائراً أمام الأمر الإلهي في أن يبلّغَ إمامة علي بن أبي طالب، حيث جاء ما جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله من إنذاره بأن يبلّغ، وإلا فكأنه لم يبلّغ الرسالة(١)، هذه الموانع ـ التي كانت تمنع النبي صلى الله عليه وآله عن تزعّم علي بن أبي طالب عليه السلام للتجربة الإسلامية ـ عميقة، قوية، واسعة بدرجة أنّ النبي صلى الله عليه وآله نفسه كان يخشى من أن يعلن عن تشريع هذا الحكم، ليس عن تطبيقه بحسب الخارج، بل عن تشريعه وإعلانه أمام المسلمين.

هذه جهة، والجهة الأخرى حينما أراد أن يسجّل هذا الحكم في كتاب المسلمين لأول مرة في تاريخ النبي صلى الله عليه وآله.

---

(١) إشارة إلى الآية المباركة: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾. سورة المائدة: ٦٧.

هذا النبي الذي كان المسلمون يتسابقون إلى الماء الذي يتقاطر من وضوئه.

هـذا الـنبي الـذي ذهـب رسول قريش يقول لهم: إني رأيت كسرى وقيصر وملوك الأرض، فما رأيت رجلاً انجذب إليه جماعته وأصحابه، وآمنوا به وذابوا بوجوده كما ذاب أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم في محمد[١].

هـؤلاء لا يشـعرون بوجودهم أمام هذا الرجل العظيم في مجلس النبي صلى الله عليه وآله وسلم فـيقوم واحـد مـنهم فيقول ما يقول، مما تعلمون، ثم لا يحصل بعد هذا أي رد فعـل لهـذا الكلام، فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم عندئذ يقول: قوموا عني لا ينبغي الاختلاف في مجلس نبي[٢]

---

(١) إن عـروة بـن مسـعود هو رسول قريش إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فلما أتاه، جعل يرمق صحابة الـنبي صـلى الله علـيه وسلم بعينيه فرأى منهم غريباً، فلما رجع إلى أصحابه قال لهم: أي قـوم؟! والله لقـد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيـت ملكـا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا والله إن تنخم نخامة إلا وقعـت في كـف رجـل منهم فدلك بها وجهه وجلده وإذا أمرهـم ابتدروا أمره وإذا توضـأ كـادوا يقتـتلون عـلى وضـوئه وإذا تكـلموا خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون النظر إليه تعظيما له وإنه عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها.

المعجم الكبير، الطبراني: ١٢/٢٠. والسيرة النبوية، ابن كثير: ٣ / ٣٣٢.

(٢) يشـير السيد الشهيد رضي الله عنه إلى يوم وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فعن الزهري عن عبيدالله ←

المسألة بهذه الدرجة من العنف، الموانع بهذه الدرجة من الشمول.

يجب أن نعرف أنّ علياً عليه السلام لم يكن رئيساً حينما فشل، ولم يكن قاصراً حينما فشل، كل هذا لم يكن، لأن كل هذا غير محتمل في شخص هو قمة النشاط وقمة الحيوية، وقمة الحرص، ومع هذا كله النبي صلى الله عليه وآله واجه هذه المشاكل والصعاب تجاه تشريع هذا الحكم، إذن فموقف الإمام عليه السلام كان حرجاً غاية الحرج تجاه هذه الموانع، أما ما هي صيغة هذه الموانع ؟

هذه الموانع تحتاج إلى دراسة مفصلة لنفسية المجتمع الإسلامي في أيام الرسول صلى الله عليه وآله. فهنالك عوامل كثيرة لها دخل في نسج خيوط هذه الموانع.

يمكن أن نذكر بعضها على سبيل المثال :

↩ بن عبد الله عن ابن عباس قال: لما حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب، فقال رسول الله صلى الله عليه" وسلّم: (هلم اكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده أبداً) فقال عمر إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله، فاجتمعوا في البيت، فقال قوم قرّبوا يكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده أبدا، وقال قوم ما قال عمر، فلما أكثروا اللغط والاختلاف عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم قوموا.

السنن الكبرى، النسائي/المتوفي ٣٠٢هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ: ٤٣٣/٣، وشرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٦ / ٥١.

العامل الأول: التفكير اللاإسلامي[1] من ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام إن رسول الله صلى الله عليه وآله جعل علياً بعده حاكماً على المسلمين، وإماماً للمسلمين ككل، المسلمين

ولنتكلم عن المسلمين المؤمنين بالله ورسوله حقاً، هؤلاء المسلمون المؤمنون بالله وبرسوله حقاً، قلنا: إنّهم لم يكونوا من الواعين بدرجة كبيرة، نعم كان عندهم طاقة حرارية تصل إلى درجة الجهاد، إلى الموت في سبيل الله، هؤلاء الّذين قاموا بعد النبي صلى الله عليه وآله ضد علي بن أبي طالب عليه السلام، أنا لا أشك بأنهم مرّت عليهم بعض اللحظات كانوا على استعداد لأن يضحوا بأنفسهم

---

(١) النص التاريخي: روى الطبري بسنده عن ابن عباس أن عمر قال له: يا بن عباس أتدري ما منع قومكم منكم بعد محمد؟ فكرهت أن أجيبه فقلت: إن لم أكن أدري فأمير المؤمنين يدريني، فقال عمر: كرهوا أن يجمعوا لكم النبوّة والخلافة فتبجحوا على قومكم بجحا بجحا، فاختارت قريش لأنفسها فأصابت ووفقت، فقلت: يا أمير المؤمنين إن تأذن لي في كلام وتمط عني الغضب تكلمت، فقال: تكلم يا بن عباس، فقلت: أمّا قولك يا أمير المؤمنين اختارت قريش لأنفسها فأصابت ووفقت فلو أن قريشا اختارت لأنفسها حيث اختار الله عز وجل لها لكان الصواب بيدها غير مردود ولا محسود، وأما قولك إنهم كرهوا أن تكون لنا النّبوّة والخلافة فإن الله عز وجل وصف قوما بالكراهية فقال: (ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم).

تاريخ الطبري: ٣ /٢٨٩. المسترشد في الإمامة، ابن جرير الطبري: ٦٨٧.

في سبيل اللّه، وأنا لا أشك أنّ الطاقة الحرارية كانت موجودة عند هؤلاء، سعد بن عبادة الخزرجي[١] مثلاً، هذا الذي عارض علي بن أبي طالب عليه السلام إلى حين، والذي فتح أبواب المعارضة على علي بن أبي طالب إلى حين، سعد هذا كان مثل المسلمين الآخرين يكافح ويجاهد، غاية الأمر لم يكن لديه الوعي، هؤلاء المسلمون المؤمنون باللّه ورسوله صلى الله عليه وآله، لم يكونوا على درجة واحدة من الوعي وكان الكثرة الكاثرة منهم أُناساً يملكون الطاقة الحرارية بدرجة متفاوتة، ولم يكونوا يملكون وعياً، إذن فقد تبادر إلى ذهن عدد كبير من هؤلاء أنّ محمداً صلى الله عليه وآله يفكّر أن يعلي مجد بني هاشم، أن يعلي كيان هذه الأسرة، أن يمد بنفسه بعده فاختار علياً، إختار ابن عمه[٢]، لأجل أن يمثل

---

(١) إن سعداً قد دعا الناس إلى بيعته في سقيفة بني ساعدة، ثم غُلب على أمره فبُويع أبو بكر.

(٢) ولما شاع قوله صلى الله عليه وآله: ((من كنت مولاه فعلي مولاه))ـ بعد نزول آية التبليغ ـ في سائر الأمصار وطار في جميع البلدان بلغ الحارث بن النعمان الفهري، فقدم المدينة، فأناخ راحلته عند باب المسجد، فدخل والنبي صلى الله عليه وآله جالس وحوله أصحابه، فجاء حتى جثا بين يديه ثم قال: يا محمد أمرتنا أن نشهد أن لا إله إلا الله وانك رسول الله، فقبلنا ذلك منك، وإنك أمرتنا أن نصلي في اليوم والليلة خمس صلوات ونصوم شهر رمضان ونزك أموالنا ونحج البيت فقبلنا ذلك منك، ثم لم ترض بهذا حتى رفعت بضبعي ابن عمك؛ ففضلته، وقلت من كنت مولاه فعلي مولاه! ! فهذا شيء من الله أو منك؟

علي بن أبي طالب أمجاد أسرته، هذا التفكير كان تفكيراً منسجماً مع الوضع النفسي الذي يعيشه أكثر المسلمين كراسب الجاهلية، كراسب عرفوه ما قبل الإسلام، ولم يستطيعوا أن يتحملوا تحملاً تاماً، أبعاد الرسالة، ألسنا نعلم ماذا صنعوا في غزوة حنين، حينما وزّع رسول اللّه صلى الله عليه وآله المال، ووزع الغنائم على قريش ولم يعط الأنصار، وزّعه على قريش على أهل مكة، ولم يعط أهل المدينة، ماذا صنع هؤلاء ماذا صنع أهل المدينة، أخذ بعضهم يقول لبعض، إنّ محمداً لقي عشيرته فنسينا، لقي قريشاً ونسي الأوس والخزرج، هاتين القبيلتين اللتين قدّمتا ما قدّمتا للإسلام، إذن فكان هؤلاء على المستوى الذي تصوروا في هذا القائد الرائد العظيم، الذي كان يعيش الرسالة، آثر قبيلته بمال، فكيف لا يتصورون أنه يؤثر عشيرته بحكم، بزعامة، بقيادة على مرّ الزمن

فاحمرت عينا رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: والله الذي لا إله إلا هو إنه من الله ليس مني! قالها ثلاثاً؛ فقام الحارث وهو يقول: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك وفي رواية إن كان ما يقول محمد حقاً فأرسل علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم، فوالله مابلغ باب المسجد حتى رماه الله بحجر من السماء فوقع على رأسه فخرج من دبره، فمات.

شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ٢/٣٨٢ – ٣٨٣.

وفي جامع البيان للطبري٩/٣٠٧، نزلت في النضر بن الحرث وليس النعمان بن الحرث، بعد أن قال : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء.

وعلى مرّ التاريخ.

هذا التصور كان يصل إلى هذا المستوى المتدني من الوعي، هؤلاء لم يكونوا قد أدركوا بعد أبعاد محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولم يكونوا قد أدركوا أبعاد الرسالة الإسلامية، وكانوا بين حين وحين يطفو على أنفسهم الراسب الجاهلي وينظرون إلى النبي من منظار ذلك الراسب الجاهلي، ينظرون إليه كشخص يرتبط بالعرب ارتباطاً قومياً، ويرتبط بعشيرته ارتباطاً قبلياً ويرتبط بابن عمه إرتباطاً رحمياً، كل هذه الارتباطات كانت تراود أذهانهم بين حين وحين، وأنا أظن ظناً كبيراً أنّ علي بن أبي طالب عليه السلام لو لم يكن ابن عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لو أن الصدفة لم تشأ أن يكون الرجل الثاني في الإسلام، لو لم يكن من أسرة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، لو كان من عدي، أو لو كان من تميم، لو كان من أسرة أخرى، لكان لهذه الولاية مفعولاً كبيراً جداً، لقضي على هذا التفكير اللاإسلامي...

لكن ما هي حيلة محمد إذا كان الرجل الثاني في الإسلام ابن عمه، لم يكن له حيلة في أن يختار شخصاً دون شخص آخر، وإنما كان عليه أن يختار من اختاره الله سبحانه وتعالى، ومن اختاره اللّه هو الرجل الثاني في الإسلام في تاريخ الرسالة، في كيان الرسالة وفي الجهاد في سبيل الرسالة، وفي الاضطهاد في سبيل الرسالة، كان من باب الاتفاق ابن عم محمد صلى الله عليه وآله وسلم. هذا الاتفاق فتح باب المشاغبة على هؤلاء. هذا هو العامل الأول، هذا العامل يعيش في نفوس المؤمنين باللّه تعالى وبرسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

العامل الثاني: عامل يعيش في نفوس المنافقين، والمنافقون كثيرون في المجتمع الإسلامي، خاصة وأن المجتمع الإسلامي كان قد انفتح قبيل وفاة رسول اللّه صلى الله عليه وآله انفتاحاً جديداً على مكة، وكانت قد دخلت مكة أيضاً داخل هذا المجتمع، ودخلت قبائل كثيرة في الإسلام قبيل وفاة رسول اللّه صلى الله عليه وآله. وكان هناك أُناس كثيرون قد دخلوا الإسلام نفاقاً، ودخلوه طمعاً، ودخلوه حرصاً على الجاه، ودخلوه إستسلاماً للأمر الواقع، لأن هذا مُسلّم، لأن محمداً فرض زعامته على العرب. لم يكن شخص يفكر في أن تزعزع هذه الزعامة إذن فلابدّ من الاعتراف بهذه الزعامة.

دخل كثير من الناس بهذه العقلية. وهؤلاء كانوا يدركون كل الإدراك أنّ علي بن أبي طالب عليه السلام هو الرجل الثاني للنبي صلى الله عليه وآله وهو الاستمرار الصلب العنيد للرسالة[1]،

---

(١) أخرج أحمد في " المسند " والخوارزمي في " المناقب "، وهما، عن عبد الله بن حنطب قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: لتنتهين يا بني وليعة أو لابعثن إليكم رجلا كنفسي، يمضي فيكم أمري، يقتل المقاتلة، ويسبي الذرية. فالتفت إلى علي، فأخذ بيده فقال: هو ذا. ينابيع المودة لذوي القربى، القندوزي: ٤٢/١. والشواهد المروية عن النبي صلى الله عليه وآله كثيرة، ومنها أيضاً (فلما دخلوا مكة كثرت شكايتهم من أمير المؤمنين عليه السلام، فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله مناديه فنادى في الناس: (ارفعوا ألسنتكم عن علي بن أبي طالب ↩

لا الاستمرار الرخو المتميع لها(١)

فإنه خشن في ذات الله عز وجل، غير مداهن في دينه) فكف الناس عن ذكره.

الإرشاد، الشيخ المفيد: ١ /١٧٣.

(١) إن هذه الرؤية حملها جواب الإمام عليه السلام على أحد رسائل معاوية، النص: فكتب - أي أمير المؤمنين عليه السلام: " أما بعد، فإني أظنك أن لو علمت أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت وعلمنا، لم يجنها بعضنا على بعض، وإنا وإن كنا قد غُلبنا على عقولنا فقد بقي لنا منها ما نندم به على ما مضى، ونصلح به ما بقي. وقد كنت سألتك الشام على ألا يلزمني لك طاعة ولا بيعة، فأبيت ذلك عليَّ، فأعطاني الله ما منعت، وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس، فإني لا أرجو من البقاء إلا ما ترجو، ولا أخاف من الموت إلا ما تخاف... والسلام " فلما انتهى كتاب معاوية إلى علي قرأه، ثم قال: العجب لمعاوية وكتابه. ثم دعا عليٌّ عبيدَ الله بن أبي رافع كاتبه، فقال: اكتب إلى معاوية: " أما بعد فقد جاءني كتابك، تذكر أنك لو علمت وعلمنا أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنها بعضنا على بعض. فإنا وإياك منها في غاية لم تبلغها. وإني لو قُتلت في ذات الله وحييت، ثم قُتلت ثم حييت سبعين مرة، لم أرجع عن الشدة في ذات الله، والجهاد لأعداء الله. وأما قولك إنه قد بقي من عقولنا ما نندم به على ما مضى، فإني ما نقصت عقلي، ولا ندمت على فعلي... وأما استواؤنا في الخوف والرجاء، فإنك لست أمضى على الشك مني على اليقين.

وقعة صفين، ابن مزاحم المنقري: ٤٧٠.. والمناقب، الموفق الخوارزمي : ٢٥٦. وشرح

وهؤلاء كانوا مشدودين إلى أطماع وإلى مصالح كانت تتطلب أن تستمر الرسالة ويستمر الإسلام؛ لأن الإسلام إذا انطفأ معنى هذا انه سوف تنطفئ هذه الحركة القوية التي بنت دولة ومجتمعاً والتي يمكن أن تطبق على كنوز دولة كسرى وقيصر وتضم أموال الأرض كلها إلى هذه الأمة، كان من المصلحة أن تستمر هذه الحركة، لكن كان من المصلحة أن لا تستمر بتلك الدرجة من الصلابة والجدية، بل أن تستمر بدرجة رخوة هينة لينة، كما وصف الإمام الصادق عليه السلام حينما سئل، كيف نجح أبو بكر وعمر بقيادة المسلمين وفشل عثمان في هذه القيادة، قال: لأنّ علياً أرادها حقاً محضاً، وعثمان أرادها باطلاً محضاً، وأبو بكر وعمر خلطا حقاً وباطلاً.

كان لابدّ وأنْ تستمر الرسالة، لكن تستمر بشكل لين هين، بشكل ينفتح على مطامح أبي سفيان، بشكل يمكن أن يتعامل معه أبو سفيان الذي جاء إلى علي عليه السلام في لحظة قاسية تلك اللحظة التي يشعر فيها الإنسان عادة بقدر كبير من المظلومية حيث يرى كيف أنّ الناس قد تنكروا لكل أمجاده وأنكروا كل جهاده حتى أخوته لرسول اللّه صلى الله عليه وآله[(١)] في هذه اللحظة، جاءه أبو

نهج البلاغة، ابن أبي الحديد : ١٥ / ١٢٣.

(١) النص: (إن أبا بكر رضي الله عنه تفقد قوما تخلفوا عن بيعته عند علي كرم الله وجهه، فبعث إليهم عمر، فجاء فناداهم وهم في دار علي، فأبوا أن يخرجوا فدعا بالحطب

﴿وقال: والذي نفس عمر بيده. لتخرجن أو لأحرقنها على من فيها، فقيل لـه: يا أبا حفص، إن فيها فاطمة ؟ فقال: وإن، فخرجوا فبايعوا إلا علياً فإنه زعم أنه قال: حلفت أن لا أخرج ولا أضع ثوبي على عاتقي حتى أجمع القرآن، فوقفت فاطمة رضي الله عنها على بابها، فقالت : لا عهد لي بقوم حضروا أسوأ محضر منكم، تركتم رسول الله صلى الله عليه وسلم جنازة بين أيدينا، وقطعتم أمركم بينكم، لم تستأمرونا، ولم تردوا لنا حقا. فأتى عمر أبا بكر، فقال لـه: ألا تأخذ هذا المتخلف عنك بالبيعة؟ فقال: أبو بكر لقنفذ وهو مولى لـه: اذهب فادع لي علياً، قال: فذهب إلى علي فقال له: ما حاجتك؟ فقال: يدعوك خليفة رسول الله، فقال علي: لسريع ما كذبتم على رسول الله. فرجع فأبلغ الرسالة، قال: فبكى أبو بكر طويلاً. فقال عمر الثانية: لا تمهل هذا المتخلف عنك بالبيعة، فقال أبو بكر رضي الله عنه لقنفذ: عد إليه، فقل لـه: خليفة رسول الله يدعوك لتبايع، فجاءه قنفذ، فأدى ما أمر به، فرفع علي صوته فقال: سبحان الله ؟ لقد ادعى ما ليس لـه، فرجع قنفذ، فأبلغ الرسالة، فبكى أبو بكر طويلا، ثم قام عمر، فمشى معه جماعة، حتى أتوا باب فاطمة، فدقوا الباب، فلما سمعت أصواتهم نادت بأعلى صوتها: يا أبت يا رسول الله، ماذا لقينا بعدك من ابن الخطاب وابن أبي قحافة، فلما سمع القوم صوتها وبكاءها، انصرفوا باكين، وكادت قلوبهم تنصدع، وأكبادهم تنفطر، وبقي عمر ومعه قوم، فأخرجوا علياً، فمضوا به إلى أبي بكر، فقالوا لـه: بايع، فقال: إن أنا لم أفعل فمه ؟ قالوا: إذا والله الذي لا إله إلا هو نضرب عنقك، فقال: إذا تقتلون عبد الله وأخا رسوله، قال عمر: أما عبد الله فنعم، وأما﴾

سفيان[١] يعرض عليه القيادة بين يديه، يعرض عليه أنْ يُزعّمه في سبيل أن يكون هو اليد اليمنى للدولة الإسلامية، يأبى علي عليه السلام ذلك، يأبى وهو مظلوم وهو متآمر عليه وهو مضطهد حقه ثم يذهب أبو سفيان، أو بالأحرى نقول: أنّ أبا بكر وعمر يذهبان إلى أبي سفيان[٢]، ويوليان أولاد أبي سفيان

أخو رسوله فلا.

الإمامة والسياسة: ١/٣٠ـ٣١. وشرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٢ /٦٠.

(١) النص التاريخي، روى الطبري بسنده عن عوانة قال: لما اجتمع الناس على بيعة أبى بكر أقبل أبو سفيان وهو يقول: والله إني لأرى عجاجة لا يطفئها إلا دم يا آل عبد مناف فيما أبو بكر من أموركم أين المستضعفان أين الأذلان علي والعباس وقال أبا حسن ابسط يدك حتى أبايعك فأبى علي عليه فجعل يتمثل بشعر المتلمس:

ولن يقيم على خسف يراد به ... إلا الأذلان عير الحي والوتد

هذا على الخسف معكوس برمته ... وذا يشج فلا يبكى له أحد

قال فزجره علي وقال: إنك والله ما أردت بهذا إلا الفِتنة وإنك والله طال ما بغيت الإسلام شرا لا حاجة لنا في نصيحتك.

تاريخ الطبري : ٢ / ٤٤٩.

(٢) النص التاريخي، روى الطبري بسنده عن ثابت قال: لما استخلف أبو بكر قال أبو سفيان مالنا ولأبي فصيل إنما هي بنو عبد مناف قال فقيل له إنه قد ولى ابنك قال: وصلته رحم. تاريخ الطبري: ٢/٤٤٩. وروى جعفر بن سليمان: أن أبا سفيان قال

على بلاد المسلمين وهذا هو الاستمرار الهين الذي كانت مصالح المنافقين تطلبه وقتئذ وبهذا كانت قيادة علي بن أبي طالب عليه السلام وزعامته تمثل خطراً على هذه المصالح فكان لابدّ في سبيل الحفاظ عليها من قبل المنافقين هؤلاء أن يخلقوا في سبيلها العراقيل ويقيموا الحواجز والموانع.

العامل الثالث: وهو مرتبط بمراحل نفسية خلقية، علي بن أبي طالب عليه السلام كان يمثل باستمرار تحدياً بوجوده التكويني، كان يمثل تحدياً للصادقين من الصحابة لا للمنحرفين من الصحابة، كان يمثل تحدياً بجهاده، بصرامته باستبساله، بشبابه، بكل هذه الأمور، كان يضرب الرقم القياسي الذي لا يمكن أن يحلم به أي صحابي آخر، كل هؤلاء كانوا يودون أن يقدموا خدمة للإسلام.

أتكلم عن الصحابة الصالحين. الصحابة الصالحون كانوا يودون أن يقدموا خدمة للإسلام، ولكن علي بن أبي طالب عليه السلام كان يفوقهم بدرجة كبيرة، بدرجة هائلة، علي بن أبي طالب عليه السلام بالرغم من التفاوت الكبير في العمر

↵ شيئا آخر لم تحفظه الرواة فلما قدم المدينة قال: إني لأرى عجاجة لا يطفئها إلا الدم! قال: فكلم عمر أبا بكر، فقال: إن أبا سفيان قد قدم، وإنا لا نأمن شره، فدع له ما في يده، فتركه فرضى. الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، دار الفكر، بيروت، طبعة جديدة ومصححة، ١٤١٥هـ: ٦/ ٣٧٠_٣٧١.

بينه وبين شيوخ الصحابة، من أمثال أبي بكر وعمر وغيرهما، ممن عاش بعد النبي صلى الله عليه وآله بالرغم من هذا، أفلس أبو بكر وأفلس عمر، وأفلس هؤلاء كلهم، أمام رسوخ علي عليه السلام الذي كان يضرب بسيفين[١]

معاوية يقول في كتابه لمحمد بن أبي بكر بأنّ علياً كان في أيام النبي صلى الله عليه وآله النجم في السماء لا يطاول[٢]، الأمة الإسلامية كانت تنظر إليه كالنجم في السماء بالرغم من أنّ العدد الكبير منها لم يكن يحبونه، كان علي مجاهداً بدرجة لا يمكن أن يقاس به شخص آخر، كان صامداً زاهداً، بدرجة لا يمكن أن يقاس به شخص آخر، وهكذا في كل كمالات الرسالة الإسلامية، إذن فعلي كان تحدياً، كان إستفزازاً للآخرين، وهؤلاء الآخرون ليسوا كلهم يعيشون الرسالة فقط، بل جملة منهم يعيشون أنفسهم أيضاً، يعيشون أنانيتهم أيضاً، وحينما يشعرون بهذا الاستفزاز التكويني من شخص هذا الرجل العظيم الذي كان يتحداهم وهو لا يقصد أن تحداهم، بل يقصد أن يهديهم وان يبني لهم مجدهم، يبني لهم رسالتهم وعقيدتهم، لكن ماذا يصنع بأُناس

---

(١) ورد ذلك في خطبة الإمام السجاد عليه السلام في مجلس يزيد: ((أنا ابن من ضرب بين يدي رسول الله بسيفين، وطعن برمحين، وهاجر الهجرتين، وبايع البيعتين، وقاتل ببدر وحنين)). بحار الأنوار، العلامة المجلسي : ٥٤ / ١٣٨.

(٢) سبق تخريج جواب معاوية لمحمد بن أبي بكر.

يعيشون أنفسهم.

فهؤلاء الناس كانوا يفكرون في أنّ هذا تحد واستفزاز لهم. كان رد الفعل لهذا مشاعر ضخمة جداً ضد علي بن أبي طالب عليه السلام.

يكفي مثال واحد ليتضح هذا الموقف. النبي صلى الله عليه وآله يسافر من المدينة إلى غزوة من الغزوات فيخلف علياً مكانه أميراً على المدينة[١]، فهل تركه الناس، لا إنما أخذوا يشيعون بالرغم من أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله في المرات السابقة كان يستخلف أحد الأنصار على المدينة غير علي، فكانوا يشيعون، بأنه ترك علياً لأنه لا يصلح للحرب؟ علي بن أبي طالب هذا الرجل الصلب، العنيد، المترفع، هذا الرجل الذي يقول: لا يزيدني إقبال الناس علي ولا ينقصني

---

(١) لما أراد صلى الله عليه وآله الخروج إلى غزوة تبوك استخلف أمير المؤمنين عليه السلام في أهله وولده وأزواجه ومهاجره وقال له: (يا علي إن المدينة لا تصلح إلا بي أو بك) وبقي علي عليه السلام في المدينة وخرج الرسول صلى الله عليه وآله إلى الغزوة، ولكن المنافقين أخذوا يرجفون بعلي، فلما بلغ أرجافهم به لحق بالنبي وقال له: يا رسول الله إن المنافقين يزعمون أنك خلفتني استثقالا ومقتا ". فقال له النبي صلى الله عليه وآله: إرجع يا أخي إلى مكانك، فإن المدينة لا تصلح إلا بي أو بك فأنت خليفتي في أهل بيتي ودار هجرتي وقومي، أما ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي. وتبوك موضع بين المدينة والشام.

رسائل المرتضى، الشريف المرتضى: ٣/ ٢٠، والسنن الكبرى، النسائي: ٥/ ٤٤، ح٨١٤١.

إدبارهم عني[١].

هـذا الرجل الصلب استفز الأعصاب إلى درجة انه اضطر أن يلحق بالنبي صلى الله عليه وآله فيسأله النبي صلى الله عليه وآله عن سبب تركه المدينة، فيقول: الناس يقولون بأنك طردتني لأني لا أصلح للحرب.

يمكن أن تنكر أية فضيلة من فضائل علي بن أبي طالب عليه السلام، ولكن هل يمكـن أن يـنكر أنّ علي بن أبي طالب لا يصلح للحرب؟ انظروا الحقد كيف وصل عند هؤلاء المسلمين بأن اخذوا يفسرون إمارة علي بن أبي طالب عليه السلام على المدينة بأنه لا يصلح للحرب، فيقول رسول اللّه صلى الله عليه وآله كلمته المشهورة، إنّ علـياً مـني بمنزلة هارون من موسى، انه لا ينبغي أن اخرج من المدينة إلا وأنت فيها إثباتاً لوجودي ولتحمي المدينة[٢] هذا الموقف من هؤلاء لا يمكن أن يُفسر

---

(١) الـنص : وأمـا ما سألتني أن اكتب إليك برأيي فيما أنا فيه فإن رأيي جهاد المحلين حتى ألقـى الله، لا يـزيدني كثرة الناس معي عزة، ولا تفرقهم عني وحشة، لاني محق والله مع الحق، ووالله ما اكره الموت على الحق، وما الخير كله بعد الموت إلا لمن كان محقا.

الغارات، إبراهيم بن محمد الثقفي : ٢ / ٤٣٣.

(٢) الـنص المروي عن النبي صلى الله عليه وآله : ((إنه لا ينبغي لي أن أذهب إلا وأنت خليفتي)). كتاب السـنة، عمرو الضحاك: ٥٥١. المعجم الكبير، الطبراني: ٧٨/١٢. المناقب، الخوارزمي: ١٣، وكـنز العمـال، المـتقي الهـندي: ٦٠٦/١١، ح٣٢٩٣١. باختلاف في الألفاظ وتعدد طرق النقل.

إلا على أساس هذا العامل النفسي هذا العامل الثالث.

وهناك عوامل أخرى هذه العوامل كلها اشتركت في سبيل أن تجعل هناك موانع قوية جداً اصطدم بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم عند تشريع الحكم، واصطدم بها علي بن أبي طالب عند محاولة مقابلة الانحراف وتعديل التجربة وإرجاعها إلى وضعها الطبيعي، ولهذا فشل في زعزعة الوضع القائم بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

❖ الانحراف ووعي الأمة ❖

قلنا إنّه حينما وجد الانحراف بعد وفاة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله لم تكن الأمة على مستوى المراقبة بوصفها المجموعي[(١)]، لم تكن قادرة على ضمان عدم وقوع هذا الحاكم المنحرف بطبيعته في سلوك منحرف، لأن كون الأمة على هذا المستوى من الضمان، إنما يكون فيما إذا وصلت الأمة بوصفها المجموعي إلى درجة العصمة، أي إذا أصبحت الأمة كأمة تعيش الإسلام عيشاً كاملاً عميقاً،

---

(١) إن حوارات المتنافسين (سلطان محمد) وشجاراتهم، وما جرى يوم السقيفة والرسول صلى الله عليه وآله لم يزل مسجى، يؤكد رؤية السيد الشهيد رضي الله عنه هذه. النصوص: فقام الحباب بن المنذر رضي الله عنه، فقال: يا معشر الأنصار: أملكوا على أيديكم، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه ـ أي عمر وأبو بكر وأبو عبيدة ـ فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر، فإن أبوا عليكم ما سألتم فأجلوهم عن بلادكم، وتولوا هذا الأمر عليهم، فأنتم والله أولى بهذا الأمر منهم، فإنه دان لهذا الأمر ما لم يكن يدين له بأسيافنا، أما والله إن شئتم لنعيدنها جذعة، والله لا يرد علي أحد ما أقول إلا حطمت أنفه بالسيف.

الإمامة والسياسة، ابن قتيبة الدينوري، تحقيق الشيري: ١ /٢٥، ومن أقوال أسيد بن حضير ـ وكان أحد النقباء ـ والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيبا أبدا فقوموا فبايعوا أبا بكر.

تاريخ اليعقوبي : ١٢٤/٢. تاريخ الطبري: ٤٥٨/٢. وقد قال عمر: اقتلوا سعداً، قتل الله سعداً.

مستوعباً مستنيراً منعطفاً على مختلف مجالات حياتها، هذا لم يكن؛ بالرغم من أنّ الأمة الإسلامية وقتئذ كانت تشكل أفضل نموذج للامة في تاريخ الإنسان على الإطلاق. يعني نحن الآن لا نعرف في تاريخ الإنسان أمة بلغت في مناقبها وفضائلها، وقوة إرادتها وشجاعتها وإيمانها وصبرها وجلالتها وتضحيتها ما بلغته هذه الأمة العظيمة حينما خلفها رسول اللّه صلى الله عليه وآله.

الذي يقرأ التاريخ، تاريخ هؤلاء الناس الّذين عاشوا مع النبي صلى الله عليه وآله تبهره أنوارهم في المجال الروحي والفكري والنفسي، في مجال الجهاد والتضحية في سبيل العقيدة.

ولكن هذه الأنوار التي تظهر للمطالع لم تكن نتيجة وضع معمّق تعيشه الأمة في أبعادها الفكرية والنفسية، بل كانت نتيجة طاقة حرارية هائلة اكتسبتها هذه الأمة بإشعاع النبي صلى الله عليه وآله.

❖ الفرق بين الوعي والطاقة الحرارية ❖

هذه الأمة التي عاشت مع أكمل قائد للبشرية، اكتسبت عن طريق الإشعاع من هذا القائد، درجة كبيرة من الطاقة الحرارية صنعت المعاجز، وصنعت البطولات والتضحيات التي يقل نظيرها في تاريخ الإنسان.

ولا أريد أن أتكلم عن هؤلاء الناس في أيام رسول اللّه صلى الله عليه وآله وإيثار كل واحد منهم للإسلام والعقيدة، إيثاره بكل وجوده وطاقاته بكل إمكانياته وقدراته. هذه النماذج الرفيعة إنما هي نتاج هذه الطاقة الحرارية التي جعلت

الأمـة الإسـلامية تعـيش أيـام رسـول اللّه صلى الله عليه وآله محنة العقيدة والصبر وتتحمل مسـؤولية هـذه العقـيدة بعـد وفاتـه صلى الله عليه وآله وتحمـل لـواء الإسلام بكل شجاعة وبطولة إلى مختلف أرجاء الأرض هذه هي طاقة حرارية وليست وعياً، لذا يجب أن نفرق ونميز بين الطاقة الحرارية وبين الوعي:

الوعي:

عـبارة عـن الفهـم الفعّـال، الإيجـابي المحقـق للإسلام في نفس الأمة الذي يتأصل ويستأصل جذور المفاهيم الجاهلية السابقة استئصالاً كاملاً.

ويحـوّل تمـام مـرافق الإنسـان مـن مـرافق الفكر الجاهلي إلى مرافق الفكر الإسلامي والذوق الإسلامي.

الطاقة الحرارية:

أما الطاقة الحرارية :

فهي عبارة عن توهج عاطفي حار بشعور قد يبلغ في مظاهره نفس ما يبلغه الوعـي في ظواهـره، بحيـث يختلف الأمر فلا يميز بين الأمة التي تحمل مثل هذه الطاقة الحرارية وبين أمة تتمتع بذلك الوعي إلا بعد التبصّر.

إلا أن الفـرق بـين الأمة الواعية والأمة التي تحمل الطاقة الحرارية كبير، فإن الطاقـة الحـرارية بطبيعـتها تتـناقص بالـتدريج بالإبتعاد عن مركز هذه الطاقة الحرارية.

والمركـز الـذي كـان يمّون الأمة بهذه الطاقة الحرارية هو شخص النبي صلى الله عليه وآله

القائد، فكان طبيعياً أن تصبح طاقة الأمة بعده في تناقص مستمر، حال الشخص الذي يتزوّد من الطاقة الحرارية للشمس والنار، ثم يبتعد عنهما، فإن هذه الحالة تتناقص عنده باستمرار.

هكذا كان، وتاريخ الإسلام يثبت أنّ الأمة الإسلامية كانت في حالة تناقص مستمر من هذه الطاقة الحرارية التي خلّفها النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أمته حين وفاته بخلاف الوعي، فإن الوعي بذلك المعنى المركز الشامل المستأصل لجذور ما قبله ذلك الوعي من طبيعته الثبات والاستقرار، بل التعمّق على مرّ الزمن؛ لأنه بطبيعته يمتد ويخلق له بالتدريج خيالات جديدة وفقاً لخط العمل وخط الأحداث، فالأمة الواعية هي أمة تسير في طريق التعمّق في وعيها، والأمة التي تحمل طاقة حرارية هائلة هي: الأمة التي لو بقيت وحدها مع هذه الطاقة الحرارية فسوف تتناقص طاقتها باستمرار.

وهناك فرق آخر: هو أنّ الوعي لا تهزه الانفعالات، يصمد أمامها، أما الطاقة الحرارية فتهزها الانفعالات، الانفعال يفجر المشاعر الباطنية المستترة، يبرز ما وراء الستار، ما وراء سطح النفس كأن الطاقة الحرارية طاقة تبرز على سطح النفس البشرية، وأما الوعي فهو شيء يثبت في أعماق هذه النفس البشرية ففي حالة الانفعال ـ سواء كان الانفعال انفعالاً معاكساً يعني حزناً وألماً أو كان انفعالاً موافقاً أي فرحاً ولذة وانتصاراً في كلا الحالتين ـ سوف يتفجر ما وراء الستار ويبرز ما كان كامناً وراء هذه الطاقة الحرارية في الأمة

المزودة بهذه الطاقة فقط، أما الأمة الواعية فوعيها يجمد ويتقوى على مرّ الزمن، فكلما مرّ بها انفعال جديد أكدت شخصيتها الواعية في مقابل هذا الانفعال وصبغته بما يتطلبه وعيها من موقف.

هذا هو الفرق بين الوعي والطاقة الحرارية.

نحن ندّعي أنّ الأمة الإسلامية العظيمة التي خلفها القائد الأعظم ﷺ والتي ضربت أعظم مثل للكون في تاريخ الإنسان إلى يومنا هذا، هذه الأمة كانت تحمل طاقة حرارية كبيرة ولم تكن تحمل وعياً مستنيراً مجتثاً لأصول الجاهلية فيها.

❖ موقفان معبّران ❖

والدليل على هذا كله واضح من تاريخ الأمة نفسها وكشاهد على ذلك، علينا أن ننظر إلى غزوة حنين، غزوة هوازن بعد فتح مكة، ماذا صنعت هذه الأمة العظيمة بتلك الطاقة الحرارية في لحظة الانفعال، رسول اللّه ﷺ خرج بجيش من الأنصار ومن قريش من أهل مكة فانتصر في معركته وأخذ غنائم كثيرة، وكان قراره توزيع الغنائم كلها جميعاً على من خرج من مسلمي مكة، فوزعها كذلك، ولم يعط مسلمي الأنصار شيئاً منها، هذه لحظة انفعال نفسي، إنّ هؤلاء الأنصار يرون أنفسهم خرجوا مع رسول اللّه ﷺ من المدينة ليفتحوا مكة، وفتحوها وحققوا للأمة اعظم انتصاراتها في حياة النبي ﷺ

وبعد هذا يُدخل النبي صلى الله عليه وآله في الدين أُناساً جدداً يستقلون بتمام الغنائم ويأخذونها. هذه لحظة إنفعال، في هذه اللحظة من لحظات الانفعال لا تكفي الأمة الطاقة الحرارية، بل تحتاج الأمة إلى وعي يثبتها لتستطيع أن تتغلّب على لحظة الانفعال، هل كان مثل هذا الوعي موجوداً... ؟ الجواب : انه لم يكن.

❖ موقف الأنصار ❖

فإن الأنصار اخذوا يثيرون ما بينهم الهمس القائل: بأن محمداً صلى الله عليه وآله لقي أهله وقومه وعشيرته، فنسي أنصاره وأصحابه، هؤلاء الّذين شاركوه في محنته، هؤلاء الّذين ضحوا في سبيله، هؤلاء الّذين قاوموا عشيرته في سبيل دعوته، نسيهم وأهملهم وأعرض عنهم؛ لأنه رأى أحبائه وأولاد عمه رأى عشيرته..(١)

---

(١) روى ابن أبي شيبة بسنده، عن أنس بن مالك قال: أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله من غنائم حنين الأقرع بن حابس مائة من الإبل وعيينة بن حصن مائة من الإبل، فقال: ناس من الأنصار: يعطي رسول الله غنائما ناسا تقطر سيوفنا من دمائهم أو سيوفهم من دمائنا، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وآله، فأرسل إليهم فجاءوا فقال لهم: (هل فيكم غيركم ؟ قالوا : لا، إلا ابن اختنا: قال : ابن أخت القوم منهم، فقال: قلتم كذا وكذا، أما ترضون أن يذهب الناس بالشاء والبعير وتذهبون بمحمد إلى دياركم، قالوا : بلى يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: الناس دثار والأنصار شعار، الأنصار كرشي ←

انظروا إلى هذا التفسير، يبدو من خلاله الأنصار وكأن المفهوم القبلي متركز في واقع نفوسهم، إلى درجة يبدو معه لهم، أنّ محمداً ﷺ وهو الرجل الأشرف والأكمل، الذي عاشوا معه، وعاشوا تمام مراحل حياته الجهادية، ولم يبد في كل مراحله الجهادية أي لون من الألوان يعطي شعوراً قبلياً قومياً، بالرغم من هذا، وبالرغم من خلوه من أي شعور يشير إلى ذلك. في لحظة الانفعال قالوا، بأنه وقع تحت تأثير العاطفة القبلية والقومية. هذه العاطفة القبلية أو القومية، هذا الترابط القبلي كيف كان قوياً في نفوسهم بحيث إنهم اصطنعوه تفسيراً للموقف في لحظة من لحظات الانفعال، رسول اللّه ﷺ سمع بالهمس، اطّلع على أنّ هناك بذور فِتنة ضده في الأنصار، فأرسل على أبناء الأنصار من الأوس والخزرج، وجمعهم عنده ثم التفت إليهم ﷺ وقال ما معناه: لقد بلغني عن بعضكم هذا الموضوع أنّ محمداً نسي أصحابه وأنصاره حينما التقى بقومه، فسكت الجميع واعترف البعض بهذه المقالة. حينئذ اخذ رسول اللّه ﷺ يعالج الموقف والمشكلة وذلك بإعطاء المزيد من الطاقة الحرارية، لأن هذه المشكلة ذات حدين، حد آني وحد المدى الطويل، الحد على المدى الطويل يجب أن يعالج عن طريق التوعية على الخط الطويل، وهذا

وعيبتي، ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار).

المصنف، ابن أبي شيبة الكوفي: ٨ / ٥٥٣.

ما كان يمارسه صلى الله عليه وآله، والمشكلة بحدها الآني يجب أن تعالج أيضاً معالجة آنية، والمعالجة الآنية لا تكون إلا عن طريق إعطاء مزيد من هذه الطاقة الحرارية للسيطرة على لحظة الانفعال، ماذا قال صلى الله عليه وآله؟ كيف ألهب عواطفهم، قال لهم: ألا ترضون أن يذهب أهل مكة إلى بلادهم بمجموعة من الأموال الزائفة، وأنتم ترجعون إلى بلادكم بمحمد صلى الله عليه وآله، برسول الله صلى الله عليه وآله.

هذه كانت دفعة حرارية حولت الموقف في لحظة حيث أخذ هؤلاء الأوس والخزرج يبكون أمام رسول الله صلى الله عليه وآله ويستغفرون ويعلنون ولاءهم واستعدادهم وتعلقهم به، أراد رسول الله صلى الله عليه وآله أن يعمّق هذا الموقف العاطفي أكثر فعندما سكن بكاؤهم وهدأت عواطفهم قال لهم: ألا تقولون لي مقابل هذا، ثم أخذ يترجم بعض الأحاسيس المستترة في نفوسهم حتى يهيج عواطفهم تجاهه، ويتيح لذلك المجلس جواً عاطفياً وروحياً، بعد ذلك يتغلّب على الموقف إلى آخر القصة.

هذه الأمة التي تحمل الطاقة الحرارية تنهار أمام لحظة انفعال.

❖ موقف المهاجرين ❖

شاهد آخر في لحظة انفعال أخرى أيضاً في تاريخ هذه الأمة.

الأمة بعد وفاة رسول اللّه ﷺ تملكتها لحظة انفعال كبيرة؛ لأن رسول اللّه ﷺ راحل وكان رحيله ﷺ يُشكّل هزة نفسية هائلة بالنسبة إلى الأمة الإسلامية التي لم تكن قد تهيأت بعد ذهنياً وروحياً لأن تفقد رسول اللّه ﷺ ، في هذه اللحظة من الانفعال أيضاً المشاعر التي كانت في الأعماق برزت على السطح.

المهاجرون: هناك تكلمنا عن الأنصار، وهنا نتكلم عن المهاجرين، ماذا قال المهاجرون في لحظة الانفعال... ؟ هؤلاء المهاجرون الّذين هاجروا من بلادهم وتركوا دورهم وعوائلهم وقومهم في سبيل الإسلام، ماذا قالوا، وماذا كان موقفهم ؟

قالوا: إنّ السلطان سلطان قريش، إنّ سلطان محمد سلطان قريش، نحن أولى من بقية العرب، وبقية العرب أولى من بقية المسلمين[١]

---

(١) يشير السيد الشهيد إلى أحداث ووقائع السقيفة، وما قاله عمر للأنصار محتجاً عليهم، النص: ((من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مدل بباطل أو متجانف لاثم أو متورط في هلكة)).

تاريخ الطبري: ٢ / ٤٥٧. وسبق تخريج النص كاملاً. انظر: هذه الأحداث في الإمامة والسياسة: ١/٢١ـ٢٦.

هنا يبرز الشعور القبلي والشعور القومي، في لحظة انفعال، لأن هذه اللحظة من الانفعال تشكل صدمة بالنسبة إلى الطاقة الحرارية، يصبح الإنسان معها في حالة غير طبيعية حيث لا يوجد عنده وعي فينهار أمام تلك الأفكار وهذه العواطف.

إذن لحظة الانفعال هي التي تحدد أنّ هذه الأمة تحمل وعياً، أو طاقة حرارية.

ماذا صنع المسلمون في لحظة الانتصار والاستيلاء على كنوز كسرى وقيصر؟ المسلمون في هذه اللحظة أخذوا يفكرون في الدنيا أخذوا يفكرون في أن يقتنص كل واحد منهم أكبر قدر ممكن من حطامها.

والأزمة التي مرت بعمر بن الخطاب في تحقيق حال الأرض المفتوحة[١] عنوة، وأنّ الأرض المفتوحة عنوة هل تقسم على المقاتلين أو أنها تجعل لبيت المال وتجعل ملكاً عاماً، هذه الأزمة تبيّن كيف أنّ هذه الأمة ترددت في لحظة الانفعال، لأن وجوه المهاجرين والأنصار هؤلاء الأبرار المجاهدون هؤلاء الّذين عاشوا كل حياتهم، الكفاح والجهاد في سبيل اللّه، هؤلاء اخذوا يصرون

---

(١) يقول أبو عبيد في كتاب الأموال: (وأما الحكم الآخر فحكم عمر في السواد وغيره، وذلك أنه جعله فيئاً موقوفاً على المسلمين ما تناسلوا، وهو الرأي الذي أشار به عليه ـ أي على عمر ـ علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

الأموال، ابن سلامة: ٦٥.

إصراراً مستميتاً على أنّ هذه الأرض يجب أن توزّع عليهم، وعلى أنّ كل واحد منهم يجب أن ينال أكبر قدر ممكن من هذه الأرض، إلى أن أفتى علي عليه السلام بأن الأرض للمسلمين جميعاً، لمن هو موجود الآن ولمن يوجد بعد اليوم إلى يوم القيامة[١].

(١) فتوح البلدان، البلاذري: ٢ /٣٢٦.

❖ سيكولوجية وعي ومواقف المهاجرين والأنصار ❖

هـذه اللحظات لحظات انفعال، لحظات الانفعال الإنخذالية، ولحظات الانفعال الانفصالية هي التي تحدد أنّ الأمة هل تحمل طاقة حرارية، أو تحمل وعياً.

إذن كـان وعـي الأمـة يحمل وراءه قدراً كبيراً من الرواسب الفكرية والعاطفية والنفسية التي لم تكن قد استؤصلت بعد.

وربمـا قـيل: إذن مـاذا كان يصنع النبي صلى الله عليه وآله إذا لم تكن قد استؤصلت هذه الرواسب ؟

وجوابـه: إنّ هـذه الرواسـب لـيس مـن السـهل إستئصـالها؛ لأن الدعـوة الإسـلامية الـتي جـاء بهـا النبي صلى الله عليه وآله لم تكن مجرد خطوة إلى الإمام، بل كانت طفرة بين الأرض والسماء.

إذا لاحظـنا حـال العرب قبل الإسلام، ولاحظنا مستوى الرسالة الإسلامية نـرى أنّ المسـتوى هو مستوى الطفرة بين الأرض والسماء لا مستوى الحركات الإصلاحية التي توجد في المجتمعات العالميّة، وهي مستوى الخطوة إلى الإمام أي حـركة إصـلاحية تنـبع مـن الأرض وتنـبع مـن عـبقرية الإنسان بما هو إنسان تـزحف بالمجتمع خطـوة إلى الإمـام لا أكـثر، المجـتمع كان قد وصل إلى الخطوة السـابقة في خـط الـتقدم، وحينـئذٍ مـن الممكـن في زمـن قصـير أن تُستأصل رواسـب الخطـوة السـابقة بعـد الدخول في الخطوة التالية، لأن الفرق الكيفي بـين الخطوة السابقة والثانية مثلاً فرق قليل ضئيل التشابه بين الخطوتين، هذا

التشابه الكبير، أو ذاك التفاوت اليسير، يعطي في المقام إمكانية التحويل، إمكانية اجتثاث تلك الأصول الموروثة من الخطوة السابقة.

لكن ماذا ترون وما تقدرون، عندما جاء النبي صلى الله عليه وآله إلى مجتمع متأخر يعيش الفكرة القبلية بأشد ألوانها ونتائجها وأقسى مفاهيمها وأفكارها، جاء فألقى فيها فكرة المجتمع العالمي الذي لا فرق فيه بين قبيلة وقبيلة، وبين شعب وشعب، وبين أمة وأمة، وقال: إنّ الناس سواسية كأسنان المشط[١]

هذه الطفرة الهائلة بكل ما تضم من تحول فكري وانقلاب اجتماعي وتغيير في المشاعر والمفاهيم والانفعالات، هذه الطفرة لم تكن شيئاً عادياً في حياة الإنسان، وإنما كانت شيئاً هائلاً في حياته. إذن فكيف يمكن أن نتصور أنّ هذا المجتمع الذي طفر بهذه الطفرة مهما كان هذا المجتمع ذكياً وصبوراً على الكفاح ومهما كان قوياً ومؤمناً برسول اللّه صلى الله عليه وآله، كيف يمكن أن نتصور في الحالات الاعتيادية أنه يودع تمام ما كان عنده من الأفكار والمشاعر والانفعالات ويقلب صفحة جديدة كاملة، دون أي اصطحاب لموروثات العهد السابق، هذا غير ممكن إلا في فترة طويلة جداً مع أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله لم يعش

---

(١) النص: ((الناس كأسنان المشط)).

مسند الشهاب، ابن سلامة، ١/١٤٥، ح ١٩٥. كنز العمال، المتقي الهندي: ٩/٣٨، ح ٢٤٨٢٣.

لمجتمع ودولة كمربي تربية كاملة في المدينة إلا عشر سنوات فقط، علماً أنّ جزءاً كبيراً من المجتمع الإسلامي دخل الأحداث بعد وفاة رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ومجتمع مكة الذي دخل في حظيرة الإسلام وقت فتح مكة، وقبل سنتين فقط من وفاة رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم[1].

فكيف يمكن أن نتصور من خلال هذه الأزمنة القصيرة ومع تلك الطفرة الهائلة الكبيرة إثبات تلك الأصول.

فالأصول إذن كان من المنطقي والطبيعي أن لا تبقى وكان من المنطقي والطبيعي أيضاً أن لا تجتث إلا في خلال أمد طويل، وخلال عملية تستمر مع خلفاء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بعده، إلا أنّ هذه العملية قطعت بالانحراف، بتحول خط الخلافة عن علي عليه السلام، وهذا لا يثير استغراباً، أو يسجّل نقطة ضعف بالنسبة إلى عمل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، بل ينسجم مع الرسالة مع عظمتها وجلالتها ومع تخطيط النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

فهذه هي الأمة التي تحمل طاقة حرارية، أمة غير واعية وإذا كانت تحمل هذه الطاقة وهي غير واعية، فليست بقادرة على حماية التجربة الإسلامية وعلى وضع حد لانحراف الحاكم الذي تولّى الحكم بعد رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم، إذ بالصيغة الأصولية التي قلناها، من أنّ الأمة بوصفها المجموعي ليست معصومة

---

(١) كان فتح مكة سنة ثمان للهجرة ووفاة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم سنة إحدى عشر هجرية.

ما دامت تحمل طاقة حرارية فقط، ولا تحمل وعياً مستنيراً يجتث أصول الجاهلية فيها؛ وما دامت كذلك فهي لا تقف في وجه هذا الانحراف.

وقد قلنا: بأنه حتى لو أخذنا الحاكم بغير المفهوم الشيعي مع هذا تبقى طبيعة الأشياء وطبيعة الأحداث تبرهن على أن يكون هذا الحاكم عرضة للانحراف ولتحطيم التجربة الإسلامية، وبالتالي تحطيم جميع الأصول الموضوعية والإطار العام لهذه التجربة الشريفة المباركة. فإن الحاكم أولاً هو جزء عادي من هذه الأمة التي قلنا بأنها لم تكن تحمل وعياً مستنيراً، بل كانت تحمل طاقة حرارية، ولنفرض أنّ هذا الحاكم لم يكن شخصاً متميزاً من هذه الأمة بانحراف خاص وبتخطيط سابق للاستيلاء على الحكم، أو بتصميم على قتل رسول اللّه صلى الله عليه وآله في سبيل الاستيلاء على الحكم، لنفرض أنّ هذا لم يكن، وإنما هو جزء عادي من هذه الأمة تدل سوابقه على ذلك، فمعنى كونه جزءاً من هذه الأمة أنّ الحاكم يستبطن قدراً كبيراً من الأفكار الجاهلية والعواطف الجاهلية والمشاعر الجاهلية، وهذا كان واضحاً من اللحظة الأولى في يوم السقيفة، وفي الحجج التي أوردها المهاجرون ضد الأنصار.

وكان من الواضح أن تقييم الخلافة لم يكن تقييماً إسلامياً، فهذه الرواسب الفكرية والعاطفية للجاهلية سوف تعمل عملها في سلوك هذا الحاكم وفي تخطيطه.

إذا أضفنا إلى هذا أنّ الحاكم كان يبدو منه في حياة الرسول صلى الله عليه وآله نزعة

الاستقلال بالرأي وروح التمرد على التعبد، وهذا كان ظاهراً فيهم وخاصة الخليفة الثاني(١)، حيث كانت تبدو فيه روح التمرد على جملة التعاليم التي جاء بها الرسول ﷺ لأنها تحدث عنده حالة تناقض بين الدعوة الجديدة التي

---

(١) روى ابن كثير بسنده عن الزهري قال: فلما التأم الأمر ـ كان ذلك في صلح الحديبية حيث اتفق الرسول مع سهيل بن عمر مبعوث قريش ـ ولم يبق إلا الكتاب، وثب عمر فأتى أبا بكر، فقال: يا أبا بكر أليس برسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: بلى. قال أو لسنا بالمسلمين ؟ قال: بلى قال أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ قال أبو بكر: يا عمر الزم غرزه فإني أشهد أنه رسول الله، قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله: ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله ألست برسول الله ؟ قال: بلى قال أو لسنا بالمسلمين؟ قال: بلى. قال أو ليسوا بالمشركين ؟ قال: بلى. قال فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال: أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني. وكان عمر رضي الله عنه يقول ما زلت أصوم واتصدق وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمته.

البداية والنهاية، ابن كثير: ٤ /١٩٢. وأن عمر نفسه قد اعترف لابن عباس من أنه قد صد رسول الله عن ذكر علي في مرضه، وذلك حينما قال: ((ولقد أراد رسول الله في مرضه أن يصرح باسمه فمنعت من ذلك إشفاقاً وحيطة على الإسلام)). شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ٢١/١٢. وموارد كثير لاجتهادات الخليفة الثاني مقابل النص والنبي ﷺ. وحملة أسامة دالة أخرى.

دخل فيها وبين مفاهيمه وأفكاره وعواطفه المسبقة التي صاغتها الجاهلية له، هذه النزعة نزعة التمرد، ونزعة التعويل على الرأي لم تكن تشكّل خطراً في الوقت الذي كان هذا إنساناً عادياً [(١)] في المجتمع الإسلامي، وكان الرسول صلى الله عليه وآله هو الحاكم في هذا المجتمع، وأما في الوقت الذي تولى فيه هذا الشخص وأصحابه زمام قيادة التجربة، قيادة هذه السفينة، هذه النزعة أصبحت تشكل خطراً في المقام، خطر أنّ هذا الحاكم سوف يُعبِّر في جملة من قضاياه ومفاهيمه ومشاكله على وفق الموروثات الجاهلية [(٢)]، وعلى وفق رواسبه العاطفية

---

(١) إن النص التاريخي الذي يوضح منزلة أبي بكر ومكانته، هو الحوار الذي دار يوم السقيفة بينه - أي بين أبي بكر - وبين سعد بن عبادة، قال: سعد بن عبادة له: أما والله لو أن لي ما أقدر به على النهوض، لسمعتم مني في أقطارها زئيرا يخرجك أنت وأصحابك، ولألحقتك بقوم كنت فيهم تابعاً غير متبوع، خاملاً غير عزيز)).

الإمامة والسياسة: ٢٦/١.

(٢) إن خطبة أبي بكر التي افتتح بها خلافته تؤكد رؤية السيد الشهيد رضي الله عنه في هذا الاتجاه، النص التاريخي: (وأيم الله ما حرصت عليها ليلا ولا نهارا، ولا سألتها الله قط في سر ولا علانية، ولقد قلدت أمرا عظيما، مالي به طاقة ولا يد، ولوددت أني وجدت أقوى الناس عليه مكاني، فأطيعوني ما أطعت الله، فإذا عصيت فلا طاعة لي عليكم، ثم بكى وقال: اعلموا أيها الناس أني لم أجعل لهذا المكان أن أكون خيركم ولوددت أن بعضكم كفانيه، ولئن أخذتموني بما كان الله يقيم به رسوله من الوحي ←

والنفسية التي خلّفها له آباؤه وأجداده لا التي خلّفها له رسول اللّه ﷺ.

وإذا أضفنا إلى ذلك أيضاً أنّ الحاكم لم يكن قد هُيِّئ أبداً لأن يكون حاكماً، وللحاكم مشاكله الخاصة وسلوكه الخاص وثقافته الخاصة، الحاكم خاصة إذا كان حاكماً في صدر دعوة جديدة ذات حرارة خاصة وثقافة جديدة، فلابدّ وأن يكون هذا الحاكم مُهيأً بصورة مسبقة تهيؤاً ثقافياً وعلمياً وروحياً، لأن يكون حاكماً...

وقصدنا من عدم التهيؤ هو عدم التهيؤ الثقافي والعلمي، بمعنى انه لم يكن قد استوعب الإسلام، عمر نفسه كان يقول: شُغِلنا أيام رسول اللّه ﷺ في الأسواق والحرب. ؟ [1] تأتيه مشكلة فلا يعرف الجواب عنها فيبعث

ما كان ذلك عندي، وما أنا إلا كأحدكم، فإذا رأيتموني قد استقمت فاتبعوني، وإن زغت فقوموني، واعلموا أن لي شيطانا يعتريني). الإمامة والسياسة، ابن قتيبة الدينوري، تحقيق الشيري: ٣٤/١. وقد نقلت الخطبة بألفاظ متفاوتة في المصادر الأخرى، ففي طبقات ابن سعد: ألا وإنما أنا بشر ولست بخير من أحد منكم فراعوني. الطبقات الكبرى: ٣ / ٢١٢.

(١) النص الروائي: روى مسلم بسنده عن ابن جريج قال أخبرني عطاء عن عبيد بن عمير أن أبا موسى الأشعري استأذن على عمر بن الخطاب فلم يؤذن له وكأنه كان مشغولا فرجع أبو موسى ففرغ عمر فقال ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس آذنوا له

للمهاجرين والأنصار ليستفتيهم مرة ثانية وثالثة ورابعة، حينما يتكرر هذا المطلب منه ويقف موقفاً سلبياً تجاه المشاكل من الناحية الدينية، فيعتذر عن ذلك فيقول شغلتنا أيام رسول الله ﷺ الحرب والعمل في الأسواق.

رسول الله ﷺ لم يهيئ هذا الحاكم، نعم رسول الله ﷺ لم يكن قد اشتغل لتهيئة مجموعة من الأمة لتحكم الناس وإنما هيأ قادة معيّنين من أهل البيت عليهم السلام ليحكموا.

كان رسول الله ﷺ يعمل على خطين للتوعية: الخط الأول هو التوعية على مستوى الأمة، وهذه التوعية للأمة بوصفها رعية بالمقدار الذي تتطلبه الرعية الواعية من فهم وثقافة، وكان له خط عمل على مستوى آخر من التوعية للصفوة التي اختارها الله سبحانه وتعالى حتى تخلفه لقيادة هذه التجربة، كانت توعية على مستوى القيادة وعلى مستوى الحاكمية.

قيل قد رجع، فدعاه فقال: كنا نؤمر بذلك، فقال تأتيني على ذلك بالبينة، فانطلق إلى مجلس الأنصار فسألهم فقالوا لا يشهد لك على هذا إلا أصغرنا أبو سعيد الخدري فذهب بأبي سعيد فقال عمر: أُخْفِيَ عَلَيَّ من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ألهاني الصفق بالأسواق.

صحيح مسلم، مسلم النيسابوري: ٦ / ١٧٧. الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل البخاري: ٢٢٨، ح ١٠٦٥.

وهـؤلاء الّذيـن تولوا الحكم بعد رسول اللّه صلى الله عليه وآله لم يكونوا قد عاشوا على هـذا المسـتوى للتوعـية مـن الناحـية الفكرية والثقافية، ألسنا جميعاً نعرف أنّ الصـحابة في أيـام عمر وأبي بكر اختلفوا في المسائل الواضحة جداً، اختلفوا في حكـم سـنّةٍ كـان يمارسها رسول اللّه صلى الله عليه وآله أمام أعينهم مدة طويلة، اختلفوا في حكم صلاة الجنائز[١]، هذه المسألة العبادية الصرفة البعيدة عن كل مجالات الهـوى والسياسـة والاقتصاد، فالاختلاف هنا اختلاف ناشئ من الجهل حقيقة لا اخـتلاف ناشـئ مـن الهوى، ليس من قبيل الاختلاف في حكم الأرض وفي حكم الغنيمة وحكم الخمس.

كلُّ هذا ينشأ من عدم التهيئة السابقة، ومن عدم الاستعداد لممارسة الحكم

---

(١) الـنص الـروائي: روى ابـن أبـي شـيبة بسـنده عـن أبـي وائـل قال جمع عمر الناس فاستشـارهم في التكبير على الجنازة، فقال بعضهم كبّر رسول الله صلى الله عليه وسلمّ خمسـا، وقـال بعضـهم كـبر سـبعا، وقـال بعضـهم كبر أربعا، قال فجمعهم على أربع تكـبيرات كـأطول الصلاة. وعن عبد الله بن يزيد قال، قال إبراهيم : اختلف أصحاب رسـول الله صـلى الله علـيه وسـلم في التكـبير عـلى الجـنازة ثم اتفقوا بعد على أربع تكبيرات.

المصـنف، ابـن أبـي شـيبة الكوفي: ٣ /١٨٦. شرح معاني الآثار، عبد الملك الأزدي،متوفى ٣٢١هـ، تحقيق محمد زهري النجار، دار العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ: ١/٤٩٩.

ولقـيادة هـذه التجربة، يضاف إلى ذلك أنّ الأمة كانت تحمل طاقة حرارية ولم تكـن واعـية إلى أنّ الحـاكم كـان قاصـراً أو مقصـراً، يضـاف إلى كل ذلك أنّ الإسـلام كـان على أبواب تحوّل كمّي هائل، كان على أبواب أن يفتح أحضانه لأمم جديدة، لم تر النبي صلى الله عليه وآله ولم تسمع آية من القرآن منه على الإطلاق. تلك الأمـة الـتي خلفها النبي صلى الله عليه وآله كانت تحمل طاقة حرارية، لكن بعد أن اتسعت الأمـة كمـياً وضـمّت إليها شعوباً كثيرة، ضمت إليها الشعب العربي بأكمله تقريـباً، في زمـن عمـر، وضـمّت إلـيها مـن الشـعوب الأخـرى من الفارسية والتركية والكردية والهندية والأفغانية والأوروبية وغيرها، ما بال هذه الشعوب الـتي لم تكـن قـد رأت رسـول اللّـه صلى الله عليه وآله ولم تسمع منه كلمة من القرآن، هل يترقـب أن يكـون لهـا وعي، أو يترقب أن يكون لها طاقة حراراية؟ تلك الطاقة كانت نتيجة كفاح مستمر مع أشرف قائد على وجه الأرض.

إنّ هـذه الشـعوب الـتي دخلـت حظـيرة الإسـلام، لم تكن قد عاشت هذا الكفـاح المسـتمر مـع القـائد إذن فهذا الانفتاح الهائل على الشعوب الأخرى أيضاً ضعّف مناعة هذه الأمة، واضعَفَ من قدرتها على الحماية، وفتح بالتالي مجالات جديدة للقصور والتقصير أمام الحاكم.

الحـاكم الـذي لم يكـن مهـيأً نفسياً لأن يحكم في مجتمع المدينة، كيف يكون مهيأً نفسياً وفكرياً وثقافياً لأن يحكم بلاد كسرى وقيصر ويجتث أصول الجاهلية الفارسية والهندية والكردية والتركية، إضافة إلى اجتثاث الجاهلية العربية، هذه

الجاهليات التي كانت كل واحدة منها تحتوي على قدرٍ كبيرٍ من الأفكار والمفاهيم الأخرى، جاهليات عديدة متضاربة فيما بينها عاطفياً وفكرياً، وكلها في مجتمع واحد وفي حالة عدم وجود ضمان لا على مستوى الحاكم، ولا على مستوى الأمة!

لئن كان أولئك الّذين خلفهم رسول اللّه صلى الله عليه وآله قد رأوا بأم أعينهم في لحظة قصيرة تجسيداً واقعياً حياً للنظرية الإسلامية للحياة وللمجتمع في أيام رسول اللّه صلى الله عليه وآله، ورأوا تصرفات رسول اللّه صلى الله عليه وآله في المجال السياسي والاقتصادي والعسكري والاجتماعي، وسمعوا من رسول اللّه صلى الله عليه وآله أنّه يقول: الناس سواسية كأسنان المشط فإن هذه الشعوب التي دخلت في الإسلام جديداً، لم تكن قد سمعت كل هذا، بل سمعت هذا من الحكّام الجدد الّذين كانوا يقودون زعامة التجربة، فإذا كان أمينها حاكماً منحرفاً، وكانت الأمة غير قادرة على مواجهة هذا الانحراف، وكانت على أبواب توسع هائل ضخم يضم شعوباً لا تعرف شيئاً أصلاً عن هذه النظرية الإسلامية للحياة الاجتماعية، إنما تعرف الواقع الذي يتجسد خارجاً والذي عاشته كواقع، وهو أنّ فاتحاً مسلماً سيطر على بلادها. إذن كان من المفروض ومن المنطقي بحسب طبيعة الأشياء أنْ تتحول النظرية الإسلامية للحياة الاجتماعية إلى نظرية أخرى وفق خط الحاكم الموجود فعلاً والذي يجسد في سلوكه وتصرفاته حقيقة بعيدة عن الحقيقة التي عمل رسول اللّه صلى الله عليه وآله على تجسيدها في حياته، فنظرية أبي بكر وعمر وعثمان

للحكم وكما عاشوها واقعياً وسياسياً واقتصادياً كانت كفيلة بأن تطمس تلك الأطروحة الصالحة فكرياً وروحياً، كما انطمست سياسياً واقتصادياً يوم السقيفة؛ ولذا كان أمراً طبيعياً أن يعمل قادة أهل البيت عليهم السلام على التخطيط لحماية إسلامهم من أن يندرس؛ وذلك عن طريق الدخول في الصراع السياسي مع هؤلاء الخلفاء.

الأئمة عليهم السلام دخلوا في صراع مع الخلفاء ومع الزعامات المنحرفة(١)، دخلوا في الصراع يحملون في أيديهم مشعل تلك النظرية الإسلامية للحياة الاجتماعية بكل بهائها ونورها وجمالها وكمالها ولم يكونوا يستهدفون من هذا أن يعيدوا خط التجربة، لأن المؤسف أنّ خط التجربة لم يكن بالإمكان أن يعود مرة أخرى إلى الاستقامة بعد أن انحرف، لم يكن الصراع السياسي يستهدف في المقام أن يعيد التجربة إلى خطها المستقيم أو على المدى الطويل الطويل، ولم يكن هذا هو الهدف الآني للصراع السياسي، وإنما كان الهدف الآني للصراع هو أن يبثوا الوعي في المسلمين والشعوب الجديدة التي دخلت في الإسلام على النظرية الحقيقية للإسلام عن الحياة، عن المجتمع عن الدولة عن الاقتصاد وعن السياسة وعن الآخرة ويبينوا لهم بصدق ما هو مفهوم الإسلام في هذه المجالات وصولاً إلى ترسيخ هذه النظرية في أذهان الناس.

---

(١) ستتضح مواقف الأئمة عليهم السلام من هذا الصراع أكثر من تضاعيف المباحث.

صحيح أنّ النظرية كانت موجودة في القرآن، وكانت موجودة في النصوص ولكن هذا لا يكفي وحده للوصول إلى الهدف وذلك:

أولاً: لأن النظريات حينما تكون حبراً على ورق لا تكفي لأن تعطي صورة واضحة عن الحقيقة الصادقة في أذهان الناس.

ثانياً: لأن القرآن لم تكن قد فهمته هذه الشعوب الجديدة التي قد دخلت في الإسلام، السنة لم يكونوا قد سمعوا عنها شيئاً وانما سوف يسمعون عنها عن طريق الصحابة. وأما القرآن الكريم لم يكونوا قد سمعوا شيئاً عن تفسيره أيضاً، وانما بدأوا يسمعونه عن طريق الصحابة، فلابدّ حينئذ من تجسيد حي لهذه النظرية الإسلامية، وحيث لم يكن بالإمكان تجسيده عن طريق الحكم بعد رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم مباشرة، كان من الضروري تجسيده عن طريق المعارضة للزعامات المنحرفة على يد علي عليه السلام والحسن والحسين عليهما السلام أئمة المرحلة الأولى.

ممارسة أئمة المرحلة الأولى للصراع السياسي

في هذه المرحلة مارس هؤلاء الأئمة عليهم السلام الصراع السياسي، لأجل إعطاء هذه النظرية بكل وضوح، غاية الأمر أننا نرى أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يقم بالصراع الحاد إلا بعد موت عمر بن الخطاب، نعم بعد السقيفة بأيام، سجّل أمير المؤمنين عليه السلام للتاريخ رأيه في السقيفة[١] وسجّل ذلك الحواريون من

---

(١) النص التاريخي: نقل ابن قتيبة تحت هذا العنوان: إباية علي كرم الله وجهه بيعة أبي بكر: ثم إنّ علياً كرم الله وجهه أُتِي به إلى أبي بكر وهو يقول: أنا عبد الله وأخو رسوله، فقيل له بايع أبا بكر، فقال: أنا أحق بهذا الأمر منكم، لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي، أخذتم هذا الأمر من الأنصار، واحتججتم عليهم بالقرابة من النبي صلى الله عليه وسلم، وتأخذونه منا أهل البيت غصبا ؟ ألستم زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد منكم، فأعطوكم المقادة، وسلموا إليكم الإمارة وأنا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار نحن أولى برسول الله حيا وميتا فأنصفونا إن كنتم تؤمنون وإلا فبوءوا بالظلم وأنتم تعلمون. فقال له عمر: إنك لست متروكا حتى تبايع، فقال له علي: احلب حلبا لك شطره، واشدد له اليوم أمره يردده عليك غدا. الإمامة والسياسة، ابن قتيبة: ٢٨/١.

أصـحابه من أمثال سلمان[١] والمقداد وعمار[٢]. وهناك قالوا حكمهم، قالوا: بـأن هـذا لـيس تعديـاً عـلى علـي عليه السلام، وانمـا هو تعد على الأمة الإسلامية وعـلى التجربة الإسلامية، سلمان اخذ يصف حال المسلمين وماذا يكون عليه

(١) الـنص الـتاريخي: فـلما بويـع أبو بكر، قال سلمان للصحابة: أصبتم ذا السن منكم، ولكـنكم أخطـأتم أهـل بيـت نبـيكم. أمـا لـو جعلتموها فيهم ما اختلف منكم اثنان ولأكلـتموها رغـداً. شـرح نهـج الـبلاغة، ابن أبي الحديد: ٦ /٤٣. وانظر: الاحتجاج الشيخ الطبرسي: ١/١٥١ـ١٥٢، فيه خطبة سلمان باختلاف، وفيها، لأكلتم من فوقكم ومن تحت أرجلكم.

(٢) الـنص الـتاريخي، روى ابـن شبة أن عبد الرحمان بن عوف ـ قبل بيعته لعثمان ـ قال: أيهـا الـناس، إن الـناس قـد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم، وقد علموا من أميرهـم. فقـال سـعيد بـن زيـد: إنا نراك لها أهلا فقال عبد الرحمان بن عوف: أشيروا علـيّ بغـير هـذا. فقال عمار: إن أردت أن لا يختلف المسلمون فبايع علياً. فقال المقداد بـن الاسـود: صـدق عمـار، إن بايعـت علـياً قلـنا سمعنا وأطعنا. وقال المقداد: يا عبد الرحمان، أما والله لقد تركته... من الّذين يقضون بالحق وبه يعدلون. ثم قال المقداد: ما رأيت مثل ما أوتي إلى أهل هذا البيت بعد نبيهم، إني لأعجب من قريش أنهم تركوا رجـلا مـا أقـول إن أحـدا أعـلم ولا أقضى منه بالعدل، أما والله لو أجد عليه أعوانا ! فقـال عـبد الـرحمان: يـا مقداد اتق الله فإني خائف عليك الفِتنة. فقال رجل للمقداد: رحمك الله. من أهل هذا البيت ومن هذا الرجل ؟ قال: " أهل البيت بنو عبد المطلب والرجل علي ابن أبي طالب. تاريخ المدينة، بن شبة النميري، دار الفكر: ٣ / ٩٢٩.

فيما لو ولّوا علياً.

وفاطمة الزهراء عليها السلام ـ في كلام لها مع نساء المهاجرين والأنصار ـ وصفت أيضاً حالة المسلمين لو انهم ولّوا علياً [١]...

لكن بعد هذا، أمير المؤمنين عليه السلام لم يبد على مسرح الصراع بشكل مكشوف في أيام أبي بكر وعمر بالرغم من أنّ الانحراف كان قد بدأ منذ خلافة أبي بكر لا الانحراف في تغيير شخص الحاكم، بل الانحراف في تغيير مضمون الحكم وسياسة الحكم.

هذا الانحراف بدأ في أيام أبي بكر واشتد في أيام عمر وانجلى في أيام عثمان بصورة غير إسلامية، وكان الانحراف يسير في خط منحن حتى وصل إلى الهاوية

---

(١) مقطع من نص خطبة الصديقة الطاهرة (سلام الله عليها): ويحهم أين زحزحوها عن رواسي الرسالة، وقواعد النّبوّة، ومهبط الروح الأمين، والضنين بأمر الدنيا والدين، ألا ذلك هو الخسران المبين. وما الذي نقموا من أبي الحسن نقموا والله نكير سيفه وشدة وطأته ونكال وقعته وتنمره في ذات الله عز وجل، وتالله لو تكافوا عن زمام نبذه إليه رسول الله صلى الله عليه وآله لاعتلقه ولسار بهم سيرا سجحا، لا يكلم خشاشه ولا يتعتع راكبه، ولأوردهم منهلا نميراً فضفاضا تطفح ضفتاه، ولأصدرهم بطاناً قد تخثر بهم الري، غير متحل منه بطائل إلا بغمر الماء وردعه سورة الساغب، ولفتحت عليهم بركات السماء والأرض.

كشف الغمة، ابن أبي الفتح الإربلي: ٢ /١١٥.

بعد ذلك.

نعم بدأ أمير المؤمنين عليه السلام معارضته لأبي بكر وعمر وعثمان وللزعامات المنحرفة جميعاً بشكل مكشوف وصريح بعد وفاة عمر مباشرة وقبل أن يتم الأمر لعثمان، عندما قال له: عبد الرحمان بن عوف وكانوا ستة قد اجتمعوا للشورى، قال له: مد يدك أبايعك على كتاب اللّه وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسنة الشيخين [١]، وكان يريد عبد الرحمان من ذلك أن يجعل سيرة الشيخين ممثلاً شرعياً للنظرية الإسلامية للحياة الاجتماعية، لو كان علي قبِلَ ذلك لانتهى هذا التمثيل، لأنه لم يكن في مقابل أطروحة هذين الشيخين إلا علي عليه السلام ولو وافق على ذلك لأصبح هو ذات النظرية السائدة، فقال: بايعني على كتاب اللّه وسنة رسوله صلى الله عليه وآله واجتهادي [٢] أما سيرة الشيخين لا يمكن أن تقبل كممثل شرعي للنظرية الإسلامية وللحياة الاجتماعية.

---

(١) الإمامة والسياسة، ابن قتيبة الدينوري، تحقيق الشيري: ٤٥/١. وانظر: تاريخ الطبري: ٢٩٧/٣. انظر: الهامش التالي.

(٢) النص: (فقال عبد الرحمان: أُشهدكم أنني قد أخرجت نفسي من الخلافة، على أن أختار أحدهما، فبدأ بعلي عليه السلام، وقال له: أبايعك على كتاب الله، وسنة رسول الله وسيرة الشيخين: أبي بكر وعمر. فقال: بل على كتاب الله وسنة رسوله واجتهاد رأيي). شرح نهج البلاغة ـ ابن أبي الحديد: ١ /١٨٨.

هنا بدأ الإمام عليه السلام يشجب ويعارض هذه الزعامة المنحرفة، أمير المؤمنين عليه السلام رفض الخلافة والزعامة لأجل أن لا يدخل سيرة هذين الرجلين كجزء للنظرية الإسلامية.

قد يقال: أنّ هذا باب التزاحم[١]، وباب العناوين الثانوية ماذا كان يضره ـ أي الإمام علي ـ لو قال: نعم فيبايعه على كتاب اللّه وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسيرة الشيخين، ثم بعد هذا يقول ويعمل حسب رأيه وينقض عهده لعبد الرحمان لأن كل شرط خالف كتاب اللّه ورسوله مردود؟! ألم يكن هذا تكليفاً شرعياً بناءً على أنّ الوصول إلى الخلافة واجب، وتنحصر مقدمة هذا الواجب بأن يمضي هذا الشرط؛ فعليه يكون هذا واجباً بالعناوين الثانوية لأنه مقدمة للواجب... ؟!

وجوابه: إنه لو قال علي بن أبي طالب عليه السلام ذلك لتم هذا التخطيط، ثم إنّ النظرية الإسلامية للحياة هي النظرية التي قدمها هؤلاء المنحرفون في المقام وما أشد ضياع الإسلام لو قال هذا، وقد قلنا وسوف نشرح أنّ عودة التجربة إلى الخط المستقيم على المدى البعيد البعيد، لم تكن بالإمكان أصلاً حتى لو تولى أمير المؤمنين عليه السلام الخلافة بعد عمر، فماذا يكون إلا الخسارة إلا أن يعطي هذا الإمضاء وهذا الصك للزعامات المنحرفة.

---

(١) سبقت الإشارة إلى هذا المطلب.

من هنا بدأ الإمام عليه السلام يصارع، ثم بعد هذا في أيام عثمان انفتح صراعه السياسي بشكل أوضح.

كان عليه السلام يعبّر عن آلام الأمة وعن آمالها ومظالمها أمام عثمان، ويعظه ويوبخه، يذكّره الله وأيام الله والآخرة ورسول الله صلى الله عليه وآله ولكن عثمان لم يكن يتعظ.

لماذا كان حريصاً كل الحرص على أن يبدو صراعه موضوعياً عقائدياً يستهدف النظرية لا الشخص، يستهدف تثبيت دعائم نظرية حقيقية للإسلام لا تدعيم شخصه، كان الإمام عليه السلام حريصاً على أن تكون التصورات والانعكاسات التي يعيشها الناس عن صراعه على مستوى أنّ صراعه صراع نظري عقائدي وليس صراعاً شخصياً؛ لأن هذا كان من اكبر الوسائل لتثبيت حقانية هذه النظرية التي يقدمها، أليس هو يريد أن يثبت للذهنية الإسلامية أنّ النظرية الإسلامية للحياة الاجتماعية هذه لا تلك التي يطبقها الزعماء المنحرفون، كيف يستطيع أن يرسّخ هذا في الذهنية الإسلامية على أنه صراع عقائدي ونضالي في سبيل تثبيت النظرية، ولهذا انتظر أمير المؤمنين عليه السلام أن يبرز الانحراف واضحاً ثم يبدأ الصراع، لأن هؤلاء الناس غير الواعين لا يشعرون بمرارة الانحراف إلا إذا دخل الانحراف إلى بيوتهم، إلا إذا مس جلودهم، أما قبل هذا فلا يترقب من الأمة غير الواعية أن تشعر بالانحراف.

الانحراف بدأ في أيام ابن أبي قحافة وعمر وكان انحرافاً مستوراً، وكان عمر

مُوَفَّقاً جداً في أن يلبس هذا الانحراف الثوب الديني المناسب.

نحن لا نريد أن نعطي مفهومنا الخاص عن عمر، بل نأخذ بمفهوم السنة عن عمر، إنّ عمر حتى بحسب المفهوم الذي يحتمل أنه كان حقيقة في الإسلام على مستوى هذا الثوب الديني المصطنع، نجد عمر فرط في العطاء بين الناس ووضع تركيباً قبلياً في المجتمع الإسلامي كما صنع عثمان، لكن فرق بينهما، لأن عمر جعل هذا التركيب القبلي الطبقي على أساس خدمة الإسلام[1]، قال: إنّ كل من كان أقرب للنبي صلى الله عليه وآله أُعطيه أكثر، وهذا ثوب تقبله أمة غير واعية قبولاً إجماعياً، أكثر مما تقبل النظرية الإسلامية الحقيقية.

قبل أن يلتفت إلى نتائج هذا التركيب القبلي من اللحظة الأولى، قبل أن يلتفت إلى ما سوف يتمخض عنه هذا التركيب الطبقي من بلايا وكوارث ومحن في المجتمع الإسلامي تستسيغ هذا المطلب، تستسيغ أنّ عم الرسول صلى الله عليه وآله أكثر الناس عطاءً، أن يكون البدريون اكثر عطاءً من الأحديين، وأن يكون المهاجرون أكثر عطاءً من غيرهم، وأن يكون العرب الموجودون أيام رسول الله صلى الله عليه وآله وعاشوا الدعوة في مراحلها الأولى أكثر عطاء من غيرهم، وهكذا فلو كان علي يعارض هذا الانحراف وقتئذ لفسر على مستوى تلك الذهنية بأنه صراع شخصي وليس صراعاً عقائدياً، لم يكن بإمكانه أن يُفهم المسلمين

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد : ٣ / ٣٠٤.

ذلك؛ ولهذا سكت لئلا يلبس صراعه الثوب الشخصي، وهذا هو يقول: سأسالم ما سلمت أمور المسلمين مادام التعدي علي أنا (١)، فأنا ساكت مادام الناس يعيشون ويشعرون بأن الأمور بخير فأنا ساكت حتى يصابوا بنيران الانحراف.

وبعد عمر أعلن رأيه في الشيخين، فإعلانه بمخالفة سيرة الشيخين كان موقفاً عقائدياً ونضالياً، ولم يكن موقفاً شخصياً لأن المصلحة الشخصية تقتضي هنا أن يسكت، فإن لم يكن بينه وبين وصوله إلى الخلافة إلا أن يقر بزعامة هؤلاء المنحرفين، وهذا أمرٌ مؤقت لا يمكن أن يُفسر على أساس الصراع الشخصي، وإنما يُفسر على أساس أنّ هذا الشخص يريد أن يمسك بيده نظرية جديدة للإسلام غير النظرية التي طبقها الشيخان، ثم بعدما تَكشَّف الانحراف في أيام عثمان إلى درجة لم يكن بحاجة إلى صعوبة لتشعر به الأمة غير الواعية.

شعرت الأمة الإسلامية بذلك خصوصاً في السنوات الأخيرة من أيام عثمان، فدخل الإمام عليه السلام في الصراع بشكل مكشوف (٢) ليثبت للتجربة

---

(١) النص: ((لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جور إلا علي خاصة))، شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١ / ٣٠٨.

(٢) إن موقف الإمام عليه السلام يوم نفى عثمان أبا ذر رضي الله عنه إلى الربذة، أحد الشواهد على ما يشير إليه السيد الشهيد رضي الله عنه. (م)

الإسلامية دعائم النظرية الأخرى، فكان عليه السلام هو رمز نظرية إسلامية للحياة الاجتماعية تختلف عن النظرية المطبقة لواقع الحياة الاجتماعية على ما سوف نشرح إنْ شاء اللّه تعالى.

---

(١) النص: فجاء علي عليه السلام إلى عثمان، فقال له عثمان : ما حملك على رد رسولي، وتصغير أمري ! فقال علي عليه السلام: أمّا رسولك، فأراد أن يردّ وجهي فرددته، وأما أمرك فلم أصغره. قال: أما بلغك نهيي عن كلام أبى ذر ! قال: أو كلما أمرت بأمر معصية أطعناك فيه. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد : ٨ /٢٥٤ ـ ٢٥٥.

نص آخر : نهى عثمان عن متعة الحج، وقد ذكر الحميدي في كتاب الجمع الصحيحين في الحديث السابع من مسند علي بن أبي طالب عليه السلام عن مروان بن الحكم من رواية علي بن الحسين عن سعيد بن المسيب أنه شهد عثمان وعلياً بين مكة والمدينة وعثمان ينهى عن المتعة وان يجمع بينهما، فلما رأى ذلك علي أهل بهما وقال : لبيك بعمرة وحجة فقال عثمان : تراني انهي الناس وأنت تفعله قال : ما كنت لأدع سنة رسول الله " ص " لقول واحد.

الطرائف ـ السيد ابن طاووس الحسني، متوفي ٦٤٦هـ، مطبعة الخيام، قم، الطبعة الأولى، ١٣٧١ : ٤٨٨.

تولي أمير المؤمنين زعامة المسلمين

انتهينا في خط العرض العام إلى تولّي أمير المؤمنين عليه السلام لزعامة المسلمين سياسياً وإدارياً بعد مقتل عثمان، إلا أنّ أمير المؤمنين عليه السلام حينما تولّى الخلافة بعد مقتل عثمان[١]، أراد أن يشرح للمسلمين بطريقته الخاصة أنّ المسألة ليست بالنسبة إليه تبديل شخص بشخص آخر، وليست مسألة فارق اسمي بين زعيم الأمس وزعيم اليوم، وإنما المسألة هي مسألة اختلاف شامل كامل للمنهج، وفي كل القضايا المطروحة.

إلاّ أنه لعلاجها وتصفيتها، ـ كان يريد أن يبين للمسلمين ضرورة أن ينظر إليه قائماً على الخط، وقيّماً على المنهج وأميناً على الرسالة، وعنواناً لدستور جديد، يختلف عن الوضع المنحرف القائم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله.

لأجل هذا امتنع عن قبوله الخلافة أول الأمر، فقال لهم: فكّروا في غيري، واتركوني وزيراً لمن تستخلفونه، فأنا لكم وزير خير مني أمير[٢]، يعني على

---

(١) تولّى أمير المؤمنين عليه السلام الخلافة في الثامن عشر من ذي الحجة عام خمسة وثلاثين هجرية.

الأخبار الطوال، الدينوري: ١٤٣. الفتوح، ابن أعثم الكوفي: ٢/٣٨٢، تاريخ الطبري : ٣/ ٤٢٣.

(٢) النص الروائي: (اعلموا أني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول

مستوى حياة الدعة والكسل، على مستوى الرخاء واليسر، على مستوى الحياة الفارغة من المسؤولية على مستوى هذه الحياة أنا وزير خير مني أمير، لأني حينما أكون أميراً سوف أرهقكم، سوف أتعبكم، سوف افتح أمامكم أبواب مسؤوليات كبرى تجعل ليلكم نهارا وتجعل نهاركم ليلاً، هذه الهموم التي تجعلكم دائماً وأبداً تعيشون مشاكل الأمة في كل أرجاء العالم الإسلامي، هذه الهموم التي سوف تدفعكم إلى حمل السلاح ـ من دون حاجة مادية ـ لأجل تطهير الأرض الإسلامية من الانحراف الذي قام عليها... ؟

اتركوني وزيراً أكون أفضل لكم على مستوى هذه الحياة مني وأنا أمير لأني كوزير لا أملك أن أرسم الخط، أو أن أضع المخطط، وانما انصح وأشير وحينئذٍ يبقى الوضع الذي كان بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله مستمراً، أصرّوا عليه بأن يقبل الخلافة [1]، ففرض عليهم شروطاً، فقبلوها إجمالاً دون أن يسألوه

القائل، وعتب العاتب، وإن تركتموني فأنا كأحدكم، ولعلّي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، وأنا لكم وزيرا، خير لكم مني أميرا !).

شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٧ /٣٣، وذخائر العقبى، أحمد بن عبد الله الطبري: ١١١.

(١) النص التاريخي، الذي يتضمن ما يشير إليه السيد الشهيد رضي الله عنه: فقال علي: ((أيها الناس، بايعتموني على ما بويع عليه من كان قبلي، وإنما الخيار قبل أن

التوضيح، أعطاهم فكرة عن أنّ عهده هو عهد منهج جديد للعمل السياسي والاجتماعي والإداري، فقبلوا هذا العهد، وكان هذا سبباً في أن ينظر المسلمون من اللحظة الأولى، إلى أنّ علي بن أبي طالب عليه السلام بوصفه نقطة تحوّل في الخط الذي وجد بعد النبي صلى الله عليه وآله لا بوصفه مجرد خليفة، فانتعشت مع هذا العهد الجديد آمال كثيرة.

وحينما بويع علي عليه السلام، كانت اكثر الصعاب التي واجهها بعد بيعته، هو انشقاق معاوية وتخلف الشام بكامله لابن أبي سفيان عن الانضمام إلى بيعته[1]؛ هذا التناقض شق المجتمع الإسلامي في الدولة الإسلامية إلى شقين ووجد في كل منهما جهاز سياسي وإداري لا يعترف بالآخر. ومنذ البدء، كان

تقع البيعة، فإذا وقعت فلا خيار، وإنما على الإمام الاستقامة، وعلى الرعية التسليم)) الأخبار الطوال: ١٤٠. ((فإنا مستقبلون أمرا له وجوه وله ألوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول، فقالوا ننشدك الله ألاّ ترى ما نرى، ألا ترى الإسلام ألا ترى الفِتنة، ألا تخاف الله فقال: قد أجبتكم لما أرى واعلموا إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم)).

تاريخ الطبري: ٣/ ٤٥٦.

(١) الإمامة والسياسة، عبد الله بن مسلم الدينوري، تحقيق شيري: ١/٦٧-٦٨، الأخبار الطوال، أبو حنيفة الدينوري: ١٤١وتاريخ الطبري: ٣/٤٥٩، وما بعدها.

هـناك فوارق موضوعية واضحة، بين وضع علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي والإداري، ووضـع معاويـة السياسـي والإداري، تجعـل هـذه الفـوارق معاويـة أحسن موقفاً وأثبت قدماً، وأقدر على الاستمرار في خطه من إمام الإسلام عليه السلام.

هذه الفوارق الموضوعية لم يصنعها الإمام عليه السلام

وانما كانت نتيجة تاريخ:

فأولاً: كـان معاويـة يسـتقل بإقليـم مـن أقاليم الدولة الإسلامية[1]، ولم يكن لعلـي أي رصـيد أو قاعدة شعبية في ذلك الإقليم على الإطلاق؛ لأن هذا الإقليم قد دخل في الإسلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وانعزال علي عن خط العمل.

وكـان هـذا الإقلـيم، قـد دخـل ودشّـن حياته الإسلامية بولاية يزيد أخي معاويـة، ثـم بعده بولاية معاوية، وعاش الإسلام من منظار آل أبي سفيان، ولم يسـمع لعلـي عليه السلام، ولم يتفاعل مع الوجود الإسلامي والعقائدي، هذا الإمام العظـيم لم يكن يملك شعاراً لـه رصيد أو قاعدة شعبية في المجتمع الذي تزعمه

---

(١) تقارب رؤى، سيد قطب: ((فقوة معاوية يوم ذاك لم تكن تصمد لقوة الخلافة، ولا لقوة الروح الدينية في النفوس، وما كان معاوية ليخاطر بالخروج على الخليفة كما خرج. فإن ثلاثـة عشـر عاما من حكم عثمان هي التي جعلت من معاوية معاوية، إذ جمعت له قوة المال وقوة الجند وقوة الدولة في الأقطار الأربعة في الشام)).

العدالة الاجتماعية، سيد قطب، مكتبة مصر: ١٨٥ـ١٨٦.

معاوية، وحمل لواء الانشقاق فيه، في حين العكس، فإنّ شعار معاوية كان يملك رصيداً قوياً وقاعدة قوية في المجتمع الذي تزعمه الإمام عليه السلام لأن معاوية، كان يحمل شعار الخليفة القتيل والمطالبة بدمه[1] والخليفة هذا كان أمير المجتمع الذي تزعمه علي عليه السلام، وكان لهذا الخليفة القتيل أخطبوط في هذا المجتمع وقواعد.

وهكذا كان شعار ابن أبي سفيان يلتقي مع وجود قاعدة ورصيد في داخل مجتمع أمير المؤمنين عليه السلام، بينما لم يكن شعار علي يلتقي مع قاعدة ورصيد في داخل مجتمع معاوية.

وثانياً: كانت طبيعة المهمة تميز معاوية عن علي بن أبي طالب عليه السلام، لأن أمير المؤمنين عليه السلام بوصفه الحاكم الشرعي، والمسؤول عن الأمة الإسلامية كان يريد أن يقضي على هذا الانشقاق الذي وجد في جسم الأمة الإسلامية، وذلك بشخصية هؤلاء المنحرفين وإجبارهم بالقوة على انضمامهم إلى الخط الشرعي، وكان هذا يستدعي الدخول في الحرب التي تفرض على علي عليه السلام الطلب من العراقي أن يخرج من العراق تاركاً أمنه ووحدته واستقراره، ومعيشته ورخاءه، ليحارب أُناساً شاميين لم يلتق معهم بعداوة سابقة، وإنما فقط بفكرة أنّ هؤلاء انحرفوا، ولابدّ من إعادة أرض الشام للمجتمع الإسلامي

---

(١) الإمامة والسياسة، تحقيق شيري: ١/٩٩.

والدولـة الإسـلامية، فكـان موقـف علـي عليه السلام يتطلب ويفترض ويطرح قضية الهجـوم عـلى أنـاس لا يملكون ـ في غالبيتهم ـ الوعي لخطورة تراخيهم على قمع هذا الانحراف، انطلاقاً من عدم استيعابهم لأبعاده؟!

في حـين أنّ معاوية بن أبي سفيان، يكتفي من تلك المرحلة بأن يحافظ على وجـوده في الشـام[1]، ولم يكـن يفكـر ـ مادام أمير المؤمنين ـ أن يهاجم أمير المؤمـنين وأن يحـارب العراق ويضم العراق إلى مملكته، وإنما كان يفكر فقط في أن يحتفظ بهذا الثغر من الثغور للمسلمين حتى تتهيأ لـه الفرص والمناسبات والظـروف الموضـوعية بعد ذلك يتآمر على الزعامة المطلقة في كل أرجاء العالم الإسلامي.

فمعاويـة لم يكـن يقـول للشـامي: اتـرك اسـتقرارك ووحدتـك واذهب إلى العـراق محاربـاً، لأن هـذا الشـخص خارج عن طاعتي، ولكن كان علي عليه السلام

---

(١) الـنص الـتاريخي: ((فدعـا ـ أي الإمـام علي عليه السلام ـ كاتبه عبيد الله بن أبي رافع فقال لـه: اكتـب: أمـا بعد، فقد جاءني كتابك تذكر فيه (أنك لو علمت وعلمنا أن الحرب تـبلغ بنا وبك إلى ما بلغت لم يجنها بعضنا على بعض)، وإنا وإياك ـ يا معاوية ـ على غاية منها لم نبلغها بعد. وأما طلبك الشام، فإني لم أعطك اليوم ما منعتك أمس)).

كـتاب سليم بن قيس ـ تحقيق محمد باقر الأنصاري: ٣٣٧. وانظر: الإمامة والسياسة. ابن قتيبة الدينوري، تحقيق الشيري: ١/ ١١٥، ووقعة صفين: ٤٧١.

يقول هذا للعراقي، لانّ علياً عليه السلام كان يحمل بيده مسؤولية الأمة، ومسؤولية إعادة وحدة المجتمع الإسلامي، بينما كان كل مكسب معاوية وهمّه أو قصارى أمله أن يحافظ على هذا الانشقاق ويحافظ على هذه التجزئة التي أوجدها في جسم المجتمع الإسلامي. وشتّان بين قضية الهجوم حينما تطرح وقضية الدفاع.

وثالثاً: كان هناك فرق آخر بين معاوية والإمام عليه السلام، وهو أنّ معاوية كان يعيش في بلد لم يكن قد نشأت فيه زعامات سياسية طامحة إلى الحكم والسلطان من ناحية ولم يكن فيه أُناس ذوو سابقة في الإسلام، ممن يرى لنفسه الحق أن يساهم في التخطيط وفي التقدير، وفي حساب الحاكم، وفي رسم الخط، لم يكن هكذا، الشام أسلمت على يد معاوية وأخيه، كلهم كانوا نتيجة لإِسلام معاوية ولإِسلام أخي معاوية، ولإِسلام من استخلف معاوية على الشام ولم يكن قد مني بتناقضات من هذا القبيل.

أما علي عليه السلام كان يعيش في مدينة الرسول صلى الله عليه وآله كان يعيش في حاضرة الإسلام الأولى التي عاش فيها الرسول صلى الله عليه وآله وعاش بعد ذلك أبو بكر، وعاش بعد ذلك عمر وعثمان حتى قتلا، ومن ناحية كان يواجه كثيراً ممن يرون أنّ من حقهم أن يساهموا في التخطيط[1]، وأن يشتركوا في رسم الخط، كان

---

(١) النص التاريخي الذي يوضح ما يشير إليه السيد الشهيد رضي الله عنه: (وأتاه ـ أي للإمام علي عليه السلام ـ طلحة والزبير فقالا: إنه قد نالتنا بعد رسول الله جفوة، فأشركنا في

يواجـه علي عليه السلام أشخاصاً كانوا يرونه نداً لهم، غاية الأمر انه ندّ أفضل، ندّ مقـدم، لكـنهم صـحابة كمـا أنه هو صحابي عاش مع النبي صلى الله عليه وآله وعاشوا مع النبي صلى الله عليه وآله.

طـبعاً أنـنا نعـلم أيضاً بأنّ خلافة علي كانت بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله بعشرين سـنة، وهذا معناه أنّ ذلك الامتياز الخاص الذي كان يتمتع به أمير المؤمنين في عهـد الرسـول صلى الله عليه وآله كالـنجم لا يطـاول، ذاك الامتـياز الخـاص كان قد انتهى مفهومـه وتضـاءل أثـره في نفـوس المسلمين، الناس عاشوا عشرين سنة يرون علياً مأموماً، يرونه منقاداً، يرونه جندياً بين يدي أمير، هذا الإحساس النفسي خـلال عشـرين سـنة أذهـب تلـك الآثار التي خلفها عهد النّبوّة، وهكذا كان علـي عليه السلام يُـنظر إلـيه ـ بشـكل عام ـ، عند الصحابة الّذين ساهموا في حل الأمـور وعقدهـا وكانوا يمشون في خط السقيفة، هؤلاء الصحابة الّذين قدموا للإسـلام في صـدر حـياتهم، وكـانوا قـد قـدر لهـم بعد هذا أن يمشوا في خط

أمرك! فقال: أنتما شريكاي في القوة والاستقامة، وعوناي على العجز والأود.

تـاريخ اليعقوبي: ٢/١٨٠. وروى الطبري: (وقال طلحة ـ للإمام علي عليه السلام ـ دعني فلآت البصـرة فلا يفجأك إلا وأنا في خيل، فقال : حتى انظر في ذلك وقال الزبير: دعني آت الكوفة فلا يفجأك إلا وأنا في خيل، فقال : حتى انظر في ذلك).

تاريخ الطبري: ٣ /٤٥٩.

الانحـراف وفي خـط السقيفة، هؤلاء كانوا ينظرون إلى علي الأخ الأكبر، الزبير صـحيح كـان يخضـع لعلـي عليه السلام لكن كان يخضع لـه كالأخ الأكبر لا يرى أنّ إسـلامه مسـتمد منه، هذه الحقيقة الثانية الثابتة التي كانت واضحة على عهد الـنبي صلى الله عليه وآله حُرفـت خلال عهد الانحراف، خلال عهد أبي بكر وعمر وعثمان، ولهذا كان الزبير يعترف بأنّ علياً افضل منه، لكنه لا يرى نفسه مجرد آلة ومجرد تابع يجب أن يؤمر فيطيع، فكان هناك أُناس من هذا القبيل، هؤلاء يريدون أن يشـتركوا في التخطيط ويشتركوا في رسم الخط في ظرف هو أدق ظرف وأبعده عن عقول هؤلاء القاصرين.

رابعـاً: كانـت توجـد هـناك الأطمـاع السياسـية والأحزاب السياسية التي تكونـت في عهـد ابـن الخطـاب، واسـتفحلت بعده ـ نتيجة للشورى، ـ هذه الأحزاب السياسية كان يفكر في أمرها ويفكر في مستقبلها ويفكر في انه كيف يسـتفيد اكـبر قـدر ممكـن مـن الفـائدة في خضم هذا التناقض، وهذا بخلاف معاوية لم يكن قد مني بصحابة أجلاء يعاصرونه ويقولون لـه: نحن صحابة كما أنـت صحابي، بل كل أهل الشام مسلمون نتيجة لإسلامه وإسلام أخيه، لم ير أحـد مـنهم رسول اللّه صلى الله عليه وآله ولم يسمع أحد القرآن إلا عن طريق معاوية، إذن كانـت حالـة الاستسـلام في المجتمع الشـامي بالنسبة إليه لا يوجد ما يناظرها بالنسبة إلى الإمام عليه السلام في مجتمع المدينة والعراق.

خامساً: كان هناك فرق آخر بين الإمام عليه السلام ومعاوية، وحاصل هذا الفرق

هو أنّ الإمام عليه السلام كان يتبنى قضية هي في صالح الأضعف من أفراد المجتمع، وكان معاوية يتبنى قضية هي في صالح الأقوى من أفراد المجتمع، أمير المؤمنين عليه السلام كان يتبنى الإسلام بما فيه من قضايا العدالة الاجتماعية التي يمثلها النظام الاقتصادي للإسلام، وهذه القضايا لم تكن في صالح الأقوى، بل كانت في صالح الأضعف، ومعاوية كان يمثل الجاهلية بفوارقها وعنفوانها وطبقاتها، وهذا لم يكن في صالح الأضعف بل كان في صالح الأقوى، وذلك أنّه بعد رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم حينما دخل العراق والشام وبقية البلاد في داخل المجتمع الإسلامي، لم يقدر الخلفاء الّذين تزعموا زعامة المسلمين على تذويب التنظيم القبائلي الذي كان موجوداً في هذه البلاد، بل بقي التنظيم القبائلي سائداً وبقي زعيم كل قبيلة هو الشخص الذي يرتبط كهمزة الوصل بين قبيلته وبين السلطان. وهذا التنظيم القبائلي بطبيعته، يخلق جماعة من الزعماء ومن شيوخ هذه القبائل الّذين لم يربِّهم الإسلام في المرتبة السابقة، ولم يعيشوا أيام النّبوّة عيشاً صحيحاً، مما جعل من هؤلاء طبقة معيّنة ذات مصالح، وذات أهواء وذات مشاعر في مقابل قواعدها الشعبية مما يوفر لهم أسباب النفوذ والاعتبار.

الآن تصوروا مجتمعاً إسلامياً تركه الخلفاء المنحرفون وهو يعم بالتقسيمات القبلية، بمعنى أنّ كل قبيلة كانت تخضع إدارياً وسياسياً لزعامة تلك القبيلة التي تشكّل ـ كما قلنا ـ همزة وصل بين القبيلة وبين الحاكم الذي يسهل عليه

أن يرشي رؤساء هذه القبائل بقدر الإمكان، وهذا ما كان يفعله غير علي عليه السلام من الحكّام وكان عاملاً من عوامل القوة بالنسبة إلى معاوية، هذه الظروف الموضوعية لم يصنعها الإمام عليه السلام وانما هي صنعت خلال التاريخ وأوجدت لمعاوية مركزاً قوياً ووجد للإمام مركز ضعف، ولولا براعة التضحية وكفاءته الشخصية ورصيده الروحي في القطاعات الشعبية الخاصة الواسعة، لولا ذلك لما استطاع عليه السلام أن يقوم بما مرّ به نفسه من حروب داخلية خلال أربع سنوات...

هكذا بدأ الإمام بخلافته ودشن عهده، وبدأ الانقسام مع هذا العهد على يد معاوية بن أبي سفيان، وأخذ الإمام يُهيئ المسلمين للقيام بمسؤولياتهم الكبيرة للقيام بدورهم في تصفية الحسابات السابقة في تصفيتها على مستوى مالي، على المستوى الاقتصادي، على المستوى الاجتماعي على المستوى السياسي والإداري أيضاً، كل ذلك كان يحتاج إلى الكفاح والقتال فأخذ يدعو الناس إلى القتال وخرجوا إليه فعلاً.

لقد درسنا إلى هنا علياً مع معاوية بحسب ظروفه الموضوعية، فلابدّ وأن ندرس الذهنية العامة للمسلمين أيضاً، كيف كان يفسر هذا الخلاف الموجود بين علي ومعاوية.

إنّ الذهنية العامة للمسلمين بدأت تفسر هذا الخلاف، بأنه بين خط خلافة راشدة، وبين شخص يحاول الخروج على هذه الخلافة، كانوا ينظرون إلى

علـي ـ بشـكل عـام ـ عـلى أنـه هو الخليفة الراشد الذي يريد أن يحافظ على الإسـلام، ويحـافظ عـلى خـط القـرآن في حـين أنّ معاويـة يحاول أنْ يتأمر هذا المفهوم.

اسـتطاع أمـير المؤمـنين عليه السلام أن يثبـت هـذا الانطـباع، بالـرغم مـن كـل الظروف الموضوعية التي قلناها في ذهن القاعدة الشعبية الواسعة في كل أرجاء العـالم الإسـلامي، عدا القطر الذي كان يرتبط بمعاوية، وهذه الذهنية هي التي كانـت تصبغ المعـركة بـين علـي ومعاويـة بطـابع الرسالة، كأن تعطيه معنى رسـالياً. وكانت تفسر هذه المعركة بأنها معركة بين الجاهلية، بين فكرين، بين هدفين، وليست بين زعامتين وشخصيتين، إلا أنّ الأمر تطور إلى الأسوأ حيث أنّ المسـلمين بـدأوا يشكون شكاً واسع النطاق بأن المعركة بين أمير المؤمنين عليه السلام وبين معاوية بن أبي سفيان معركة رسالية.

مـن الصـعب جـداً أن نتصـور انه كيف يمكن للمسلمين أن يشكوا في أنّ المعـركة القائمـة بين إمام الورع والتقى والعدالة، وبين شخص خائن جاهلي مـنحرف عـدو رسـول اللّـه صلى الله عليه وآله كانـت معركة رسالية إلا أني لا اشك في أنّ عدداً كبيراً من المسلمين على مرّ الزمن في عهد خلافة أمير المؤمنين بدأ يشك في أنّ هـذه المعركة أهي رسالية حقيقية أو غير رسالية، وهنا يجب أن نعرف أنّ المسـلمين الّذيـن شـكّوا مـن هـم، إنّهـم أولـئك الّذين عرفناهم عُقيب وفاة الرسـول صلى الله عليه وآله، هـم أولـئك المسلمون الّذين خلّفهم الرسول فكانت خير أمة

أُخرجت للناس، على مستوى إيمانهم وطاقتهم الحرارية وإشعاعهم وشحنهم من النبي صلى الله عليه وآله بشحن المبادئ التي طرحها صلى الله عليه وآله، ولكن لم يكن لهم من الوعي العقائدي الراسخ إلا شيء قليل، هذا المعنى شرحناه وبيناه وبينا جهاته وقلنا: إنّ الأمة لم تكن على مستوى الوعي وإنما كانت على مستوى الطاقة الحرارية، إذن فنحن سوف لن نتوقع فيها أن تبقى مشتعلة، وتبقى على جذوتها وحرارتها بعد وفاة رسول اللّه صلى الله عليه وآله، يبقى هذا أيضاً غير منطقي، إذن يجب أن نفكر في أنّ هذه الطاقة الحرارية قد تضاءلت بدرجة كبيرة وحتى تلك الصبابة من الوعي تلك الجذور من الوعي التي كان رسول اللّه صلى الله عليه وآله قد بدأ بها كي يواصل بعد هذا خلفاؤه المعصومون عملية توعية الأمة، حتى تلك البذور قد فتتت، أخفقت ومنع بعضها عن الأثمار، وبقي بعضها الآخر بذوراً منقسمة أيضاً.

وحينما نتصور الأمة الإسلامية بهذا الشكل، من ناحية أخرى يجب أن نتصور مفهوم المسلمين عن معاوية، نحن الآن ننظر إلى معاوية بعد أن استكمل حظّه من الدنيا، وبعد أن دخل الكوفة وصعد على منبر علي بن أبي طالب عليه السلام وقال: إني لم أحاربكم لكي تصوموا أو تصلوا وانما حاربتكم لأتأمر عليكم[1]، بعد أن أعلن بكل صراحة ووقاحة عن هدفه،

---

(١) عن سعيد بن سويد قال. صلى بنا معاوية بالنخيلة الجمعة في الصحن ثم خطبنا

وبعد أن طرح بكل برودة شعار الخليفة المظلوم وشعار الخليفة القتيل، دخل عليه أولاد عثمان بن عفان وقالوا لـه: لقد [[جاءنا]][1] هذا الأمر، وتم الأمر لـك يـا أمـير المؤمنين، فما بالك لا تقبض على قتلة أبينا، قال: أوَ لا يكفيكم أنكم صرتم حكام المسلمين[2]

نحن ننظر إلى معاوية بعد أن ارتكب الفظائع وغيّر أحكام الشريعة وأبدع في السنة، ننظر إلى معاوية بعد أن استخلف يزيد ابنه على أمور المسلمين

فقال. إني والله ما قاتلتكم لتصلوا ولا لتصوموا ولا لتحجوا ولا لتزكوا إنكم لتفعلون ذلك. وإنما قاتلتكم لأتأمر عليكم وقد أعطاني الله ذلك وانتم كارهون.

مقاتل الطالبيين، أبو الفرج الأصفهاني: ٤٥. والبداية والنهاية: ٨/١٤.

(١) في الأصل ((جعلنا)) ، وبها تكون العبارة غير ذات دلالة، فوضعنا ما بين المعقوفتين.

(٢) النص التاريخي: قال ابن عبد ربه: قدم معاوية المدينة بعد عام الجماعة، فدخل دار عثمان بن عفان، فصاحت عائشة ابنة عثمان، وبكت، ونادت أباها: واعثماناه، تحرض بذلك معاوية على القيام بطلب ثأره. فقال معاوية: يا ابنة أخي إن الناس أعطونا طاعة وأعطيناهم أمانا، وأظهرنا لهم حلما تحته غضب، وأظهروا لنا ذلا تحته حقد، ومع كل إنسان سيفه، ويرى موضع أصحابه، فإن نكثنا بهم نكثوا بنا، ولا ندري أعلينا تكون الدائرة أم لنا، ولئن تكوني ابنة عم أمير المؤمنين خير من أن تكوني امرأة من عرض الناس.

العقد الفريد، ابن عبد ربه، طبع مصر: ٣/١٢٦.

وبعد أن قتل مئات من الأبرار والأخيار، ننظر إلى معاوية بعد أن تكشّفت أوضاعه، لكن فلنفرض أنّ شخصاً ينظر إلى معاوية قبل أن تُكشف له هذه الأوضاع، لنفترض أنّ أولئك الأشخاص يعيشون في إطار الأمة الإسلامية وقتئذٍ، معاوية ماذا كان يكشف عن أوضاعه وقتئذٍ على المسلمين الّذين كانوا يدورون في فلك السقيفة، وحكومات السقيفة، ماذا كان من أوراق معاوية مكشوفاً وقتئذٍ ؟ كان معاوية شخصاً قد مارس عمله الإداري والسياسي بعد وفاة رسول اللّه صلى الله عليه وآله بأقل من سنة، خرج إلى المدينة وذهب إلى الشام كعامل عليها، وبقي معاوية هناك مدللاً محترماً معززاً من قبل ابن الخطاب الذي كان ينظر إليه بشكل عام في المجتمع الإسلامي، بنظرة الاحترام والتقدير، حتى أنّ عمر بن الخطاب، حينما أراد أن يؤدب ولاته، استثنى معاوية من هذا التأديب، وحينما أراد أن يقاسم أموال ولاته استثنى معاوية من ذلك؟ ! فمعاوية كان والياً موثوقاً به معززاً من الناحية الإسلامية عند ابن الخطاب[١] وبعد هذا جاء عثمان فوسّع من نطاق ولاية معاوية، وضم إليه عدة بلاد

---

(١) النص التاريخي: قال عمر لمعاوية: ما سألتك عن شئ قط إلا تركتني منه في أضيق من رواجب الضرس، لا آمرك ولا أنهاك.

شرح النهج، ابن أبي الحديد: ٢٩٨/٨ـ٢٩٩. قال معاوية، لعمر: فمرني يا أمير المؤمنين بما شئت، قال: لا آمرك ولا أنهاك. البداية والنهاية، ابن كثير: ١٣٣/٨.

أخرى[١]، إضافة إلى الشام، ولم يطرأ أي تغيير في ابن أبي سفيان، فمعاوية لم يكن شخصاً مكشوفاً، بل كان شخصاً عنوانه الاجتماعي أنّه حريص على كرامة الإسلام، وإنّه هو الشخص الذي استطاع أن يدخل في قلب الخليفة الخشن الذي يعاتب ويعاقب الذي كان يضرب ابنه بحد الخمر حتى يموت، هذا الخليفة لم يضرب معاوية، ولم يعاقبه، معاوية كان نتيجة الترويجات من قبل الحكام والخلفاء المنحرفين، وكان يتمتع بسمعة طيبة وبمفهوم طيب، هنا دخل الصراع لأول مرة شعار الأخذ بالثأر لدم عثمان، هذا الشعار الذي أخذه معاوية وكان يبدو للبسطاء من الناس وكثير من المغفلين، كان شعاراً له وجهة شرعية، كان يقول بأن عثمان قتل مظلوماً[٢]، وعثمان بالرغم من انه خان

---

(١) فقد ضم عثمان حمص وقنسرين وفلسطين، إلى ولاية معاوية؛ فأصبحت هذه الأجناد والشام تحت ولايته إبان خلافة عثمان. انظر: تاريخ الطبري: ٣/٣٩٩.

(٢) النص التاريخي: ((إن أبا مسلم الخولاني قدم إلى معاوية في أُناس من قراء أهل الشام ـ قبل مسير أمير المؤمنين عليه السلام إلى صفين ـ فقالوا له: يا معاوية علام تقاتل علياً، وليس لك مثل صحبته ولا هجرته ولا قرابته ولا سابقته ؟ قال لهم: ما أقاتل علياً وأنا أدّعي أن لي في الإسلام مثل صحبته ولا هجرته ولا قرابته ولا سابقته، ولكن خبروني عنكم، ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوما؟ قالوا: بلى. قال: فليدع إلينا قتلته فنقتلهم به)).

صفين، نصر بن مزاحم المنقري : ٨٥. وشرح النهج، ابن أبي الحديد : ١٥ /٧٥.

الأمانة من استهزاء بالإسلام، وبالرغم من انه صيّر الدولة الإسلامية إلى دولة عشيرة وقبيلة، وبالرغم من انه ارتكب الجرائم التي أدنى عقابها القتل، بالرغم من هذا، ابن أبي سفيان يقول: قتل عثمان مظلوماً. وليس هناك من يعرف بأن عثمان يستحق القتل، كثير من الناس البسطاء أيضاً يقولون: عثمان قتل مظلوماً؛ فلابدّ من القصاص، فيا علي إنْ كنت قادراً فاعطنا قاتليه، وان كنت عاجزاً، فأنت عاجز عن أن تطبق أحكام الإسلام فاعتزل الحكم لان الخليفة يشترط فيه القدرة على تطبيق أحكام الإسلام.

هذا هو الشعار الذي أبرزه معاوية في مقابل الإمام عليه السلام، والإمام عليه السلام في مقابل هذا الشعار لم يكن يريد بأن يصرّح بأن عثمان كان جديراً بأن يُقتل أو كان يجب أن يُقتل لأنه لو صرح بهذا؛ لتعمّق اتهام معاوية وطوّر التهمة من قول: اعطني، إلى قول: انك قتلت عثمان، فبقي شعار معاوية شعاراً مضللاً إلى حد كبير.

ثم لابدّ وأن نلاحظ الجهود والأتعاب والتضحيات التي قام بها المسلمون في كنف علي عليه السلام لا ادري هل أنّ أحداً جرّب أو لم يجرب هذا الإيحاء النفسي، حينما تكون المهمة صعبة على الإنسان وثقيلة، حينئذٍ توسوس له نفسه بالتشكيك في هذه المهمة بمختلف التشكيكات، فحينما يصعب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حينئذ يأخذ بالوسوسة، من قال بأن هذا الرجل مبطل، من قال انه قادر على هذا الكلام من قال: إنّ شروط الأمر

بالمعروف تامة، وهكذا يوسوس لأجل أن يستريح من هذه المهمة، لأجل أن يلقي عن ظهره هذا العبء الكبير، كل إنسان يميل بطبعه إلى الدعة، إلى الكسل إلى الراحة إلى الاستقرار، فإذا وضعت أمامه مهام كبيرة، حينئذ، إذا وجد مجالاً للشك في هذه المهمة فسوف يكون عنده دافع نفسي إلى أن يشك، يشك لأجل أن يريد أن يشك، ويشك لأجل انه من مصلحته أن يشك، وهذا كان موجوداً على عهد الإمام عليه السلام.

العراقيون قدّموا من التضحيات شيئاً كثيراً، بذلوا أموالهم ونفوسهم ودماءهم في حروب ثلاثة، آلاف من العراقيين ماتوا وقتلوا، عشرات من الأطفال يُتموا آلاف من النساء أصبحن أرامل، آلاف من البيوت والعوائل تهدّمت، كثير من المدن والقرى غارت عليها جيوش معاوية، كثير من هذه المآسي والويلات حلَّت بهؤلاء المسلمين، نتيجة ماذا ولأجل ماذا؟ لأجل أن يزداد مالهم، لا، لأجل أن يزداد جاههم، لا، وانما لحساب الرسالة، لحساب الخط، لحساب المجتمع الإسلامي، لأجل هذا الهدف الكبير، وهذا هدف كبير اعز من كل النفوس واعز من كل الدماء واعز من الأموال، لكن نحن يجب أن نقدّر موقف هؤلاء الّذين ضحّوا وبذلوا وقدّموا، ثم أصبحوا يشككون لان

مـن مصـلحتهم أن يشككوا، وأصبح الإمام يدفعهم فلا يندفعون، يحركهم[١]، فلا يتحركون.

لماذا ؟

لان من مصلحتهم أن يعطوا للمعركة مفهوماً جديداً، وهو أنّ القصة قصة زعامة علي أو معاوية، ما بالنا وعلي ومعاوية، أما أن يكون هذا زعيماً وأما أن يكـون ذلـك زعـيماً، نحـن نقف على الحياد ونتفرج، فأما أن يتم الأمر لهذا أو لـذاك، هذا التعبير بداياته، وهذا التفسير الذي أوحت مصلحة هؤلاء وهؤلاء هـو الـذي كـان يشكل عقبة دون أن يتحركوا دون أن يتحرك هؤلاء من جديد إلى خـط الجهاد، هذا التعبير هو الذي جعل أمير المؤمنين عليه السلام يبكي من على المنبر، ويـنعى أصـحابه الّذيـن ذهـبوا، أولـئك الّذين لم يشكوا في خطه وفيه

(١) الـنص الـتاريخي: ((فصـعد علـي المنـبر فتكـلم كلاما خفيا لا يسمع، فظن الناس أنه يدعو الله، ثم رفع صوته فقال: أما بعد يا أهل الكوفة أكلما أقبل منسر من مناسر أهل الشـأم أغلـق كل امرئ بابه وانجحر في بيته انجحار الضب والضبع الذليل في وجاره ؟ أف لكـم! لقـد لقيـت منكم يوما أناجيكم ويوما أناديكم، فلا إخوان عند النجاء، ولا أحرار عند النداء)).

تـاريخ الـيعقوبي: ٢ /١٩٥. وكانـت هـذه الخطـبة بعـد إغارات جند معاوية على الأنبار، اليمن والحجاز وغيرها من المناطق.

لحظة، أولئك الّذين آمنوا به إلى آخر لحظة.

أولـئك الّذين كانوا ينظرون إليه كامتداد لرسول اللّه صلى الله عليه وآله، من قبيل عمار وأمـثاله، هـذا عمـار الذي وقف بين الصفين، ووضع سيفه على بطنه، وقال: واللّه إنك تعلم لو كان رضاك أن تغمد هذا في بطني حتى أخرجته من ظهري لفعلـته، واللّـه إنـك تعـلم أنـي لا اعـلم رضـا إلا في قـتال هـؤلاء المـائعين المنحرفين[1]، كان يبكي لأمثال عمار، لأن عماراً وأمثاله كانوا قد ارتفعوا فوق هـذه الشـكوك، قـد طلّقـوا مصـالحهم الشخصـية لمصلحة الرسالة، كانوا قد غضـوا الـنظر عـن كـل الاعتـبارات الخاصة في سبيل حماية كيان الإسلام، وفي سبيل إعادة مجد المجتمع الإسلامي ووحدة المجتمع الإسلامي إلى هؤلاء.

اصـبح هـؤلاء الّذيـن كـانوا يفكـرون في الهموم الكبيرة يفكرون في الهموم

---

(١) الـنص الـتاريخي: عـن ((عـبد الملـك بـن أبي حر الحنفي أن عمار بن ياسر خرج إلى الـناس فقـال: الـلهم إنـك تعـلم أنـي لو أعلم أن رضاك في أن أقذف بنفسي في هذا الـبحر لفعلـته الـلهم إنـك تعـلم أنـي لـو أعـلم أن رضاك في أن أضع ظبة سيفي في صـدري ثـم انحـني علـيها حـتى تخرج من ظهري لفعلت وإني لا أعلم اليوم عملا هو أرضـى لـك مـن جهاد هؤلاء الفاسقين ولو أعلم أن عملا من الأعمال هو أرضى لك منه لفعلته)).

صفين: ٣٢٠، وتاريخ الطبري: ٤/٢٦ـ٢٧.

الصغيرة، أصبحوا يفكرون في قضاياهم، يجب أن لا نعتب عليهم، نحن أسوأ منهم فنحن لم نرتفع لحظة، هكذا نهبط، وهؤلاء ارتفعوا لحظة ثم هبطوا. هؤلاء خرجوا من بلادهم وطلّقوا نساءهم وأطفالهم وأموالهم في سبيل اللّه، وفي سبيل قضية ليس لهم ربح مادي فيها. هؤلاء فعلوا هذا ساعة ثم أدركهم الشيطان، أمّا نحن لا ندري إذا وقفنا مثل هذا الموقف هل نصمد ولو ساعة أو نبقى مكاننا، على أي حال هؤلاء كانوا ثلة، لم يكونوا عمار بن ياسر، هؤلاء بدأ الشك يتسرب إلى نفوسهم[١]، بدأوا يشكون في هذا الإمام عليه السلام الصالح

---

(١) النص التاريخي: ((ثم قام عثمان بن حنيف، وكان من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان عاملا لعلي على البصرة، وكان له فضل، فقال: أيها الناس، اتهموا رأيكم، فقد والله كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية، يوم أبي جندل وإنا لنريد القتال، إنكاراً للصلح، حتى ردنا عنه رسول الله، وإن أهل الشام دعوا إلى كتاب الله اضطرارا، فأجبناهم إليه إعذاراً، فلسنا والقوم سواء إنا والله ما عدلنا الحي بالحي، ولا القتيل بالقتيل، ولا الشامي بالعراقي، ولا معاوية بعلي، وإنه لأمر منعه غير نافع، وإعطاؤه غير ضائر، وقد كلت البصائر التي كنا نقاتل بها، وقد حمل الشك اليقين الذي كنا نؤول إليه، وذهب الحياء الذي كنا نماري به، فاستظلوا في هذا الفيء، واسكنوا في هذه العافية، فإن قلتم: نقاتل على ما كنا نقاتل عليه أمس، هيهات هيهات، ذهب والله قياس أمس، وجاء غد. فأعجب علياً قوله، وافتخرت به الأنصار، ولم يقل أحد بأحسن من مقالته)). لح

حـتى تمـنى الموت، لان الإمام عليه السلام أصبح يحس أنّه انقطع عن هؤلاء، وأصبح منفصلاً عنهم. إنّهم اصبحوا لا يفهمون أهداف رسالته، ومن أمرّ ما يمكن أن يقاسـيه زعـيم أو قائد أن يعيش في جماعة لا تتفاعل معه فكرياً، ولا تعيش مع أهدافـه ولا مـع خطه، مع إنسان يبذل كل ما لديه في سبيلهم، وهم لا يحسون أنّ كـل هـذا في سـبيلهم، وانما يشكون فيه، في نيته، هذا هو الامتحان العسير الـذي قاساه افضل الصلاة والسلام عليه، لكن بالرغم من كل هذا الامتحان يحاول أن يبث من روحه الكبير في هذا المجتمع المتفتت الذي بدأ يشك، والذي بـدأ يـتوقف، كـان يحاول أن يبث فيهم من روحه الكبير، إلى أن خر شهيداً في مسجد الكوفة.

اللّهم اجعلنا ممن ينتصر لدينك.

الإمامة والسياسة، ابن قتيبة الدينوري : ١ /١٤٠ـ ١٤١، الأخبار الطوال : ١٨٩.

ثلاثة أئمة

يـدور هذا البحث حول حياة الأئمة الثلاثة «الحسن[١] والحسين وعلي بن الحسـين عليه السلام الّذيـن يشـكلون مع أبيهم عليه السلام[٢] على ما قلناه سابقاً، المرحلة الأولى مـن المـراحل الـثلاث لحـياة [[الأئمة]] عليهم السلام، فإننا قلنا فيما تقدم عن تاريخ الأئمة عليهم السلام على أنّ هذا التاريخ يمكن تقسيمه إلى مراحل ثلاث.

المرحلة الأولى:

وهـي مرحلة تفادي صدمة الانحراف، هذه المرحلة هي التي عاش فيها قادة أهل البيت عليهم السلام مرارة الانحراف، وصدمته بعد وفاة رسول اللّه صلى الله عليه وآله، وكانت مـرارة هـذا الانحـراف وصـدمة هـذا الانحـراف الـتي كـان من الممكن أن تمتد وتقضي على الإسلام ومصالحه وعلى الأمة الإسلامية، فتصبح قصة في التاريخ لا وجود لها في خط الزمن المستمر.

الأئمـة عليهم السلام في هـذه المـرحلة عاشوا صدمة الانحراف وقاموا بالتحصينات اللازمـة بقدر الإمكان، بكل العناصر الأساسية للرسالة ضد صدمة الانحراف، فحافظوا على الرسالة الإسلامية نفسها.

---

(١) انظر: هامش رقم (١) ص: ٨٠ـ٨١.

(٢) أي مع أمير المؤمنين عليه السلام.

كل هذه الأركان والمقوّمات حصّنوها تجاه صدمة الانحراف. هذه هي المرحلة الأولى وتبدأ بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، وتستمر إلى حياة الإمام الرابع من قادة أهل البيت عليهم السلام.

المرحلة الثانية:

ثم تبدأ المرحلة الثانية، والإمام الباقر عليه السلام شبه البداية لها. وحينما نقول شبه البداية، لأن تصور هذا العمل ليس حدّياً، حيث يمكن أن نقف على اللحظة، فنقول: هذه اللحظة هي نهاية المرحلة وبداية أخرى، وإنما هذا التصور يتفق مع طبيعة الأحداث المتصورة في خط تاريخ الإسلام.

والمرحلة الثانية: هي المرحلة التي شرع فيها قادة أهل البيت عليهم السلام ـ بعد أن وضعوا التحصينات اللازمة وفرغوا من الضمانات الأساسية ضد صدمة الانحراف ـ ببناء الكتلة، بناء الجماعة المنطوية تحت لوائهم، الشاعرة بكل الحدود والأبعاد من المفهوم الإسلامي المتبنى من قبلهم عليهم السلام، منذ زمان علي بن الحسين عليه السلام، وإلى زمان الإمام الباقر والصادق عليهما السلام كان هذا العمل يبلغ القمة، وليس معنى ذلك أنّ هذا العمل الأول الذي كان اللبنة الرئيسية للمرحلة، قد انقطع، وإنما معنى هذا أنّ العمل الأول استمر، لكن حيث أنّ صدمة الانحراف، كان قد أمكن تقليل خطرها، خلال ما قام به الأئمة الأربعة الأول من جهود وتضحيات في سبيل حفظ الإسلام، وهذا يحتم أن يواجه قادة أهل البيت عليهم السلام المهمة الجديدة، مهمة بناء الجماعة الصالحة من مجموع هذه

الأمـة، التي حصنت بالحد الأدنى من التحصين، ولابدّ أن تُنتَخبَ مجموعة من هـذه الأمة، فيحَصّنون بأعلى درجة ممكنة من التحصين، ويوعّون بأعلى درجة ممكـنة مـن التوعـية، حـتى تكـون هـذه الجماعة، هي الرائد والقائد والحامي للوعي الإسلامي الذي حُصّن بالحد الأدنى.

هـذا العمـل مارسـه الإمام الباقر عليه السلام على مستوى القمة، وقلنا: إنّ هذه المـرحلة استمرت إلى زمن الإمام الكاظم عليه السلام، وفي زمان الإمام الكاظم عليه السلام بدأت المرحلة الثالثة.

وهذه المرحلة الثالثة:

لا تحدد بشكل بارز من قبل الأئمة عليهم السلام أنفسهم، بل يحددها بشكل بارز، موقـف الحكم المنحرف من الأئمة أنفسهم(١)، وذلك لان الجماعة التي نشأت في ظـل المـرحلة الثانية التي وضعت بذرتها في المرحلة الأولى، نشأت ونمت في

---

(١) إن مواقـف سـلاطين بـني العـباس، المنصـور، المهدي، والرشيد من الإمامين الصادق والإمـام الكـاظم عليهما السلام، والتضييق عليهما وسجنهما المتكرر يوضح ما يشير إليه السيد الشـهيد رضي الله عنه، كمـا أن مطالـبة الإمام الكاظم عليه السلام بفدك وحَدِها من قبله عليه السلام لـلمهدي والرشـيد دلـيل قـوي يوضـح ما كان عليه وضع الإمام عليه السلام، واتساع قاعدة مواليه، والتحول الذي شهدته المرحلة الثانية.

انظر: بحار الأنوار، العلامة المجلسي: ٤٨/١٢١ – ١٣٧.

ظل المرحلة الثانية، وهذه الجماعة غزت العالم الإسلامي وقتئذٍ، وبدا للخلفاء أنّ قيادة أهل البيت عليهم السلام، أصبحت على مستوى تسلّم زمام الحكم والعود بالمجتمع الإسلامي إلى حظيرة الإسلام الحقيقي، وهذا خلّف بشكل رئيسي ردود الفعل للخلفاء تجاه الأئمة عليهم السلام من أيام الإمام الكاظم عليه السلام.

هذه هي المراحل الثلاث التي سوف نستوعبها بالتاريخ، خلال تاريخ كل واحد من الأئمة عليهم السلام إلى أن يكملوا، وخصيصة هذه المرحلة الرئيسية، إنّ الأئمة الأربعة عليهم السلام قاموا بتحصينات المقوّمات الإسلامية للحضارة الإسلامية ضد صدمة الانحراف، بهذا الانحراف وعمقه وخطورته يمكن أن نتنبه حينئذ لجلالة وعظمة منجزات الأئمة عليهم السلام.

صدمة الانحراف: خطورة هذا الانحراف الذي يمكننا أن نوجزه في جملة بسيطة قصيرة جداً، هي أنّ شخصاً غير علي بن أبي طالب عليه السلام تولّى الأمر بعد رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم، وأصبح سلطان المسلمين بعده.

هذه الجملة البسيطة هي التي تشكل كل هذا البلاء العظيم بكل مضاعفاته ونتائجه التي سوف نتحدث عنها، وليست هذه الجملة معبرة فقط عن ظلم وغبن شخصي للإمام عليه السلام، واستيلاء على حق خاص من حقوقه، ليس هكذا، لو كان مجرّد مظلومية علي عليه السلام، لوقف على مستوى العقيدة الدينية، ولم يسر إلى الحياة الإسلامية في كل مجالاتها الخارجية، لم تكن المسألة مسألة عقيدة فحسب، أو نزاع بين شخصين في حق مشروع يدّعيه المدعي وينكره

المنكر، لم يكن هذا وإنما كان تغيير شخص الحاكم، تعريضاً للتجربة الإسلامية للفشل المحقّق فعلاً، ثم خطر الانهيار الكامل في المستقبل.

بيان ذلك، ولكي يتضح هذا المعنى تماماً، لابدّ وأن نعرف ما هي الرسالة التي بمجرد تغيير شخص الحاكم فيها، بمجرد استيلاء أبي بكر على الحكم بدلاً من الشخص المعيّن من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله بالنص، يزعزع كيان هذه الرسالة ثم يمحقها محقاً كاملاً، لولا جهود الأئمة عليهم السلام.

كيف أن مجرد تغيير هذا الحاكم يوجب هذا العمق في الخطر وهذا المحق في نهاية الشوط، وما هي الرسالة الإسلامية حتى نعرف على ضوء ذلك كيف يكون هذا الخطر عميقاً، ثم نفهم بعد هذا ما هي التحصينات ضد هذا الخطر العميق، هناك منذ البدء نظرتان أساسيتان للكون ولموقف الإنسان من الكون.

إحدى هاتين النظرتين: أن يرى أنّ الكون مملكة لمليك قدير يراقب من وراء الستار مراقبة غير منظورة، هذه هي النظرة الأولى التي يتحدد بها موقف الإنسان من الكون وطبيعة هذا الكون، وهذه النظرة تستبطن حتماً الشعور بأن وجود الإنسان في الكون، هو وجود الأمين ووجود الخليفة[1]، لا وجود

---

(١) إن الفكرة التي يشير إليها السيد الشهيد رضي الله عنه منتزعة من الآيتين المباركتين: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ (الأحزاب: ٧٢)، والآية: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ

الأصيل والمتحكم، لأن هذه مملكة غيره بكل ما فيها من وجود، بما فيها نفس الإنسان، هي مملكة ذاك المليك القدير المراقب من وراء الستار، وهذا يشعر بأنه يقوم بأعباء الأمانة والخلافة، هذه الخلافة التي قام فيها آدم عليه السلام، وقامت به بعد ذلك الأجيال الصالحة لبني آدم.

هذه الخلافة والأمانة تستبطن معنى آخر هو ضرورة استيحاء الأمر والنهي والتدبير والتقدير والتقديم من قبل ذلك المليك القدير، لأنه خليفة وأمين، والأمين لابدّ له أن يطبق على الأمانة التي استؤمن عليها قرارات المالك، فلابدّ للإنسان إذن أن يكون رهن ذلك المليك القدير.

ثم إنّ الجزء الآخر لهذه النظرية الأساسية، المليك القدير المراقب من وراء الستار، يراقب ويحاسب ويدقق، لكن بطريقة خاصة في المراقبة والتدقيق، فإنّه يراقب من وراء الستار، لا يتجلى للإنسان في مملكته جهاراً فكل من عصاه ينزل به العقوبات، بل يختفي عن مملكته بحسب المنطق الحسي، ويراقب أهل هذه المملكة، فكرة يراقب من وراء الستار، تستبطن المسؤولية تستبطن الثواب والعقاب، والحساب والعقاب يستبطن وجود عالم آخر، وراء هذا العالم، لتحقيق نتائج هذه المراقبة المستورة الغير السافرة والعاجلة من قبل ذلك المليك القدير، إذن جاءت فكرة عالم آخر للجزاء والحساب والعقاب،

﴿لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأرض خَلِيفَةً﴾. البقرة: من الآية٣٠.

حينئذٍ تجيء فكرة الأهداف الكبيرة، وحينئذٍ الإنسان لا يكون قيد هذا الشوط القصير في الدنيا، بل يكون رهن خط طويل يمتد من ذلك العالم المنظور وحينئذٍ يكون الإنسان على مستوى الأهداف الكبيرة، الأهداف التي لا يستطيع هو أنْ يستفيد منها ويمتصها ويستنزفها، أعظم الأهداف واجل الأهداف وأسمى الأهداف، هي تلك الأهداف التي تكون أوسع من عمر الإنسان.

واحد من هذه الأهداف كيف يمكن أن تعلم الإنسانية بها، وتعمل الإنسانية على تحقيقها، إذا كانت الإنسانية لا ترى الأمر في نظرها إلا هذا الشوط القصير، إذن هذا الهدف ليس هدفها، لأنها لا تستلزم خسارة هذا الهدف، ولا تشرب نخبه فتكون هذه الأهداف معطلة، وتبقى الإنسانية رهن الأهداف القصيرة وهي غايات المادة المحدودة، وهذه الغايات المحدودة هي منطلق ألوان كثيرة من الكفاح والصراع ما بين الأسرة البشرية بين فرد وفرد بين مجتمع ومجتمع، بين قومية وقومية، بين أُمة وأمة، أما إذا أصبحت البشرية على مستوى الأهداف الكبيرة لأنها انطلقت في غاياتها وفي ثباتها إلى أكثر من حدود هذه الدنيا، حينئذٍ تستطيع أن تقوم بأعباء تلك الأهداف الكبيرة.

من خرج من بيته مهاجراً في سبيل اللّه، فمات وقع اجره على اللّه[1]

---

(١) الآية: ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إلى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾، النساء: ١٠٠.

كـم مـن الـناس درسوا وماتوا قبل أن يحققوا النتيجة، كم من آلاف المجاهدين خـرجوا لـلحرب واستشـهدوا قـبل أن يذوقوا لذة النصر والانتصار، كم من آلاف مـن المجـاهدين والمعـلمين طـافوا وتحمّلـوا في سـبيل مبادئهم من الأذى والظـلم والإهانـة، ومـاتوا قـبل أن يذوقـوا لذة الانتصار، إلا أنّ هؤلاء حيث أنهـم خـرجوا مـن بيوتهم هاجروا في سبيل اللّه سبحانه وتعالى وماتوا وسط الطـريق، فوقع أجرهم على اللّه سبحانه، وبذلك انفتح أمام هؤلاء طريق هذه الأهـداف الكبيرة، فلا يهم هذا الإنسان القصير العمر أن يموت خلال الخطوة الأولى أو الثانـية، مـا دام يسـير في خط في أي مرحلة منه يموت يقع اجره على اللّـه، هنا انفتح طريق الأهداف الكبيرة، انفتح باب أنّ القيم الخلقية لا معنى لهـا مـا لم تكـن عـلى مستوى الأهـداف الكـبيرة والجزاء الكبير غير المنظور، والقيم الخلقية من التضحية والفداء والحب والإيثار ونحو ذلك من الأمور، كل هـذه انفتح بابها لأنها جميعاً طرق اللّه سبحانه وتعالى، كل من يمشي في طريق مـن هـذه الطـرق ويمـوت ويخسـر ويبـتدئ تجاهها بصدمة يقع اجره على اللّه سـبحانه وتعالى، كل من يضحي فلا يلاقي جزاء تضحيته يقع اجره على اللّه. كـل من يقوم بخدمة للآخر فلا يلاقي جزاء من الآخر يقع اجره على اللّه. لأنه يدخـل في ملاك من خرج من بيته مهاجراً في سبيل اللّه فمات وقع اجره على اللّه.

هـذه الـنظرة الأساسية تشعبت منها كل هذه الشعب وكل هذه الفروع

التي بكاملها تشكل الحضارة الإسلامية.

فالحضارة الإسلامية عبارة عن هذه النظرة الأساسية بكل شعبها وفروعها التي ترجع بالنهاية إلى تجسيد كامل للعلاقة مع اللّه سبحانه وتعالى، في تفاعل الإنسان مع كل مجالاته الحيوية والكونية. هذه هي النظرة الأولى وفي مقابلها نظرة أخرى.

والنظرة الثانية: هي أن يرى الإنسان نفسه بأنه أصيل في هذا الكون[١].

وحينما ينظر في نفسه على أنه أصيل في هذا الكون، وأن هذا الكون مستقل وغير خاضع لمليك ومراقبة من وراء الستار، حينما تتركز في نظره هذه الأصالة والاستقلال بهذا الكون تنعدم المسؤولية، وإذا انعدمت المسؤولية في المقام، بقي عليه هو أن يتحمل المسؤولية بنفسه.

يعني، بدلاً من أن يشعر بأنه مسؤول ومراقب أمام جهةٍ علْيا تضعه أمام أهداف كبرى في سبيل الثواب الكبير والعقاب الكبير، يصنع هو المسؤولية

---

(١) إن هذه الرؤية قد أُسست عليها المدنية الغربية، كما تبنتها ودعت إليها الماركسية وإن ضيقت هذه الأصالة وحصرتها ((نظرياً)) بالطبقة العاملة. كما تبنى العلمانيون في العالم الإسلامي بعض معطياتها، وهو محاولة الفصل بين الإسلام والحياة السياسية للأمة، ولم تثمر محاولتهم إلا التراجع والنكوص.

انظر: الأسس الفلسفية للعلمانية، عادل ظاهر، دار الساقي، بيروت، ط١، ١٩٩٨.

وحينما يتحمل هو وضع المسؤولية تكون هذه المسؤولية نتاج نفسه، فينعكس فيما وضعه تمام ما في نفسه، تمام المحتوى الداخلي والروحي والحسي بكل ما فيه من نقص وشهوة، وحينئذ حينما يريد الإنسان أن يحدد لنفسه مسؤولياته، يحددها على ضوء أهدافه التي سوف يحددها على ضوء مدى طريقه، وحيث أنّ طريقه محدود، وحيث أنّ طريقه منكمش في نطاق المادة، فسوف تكون الأهداف على مستوى الطريق.

وحينما يكون كذلك، فسوف تكون المسؤوليات في نطاق هذه الأهداف، وبعد هذا سوف يخسر القيم الأخلاقية، ويتولد عن ذلك ألوان من الصراع والنزاع بين البشرية[1] حيث تصبح جماعات ووحداناً وهذه النظرة غير إسلامية.

لماذا جاء الإسلام ؟

الإسلام جاء لأجل أن يربّي الإنسان على النظرية الأولى، لا لأجل أن يكون مجرد عالم يجيء بنظرية ليكتبها في كتاب، بل جاء الإسلام ليربي الإنسان على هذه النظرية بحيث تصبح جزءاً من وجوده وتجري مع دمه وعروقه مع فكره

---

(١) إن الحربين الأولى والثانية، وما سبقها من عهود الاحتلال والاستكشافات، وما يجري اليوم، يعد مظهراً لما يشير إليه السيد الشهيد رضي الله عنه من فقدان المعايير والقيم الأخلاقية في التعامل.

وعواطفه وتنعكس على كل مجالات تصرفه وسلوكه مع اللّه سبحانه وتعالى، ومع نفسه ومع الآخرين.

فعليه لابدّ للإسلام أن يهيمن على هذا الإنسان، وعلى كل طاقاته وعلاقاته، ليستطيع أن يربيه، فالمربّي لا يستطيع أن يربّي شخصاً ما لم يهيمن عليه، إذا لم يهيمن عليه يكون مجرد أُستاذ وتلميذ، الأُستاذ يلقي النظرية العلمية للتلميذ، فان شاء التلميذ قبل وان شاء رفض وهذا باب التلمذة والبحث.

وأما باب التربية فانه باب الهيمنة، الأب يستطيع أن يربّي ابنه فيما إذا هيمن عليه: وعليه فالهيمنة هي الشرط الأساسي للتربية، والهيمنة كلما كانت أوسع نطاقاً وأوسع مجالاً كانت اكثر إنجاحاً لعملية التربية.

قلنا: إنّ الأب يستطيع أن يربي ابنه، لكن قد لا يستطيع أن ينجح، لأن وجود ابنه ليس كله تحت هيمنته وسيطرته لان هذا الابن هو ابنه، وأيضاً ابن المجتمع، ابن مجتمع كبير يتفاعل معه ويتأثر به ويؤثر فيه، ويتبادل معه العواطف والمشاعر والأفكار والانفعالات.

قد يقيم معه علاقات بالحقول الأخلاقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغير ذلك من مجالات حياته فهو ليس ابنه وحده بل ابن المجتمع أيضاً، الأب أقوى حقيقة وأبوته مجازية، فبنوة المجتمع لهذا الولد أكثر بكثير من بنوته لهذا الأب الذي ولد منه، ولهذا قد يعجز كثير من الآباء عن تربية أبنائهم في

المجتمع الفاسد. كم سمعت من أب يتذمر إذ انه لا يستطيع أن يربّي ابنه في آخر الزمان ومع هذا الفساد مثلاً، كل هذا لأنه يوجد أب آخر لهذا الابن وهو المجتمع.

كيفية وجود التربية الكاملة:

والتربية الكاملة لا يمكن أن تكون لهذا الفرد، إلّا إذا هيمن المربّي عليه على علاقاته الاجتماعية وروابطه مع غيره أيضاً، يصبح تمام هذا الوجود تحت سيطرة هذا المربّي بحيث يصير شخص واحد هو الأب ويكون هو المجتمع، فحينئذ يصبح هذا مربياً كاملاً مطلقاً بالنسبة إلى هذا الابن.

وهذا ما صنعه رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم، هيمن على العلاقات الاجتماعية، لأنه تزعّم بنفسه المجتمع، لأنه أنشأ مجتمعاً وقاده بنفسه، ووقف رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم يخطط لهذا المجتمع ويبني كل العلاقات داخل الإطار الاجتماعي، علاقة الإنسان مع نفسه، علاقته مع ربه، علاقته مع عائلته، علاقته مع بقية أبناء مجتمعه، علاقته في مختلف المجالات والحقول الاجتماعية والشخصية، فكان هو الذي يخطط، لذا كل هذه الأمور صارت تحت هيمنته، فحينئذ استكمل الشرط الأساسي للتربية الناجحة.

ولا شك أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم، لو كان قد امتد به العمر، أو كان قد امتدت التجربة الإسلامية من بعده على يد خلفائه المعصومين الميامين من أهل بيته من أمير المؤمنين عليه السلام، وأولاده عليهم السلام إذن لقدّر لهذه التجربة والتربية أن تؤتي

ثمارها بشكل عجيب، هذه الثمار نقرأها الآن بعنوان المعجزات والكرامات من أحوال الناس بعد ظهور الحجة، وتلك المعجزات والكرامات ليست معجزات وكرامات، وإنما هي نتيجة تربية، هل يمكن أن يبلغ المجتمع البشري إلى مستوى من التعاون والتعاضد، إلى مستوى من التوحيد والترفّع، بحيث يستغني عن النقد، عن التعبير المادي القاسي جداً في حياة الإنسان ؟

الروايات وقعت تقول بان هذا سوف يقع في عهد الحجة عليه السلام[1]. ونتيجة هذه التربية المخططة على يد رسول اللّه صلى الله عليه وآله ويد الخلفاء المعصومين من أهل بيته عليهم السلام، فالتجربة الإسلامية إذن كانت تشمل عناصر ثلاثة، باعتبار أنها عملية تربية من فاعل وهو المربي، ومن تنظيم يستمد من قبل الشريعة، ومن حقل لهذا التنظيم وهو الأمة أي المجتمع، هذه هي العناصر الثلاثة المزدوجة في هذه التجربة.

ولكن الانحراف بدأ يغير العناصر الرئيسية لهذه التجربة.

أحد هذه العناصر لهذه التجربة تهدّم بعد وفاة رسول اللّه صلى الله عليه وآله بمعنى أنّ

---

(١) النص: عن أبي سعيد وجابر بن عبد الله قالا، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ((يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعده)).

مسند أبي يعلى الموصلي : ٢/ ٤٢١. وكشف الغمة، ابن أبي الفتح الإربلي: ٣ /٢٨٤. والدر المنثور، جلال الدين السيوطي: ٦ / ٥٨.

ثلث التجربة الإسلامية تهدّم، تهدّم ذاك البناء الذي لأجله جاءت أربع وعشرون ألف رسالة من السماء، وكان تهدّم هذا الجزء الواحد كفيلاً بهدم الجزأين الآخرين، لأن هذه التجربة متفاعلة في عناصرها، فبهدم جزء منها يتهدم الجزءان الآخران. لا ندري أنّ المسلمين وقتئذ، هل كانوا يتصورون عمق هذا الانحراف بعد هذا... ؟! أكبر الظن انهم لم يكونوا يتصورون ذلك، بل غاية ما كانوا يتصورونه أنّ المسألة مسألة تغيير حكم من أحكام اللّه لا أكثر، إنْ اللّه سبحانه وتعالى جعل علياً، وهم جعلوا أبا بكر، إما باقي الجهات فيبقى الوضع فيها على حاله، بقيت الصلاة على حالها، بقيت الزكاة على حالها تجبى، بقي الفقراء يُعطَونَ منها، بقي كتاب اللّه يُقرأ في المساجد، بقيت الجماعات تقام ظهراً وعصراً، ومغرباً وعشاءً وصباحاً، بقي بيت اللّه يحج إليه عشرات الآلاف من الناس، بقي الجنود والمرابطون يفتحون بلاد اللّه الواسعة، بلداً بلداً، وعليه لم يتغير شيء سوى أنّ شخصاً كان اسمه علي، هو أعدل وأعلم من أبي بكر، أُقصي من مقام الحكم لغلبة الأهواء والشهوات ولأمور أخرى سوف تذكر في حياة أمير المؤمنين عليه السلام، وجعل مكانه أبو بكر لا أكثر من هذا المقدار.

وفي الحقيقة لم يكن الأمر كذلك، وإنما كان هذا نذير شؤم بالنسبة إلى التجربة الإسلامية كلها، لما بدل شخص الحاكم وجعل مكانه آخر، هذا الحاكم الآخر لم يكن معصوماً ولم يكن مُصمَماً من قبل واضع التجربة، ومعناه

أنّ هـذا الإنسان على أقل تقدير ـ حتى لو أخذنا بمفهوم السنة عن أبي بكر ـ فهـو إنسان تحتشد في نفسه أفكار كثيرة خاطئة، تحتشد في نفسه شهوات كثيرة تعرّضـه للانحـراف، لم يكـن معصـوماً لا مـن ناحـية المفاهيم الفكرية ولا من الناحـية العملـية، هـذا الإنسان جاء ليتسلم زمام التجربة الإسلامية في بداية أمـرها بـدلاً مـن ذلـك الإنسـان المعصوم، حينئذٍ من هو الحاكم الآن، هو أبو بكر، أبو بكر يعني المجموعة الكثيرة من العواطف والمشاعر والانفعالات، إذن فالحاكم هو هذه الكُوَمة من الأفكار والعواطف. هذا هو أبو بكر، إذن فالحاكم هو هذه الحفنة، فلنفرض أنّ فيها ٥٠٪ أفكاراً وعواطف إسلامية لكن فيها ٥٠٪ من العواطف مما هو ليس بإسلامي، إذن فقد اصبح الحاكم مزدوج الشخصية، اصـبح الحـاكم في المقـام عبارة عن ٥٠٪ من الأفكار، والعواطف الإسلامية من جهـة رأي السـنَّة و٥٠٪ مـن العواطـف والأفكـار غير الإسلامية والجاهلية في المقـام، فبطبـيعة الحـال أنّ هـذا النصف الثاني على أقل تقدير لو لم نقل: بأن كـلا النصفين حاله هكذا، وأخذنا بنظرية من يقول: إنّ القصة قصة مناصفة، لا اقلّ من أنّ يكون هذا الشخص عرضة للانحراف[1].

---

(١) إن واقـع الـتجربة الـتي مارسـها الخلـيفة الأول ومـا تلاهـا تُعـدّ مظهـراً لهـذه الرؤية التحليلية.

الـنص الـتاريخي: ودخـل عبد الرحمان بن عوف في مرضه الذي توفي فيه. فقال: كيف ☜

⇐ أصبحت يا خليفة رسول الله ؟ فقال: أصبحت موليا، وقد زدتموني على ما بي أن رأيتموني استعملت رجلا منكم فكلكم قد أصبح وارم أنفه، وكل يطلبها لنفسه. فقال عبد الرحمان: والله ما أعلم صاحبك إلا صالحا مصلحا، فلا تأس على الدنيا ! قال: ما آسى إلا على ثلاث خصال صنعتها ليتني لم أكن صنعتها، وثلاث لم أصنعها ليتني كنت صنعتها، وثلاث ليتني كنت سألت رسول الله عنها، فأما الثلاث التي صنعتها، فليت أني لم أكن تقلدت هذا الأمر. وقدمت عمر بين يدي، فكنت وزيرا خيرا مني أميرا، وليتني لم أفتش بيت فاطمة بنت رسول الله وأدخله الرجال، ولو كان أغلق على حرب، وليتني لم أحرق الفجاءة السلمي. إما أن أكون قتلته سريحا، أو أطلقته نجيحا، والثلاث التي ليت أني كنت فعلتها، فليتني قدمت الأشعث بن قيس تضرب عنقه، فإنه يخيل إليّ أنه لا يرى شيئا من الشر إلا أعان عليه، وليت أني بعثت أبا عبيدة إلى المغرب وعمر إلى أرض المشرق فأكون قدمت يدي في سبيل الله، وليت أني ما بعثت خالد بن الوليد إلى بزاخة، ولكن خرجت فكنت ردأ له في سبيل الله. والثلاث التي وددت أني سألت رسول الله عنهن: فلمن هذا الأمر، فلا ينازعه فيه، وهل للأنصار فيه من شئ، وعن العمة والخالة أتورثان أو لا ترثان، وإني ما أصبت من دنياكم بشيء، ولقد أقمت نفسي في مال الله وفي المسلمين مقام الوصي في مال اليتيم إن استغنى تعفف، وإن افتقر أكل بالمعروف، وإن والي الأمر بعدي عمر بن الخطاب، وإني استسلفت من بيت المال مالا، فإذا مت فليبع حائطي في موضع كذا وليرد إلى بيت المال. تاريخ اليعقوبي: ٢ /١٣٧. وانظر: تاريخ الطبري: ٦١٩/٢ – ٦٢٠.

من هو الضامن لعدم الانحراف، هل الضامن هو الأمة، الأمة لم تكن على مستوى العصمة وقتئذ، كما أنّ أبا بكر لم يكن معصوماً، لقد كان من الممكن أنْ تبلغ الأمة درجة العصمة خلال تربية طويلة، لو أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام قد توالوا على أمة واحدة، ومارسوا عملية التجربة، كان من الجائز أنْ تبلغ الأمة بوصفها المجموعي مستوى العصمة بحيث لا تحتاج بعد هذا إلى قائد معصوم، بل هي تحكم نفسها بنفسها، هذا أمر جائز عقلاً، ولكن بعد رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم لم تكن الأمة معصومة، والدليل على هذا يأتي بعد ذلك، فإذا لم تكن الأمة على مستوى العصمة، إذن فسوف ينفتح من هذا الحكم غير المعصوم الخطر على الأجزاء الأخرى للتجربة، للمقّومات الأساسية للرسالة الإسلامية، سوف ينفتح الخطر على المصادر الأخرى، على الكتاب والسنة، ومن البديهي انه لم يكن الكتاب والسنة في عهد الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم مدونين في كتاب، لم يكن هذا الكتاب في أيدي المسلمين بوصفه كتاباً أو قرآناً، محدوداً من ألفه إلى يائه، وانتم تعلمون أنّ السنة لم تكن مكتوبة أصلاً وإنما كانت محفوظة في صدور المسلمين وقتئذ والسنة كانت هي في الصدر الثاني للإسلام، ماذا يترقب من شخص حاكم منحرف في المقام أنْ يقف من هذين المصدرين وان يعمل في حمايتهما، لم يكن هناك تحصين من الخارج من قادة أهل البيت عليهم السلام بالنحو الذي سوف نشرحه إنْ شاء اللّه، كان من الطبيعي أنْ يترقب، إنّ السنة سوف تكون عرضة للضياع والانحراف والتزوير على أساس الانحراف في هذا الحكم، فالمقّومات الأساسية للإسلام سوف

تـتطور وتـزوّر[١]، الإسـلام نظـرية للحـياة، هذه النظرية سوف تتطور وتزوّر

(١) الـنص الـتاريخي : يوضـح هـذا المـنعطف مـن خـلال تغيير مدلول المفهوم الإسلامي ((الجهاد مثلاً)) في حوارية الخليفة الثالث وولاته، روى الطبري بسنده : عن العلاء بن عبد الله بن زيد العنبري أنه قال: اجتمع ناس من المسلمين فتذاكروا أعمال عثمان وما صـنع فاجـتمع رأيهـم عـلى أن يبعـثوا إليه رجلا يكلمه ويخبره بأحداثه، فأرسلوا إليه عامـر بـن عـبد الله التمـيمي ثـم العنـبري وهـو الذي يدعى عامر بن عبد قيس فأتاه فدخـل علـيه فقـال له: إن ناسا من المسلمين اجتمعوا فنظروا في أعمالك فوجدوك قد ركبـت أمورا عظاما فاتق الله عز وجل وتب إليه وانزع عنها. قال لـه عثمان: انظر إلى هـذا فـإن الناس يزعمون أنه قارئ ثم هو يجيء فيكلمني في المحقرات فوالله ما يدري أين الله، قـال عامـر: أنـا لا أدرى أين الله؟ قال: نعم والله ما تدري أين الله، قال عامر: بلى والله إنـي لأدرى أن الله بالمرصـاد لـك، فأرسـل عثمان إلى معاوية بن أبي سفيان، وإلى عـبد الله بـن سـعد بـن أبي سرح، وإلى سعيد بن العاص، وإلى عمرو بن العاص بن وائـل السهمي، وإلى عبد الله بن عامر، فجمعهم ليشاورهم في أمره وما طلب إليه وما بلغـه عنهم، فلما اجتمعوا عنده قال لهم: إن لكل امرئ وزراء ونصحاء وإنكم وزرائي ونصـحائي وأهـل ثقتي وقد صنع الناس ما قد رأيتم وطلبوا إليّ أن أعزل عمالي، وأن أرجـع عـن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون، فاجتهدوا رأيكم وأشيروا عليّ، فقال له عبد الله بـن عامر: رأيي لك يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك، وأنْ تجمرهم ⟵ في المغـازي حـتى يذلـوا لـك فـلا يكون همة أحدهم إلا نفسه وما هو فيه من دبرة

وتشوّه بشكل آخر، بشكل جاهلي لا يختلف عن نظرية جاهلية لأن المصدر الأساسي للإسلام عرضة للتحريف وللإقصاء عن مجالاته الذهنية والإسلامية، وحتى لو لم تكن عرضة فان النصوص الموجودة في أمهات الكتب لم تكن تعطي النظرية الحقيقية للناس، الناس حسّيون اكثر منهم منطقيّون، الناس يعيشون ما يرون لا يعيشون ما يقرؤون حبراً على ورق، إذن فيعيشون ما يرون النظرية التي يمارسها أبو بكر ويمارسها الخلفاء الّذين تولوا من بعده، يمارس هذا الخط المنحني من الانحراف الذي اشتدّ انحناؤه بالتدريج حتى بلغ إلى الهاوية من الانحراف، سوف يعيشون هذا الواقع وهذا المجسَّد للنظرية الإسلامية للحياة، وسوف لن تبقى هناك أطروحة أخرى للنظرية الإسلامية للحياة وبذلك يفقد الإسلام أطروحته على المستوى النظري وعلى المستوى النضالي

دابته وقمل فروه، ثم أقبل عثمان على سعيد بن العاص فقال له: ما رأيك قال يا أمير المؤمنين إن كنت تريد رأينا فاحسم عنك الداء واقطع عنك الذي تخاف، واعمل برأيي تصب، قال: وما هو؟ قال: إن لكل قوم قادة متى تهلك يتفرقوا ولا يجتمع لهم أمر، فقال عثمان: إن أن هذا الرأي لولا ما فيه، ثم أقبل على معاوية فقال ما رأيك؟ قال أرى لك يا أمير المؤمنين أن ترد عمالك على الكفاية لما قبلهم وأنا ضامن لك قبلي، ثم أقبل على عبد الله بن سعد فقال: ما رأيك؟ قال أرى يا أمير المؤمنين أن الناس أهل طمع فأعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم.

تاريخ الطبري: ٣ /٣٧٢ـ٣٧٣.

بعد إنْ فقده على المستوى الواقعي والمستوى الاجتماعي والخارجي، بعد هذا سوف تزول الأمة نفسها، لأن هذه الأمة سوف ينعكس فيها بعد إقصاء مصادر الرسالة عنها، وبعد تشويه معالم النظرية الإسلامية في وجهها وبعد تعمّق الحاكم في انحرافه، ومعنى انحراف الحاكم انه سوف يتميع في حفظ مصالح الأمة وسوف يتحيّز في حاكميته، وسوف ينعكس هذا التميّع للامة في الظلم والفساد والتناحر والصراع فيما بين أفراد الأمة، لان الوالي لا يحفظ مصالحه الحقيقية، وسوف ينعكس على الأمة في الضياع والذل وفقدان الإرادة وفقدان الشعور بالمسؤولية.

إذن سوف تصبح الأمة، بعد شوط طويل من الزمن، ملؤها الفساد وانعدام الإرادة، وهذه التجربة الإسلامية المنحرفة، سوف تسقط حتماً في يوم من الأيام، لأنها منحرفة ـ ولو كانت إسلامية ـ وسوف تجيء بتجربة أخرى لا إسلامية مكانها وحينما تجيء تلك التجربة مكانها، سوف تواجه أُمة متميعة لا يوجد لديها أي مناعة ضد الكفر، وسوف تندمج هذه الأمة اندماجاً كاملاً بالتجربة الكافرة، وبذلك يضيع الإسلام والرسالة، والنظرية الإسلامية للحياة، وتضيع الأمة نفسها. هذه هي الأخطاء التي كان يُتَرَقَب أن تنجم من منطلق الانحراف يوم السقيفة.

بداية الانحراف

كنا نريد أن نحدد دور الأئمة عليهم السلام، والمخلصين ممن يدور في فلكهم من أهل البيت عليهم السلام، والواعين من المسلمين في عصرهم في حماية الإسلام، وردّ الفعل على ما يقع من انحراف بعد وفاة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله.

هناك دور مفروض للأئمة عليهم السلام في نص الشريعة الإسلامية، في عالم التشريع، وهو دور صيانة تجربة الإسلام، تجربة المجتمع الإسلامي التي أنشأها النبي صلى الله عليه وآله، وكان المفروض أنّ هذه القيادة تتسلسل في هؤلاء الأئمة الاثني عشر عليهم السلام واحداً بعد الآخر.

إلاّ أننا نريد أنْ نتحدّث عن هذا الدور التشريعي أدلته ومبرراته، يعني لا نريد أن ندرس مواطن العبرة من حياة الأئمة عليهم السلام ونفهم أنّ الأئمة عليهم السلام بعد أن أُقصوا عن مراكزهم القيادية في تزعّم التجربة الإسلامية للمجتمع والدولة وللأُمة، ماذا كان وصفهم، فإنّ معرفة وضع الأئمة بعد الإقصاء مما يؤثر في حالنا ومما نحن فيه من خط في عملنا، وفي تصورنا وموقفنا الإسلامي تجاه قضايانا وأهدافنا. الفكرة التي أريد أنْ أعرضها خلال أيام عديدة أُلخّصها في البدء بعدة كلمات ثم بعد هذا أبدأ بتطبيقها.

ماذا جابه الإسلام ؟

إنّ الإسلام جابه بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله، انحرافاً خطيراً في صميم التجربة الإسلامية التي أنشأها النبي صلى الله عليه وآله للمجتمع الإسلامي والأمة الإسلامية، وهذا

الانحراف في التجربة الاجتماعية للامة والتجربة السياسية للامة في الدولة الإسلامية، كان بحسب طبيعة الأشياء من المفروض أن يتسع ليتعمّق بالتدريج ـ على مرّ الزمن ـ الانحراف، يبدأ بذرة وتنمو هذه البذرة، وكلما تحقق مرحلة من الانحراف تمهد هذه المرحلة لمرحلة أوسع وارحب، فكان من المفروض أن يصل هذا الانحراف إلى خط منحن ـ طوال عملية تاريخية زمنية طويلة المدى ـ يصل إلى الهاوية، فتمر التجربة الإسلامية للمجتمع والدولة لتصبح مليئة بالتناقضات من كل جهة ومن كل صوب، وتصبح عاجزة عن مجاراة ومواكبة الحد الأدنى من حاجات الأمة ومصالحها حتى تعلن عن إفلاسها نهائياً عن مواكبة الحد الأدنى من حاجات هذه الأمة وعن الحلول بالحد الأدنى للقضايا التي تتبناها وللرسالة التي تعلن عنها، فحينما يتسلسل الانحراف في خط تصاعدي من هذه القبيل أو في خط تنازلي إلى الهاوية من هذا القبيل، فمن المنطقي في فهم تسلسل الأحداث أنّ هذه التجربة سوف تتعرض بعد مدى من الزمن لانهيار كامل، يعني أنّ الدولة والمجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية لقيادة المجتمع سوف تتعرض للانهيار الكامل، لأن هذه التجربة حين تصبح ملأى بالتناقضات، وحين تصبح عاجزة عن مواجهة وظائفها الحقيقية، تصبح عاجزة عن حماية نفسها، لأن التجربة تكون قد استنفدت إمكانية البقاء والاستمرار على مسرح التاريخ كما أنّ الأمة ليست على مستوى حمايتها، لأن الأمة لا تجني من هذه التجربة الخير الذي تفكر فيه، ولا

تحقق عن طريق هذه التجربة الآمال التي تصبو إليها، فلا ترتبط بأي ارتباط حياتي حقيقي معها، فالمفروض أن تنهار هذه التجربة في مدى من الزمن، تنهار كنتيجة نهائية، وخاتمة حتمية لبذرة الانحراف التي غرست فيها.

معنى انهيار الدولة الإسلامية

ومعنى انهيار الدولة الإسلامية أن تسقط الحضارة الإسلامية وتتخلى عن قيادة المجتمع، والمجتمع الإسلامي يتفكك، والإسلام يُقصى عن مركزه كقائد للمجتمع وكقائد للامة، لكن الأمة تبقى طبعاً، المسلمون يبقون كأمة، التجربة: تجربة المجتمع، والدولة تفشل وتخطئ وتنهار أمام أول غزو يغرها، كما انهارت التجربة أمام الغزو التتري الذي واجه الخلافة العباسية، وواجه الدولة الإسلامية في أواخر الخلافة العباسية[١]

هذا الانهيار يعني أنّ الدولة والتجربة سقطت أم أنّ الأمة بقيت، لكن هذه الأمة أيضاً ـ بحسب تسلسل الأحداث ـ من المحتوم أن تنهار فبعد أن تنهار التجربة، الأمة كأمة تدين بالإسلام، وتؤمن بالإسلام، وتتفاعل مع الإسلام أيضاً تنهار. لماذا ؟

---

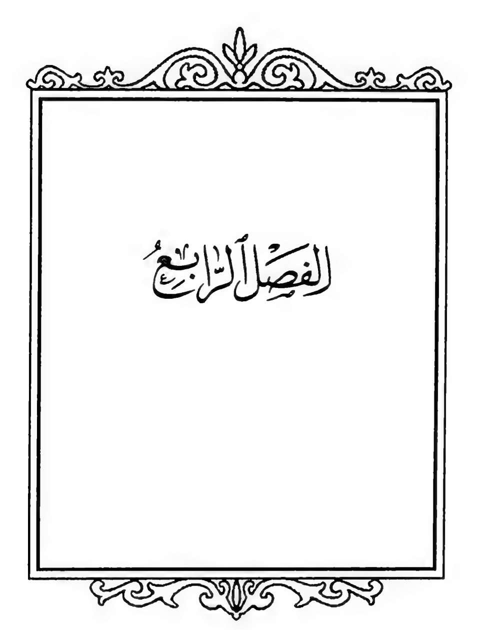
(١) يؤرخ لسقوط الدولة العباسية بعام ((٦٥٦)) هـ، وفيه كان الغز التتري.
انظر: البداية والنهاية ابن كثير: ٢٣٣/١٣.

لأن هـذه الأمـة عاشـت الإسلام الصحيح الكامل زمناً قصيراً، وهو الزمن الـذي مـارس فـيه الـتجربة شـخص الرسول صلى الله عليه وآله الأعظم وبعد هذا عاشت تجـربة مـنحرفة، هـذه الـتجربة المـنحرفة ما استطاعت أن تعمّق فيها الرسالة وتعمّـق فـيها المسـؤولية تجاه عقيدتها، وتثقفها وتحصنها وتزودها بالضمانات الكافية لعدم الانهيار أمام حضارة جديدة، وغزو جديد، وأفكار جديدة يحملها الغازي إلى بلاد الإسلام، فهذا الغازي الذي يأتي يحطّم التجربة، يحطّم المجتمع الإسلامي، يحطّم الدولة الإسلامية، يأتي معه بتقاليد ومفاهيم حضارية، سوف تؤثر على الأمة الإسلامية التي لم تعرف الإسلام معرفة حقيقية كاملة طيلة هذه الـتجربة المـنحرفة، فسوف لن تجد هذه الأمة الإسلامية في نهاية هذه التجربة المـنحرفة ـ بعـد أن أهينت كرامتها، وبعد أن حطمت إرادتها، وبعد أن غُلت أياديهـا عـن طـريق الـزعامات الـتي مارست تلك التجربة المنحرفة، وبعد أن فقـدت روحها الحقيقية ـ سوف لن تقدر على تحصين نفسها ضد ما يطرأ بعد انهيار التجربة، وحينئذٍ ستنهار الأمة أيضاً كما انهارت التجربة.

الأمـة أيضـاً سـوف تـنهار بالاندمـاج مع العالم الكافر الذي غزاها، سوف تـذوب الأمـة، وتـذوب الرسـالة والعقيدة، وتصبح الأمة خبراً بعد أن كانت أمراً حقيقياً على مسرح التاريخ، وبهذا ينتهي دور الإسلام.

هـذا هـو التسلسـل المـنطقي بقطع النظر عن دور الأئمة عليهم السلام، تبدأ بذرة الانحـراف بعد النبي صلى الله عليه وآله بحكم طبيعة الأشياء، وينمو هذا الانحراف بالتدريج،

يتعمّق بالتدريج، تتردى التجربة بالتدريج حتى تصبح عاجزة عن حماية نفسها وتصبح الأمة أيضاً عاجزة عن حماية هذه التجربة، فتتعرض لنكسة أمام أي غزو يأتي من الخارج وسوف تصبح هذه الأمة حينئذ مجموعة من البشر المتميعين الذائبين الخانعين، غير الواعين وغير الملتفتين لرسالتهم، فبطبيعة الحال أنّ هذه الأمة سوف تنهار، وسوف تتفتت كأمة، فتسقط بعد أن سقطت التجربة.



الفصل الرابع

دور الأئمة عليهم السلام تجاه تسلسل الأحداث

أما دور الأئمة عليهم السلام تجاه هذا التسلسل فيتلخص بأمرين:

الأمر الأول: الذي كان الأئمة عليهم السلام يعيشونه في حياتهم، هو محاولة القضاء على الانحراف الموجود في تجربة المجتمع الإسلامي، وإرجاعها إلى وضعها الطبيعي، وذلك بإعداد طويل المدى، وتهيئة للظروف الموضوعية التي تتناسب وتتفق مع ذلك.

فمتى ما كانت الظروف الموضوعية مهيأة لذلك، كان الأئمة عليهم السلام على استعداد لأن يمارسوا إرجاع التجربة إلى الوضع الطبيعي، كما مارس أمير المؤمنين عليه السلام وقال: بأنّ اللّه سبحانه وتعالى أخذ عهداً على الإنسان أن لا يقر على الظلم مع وجود الناصر، والناصر موجود، وفي كلمة الناصر استبطن كل الحدود والظروف الموضوعية التي سوف تذكر فيما بعد والتي ذكرناها سابقاً[1] التي تجعل في قدرة الإنسان ـ الإمام المعصوم ـ أن يحاول إعادة

---

(١) النص الروائي: ((أما والله، لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ ←

التجربة الإسلامية إلى وضعها الطبيعي ووضعها الصحيح الكامل.

الأمر الثاني: والذي كان يمارسه الأئمة عليهم السلام، حتى في حالة الشعور بعدم وجـود هذه الظروف الموضوعية، التي تهيئ الإمام لخوض معركة في مقام تسلّم زمام الحكم من جديد.

فالدور الثاني الذي كان يمارسه الأئمة عليهم السلام والذي كان يمارسه الإمام عليه السلام هـو تعميق الرسالة فكرياً وروحياً وسياسياً للامة نفسها، بغية إيجاد تحصين كاف في صفوفها، لكي يؤثّر هذا التحصين في مناعتها وفي عدم انهيارها بعد تردّي التجربة وسقوطها، إذ كان من اللازم بعد أنْ حُرمت الأمة الإسلامية من التجربة الصحيحة الكاملة للحياة الإسلامية ـ بعد وفاة رسول اللّه صلى الله عليه وآله ـ أن تطعم وتُغذى الأمة كأمة ـ تطعم الأمة وتُغذى بالإسلام رسالياً، وتغذى في مجالها الروحي والفكري والاجتماعي والسياسي، لكي تستوعب الإسلام.

واقصد بالأمة لا مجموع الأمة لأن هذا لا يمكن أن يتحقق بالنسبة إلى المجموع إلا في حالة قيادة تمارس التجربة وتمارس الحكم وتمارس الدولة في

الله على العلماء أن لا يقارّوا على كظّة ظالم، ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أولها)). وإن إشارات كثيرة سبق أن تعرض لها السيد الشهيد رضي الله عنه في تضاعيف المباحث السابقة.

الإفصاح، الشيخ المفيد: ٤٦. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد : ١ / ٢٠٢.

المجتمع، ولكن الذي اقصده في المقام من التعبئة، إيجاد قواعد واعية في الأمة، وإيجاد روح رسالية فيها، وإيجاد عواطف تجاه هذه الرسالة في الأمة.

والأئمة عليهم السلام حتى في حالة شعورهم بعدم إمكان استرجاع مركزهم المغصوب، كانوا يعملون عملاً مهماً جداً لإنقاذ وجود الأمة في المستقبل وضمان عدم انهيارها الكامل وتفتتها كأمة بعد سقوط التجربة وذلك بإعطاء التحصين الكامل المستمر لها، على تفصيل سوف يأتي إن شاء اللّه خلال شرح هذه الفكرة، والفكرة على سبيل الإجمال، ملخصاً لما سبق لتتمة تتبع التسلسل في عرضها.

ولقد وقع الانحراف بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله، هذه البداية في تسلسل هذه الفكرة وكان هذا الانحراف الذي وقع بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله انحرافاً سياسياً خطيراً جداً، بالرغم من أنّ هذا الانحراف لم يمس بحسب الظاهر إلا ميداناً واحداً من الميادين التي كان يعتمد عليها الإسلام، في بداية الأمر لعل كثيراً من الناس بدا لهم أنّ هذا الانحراف لا يعني اكثر من أنّ شخصاً كان مرشحاً من قبل النبي صلى الله عليه وآله أو من قبل اللّه سبحانه وتعالى، وهذا الشخص قد أُقصي أو غُصب حقه، وأُعطي لشخص آخر بدلاً عنه، قد يكون هذا الشخص الآخر قادراً على أن يقوم مقامه في هذه المهمة.

إلاّ أنّ الانحراف لم يكن انحرافاً شخصياً، أو سهلاً أو بسيطاً بهذا المقدار لأننا قلنا فيما سبق، بأن الإسلام رسالة تربية للإنسان، رسالة جاءت لتبني

الإنسان من جديد، وبناء الإنسان من جديد، يتوقف على السيطرة على كل المجالات، وما لم يمتلك زمام كل تلك الميادين، لا يمكن أن يسيطر على كل أبعاد الإنسان، وبالتالي أن يربي الإنسان وفقاً للرسالة التي جاء بها، التربية الشاملة الكاملة للإنسان بشكل متميّز كلياً عن إنسان ما قبل الإسلام، عن إنسان الجاهلية، هذا يتوقف على المربي بحيث يسيطر على كل المجالات التي يعمل عليها الإنسان يسيطر على مجالات العلاقات الفردية مع ربه، يسيطر على مجالات علاقاته مع الآخرين في النطاق العائلي، يسيطر على مجالات علاقته مع الأفراد الآخرين في المجال الاجتماعي وهكذا يسيطر على كل المجالات لأن أي واحد من هذه المجالات، لو انه لم يسيطر عليه، فمعنى هذا انه لم يسيطر على جزء من الإنسان، لأن الإنسان يتفاعل مع كل هذه المجالات، انتم ترون أنّ الأب لا يستطيع أن يربي ابنه تربية كاملة شاملة، ليس الأب هو المربي الوحيد لابنه، لأن هناك أشياء أخرى تشاركه في تربية ابنه، يشاركه في تربية ابنه زملاؤه في المدرسة وأساتذته فيها، المجتمع الذي يعيش فيه، الشارع الذي يلعب فيه، القوانين التي تطبق عليه من قبل الدولة، كل هذا يشارك في تربية الابن، فالتربية الشاملة الكاملة لهذا الإنسان لا تكون إلا بالهيمنة الكاملة على كل هذه المجالات، بحيث تؤخذ كل هذه المجالات بيد المربي، وبعد هذا يستطيع أن يجدد الأطروحة الصحيحة للإنسان الأفضل.

على هذا الأساس كانت سيطرة الإسلام على كل المجالات بما فيها المجال

الاجتماعي الذي هو رأس هذه المجالات، كان هذا جزءاً أساسياً من التركيب الإسلامي ومن الأطروحة الإسلامية، كان من الضروري جداً للنبي صلى الله عليه وآله أن يسيطر على كل هذه المجالات لا أن يكون واعظاً في المسجد فحسب، ولا أن يكون أُستاذاً في حلقة فحسب، بل يكون هذا وذاك، ويكون إضافة إلى هذا وذاك، رائداً للمجتمع، حاكماً للمجتمع في كل مكان، في كل ما يمكن أن يصبو إليه المجتمع من آمال وأهداف، ويكون مخططاً ومقنناً للمجتمع في كل المجالات، في كل ما يحتاج إليه المجتمع من قوانين وتنظيم، هذا هو أسلوب التربية الشاملة الكاملة الذي اتجه إليه الإسلام، وليس من الكلفة أن يقال في نص نبوي: ((من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية))[١]، لأن الارتباط بالإمام عليه السلام والارتباط بالقيادة جزء من التربية الشاملة الكاملة للإنسان، فوجود قيادة إسلامية للحياة الاجتماعية كان جزءاً ضرورياً في الحياة الإسلامية الاجتماعية، وإنجاح الثورة الإسلامية، وإنتاج الأمة والفرد والعائلة التي يريدها اللّه سبحانه وتعالى، والتي يحددها القرآن الكريم وعلى ضوء هذا، نستطيع إن نعرف أنّ أيَّ انحراف يحصل في هذا المجال، في مجال قيادة

---

(١) كتاب سليم بن قيس: ٤٥٢، رواه عن سلمان المحمدي، وعن أبي ذر رضي الله عنه.
والإيضاح، الفضل بن شاذان الأزدي، تحقيق جلال الدين الحسيني: ٧٥، أخرجه عن عبد الله بن عمر. ينابيع المودة، القندوزي: ١ / ٣٥١.

المجتمع، أيّ انحراف يقع في هذه القيادة فهو يهدد المخطط بكامله: لأن هذا الانحراف، سوف يجعل المجال الاجتماعي يفلت من يد الإسلام، وإذا أفلت هذا المجال من يد الإسلام فسوف يفلت من يد الإسلام جزء كبير من وجود الإنسان، وبالتالي، وبقانون التفاعل بين أجزاء الإنسان بعضها ببعض، سوف تفلت بقية الأجزاء أيضاً.

هذا الانحراف كان يشكل بداية خطر على التجربة الإسلامية كلها، على عملية التربية الإسلامية كلها، ولم يكن مجرد استبدال شخص بشخص آخر كان ظلماً للتجربة الإسلامية كلها، وبالتالي للبشرية كلها.

هذا الانحراف وقع بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وتمثل في أنّ جماعة من صحابة الرسول صلى الله عليه وآله لم يرتضوا علياً المنصوص عليه من قبل النبي صلى الله عليه وآله، للخلافة فتصدى بعضهم لها، مارس أبو بكر قيادة التجربة الإسلامية بعده مارس عمر بن الخطاب، بعده مارس عثمان بن عفان، هؤلاء الصحابة تارة ننظر إليهم بمنظار شيعي خاص نختص نحن به في مقام النظر إليه، وهذا المنظار لا نريد أن نتحدث عنه، لأننا متفقون على طبيعة هذا المنظار، لكننا نصرف النظر عن هذا المنظار الخاص الذي نحن متفقون عليه فيما بيننا، وننظر إلى هؤلاء بقطع النظر عن المنظار الخاص، النظر إلى هؤلاء بالمنظار العام، إنْ تسلّم هؤلاء الحكام لزمام زعامة التجربة الإسلامية كان يشكل بداية انحراف، وكان سبباً حتمياً لتأرجح التجربة بين الحق والباطل، واستبطانها شيئاً من الباطل

واتساع دائرة الباطل بالتدريج وذلك لعدة أمور:

أولاً: إنّ هـؤلاء الصحابة الّذين تسلموا زمام الحكم بقطع النظر عن ذلك المـنظار الخـاص الـذي جمدنّاه الآن في حبل الكلام، هؤلاء أُناس يشهد التاريخ بـأنهم عاشوا الجزء الأكبر من حياتهم في عصر جاهلي، وضمن إطار التفكير الجـاهلي في كـل مـا كـانوا يفكرون فيه، أو يعملون فيه، أو يتألمون منه، في كل مجـالاتهم العاطفية، ومجالات أهدافهم، ومجالاتهم الفكرية والعقائدية، لم تكن حـياتهم قـبل الإسـلام إلا حـياة مـن طـرز جـاهلي آخـر، بعد هذا دخلوا في الإسلام ولا نريد أن نتحدث عن طبيعة دخولهم في الإسلام، افرضوا أنّ هؤلاء دخلـوا في الإسـلام دخـولاً حسناً، وعاشوا مع الرسول صلى الله عليه وآله عيشة حسنة، إلا أنّ هـذه الأهـداف المضـادة لم تستأصـل، وبـذور هذه الجاهلية لم تستأصل من أفكـارهم وعقولهـم، بدليل أنهم بالرغم من عيشهم مع النبي صلى الله عليه وآله، وبالرغم مـن الإدّعـاء بالاستئثار بلطف النبي صلى الله عليه وآله، بالرغم من كل هذا كانوا بين حين وحين يعلنون عن تقاليد أو عن تصورات ترتبط بالوضع الذي كانوا يعيشونه قـبل الإسـلام، ومـع كـل مـا نعـلم، يضع الخليفة الثاني احتجاجه على متعة الحج[1].

---

(١) جابر رضي الله عنه قال: لما ولي عمر رضي الله عنه خطب الناس فقال: إن القرآن هو القرآن، وإن الرسـول هـو الرسول، وإنهما كانتا متعتين على عهد رسول الله صلى الله عليه ﴿

بالرغم من إنّ متعة الحج عمل عبادي خالص، لا يرتبط بأي مصلحة من مصالح الدنيا المعلومة، الإنسان العاقل لا يستطيع أن يدرك بعقله، أيهما احسن، هل الأحسن هي العمرة المستمرة إلى الحج أو العمرة المتحلل منها التي يأتي بعدها الحج؟

هذا بعقولنا لا نستطيع أن نحكم عليه بأنه افضل أو ذاك افضل، فهي مسألة عبادية ثابتة، هنا عمر لم يتأثر في احتجاجه بعقله، لأن العقل لا يدرك أيهما الأفضل، وانما تأثر بطبيعة تربيته، عاداته وتقاليده، وإنّ الجاهلية التي كانت قبل الإسلام، كانت ترفض التحلل بين العمرة والحج، مثل هذه العادة أثّرت في نفس الخليفة الثاني أثراً كبيراً[1]، إلى درجة أن يردّ على رسول

وسلم إحداهما متعة الحج والأخرى متعة النساء. فافصلوا حجكم عن عمرتكم، فإنه أتم لحجكم وأتم لعمرتكم، والأخرى متعة النساء فلا أوتي برجل تزوج امرأة إلى أجل إلا غيبته في الحجارة.

تاريخ المدينة، ابن شبة النميري: ٢ /٧٢٠. وإن النبي صلى الله عليه وآله قال في حجة الوداع: إن العمرة دخلت في الحج إلى الأبد.

(١) النص التاريخي: وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يهابونه كثيرا ـ أي عمر بن الخطاب ـ فلا يتجاسرون على مخالفته غالبا وكان ابنه عبد الله يخالفه، فيقال له: إن أباك كان ينهى عنها، فيقول لقد خشيت أن يقع عليكم حجارة من السماء قد فعلها رسول الله

اللّـه ﷺ وجهاً لوجه في ذلك، وفي حياتهم شواهد كثيرة على هذا تظهر بين حـين وحين، ولا نريد أن نقول من هذا أنّ هؤلاء كانوا أُناساً يستبطنون الكفر أو العـداء للإسلام، أو البغض لشخص النبي ﷺ، فإنّ الحديث عن هذا قد جمدنـاه، بـل أنّ هـذا يمكـن أن ينسـجم حتى مع التصور السني لهؤلاء، أُناس صـحابة صـالحون، ولكـنهم مـع هـذا كله لا يزال الراسب الجاهلي يعيش في أعمـاقهم بـثلاثين في المائة أو أربعين أو خمسين، لا يزال جاهلياً والباقي اصبح إسلامياً.

في يوم السقيفة طبعاً تعلمون بأنهم قالوا: من ينازعنا سلطان محمد ؟ !

محمـد كـان شـيخ قبـيلة، وهم شيوخ هذه القبيلة بعد أن مات شيخ القبيلة الأول يتولى شيوخ القبيلة الآخرون[1]، من ينازعنا سلطان محمد... ؟

صـلى الله علـيه وسلم أفسنة رسول الله تتبع أم سنة عمر بن الخطاب، وكذلك كان عـثمان بـن عفـان، وخالفه علي بن أبي طالب كما تقدم. وقال لا أدع سنة رسول الله صـلى الله علـيه وسلم لقول أحد من الناس. وقال عمران بن حصين: تمتعنا مع رسول الله صـلى الله علـيه وسلم ثم لم ينزل قرآن يحرمه، ولم ينه عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مات. البداية والنهاية، ابن كثير: ٥ /١٥٩، أخرجاه في الصحيحين.

(١) فقـال أبـو عبيدة بن الجراح لعلي كرم الله وجهه: يا بن عم إنك حديث السن وهؤلاء مشـيخة قومك، ليس لك مثل تجربتهم، ومعرفتهم بالأمور، ولا أرى أبا بكر إلا أقوى

هـذا راسـب جـاهلي، قـد لا يكـون عمـر أو أبـو بكـر، قد لا يكون هذا الصـحابي يعيش هذا الراسب في تمام حالاته[١]، بل يكون في بعض الحالات يترفّـع عن هذا الراسب، قد يكون الجانب الإسلامي يتغلّب على هذا الجانب الجـاهلي، حيث أنّ الراسب موجود بالنهاية جزء من نفسه يمثل هذا الراسب ولهـذا يطفو هذا الراسب في لحظات عديدة من حياتهم الاجتماعية والسياسية إذن فهـؤلاء الخلفـاء بحكـم وصـفهم وحـياتهم، لم يكونـوا أُناسـاً قـد اجتثت الجاهلـية مـن نفوسهم اجتثاثاً كاملاً، بل كانت الجاهلية تعيش في نفوسهم في حالـة واضـحة ملموسـة ومـلحوظة، تـنعكس عـلى سلوكهم بين حين وآخر وحينـئذٍ فهـؤلاء حيـنما يتزعمون قيادة التجربة الإسلامية فبطبيعة الحال الذي يتولى القيادة، قيادة هذه التجربة الإسلامية، ومَنْ هم: هم مجموع هذه الأفكار

عـلى هـذا الأمـر مـنك، وأشـد احتمالا واضطلاعا به، فسلم لأبي بكر هذا الأمر، فـإنك إن تعـش ويطل بك بقاء، فأنت لهذا الأمر خليق وبه حقيق، في فضلك ودينك، وعلمك وفهمك، وسابقتك ونسبك وصهرك.

الإمامة والسياسة، ابن قتيبة الدينوري، تحقيق شيري : ١ / ٢٩.

(١) الـنص الـتاريخي: من خطبة أبي بكر يوم السقيفة، قال: لن تعترف العرب ولا تصلح إلا عـلى رجل من قريش، هم أصبح الناس وجوها، وأبسطهم لسانا، وأفضلهم قولا، فالناس لقريش تبع.

سبل الهدى والرشاد، الصالحي الشامي: ٣١٢/٢١.

والعواطف التي سوف تحكم وهي التي سوف تسود، إنْ كان من هذه ٥٠٪ أو ٣٠٪ جاهلياً فمعنى ذلك أنّ الجاهلية سوف تشارك الإسلام في الحكم، وسوف يصبح للجاهلية حكم وتزعم في توجيه التجربة الإسلامية التي جاءت لأجل أن تنقذ الإنسان من الجاهلية إلى الإسلام، وتصنع الإنسان الجديد، وتقضي على الإنسان القديم، بينما كان المفروض هكذا، وإذا الجاهلية تشارك في الحكم في المقام.

ثانياً: وهؤلاء لم يكونوا مهيئين للحكم، بقطع النظر عن جهة الراسب الجاهلي، لم يكونوا قد استوعبوا الرسالة الإسلامية استيعاباً كاملاً، لان هؤلاء الصحابة، تأثروا بالمحنة، عاشوا المحنة السياسية للدولة الإسلامية، المحنة العسكرية للدولة الإسلامية، الدولة الإسلامية كانت في خضم الحروب وفي خضم الفتن، وفي المنازعات مع المشركين من ناحية، ومع اليهود من ناحية أخرى، ومع سائر القبائل العربية من ناحية ثالثة.

فخضم هذا الصراع العسكري والسياسي، كان يجعل الصحابة دائماً في دوامة التفكير في كيفية حماية الدولة وفي كيفية الدفاع عنها وفي كيفية المساهمة في حروبها، تعلمون أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله غزا عشرات الغزوات[1] في فترة

---

(١) إن عدد غزوات الرسول صلى الله عليه وآله (٢٧) غزوة.

الطبقات الكبرى، ابن سعد دار الصادر، بيروت : ٢ / ٥.

قصيرة في عدة سنوات عشرات الغزوات أعم من أن تكون وقع فيها القتال أو لم يقع فيها القتال، فالحياة كانت حياة قلقة، حياة صراع عسكري وصراع سياسي مع الأعداء ومع المشركين ومع المنافقين من كل صوب وحدب، لم يكن يتوفّر لرسول اللّه ﷺ الوقت على تدريبهم أو تثقيفهم على مستوى القيادة، صحيح أنّ رسول اللّه ﷺ كان يمارس تثقيفاً عاماً لأجل إيجاد أمة واعية تتمتع بالحد الأدنى من الوعي، أمّا أنّه لم يكن هناك تخطيط من قبل النبي ﷺ ولم يكن هناك تخطيط من قبلهم أيام النبي ﷺ في أن يثقفوا أنفسهم ويهيئوا أنفسهم لكي يتسلموا الحكم بعد رسول الله ﷺ، ولهذا قال عمر بن الخطاب ـ عندما عجز عن الفتوى ـ إنّه ألهانا أيام رسول اللّه ﷺ الصفق في الأسواق[1] عن تعلم مثل هذه الأحكام، ومع هذا هو لم يتهيأ لمستوى القيادة في المقام، قلنا بأنه اشتغل في القصف في الأسواق كما هو يعترف، دون الشغل بوضع الدولة الإسلامية وظروفها السياسية والعسكرية، على أي حال لم يتهيأ للقيادة، من هنا نرى أنّ أبا بكر وعمر كانا عاجزين عن تحديد ابسط

---

(١) روى البخاري ومسلم في صحيحيهما : فقال عمر أخفي عليّ من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ألهاني الصفق بالأسواق.

الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل البخاري: ٢٢٨، ح ١٠٦٥.

الأحكـام الشـرعية، لأنه لم يكن عندهم تثقيف لفترة ما بعد الرسول ﷺ[١] قلـنا في بعض الأيام السابقة، إنّ صلاة الميت التي كان يمارسها النبي ﷺ أمام المسـلمين، وكـان يمارسـها في كـل يـوم، لأنه في كل يوم أو شهر يموت عدد لا بـأس بـه مـن المسـلمين، وكـان الـنبي ﷺ يصـلي عليهم، مع هذا اختلف المسـلمون بعد هذا، اختلف هؤلاء القادة بان التكبيرات على صلاة الميت كم عددهـا، هـذا كلـه يعطـي المعنى الإتكالي، إنّ هؤلاء كانوا في أيام النبي ﷺ

---

(١) مثال تاريخي: كان عمر يعس ليلا، فنزلت رفقة من التجار بالمصلى، فقال لعبد الرحمان بـن عـوف هل لك أن تحرسهم الليلة من السرق فباتا يحرسانهم ويصليان ما كتب الله لهمـا، فسـمع عمـر بكاء صبي فأصغى نحوه فطال بكاؤه فتوجّه إليه فقال لامه: اتقي الله واحسـني إلى صبيك ثم عاد إلى مكانه فسمع بكاءه فعاد إلى أمه فقال لها مثل ذلك، ثم عـاد إلى مكانـه فسـمع بكـاءه فأتي أمه فقال ويحك أني لأراك أُم سوء لا أرى ابنك يقر مـنذ الليلة، فقالت يا عبد الله: لقد آذيتني منذ الليلة أني أريغه على الفطام فيأبى، قال : ولم، قالت : لان عمر لا يفرض لرضيع وانما يفرض للفطيم قال: وكم لـه قالت: اثنا عشـر شـهرا قـال، ويحـك لا تعجليه، فصلى الفجر وما يستبين الناس قراءته من غلبه الـبكاء علـيه فـلما سلم قال يا بؤسا لعمركم كم قتل من أولاد المسلمين فطلب مناديا فـنادى ألا لا تعجلـوا صـبيانكم عن الرضاع ولا تفطموا قبل أوان الفطام فإنّا نفرض لكل مولود في الإسلام. واشتهر عن عمر أنه قال: كل الناس أفقه من عمر.

شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١٢ /١٤_١٥، الخطبة: ٢٢٣.

متكلين على القائد، الرائد، المتوجّه، الواحد كان يأتي يأتم بالنبي صلى الله عليه وآله، لم يخطر على باله في مرة من المرات أن يحسب هذه التكبيرة الأولى وهذه الثانية وهذه الثالثة وهذه الرابعة حتى يحسب أنها خمسة أو أربعة، هذا معنى الاتكالية، هذه الاتكالية عاشها هؤلاء الصحابة في عصر النبي صلى الله عليه وآله، ولم يكن المسلمون متهيئين بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله تهيؤاً فكرياً وعقائدياً لتحمل أعباء الرسالة.

ثالثاً: إنّ التجربة التي عاشها النبي صلى الله عليه وآله لو فرض أنها هي التي تعطي الإمكانيات الفعلية، فمن المعلوم أنّ هناك فارقاً كبيراً بين ظروف التجربة في أيام النبي صلى الله عليه وآله والظروف التي كانت الأمة الإسلامية مقبلة عليها حينئذ، الأمة الإسلامية بعد النبي صلى الله عليه وآله كانت مقبلة على تحول اجتماعي وسياسي كبير وضخم جداً، لأنه كان من المفروض تحقيق فكرة المجتمع العالمي، هذه الفكرة التي دعا إليها النبي صلى الله عليه وآله، ولكنه لم يحققها، لأن النبي صلى الله عليه وآله إلى أن توفي لم يمتد نفوذه إلى اكثر من النطاق العربي بالرغم من أنّ النبي صلى الله عليه وآله دعا ملوك العالم دعا كسرى وقيصر، دعا سلطان الحبشة دعا غيرهم إلى الإسلام لأجل توعيتهم بالإسلام[1]، ولأجل تسجيل أنّ الإسلام مجتمع عالمي، ويدعو إلى المجتمع

---

(١) كانت دعوته صلى الله عليه وآله للملوك والرؤساء في السنة السادسة بعد الهجرة المباركة.

العـالمي، الـذي لا يفرّق فيه بين شعب وشعب وبين قومية وقومية، بالرغم من هـذا لم يـتحقق المجـتمع العـالمي، أيام النبي صلى الله عليه وآله تحقق مجتمع عربي يحمل فكرة العالميّة ويقوم على أساس الرسالة، لا على أساس الفكرة القومية أو القاعدة القومـية للرسـالة، هذا المجتمع بعد النبي صلى الله عليه وآله كان من المفروض أن يبنى عالمياً أن ينشـئ المجـتمع الإسلامي العالمي، أن يضم في مجتمع واحد العرب والفرس والـترك والهنود وجميع شعوب الأرض، هذه المهمة صعبة وعظيمة جداً، تختلف كـل الاخـتلافات عـن الظـروف الموضـوعية لـلمرحلة الأولى الـتي عاشـها النبي صلى الله عليه وآله.

هـذه المـرحلة أو هـذه المهمة تحتاج إلى عقلية رسالية، ١٠٠٪، إلى نزاهة عن كـل شـائب، وعـن كـل الانخفاضات الفكرية والعاطفية التي يعيشها الإنسان القبلي، أو الإنسان القومي.

عمـر أو أبو بكر لن يستطيعا أن يجعلا من تجربة رسول اللّه صلى الله عليه وآله (بالرغم مـن أنها كانت تمر في المرحلة البدائية) أساساً ضامناً قطعياً لصفحة سيرهم في المـرحلة الثانـية، في مـرحلة إنشـاء المجتمع العالمي، حتى الآن لم يعيشوا المجتمع العـالمي إلا كفكـرة لم تولـد إلى الـنور، إنّ الناس كلهم أسرة، الناس سواسية كأسنان المشط، أن لا فرق بين عجمي وعربي، هذا كانوا يسمعونه كفكرة من

تاريخ الطبري : ٢/ ٢٨٨، وما بعدها.

النبي صلى الله عليه وآله وسلم [١] لكن لم يكونا يريانه مجسداً في المجتمع وفي علاقاتهما، بحيث أنّ إنساناً أعجمياً وإنساناً عربياً عاشاً مجتمعاً واحداً بصورة متكافئة، وإنّما هي مجرد فكرة لم يتيسر لمثل هؤلاء أنْ يحققوا هذه الفكرة، وأنّ يتولوا تحقيقها في مثل هذه المرحلة الدقيقة من التجربة الإسلامية، بطبيعة الحال سوف تحصل هناك إنخفاضات فكرية وعاطفية، تجعلهم دون مستوى تحقيق فكرة المجتمع العالمي، وقد تكون بذرة صغيرة جداً في عهد ما، قد تكون هذه البذرة تكبر بعد هذا وتصبح بلاء كبيراً وشراً مستطيراً.

كلكم تعلمون بأنّ في التاريخ أمثلة كثيرة على هذا ـ العمدة على التاريخ في النقل ـ، إنّ عمر بن الخطاب أعفى نصارى العرب في العراق من الجزية، العرب الّذين كانوا موجودين في العراق أعطوا الجزية، عاتبوه قالوا: بان الجزية فيها شأن الذل لا ندفع الجزية فنحن عرب قال لهم، إذن فادفعوا الزكاة فأمر بأخذ المال منهم بعنوان الزكاة! ! ، طبعاً لم تكن الزكاة بأصغر من الجزية لأن المشرك يدفع الجزية والمسلم يدفع الزكاة، غاية الأمر كأن الجزية بحسب

---

(١) النص: قال صلى الله عليه وآله وسلم: الناس في الإسلام سواء، الناس طف الصاع لآدم وحواء لا فضل لعربي على عجمي ولا عجمي على عربي إلا بتقوى الله، إلا هل بلغت؟ قالوا : نعم! قال: اللهم اشهد. تاريخ اليعقوبي: ٢ /١١٠.

خطبته يوم التروية في حجة الوداع.

نفسها علاقة فيها مهانة[١]، عمر بدّل الجزية بالزكاة[٢]، فأمر بأخذ الزكاة، هذه البذرة الصغيرة جداً والطفيفة جداً لم تنطبق إلا على عشيرة واحدة لا أكثر من عشائر النصارى في العراق، هذه البذرة على مرّ الزمن تأتي بالشر المستطير، لعل هذه البذرة هي الأساس في كل الشرور التي عاشها المسلمون بعد هذا، أو التي مني بها المسلمون نتيجة للكيانات القومية التي زعزعت بعد هذا الإسلام، وحطّمت الرسالة الإسلامية، الكيانات القومية: العربية والفارسية والتركية والهندية، إلى غير ذلك من الكيانات القومية الكافرة التي أُنشئت في العالم الإسلامي، ولا أريد أن أصحح هذه النقطة، لا أدري أنها صحيحة أو لا.

---

(١) القرآن العزيز: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾، التوبة: ٢٩.

(٢) فقال النعمان لعمر: يا أمير المؤمنين إن بني تغلب قوم عرب يأنفون من الجزية، وليس لهم أموال، إنما هم أصحاب حروث ومواشي، ولهم نكاية في العدو، فلا تعن عدوك عليك قال فصالحهم عمر على أن أضعف عليهم الصدقة.. قال مغيرة : فحدثت أنّ علياً قال: لئن تفرغت لبني تغلب ليكونن لي فيهم رأي لأقتلن مقاتلتهم، ولأسبين ذراريهم. الأموال: ٣٤.

بل أريد أن أقول: بأنّ مهمة إنشاء مجتمع عالمي، هذه المهمة تحتاج إلى قيادة تختلف عن طبيعة الصلات، والذوق التي كانت موجودة في هؤلاء الخلفاء.

رابعاً: إنَّ الشعور بالظلم في نفس الخلفاء، يقيض التوسع في الإضرار، الخلفاء كانوا يشعرون بأنهم ظلموا علياً[١]، وانهم غصبوا علياً، وأنهم تعدّوا على حق عليٍّ المنصوص عليه من قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

نعم لعلهم لم يكونوا يشعرون بأنهم أساءوا إلى الإسلام بهذا الترتيب، بحيث أنّ عملهم سوف يؤدي إلى هدم الكيان الإسلامي، لعلهم لم يكونوا يشعرون، لعلهم لم يكن لهم دقة نظر وفهم منطق الأحداث، ومنطق التاريخ، لم يكونوا يُقَدِّرُون بعد ستين سنة من وفاة رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أنْ يشرب الخمر خليفة المسلمين في بيته وفي قصره[٢]، لعلهم لا يستطيعون أنْ يفسروا هذا

(١) المنقول الروائي: قال عمر يوما لابن عباس: يا بن عباس ما أظن صاحبك إلا مظلوما. فقلت: يا أمير المؤمنين فاردد عليه ظلامته ؛ فانتزع يده من يدي فقال لي: يا بن عباس ما أظن القوم منعهم من صاحبك إلا انهم استصغروه. فقلت: والله ما استصغره الله حين أمره أن يأخذ سورة براءة من أبي بكر. شرح النهج، ابن أبي الحديد: ٦ / ٤٥ خطبة ٦٦.

(٢) إن يزيد بن معاوية قد اشتهر بشرب الخمر، واللعب بالقرود، وكان ذلك سبب خلعه من قبل أهل المدينة، فأرسل جيشه واستباحها ثلاثاً في وقعة الحرّة، في ذي الحجة عام ٦٣ هـ. تاريخ الطبري: ٣٧٤/٤.

التفسير، لكنهم ـ على أي حال ـ كانوا يشعرون بأنهم غصبوا علياً، وإنّهم أخذوا حق علي، ولهذا قالوا في تبرير ذلك بينهم وبين أنفسهم، أرادوا أنْ يبّرروا، وظهر هذا السبيل على كلماتهم، أنّ عمر خليفة المسلمين قال: بأن رسول اللّه صلى الله عليه وآله حاول أنْ يولّي علياً، أنْ يرشح علياً لكني أنا منعته، احتياطاً للإسلام(١)، وحرصاً على مصلحة الإسلام، كل هذه التبريرات، تبريرات نفسية إزاء وخز الضمير في نفوسهم، هذه التبريرات أنتجت انحرافاً خطيراً وأنتجت أنّه لا يلزم التقيّد بما يقوله رسول اللّه صلى الله عليه وآله، هذا المبدأ تبلور في نفوسهم بالتدريج كتبرير للدفاع عن العملية التي قاموا بها، للدفاع عن الذنب الذي كان موجوداً في نفوسهم.

---

(١) سأل عمر ابن عباس، هل بقي في نفس ابن عمك شيء من أمر الخلافة ؟ قلت: نعم، قال: أيزعم أن رسول الله صلى الله عليه وآله نص عليه ؟ قلت: نعم، وأزيدك سالت أبي عما يدعيه، فقال: صدق، فقال عمر: لقد كان من رسول الله صلى الله عليه وآله في أمره ذرو من قول لا يثبت حجة، ولا يقطع عذرا ولقد كان يربع في أمره وقتا ما ولقد أراد في مرضه أن يصرح باسمه فمنعت من ذلك إشفاقا وحيطة على الإسلام، لا ورب هذه البنية لا تجتمع عليه قريش أبدا ولو وليها لانتقضت عليه العرب من أقطارها، فعلم رسول الله صلى الله عليه وآله أني علمت ما في نفسه، فأمسك وأبى الله إلا إمضاء ما حتم.

شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١٢ /٢١، الخطبة: ٢٢٣.

وحينما قام هذا المبدأ انفتحت كل البدع والانحرافات، بعد هذا لم ير عمر بن الخطاب مانعاً أن يقول: متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أُحرمهما وأُعاقب عليهما [١]، لم ير مانعاً من هذا بعد أن عاش ـ مدة من الزمن ـ الشعور بالذنب، وحل هذا التناقض في المبدأ، بعد هذا انفتح باب البدع وباب حمل الشعارات الجزئية الهستيرية غير الصحيحة، فهذه الأمور الأربعة تجعل حتمية انحراف التجربة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أساس تولي غير أئمة أهل البيت عليهم السلام قيادة هذه الأمة....

(١) تذكرة الحفاظ، شمس الدين الذهبي، الناشر مكتبة الحرم المكي: ٣٦٦/١. وتاريخ دمشق، ابن عساكر: ٧١/٦٤.

ثورة الإمام الحسين عليه السلام

الإمام الحسين عليه السلام والموقف الرسالي[١]

ليست الجاهلية مرحلة تاريخية قد انتهى أوانها، بل هي حالة اجتماعية يمكن أن تتجدد، كلما توفرت ظروفها لأن حقيقة الجاهلية الانحراف عن شريعة الله وهدى الأنبياء والحكم وفق الهوى، كما جاء في القرآن ﴿أَفَحُكْمَ الجاهلية يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [٢].

إذن عودة الجاهلية إلى مسرح الحياة معناه في المقابل إبعاد حكم الله عن ذلك المسرح، ومحاربة النظام الإسلامي وجر الأمة من نور الحق والعدل إلى ظلمات الباطل والظلم.

إنّ الانحراف الأموي عن جادة الصواب والابتعاد عن الصراط الحق؛ جاهلية جديدة، وإنْ تغيرّت الأُطر وتبدّلت الأثواب، إنَّه حكم جاهلي حاربه الإسلام واستشهد في مكافحته الأخيار[٣].

---

(١) العنوان الأصلي هو ((محاضرة حول ثورة الإمام الحسين عليه السلام)).

انظر: موسوعة السيد الشهيد الصدر رضي الله عنه، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان، ١٩٩٠: ٨١/١٣.

(٢) سورة المائدة : ٥٠.

(٣) انظر: مقاتل الطالبيين، أبو الفرج الأصفهاني، وتاريخ الطبري، من الجزء الرابع

صحيح أنّ الحاكم الأموي يزيد لعنه الله وأسلافه وأخلاقه يشهدون أنّ لا إله إلا الله وأنّ محمداً صلى الله عليه وآله رسول الله.

لكن ذلك لا يغير الحقيقة المرة، حقيقة الجاهلية الأموية[1].

ووقفة قصيرة على نظرية الحكم في الإسلام تكفي في إعطاء صورة واضحة لحقيقة الحكم الأموي[2] وغيره، وتتلخص النظرية فيما يلي:

ص١٨٨، وبقية الأجزاء حتى سقوط الدولة الأموية ((أحداث عام ١٣٢هـ)) ، فهي توضح المواقف الرسالية التي يشير إليها السيد الشهيد رضي الله عنه .

(١) سيد قطب وطبيعة الأمويين: ((وبنو أمية في الإسلام هم بنو أمية في الجاهلية؛ فلقد كانوا وحدهم المتخلفين عن حلف الفضول في الجاهلية، ذلك أن الحلف يشتمل على عنصر أخلاقي لا تطيقه طبيعة القوم، أن كان يقول: (ليكونن مع المظلوم حتى يؤدوا إليه حقه، وليأخذن أنفسهم بالتآسي في المعاش، والتساهم في المال، وليمنعن القوي من ظلم الضعيف، والغريب من عنف القاطن). ودون هذا وتأبى طبيعة القوم وتنكص فطرتهم العائلية الموروثة!)).

العدالة الاجتماعية في الإسلام، لجنة النشر للجامعيين، مصر: ١٧٥ـ١٧٦.

(٢) النص المأثور عن الرسول صلى الله عليه وآله يوضح حقيقة الحكم الأموي، روى الحاكم بسنده عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله إذا بلغ بنو أمية ثلاثين رجلا اتخذوا مال الله دولا ودين الله دغلا وعباد الله خولاً.

المستدرك، الحاكم النيسابوري : ٤ /٤٧٩ – ٤٨١. وفي رواية ورد ((بنو العاص)).

١ ـ إما أن يكون الحاكم إماماً معصوماً، وهو بطبيعة الحال لا يمكن أن يخالف الأطروحة الإسلامية وينفذ غيرها من الأطروحات الوضعية، وإلا فلا يمكن بأي حال تسميته بالمعصوم وهذا أمر مفروغ منه، وفي مثل هذه الحالة يكون من اللازم على المسلمين بمختلف مستوياتهم الفكرية تنفيذ أوامر هذا الحاكم وعدم معارضته في كل أحكامه.

٢ ـ وإما أن يكون الحاكم فقيها عادلاً كما هو الحال اليوم في إيرن وهذا الحاكم يطبق الأطروحة الإلهية وبخلافها سوف لا يمكن وصفه بالعدالة، ولابدّ في مثل هذا الموقف من مؤازرته ونصرته وتنفيذ أوامره ولا يجوز مخالفته حتى من قبل الفقهاء أمثاله.

٣ ـ وإما أن يكون الحاكم مسلماً وليس فقيها، ولكن الأطروحة التي ينفذها على واقع الحياة هي الأطروحة السماوية، ولا شك في أنّ هذا الحاكم قد يقع في أخطاء ففي مثل هذه الحالة يقوم الفقهاء بتسديده وتأييده وتقديم الإرشادات له، وعلى المسلمين مؤازرته ومساندته، إلا إذا كانت الأخطاء بدرجة تهدد الأطروحة بكاملها عند ذلك يلزم الوقوف منه موقفا آخر.

٤ ـ وإما أن يكون الحاكم ليس مسلماً أصلا ولكن النظرية المتبناة من قبله هي النظرية الإسلامية، ففي هذه الحالة لا يهم شخص الحاكم، بل المهم الأُطروحة، لأنه ليس من الممكن أن يعتقد المرء بشيء وينفذ في الواقع شيئا آخر إلا أن يكون إيمانه وهمياً.

٥ ـ والحالة الأخيرة أن يكون شخص الحاكم فقيهاً، أو مسلماً ليس بفقيه، أو غير مسلم، والأطروحة المتبناة من قبله أطروحة كافرة بعيدة عن الحق، محاربة للرسالة السماوية، فعلى المسلمين في مثل هذا الوضع الوقوف بوجه الحاكم ومعارضته ومحاربته، لأن المهم ليس شخص الحاكم ـ وإن كان فقيها ـ بل المهم هو مقدار ما ينفذ من الأطروحة الإسلامية على مسرح الحياة.

ومن خلال ذلك نستطيع أن نحدّد الموقف العملي للحسين عليه السلام بأنه موقف مبني على ضوء النظرة الإسلامية للحكم؛ لأن النظرية الإسلامية في الحكم تبتني على أساس الأطروحة المنفذة في الواقع والمتجسدة في الخطوات العملية للسلطة، فإنْ كانت تلك الأطروحة إسلامية فهي، وإلا فلا قيمة لإسلامية الحاكم، وصلاته وتعبده، لأن المعنى العبادي الحقيقي لابدّ أن ينعكس على سلوك الفرد ومشاعره وأعماله.

ومن هنا فلا قيمة لإسلامية يزيد أو غيره من حكّام الجور ولا معنى للشعائر التي يؤدونها[١].

---

(١) وصية يزيد لمسلم بن عقبة ـ وقد أطلق عليه أهل المدينة مسرف بن عقبة ـ قائد جيشه الذي غزا مدينة الرسول صلى الله عليه وآله: (فإذا أظهرت عليهم فأبحها ثلاثا فما فيها من مال أو رقة أو سلاح أو طعام فهو للجند فإذا مضت الثلاث فاكفف عن الناس.

تاريخ الطبري: ٣٧٢/٤. ويصف اليعقوبي ما جرى في المدينة حين دخلها (مسرف) هذا: ←

وإذا كـان الأمـر كذلـك، والحكّـام الأمويـون لا يطبقون شريعة السماء[١]؛ فعـلى الحسـين عليه السلام بـالذات كأفضـل إنسـان يجسـد الإسـلام يوم ذاك وعلى المسـلمين جميعا الوقوف بوجه هؤلاء الطغاة والتصدي لهم لأنهم يريدون حكم الجاهلية ويحاربون شريعة السماء.

ولكـن هـذه الجاهلـية إرتَـدَت ثوباً جديداً ـ هذه المرة ـ يخفي حقيقتها عن

فـلم يـبق بها كثير أحد إلا قتل وأباح حرم رسول الله حتى ولدت الأبكار لا يعرف مـن أولدهـن، ثـم أخذ الناس على أن يبايعوا على أنهم عبيد يزيد بن معاوية، فكان الـرجل مـن قـريش يؤتى به، فيقال: بايع آية أنك عبد قن ليزيد، فيقول: لا ! فيضرب عنقه. تاريخ اليعقوبي: ٢/٢٥٠ـ٢٥١.

(١) شـهادة تاريخـية: (وبعـث ـ والي المدينة ـ إلى يزيد وفداً من أهل المدينة فيهم عبد الله بـن حنظلة الغسيل الأنصاري وعبد الله بن أبي عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي والمـنذر بـن الـزبير ورجـالا كثيرا من أشراف أهل المدينة فقدموا على يزيد بن معاوية فأكـرمهم وأحسـن إليهم وأعظم جوائزهم، ثم انصرفوا من عنده وقدموا المدينة كلهم إلا المـنذر بن الزبير فإنه قدم على عبيد الله ابن زياد بالبصرة وكان يزيد قد أجازه بمائة ألـف درهـم، فلما قدم أولئك النفر الوفد المدينة قاموا فيهم فأظهروا شتم يزيد وعتبة وقـالوا إنـا قدمنا من عند رجل ليس لـه دين يشرب الخمر ويعزف بالطنابير ويضرب عـنده القـيان ويلعـب بالكلاب ويسامر الخراب والفتيان، وإنا نشهدكم إنا قد خلعناه فتابعهم الناس. وإن الناس أتوا عبد الله بن حنظلة الغسيل فبايعوه وولوه عليهم).

تاريخ الطبري: ٤ /٣٦٨.

الأنظار ولقد ثار الحسين عليه السلام ليكشف للامة اختفاء الحكّام خلف اسم الدين، وليفضح للمسلمين حقيقة الطواغيت الّذين حكموا الناس باسم خلافة الرسول صلى الله عليه وآله.

لم تكن واقعة الطف قضية مأساوية عابرة حدثت في مرحلة معيّنة من التاريخ، بل هي صورة متكاملة لتجسيد الصراع بين الحق والباطل، هي مسرحية واقعية تنبض بالحياة، أدى أدوارها كل صنف من أصناف البشر وبمختلف الأعمار والأجناس، فيها المعصوم الذي لا يخطئ ساهياً، والمجرم الذي لا يتورع عن فعل أدنى الأفعال وأبشعها، فيها المرأة والطفل الرضيع والصبي والشيخ العجوز، فيها التائب والعاصي، فيها السمو والرفعة، وفيها أيضاً الدناءة والخسة، وهي وإنْ لم تعبّر عن مرحلة تاريخية لكنها عبّرت عن حالة أُمة انحرف[1] بها الحكام عن جادة الصواب وأبعدوها عن رسالتها وعقيدتها، حتى أصبحت أمةً ميتةً لا تفكر إلا بهذا المقدار من النفس الصاعد النازل، هذه الأمة التي بلغ بها الخوف حداً لا يوصف، فهي تعرف أن ((الحق لا يعمل به والمنكر لا يتناهى عنه))[2]، تدرك ذلك ولا تحرك ساكناً.

---

(١) في الأصل وجود واو ((وانحرف)) لا ضرورة لها.

(٢) المعجم الكبير، سليمان بن أحمد الطبراني، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الثانية: ١١٥/٣. ذخائر العقبى، أحمد الطبري: ١٥٠، وكشف الغمة، الإربلي: ٢٤٢/٢.

إن هذه الأمة جاءها أهلها فماتت، وان كانت الأجساد متحركة.

وجاءت واقعة الطف كقضية مأساوية مثيرة، لتحرك في الأمة ضميرها وتعيدها نحو رسالتها وتبعث شخصيتها العقائدية من جديد، وكان من اللازم أن يقوم بهذا الدور مجموعة من الناس قادرون بما يمتلكون من قدرات ومقّومات، تجعل دورهم فاعلاً ومؤثراً في حياة هذه الأمة الميتة مع إدراكها كما يصور ذلك الفرزدق بقوله للإمام عليه السلام الناس، قال: ((سيوفهم عليك وقلوبهم معك))[1].

---

(١) النص التاريخي: فقال له - أي للفرزدق- الحسين: بين لنا نبأ الناس خلفك، فقال له الفرزدق: من الخبير سألت، قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أمية.

تاريخ الطبري: ٤ / ٢٩٠.

❖ مقّومات الثورة ❖

وكانت أهم هذه المقّومات ما يلي:

١ـ المقّومات الشخصية للثائر:

فالثائر الذي يقود جبهة الحق كان إماماً معصوماً يمتلك كل المواصفات القدسية بنص حديث الرسول صلى الله عليه وآله (الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا)(١) فهذه الصفة القدسية التي يمتلكها الحسين عليه السلام تدركها الأمة، خصوصا مع وجود عدد غير قليل من الصحابة الّذين عاصروا الرسول صلى الله عليه وآله وسمعوا منه(٢) تلك الأحاديث بشأن هذا الإمام عليه السلام وبالإضافة إلى ذلك فالإمام عليه السلام يمتلك عنصر النسب الذي لا تشويه شائبة ولا يناله شك: أبوه علي عليه السلام وأمه فاطمة عليها السلام وجده الرسول صلى الله عليه وآله والصحابة يتذكرون حديث الرسول صلى الله عليه وآله بشأنه (حسين مني وأنا من حسين)(٣) يدركون هذا

---

(١) مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب: ١٢٢/٣.

(٢) قال الجصاص: كان علي محقاً في قتال الفئة الباغية، لم يخالف أحد، وكان معه من كبار الصحابة وأهل بدر من قد علم مكانهم. وبقي منهم كثير إلى ما بعد واقعة الطف، ومنهم من شارك سليمان بن صرد في ثورة التوابين، والمختار ثورته، وابن الأشعث. أحكام القرآن، الجصاص : ٤٩٢/٣.

(٣) المصنف، ابن أبي شيبة: ٥١٥/٧. والبداية والنهاية، ابن كثير: ٢٢٤/٨، وفيهما، ((أحب الله من احب حسيناً، وحسين سبط من الأسباط)).

التمازج الروحي والتمازج النسبي، والحسين عليه السلام يمتلك الجاه والشرف، كيف لا وهو محط أنظار المسلمين وكهف المستغيثين واللاجئين[١]، ويمتلك الإمام المال والثورة. أتذكرون يوم عاشوراء حينما خاطب سلام الله عليه أخته الحوراء قائلاً: ناوليني ملابس استبدل بها ملابسي هذه لئلا يطمع القوم فيها فيسلبونيها؟ فلما أعطته ملابس رديئة بالية قال لها مستنكراً: (أو يلبس ابن أبيك مثل هذا؟)[٢] فلو كان لباسه الأول عادياً لقبل تلك الخرق البالية، فلابدّ أن يكون لباسه في أول الأمر من أفخر الألبسة وأثمنها، والروايات تذكر أنّ

---

(١) ويتضح لنا ذلك، من رواية ابن كثير عن موقف عبد الله بن الزبير: وأما ابن الزبير فأنّه لزم مصلاه عند الكعبة، وجعل يتردد في غضون ذلك إلى الحسين في جملة الناس، ولا يمكنه أن يتحرك شيء مما في نفسه مع وجود الحسين، لما يعلم من تعظيم الناس له وتقديمهم إياه عليه، ومع هذا كله ليس هو معظما عند الناس مثل الحسين، بل الناس إنما ميلهم إلى الحسين لأنه السيد الكبير، وابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فليس على وجه الأرض يومئذ أحد يساميه ولا يساويه، ولكن الدولة اليزيدية كانت كلها تناوئه. البداية والنهاية، ابن كثير: ٨ /١٦٢.

(٢) النص: قال عليه السلام: ائتوني بثوب لا يرغب فيه البسه غير ثيابي فإني مقتول مسلوب، فأتوه بتبان- سراويل بلا ساق- فأبى أن يلبسه وقال: هذا لباس أهل الذمة، ثم أتوه بشيء أوسع منه دون السراويل وفوق التبان فلبسه.

مقتل الحسين عليه السلام، أبو مخنف الأزدي : ١٩٤.

القافلة الهاشمية كانت محملة بالأموال الكثيرة [١]، فالحسين عليه السلام كان يمتلك كل المقّومات الشخصية للقداسة: الشرف والجاه، الغنى والثروة، والعصمة.

٢. شرعية الثورة:

ولكـي لا تكـون الـثورة هامشية، فلا تعطي ثمرتها المرجوّة، فقد كان الثائر يمـتلك الوثـائق الكفيلة بإضفاء المشروعية على هذه الثورة وأنها الحل الوحيد والخـيار الذي لا بديل له. فقد كانت الرسائل الواردة من زعماء العراق ومن الكوفة خاصة تطلب من الإمام عليه السلام بإلحاحٍ القدوم إلى العراق، وكان مضمون هـذه الرسائل كما تنقل الروايات (أقدم على جند لك مجندة، فقد طاب الجنان واخضر المقام) [٢]، ولا شك أنّ عدم تلبية الإمام لهذه الطلبات التي تُقدّر على اقل الروايات باثني عشر ألف رسالة [٣].

إنّ عدم التلبية سيلزم الإمام عليه السلام الحجة في تفويته للفرصة، وبالعكس فان

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام، أبو مخنف: ٦٨.

(٢) الـنص: فـنادى ـ أي الإمام الحسين عليه السلام ـ يا شبث بن ربعي، ويا حجّار بن أبجر، ويا قـيس بـن الأشعث، ويا يزيد بن الحارث، ألم تكتبوا إليّ أن قد أينعت الثمار، واخضر الجـناب، وطمت الجمام، وإنما تقدم على جند لك مجند فاقبل. قالوا له: لم نفعل، فقال: سبحان الله بلى والله لقد فعلتم.

مقتل الحسين عليه السلام، أبو مخنف الأزدي: ١١٨. وتاريخ الطبري: ٢٦٢/٤.

(٣) انظر: تاريخ الطبري: ٣٠٣/٤.

المجيء سيلزم الأمة الحجة إن هي خانت، والأمر الآخر أنّ الإمام عليه السلام أمام التهديد الأموي إن هو لم يبايع، ولو بايع فانه سيعطي في مثل هذه الحالة الوثيقة الشرعية للحكام الأمويين الظلمة وسيطفئ بالتالي بصيص الأمل الذي ترصده الأمة في تلك الشخصية المعارضة، أعني شخصية الإمام، وفي حالة رفضه فإنّه أمام خيارين، إما الموت الذي قرّره الأمويون له (ولو كان معلقا بأستار الكعبة) وإما الرحيل إلى إحدى المناطق التي يمتلك فيها شعبية وشيعة[1]، ولا تتعدى هذه المناطق اليمن، الكوفة والبصرة، من المعلوم أنّ الطلب الأموي سوف يلاحقه في هذه المناطق بلا فرق، وما دامت الكوفة تحتوي أكثر القواعد الشعبية المؤيدة له سلام الله عليه بالإضافة إلى الطلب الشديد من قبل أهلها، فان الخيار الصحيح لابدّ أن يكون بالرحيل إلى الكوفة عاصمة أبيه أمير المؤمنين عليه السلام.

ولهذا رفض الإمام عليه السلام إلحاح أخيه محمد بن الحنفية وممانعته من الذهاب إلى الكوفة، كما رفض طلب ابن عباس رضي الله عنه الذي أشار على الإمام عليه السلام

---

(١) لقد ورد في خطبة للإمام الحسين عليه السلام قبل بدء القتال الإشارة إلى ذلك، قال عليه السلام: أيها الناس ذروني أرجع إلى مأمني من الأرض، فقالوا: وما يمنعك أن تنزل على حكم بني عمك ؟ فقال: معاذ الله. البداية والنهاية: ١٩٢/٨.

بالذهاب إلى اليمن[١]

٣ ـ الشعار:

ولكـي لا تُشـوّه هـذه الثورة خصوصا وأنّ الإمام عليه السلام قد علم بخيانة أهل الكوفـة، وكـيف أنهـم قـتلوا رسوله مسلم بن عقيل عليه السلام وصاحبه هانئ بن عروه[٢]، وشرّدوا بقية الأنصار واعتقلوا قسماً منهم.

إنّ هذه الصورة جعلت الحسين عليه السلام أمام مواجهة عسكرية لا مناص منها، ولكـي لا تشـوّه هـذه الـثورة كمـا قلنا، فقد أعلن الحسين عن أهدافها وطرح شعاراتها ابتداء من المدينة حتى يوم المجزرة الكربلائية، فهو يقول:

(والله إنـي مـا خرجـت أشـراً ولا بطـراً ولا ظالمـا ولا مفسدا وإنما خرجت لطلـب الإصـلاح في أمـة جـدي لآمـر بالمعروف وأنهى عن المنكر)[٣]، ثم إنّه وضـع الأمـة أمـام الخـيارات الـتي لا مـناص منها ليجعل من ثورته الأسلوب الوحـيد أمـام الـتحديات الكافـرة، فـبعد أن الـتقى الحـر بـن يـزيد الرياحي رضي الله عنه قـال عليه السلام: (هـذه أرض الله واسعة فدعوني أذهب وشأني)[٤] أو ما

---

(١) مقتل الحسين، أبو خنف: ٦٥. والبداية والنهاية: ١٧٣/٨.

(٢) انظر: تاريخ الطبري: ٣٠٠/٤ ـ ٣٠١.

(٣) مقتل الخوارزمي، الموفق بن أحمد، منشورات مكتبة المفيد، قم: ١٨٨/١ – ١٨٩.

(٤) تاريخ الطبري : ٣٢٣/٤.

يقارب هـذه العبارة، وفي هذه الكلمة في أقل تقدير أن يترك الإمام عليه السلام يختار حياة العزلة، ولكن جيش الحر رفض التخلي عن أوامر السلطة الجائرة فجعجعوا به إلى كربلاء، وهناك أيضاً وضع أصحابه أمام الخيار فلم يرد إقحامهم في معركة خاسرة من الناحية العسكرية، لذا جمعهم ليلة العاشر من المحرم ثم خطبهم وقال:

(إنّ هذا الليل قد أرخى سدوله فاتخذوه جملا، ليس عليكم مني ذمام)[١]

ولقد رفض هؤلاء الأخيار هذا الطلب، حينما قام زهير بن القين، فقال:

(ماذا نقول للعرب وفي رواية: لجدك أيقتل ابن بنت رسول الله ونظل أحياء لا والله لا نفعل ذلك أبدا) [٢] وقال: غيره مثل قوله[٣]

---

(١) إعلام الورى، الشيخ الطبرسي: ١/ ٤٥٥.

(٢) النص: وقام زهير بن القين فقال: والله لوددت أني قتلت ثم نشرت ثم قتلت، وهكذا ألف مرة، وأن الله سبحانه يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك.

مقتل الحسين، أبو مخنف: ١١٠. أعلام الورى: ١/٤٥٦.

(٣) أقوال آخرين: فقال الحسين عليه السلام : يا بني عقيل حسبكم من القتل بمسلم ، اذهبوا قد أذنت لكم. قالوا : فما يقول الناس ؟ يقولون : انا تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومتنا خير الاعمام ولم نرم معهم بسهم ، ولم نطعن معهم برمح ، ولم نضرب معهم بسيف ، ولا ندري ما صنعوا لا والله لا نفعل ولكن نفديك انفسنا واموالنا واهلونا ونقاتل ←

ولما كانت المواجهة حتمية، وإنّ السيف هو الحكم الفصل أصر الحسين عليه السلام على خوض هذه الحرب قائلا:

(إنْ كـان ديـن محمـد لم يستقم إلا بقتلي فيا سيوف خذيني)[1]. وعلى كل حـال فقـد وضـع الإمام الحسين عليه السلام أهداف الثورة أمام عينيه منذ حركته من المدينـة حـتى مصرعه في الطف، ومن ثم واصلت أخته الحوراء عليها السلام حمل تلك الرسـالة؛ فكانت الوسيلة الإعلامية التي تذيع أخبار الثورة، والمعول الهدّام في

معـك حـتى نرد موردك، فقبح الله العيش بعدك قال أبو مخنف ـ حدثني عبدالله بن عاصـم عـن الضـحاك بـن عبدالله المشرقي قال : فقام إليه مسلم بن عوسجة الاسدي فقـال : أنحـن نخلي عنك ولما نعذر إلى الله في اداء حقك. اما والله لا افارقك حتى أكسر في صـدورهم رمحي واضـربهم بسـيفي ما ثبت قائمه في يدي ولو لم يكن معي سلاح اقاتـلهم بـه لقذفـتهم بالحجـارة دونـك حتى اموت معك قال : وقال سعد بن عبدالله الحنفي: والله لا نخليك حتى يعلم الله انا قد حفظنا غيبة رسول الله صلى الله عليه وآله فيك ، والله لـو علمـت انـي اقـتل ثـم احـيا ثـم احـرق حيا ثم اذر يفعل ذلك بي سبعين مرة ما فارقـتك حـتى القى حمامي دونك ، فكيف لا افعل ذلك وانما هي قتلة واحدة ، ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها ابدا.

مقتل الحسين، أبو مخنف: ١٠٩ –١١٠.

(١) أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين: ٥٨١/١. وقائل البيت: الشيخ محسن أبو الحب.

العرش الأموي الحاكم[١]

٤ـ المقوّم العاطفي:

وهي عملية إثارة المشاعر في نفوس المسلمين الّذين لم تحرك الأفكار المنطقية عقولهم، ويلاحظ المقوّم العاطفي في الثورة الحسينية من خلال أسلوبين:

أولهما :

إشراك العقائل من الهاشميات في الثورة بالإضافة إلى إشتراك الأطفال بالدرجة التي يساهم فيها رضيع ولد في اليوم العاشر من المحرم أثناء المعركة، فان وجود نساء البيت العلوي ومخدرات الهاشميين في خضم هذه المحنة لابدّ أن يثير في النفوس العطف وفي القلوب الانكسار مهما كانت تلك النفوس متوحشة والقلوب قاسية. أما الأطفال فقد قدمتهم الثورة كدليل على أنّ هؤلاء القوم الّذين يحاربون خوفاً وطمعاً قد بلغ بهم الأمر حينما نسوا الله فأنساهم ذكر أنفسهم، بلغ بهم الأمر حداً لا يوصف من الدناءة والوضاعة واللؤم فلهذا خاطبهم الحسين عليه السلام بقوله: (إنْ كان الذنب ذنب الكبار فما هو ذنب هؤلاء الأطفال؟[٢] وبهذه المشاركة أضاف للثورة رصيداً عاطفياً ضخماً جعلها

---

(١) انظر: مقتل الخوارزمي، م. س: ٢/٤٠، وما بعدها للتعرف على مواقف عقيلة الهاشميين (سلام الله عليها).

(٢) انظر: مثير الأحزان، ابن نما الحلي، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف١٩٥٠: ٥٥.

تحتل مركز القمة بين الفواجع على طول التاريخ وتحرك مشاعر المسلمين وعواطفهم وأحاسيسهم إلى يومنا هذا.

وثانيهما :

هو أسلوب التذكير والوعظ الذي استخدمه الإمام عليه السلام وصحبه (رضوان الله عليهم)[١] فلقد ذكر الإمام القوم بقوله: (انسبوني من أنا، ألست ابن بنت نبيكم؟)[٢] ثم يقول (لم تحاربونني، ألِسُنة غيرتها أم لبدعة ابتدعتها؟) وفي موضع آخر يقول: (إنْ لم يكن لكم دين فكونوا عربا كما تزعمون فكونوا أحراراً في دنياكم)[٣] ذلك في إشارة منه للقوم حينما هجموا على بيوت عقائل الرسالة، إلا أنهم وصلوا حداً لم ينسوا دينهم فحسب، بل نسوا حتى أعرافهم العربية التي تعودوها وتسالموا عليها، ولهذا أيضاً نجد الإمام عليه السلام يصف حال الناس بقوله: (والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درّت معايشهم فإذا محصوا بالبلاء قل الديانون)[٤]

وعلى ضوء ما سبق نكون قد رسمنا صورة موجزة لمقوّمات الثورة من جهة

---

(١) تاريخ الطبري: ٣٢٤/٤.

(٢) مقتل الحسين عليه السلام، أبو مخنف : ١١٧.

(٣) اللهوف في قتلى الطفوف، ابن طاووس، الطبعة الأولى، ١٤١٧: ٧١، وعمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، ابن عنبة، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٩٦١: ٧.

(٤) كشف الغمة، الإربلي: ٢٤١/٢ـ ٢٤٢.

ولحالة الأمة أيضاً، فالأمة كما قلنا بلغت حالة الاحتضار أو الموت، لا تقوى على المعارضة وتعيش أزمة معقدة من الخوف في الوقت الذي يحاول الحكام جر الأمة إلى الهاوية، وقتل روح العزة والكرامة، وتفتيت كيانها الحضاري وإبعادها عن رسالتها السمحاء.

وثورة الحسين عليه السلام لم تكن مرحلة تاريخية كما قلنا لكنها عبّرت عن حالة أمة، وصلت هذا الوضع المأساوي فأقدمت على جناية تاريخية بشعة.

واليوم تعود هذه الحالة من جديد، فهذه الأمة الإسلامية تعيش الوضع نفسه الذي عاشته الأمة في زمن الحسين عليه السلام فلقد انحرف بها الحكام عن رسالتها وحضارتها وكيانها، وهذه الأمة تعيش الخوف والوجل ولا تفكر إلا بالنّفس الصاعد النازل. فلابدّ من هزة عنيفة توقظ وجدان هذه الأمة وتحرك ضميرها وتعيدها إلى رشدها.

ولابدّ أيضاً أن تمتلك هذه الهزة كل المقوّمات التي امتلكتها هزة الطف، قائد رسالي مقدس ذو جاه وشرف ومال، يمتلك الحجة الوثائقية التي تدين الحكام وتفضح انحرافهم عن الرسالة وتدين سكوت الأمة وخضوعها للذل والهوان، وعلى هذا القائد أن يطرح الشعار البديل الذي يوقد الجذوة الثورية في النفوس، ويحافظ على الجوهر الرسالي للثورة وأهدافها الحقيقية، وعلى القائد هذا أن يحرك المشاعر والعواطف والأحاسيس عند هذه الأمة.

إذن لابدّ من حسين جديد لهذه الحركة ولابدّ من زينب، ولابدّ من رجال كأصحاب الحسين عليه السلام، وهذا أمر مستحيل، فلا يمكن لأي إنسان أن يمتلك

كل هذه المواصفات التي يمتلكها الحسين عليه السلام ولا مقومات ثورته بالكامل، وإذا كان الأمر مستحيلا [١]، تشكل بمجموعها جزءً من مقّومات مأساة الطف لتحرك ضمير هذه الأمة الميتة وتوقظ مشاعرها وأحاسيسها، وعلى المسلمين أن يكونوا دائماً على أهبة الاستعداد لتلبية نداء الإسلام متى استصرخهم لنصرته لعل في قطار الدم عودة إلى الواقع الرسالي الكريم.

والحمد لله رب العالمين

***

---

(١) (إن الأمة التي أحيا ضميرها دم الحسين عليه السلام تحتاج اليوم إلى قطار من التضحيات، لأنه ليس فينا شخص كالحسين عليه السلام). هذا النص للسيد الشهيد (رضوان الله عليه)، من مجموعة محاضرات كانت لدينا في العراق، وهو الوحيد منها الذي بقي نحمله معنا، لأنه أُختزن في الوجدان.

التخطيط الحسيني لتغيير أخلاقية الهزيمة (١)

إنّ الإمام الحسين وقف ليعالج مرضاً من أمراض الأمة، كما وقف من قبله أخوه الإمام الحسن عليه افضل الصلاة والسلام ليعالج مرضاً آخر من أمراض الأمة ، بينما قدر للإمام الحسن أن يعالج مرض الشك في الأمة الإسلامية التي بدأت في عهد أمير المؤمنين تشك في الخط الرسالي الذي سار عليه قادة أهل البيت ، واستفحل لديها هذا الشك حتى تحول إلى حالة مرضية في عهد الإمام الحسن عليه السلام، هذه الحالة المرضية التي لم يكن بالإمكان علاجها حتى بالتضحية ، عالج الإمام الحسين عليه السلام حالة مرضية أخرى هي حالة انعدام الإرادة مع وضوح الطريق، فالأمة الإسلامية التي كانت تشك، أو التي بدأت تشك في واقع المعركة القائمة داخل الإطار الإسلامي بين الجناحين المتصارعين اتضح لها بعد هذا الطريق ، لكن هذا الطريق اتضحت لها معالمه بعد أن فقدت إرادتها، وبعد أن نامت واستطاع الّذين اغتصبوها وسرقوا شخصيتها وزوروا أرادتها وأباحوا كرامتها، واستطاعوا أن يخدّروها وأن يجعلوها غير

---

(١) هذا نص محاضرتين للمرجع الشهيد السيد محمد باقر الصدر (قده) ألقاهما في النجف الأشرف بتاريخ ١٦ و١٧ / صفر / ١٣٨٩هـ، ونشرتهما مجلة الفكر الإسلامي في العدد (١٧)، السنة الخامسة، ١٤١٨هـ، وقد حصلت عليهما مدونتين بنصيهما من قبل سماحة السيد كاظم الحائري.

قادرة على مجابهة موقف من هذا القبيل، هذه الحالة المرضية الثانية عالجها الإمام الحسين عليه الصلاة والسلام بالموقف الذي شرحناه [١]، وقلنا: انه كان بالإمكان عدة بدائل للموقف الذي اتخذه الإمام الحسين إلا أنّ كل البدائل الممكنة والمتصورة لم تكن تحقق الهدف في علاج هذه الحالة المرضية ، وكان الطريق الوحيد لعلاج هذه الحالة المرضية هو الخط الذي سار عليه سيد الشهداء عليه افضل الصلاة والسلام[٢]

مشاهد موت الإرادة في المجتمع الإسلامي

نحاول الآن أن نستعرض عمق هذا المرض في جسم الأمة الإسلامية حتى نعرف أنّه بقدر عمق هذا المرض في جسم الأمة الإسلامية لابدّ أنْ يفكر في العلاج أيضاً بتلك الدرجة من العمق ، وإذا كان من المقدر كما فهمنا في

---

(١) إنّ الإمام عليه السلام أمام خيارين، إما الموت الذي قرره الأمويون له (ولو كان معلقا بأستار الكعبة) وإما الرحيل إلى إحدى المناطق التي يمتلك فيها شعبية وشيعة.

(٢) يشير السيد الشهيد رضي الله عنه إلى الاحتمالات التي يواجهها الإمام الحسين عليه السلام في حالة عدم مواجهة الجيش الأموي، فيقول رضي الله عنه : ((وفي حالة رفضه ـ أي لبيعة يزيد ـ فانه أمام خيارين، إما الموت الذي قرره الأمويون له (ولو كان معلقا بأستار الكعبة) وإما الرحيل إلى إحدى المناطق التي يمتلك فيها شعبية وشيعة)). انظر: شرعية الثورة، موضوع سابق.

محاضرات سابقة [١] أنّ العلاج الوحيد للحالة المرضية الثانية هذه هي التضحية، فبقدر ما يكون هذا المرض عميقاً في جسم الأمة يجب أن تكون التضحية أيضاً عميقة مكافئة لدرجة عمق هذا المرض في جسم الأمة ، وهذا المرض كان يشمل كل قطاعات الأمة عدا بصيص هنا وهناك تجمع مع الإمام الحسين عليه الصلاة والسلام.

المشهد الأول : التخويف بالموت من عقلاء المسلمين

خلال خط عمله وحركته لاحظنا كيف أنّ الإمام الحسين عليه الصلاة والسلام حينما قرر السفر من المدينة إلى مكة ، أو في النهاية حينما قرر الهجرة من الحجاز متجها إلى العراق ، إلى تسلم مسؤولياته كشخص ثائر حاكم على طواغيت بني أمية، كان يتلقى من كل صوب وحدب النصائح من عقلاء المسلمين ، أو من يسمون يومئذ بعقلاء المسلمين الّذين يؤثرون التعقل على التهوّر، كيف أنّ هؤلاء العقلاء أجمعت كلمتهم على أنّ هذا التصرف من الإمام الحسين ليس تصرفاً طبيعياً،كانوا يخوفونه بالموت، كانوا يقولون له: كيف تثور على بني أمية وبنو أمية بيدهم السلطان، والرجال، والمال، وكل وسائل الإغراء الترغيب والترهيب؟ مع بني أمية، والتي وصل إليها الإمام

---

(١) انظر: محاضرة [[ثورة الحسين عليه السلام]]، السابقة.

الحسن في صراعه مع بني أمية ، كانوا يمنونه السلامة ، كانوا لا يتصورون أن التضحية يمكن أن تكون بديلاً لحياة بالإمكان الاحتفاظ بأنفاسها مهما كانت هذه الأنفاس، ومهما كانت ملابسات هذه الأنفاس، هذه النصائح لم يتلقها الإمام الحسين من رعاع، أو من عوام وإنما تلقاها من سادة المسلمين، من الأشخاص الّذين كان بيدهم الحل والعقد في المجتمع الإسلامي، تلقاها من أشخاص من قبيل عبد اللّه بن عباس[١]، وعبد اللّه بن عمر بن الخطاب[٢] ، وعبد الله بن جعفر الطيار، ومن قبل أخيه محمد بن الحنفية[٣]، ومن قبل غيرهم من سادة الرأي في المجتمع الإسلامي، حتى أنّ عبد الله بن جعفر[٤] الذي هو ابن عمه، الذي هو ابن أخي علي بن أبي طالب.

بالرغم من ارتباطه النسبي الوثيق بالخط كان منهاراً نفسياً إلى الدرجة التي أرسل فيها رسالة إلى الإمام الحسين حينما سمع بعزمه على سرعة الخروج من مكة، أن انتظر حتى الحق بك ، وماذا كان يريد من هذا الانتظار؟

الإمام الحسين لم ينتظره ، فحينما وصل عبد اللّه بن جعفر إلى مكة كان

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام، أبو مخنف: ٦٤ ـ ٦٥.

(٢) اللهوف في قتلى الطفوف، ابن طاووس: ٢٢.

(٣) مقتل الحسين عليه السلام، أبو مخنف: ٨.

(٤) مقتل الحسين عليه السلام: ٦٨.

الإمام الشهيد قد خرج منها، فذهب عبد الله بن جعفر رأساً إلى والي بني أمية في مكة واخذ منه كتاب الأمان للحسين ، وذهب بالكتاب إلى الحسين وهو يرى انه قد استطاع بهذا أن يقضي على كل مبررات خروج الحسين ، لماذا يخرج الحسين من مكة ؟ لأنه خائف فيها وقد جاء الأمان له من سلاطين بني أمية.

هذه النصائح كانت تعبّر عن نوع من الانهيار النفسي الكامل الذي شمل زعماء وسادة المسلمين فضلا عن الجماهير التي كانت تعيش هذا الانهيار مضاعفاً في أخلاقها وسلوكها وأطماعها ورغباتها، هذه السلبية والبرود المطلق الذي كان يواجهه الإمام الحسين ، أو تواجهه حركة الإمام الحسين بالرغم من قوة المثيرات، هذا البرود المطلق في لحظات ترقب العطاء الحقيقي كان يعبّر عن ذلك الانهيار النفسي على مختلف المستويات.

المشهد الثاني : موقف عبيد الله بن الحر الجعفي[(١)]

الحسين عليه الصلاة والسلام بنفسه يقصد عبيد الله بن الحر الجعفي إلى خيمته ويتوسل به إلى أن يرتبط بهذا الخط، ويتصل به وهو اعرف الناس بصحة هذا الخط وصوابه ، فيعز عليه أن يقدم قطرة من دمه ، ويعز عليه أن يقدم شيئا سوى الفرس[(٢)] فقط، لم يستطع أن يذوق طعم التضحية إلا على

---

(١) في الأصل عبد الله بن الحر، والصحيح ما أثبتناه، النص: عن عامر الشعبي: أن الحسين بن علي رضي الله عنه قال: لمن هذا الفسطاط ؟ فقيل: لعبيد الله بن الحر الجعفي، قال: ادعوه لي، وبعث إليه فلما أتاه الرسول قال: هذا الحسين بن علي يدعوك، فقال عبيد الله بن الحر: إنا لله وإنا إليه راجعون، والله ما خرجت من الكوفة إلاّ كراهة أن يدخلها الحسين وأنا بها، والله ما أريد أراه ولا يراني، فأتاه الرسول فأخبره، فأخذ الحسين نعليه فانتعل ثم قام فجاءه حتى دخل عليه فسلم وجلس، ثم دعاه إلى الخروج معه، فأعاد إليه ابن الحر تلك المقالة، فقال: فألا تنصرنا فاتق الله أن تكون ممن يقاتلنا، فوالله لا يسمع واعيتنا أحد ثم لا ينصرنا إلا هلك. قال: أمّا هذا فلا يكون أبدا إن شاء الله ثم قام الحسين عليه السلام من عنده حتى دخل رحله.

مقتل الحسين عليه السلام، أبو مخنف الأزدي: ٩١ – ٩٢.

(٢) وفي مقتل الخوارزمي: إن عبيد الله، قال للإمام الحسين عليه السلام: (وأنا أواسيك بما أقدر عليه، خد إليك فرسي.. فوالله ما طلبت عليها شيئاً قط إلا وقد لحقته، ولا طُلبت قط فأدركت، وخد سيفي..). انظر: مقتل الخوارزمي: ٢٢٦ – ٢٢٧.

مستوى تقديم فرس واحدة فقط.

المشهد الثالث : موقف زعماء البصرة

الإمام الحسين يكتب إلى ستة من زعماء البصرة يختارهم من أولئك الّذين لهم ارتباطات مع خط الإمام علي عليه السلام فان زعماء البصرة [1] على قسمين:

زعماء مرتبطون مع خط بني أمية وخط عائشة وطلحة والزبير، وزعماء يرتبطون مع خط الإمام علي ومدرسته ، فيختار الإمام الشهيد ستة من الأشخاص الّذين يرتبطون بمدرسة الإمام علي ويشعرون بالولاء لمفاهيم هذه المدرسة وشعاراتها وأهدافها، ويكتب إليهم يستنصرهم ويستصرخهم ويشعرهم بالخطر الدائم الذي تواجهه الأمة الإسلامية ممثلاً في كسروية وقيصرية يزيد بن معاوية ، فماذا يكون رد الفعل لهذه الرسالة ؟

يكون رد الفعل إذا استثنينا شخصاً واحداً وهو عبد الله بن مسعود النهشلي الذي كتب مستجيبا، هو البرود المطلق، أو الخيانة، إذ يبعث

---

(١) انظر: مقتل الحسين أبو مخنف: ٢٥. كتابه ـ أي الإمام الحسين عليه السلام ـ إلى رؤوس الأخماس في البصرة.

أحدهم[١] برسول الحسين إلى عبيد الله بن زياد وكان وقتئذٍ والياً على البصرة، صدّقوا: إنّ هذا الشخص الذي قام بهذا العمل هو من شيعة علي بن أبي طالب ، ولم يكن عثمانيا، بل كان علوياً، ولكنه علوي فقد كل مضمونه ، فقد كل معناه ، فقد كل إرادته، أخذَ الرسول مع الرسالة إلى عبيد الله بن زياد لكن لا حباً لعبيد الله بن زياد، ولا إيماناً بخط عبيد الله بن زياد، بل حفاظاً على نفسه، وابتعاداً بنفسه عن اقل مواطن الخطر، خشية أن يطلّع في يوم ما عبيد الله بن زياد على أنّ ابن رسول اللّه كتب إليه يستصرخه وهو لم يكشف هذه الورقة للسلطة الحاكمة وقتئذٍ، فيتخذ هذا نقطة ضعف عليه ، فلكي يبتعد عن أقل نقاط الضعف ، ولكي يوفر له كل عوامل السلامة ، وكل ضمانات البقاء الذليل أخذ رسول الإمام والرسالة وقدمهما بين يدي عبيد الله بن زياد، فأمر عبيد الله بن زياد بالرسول فقتل[٢] (رضوان اللّه عليه)

---

(١) النص التاريخي: فكل من قرء ذلك الكتاب من أشراف الناس كتمه غير المنذر بن الجارود فانه خشي بزعمه ان يكون دسيسا من قبل عبيدالله، فجاءه بالرسول من العشية التي يريد صبيحتها أن يسبق إلى الكوفة وأقرأه كتابه، فقدم الرسول فضرب عنقه. مقتل الحسين، أبو مخنف : ٢٦.

(٢) انظر: مقتل الحسين عليه السلام، أبو مخنف: ٢٥ ـ ٢٦. حول موقف زعماء البصرة من رسالة الإمام الحسين عليه السلام.

شـخص آخـر مـن هـؤلاء الـزعماء الأحنف بن قيس الذي عاش مع خط جهـاد الإمـام علـي وعـاش مـع حياة الإمام علي عن قرب ، وتربى على يديه مـاذا كـان جوابه لابن الإمام علي ؟ أمره بالتصبر والتريث وقال لـه في رسالة أجـاب بهـا على رسالته: ولا يستخفنك الّذين لا يوقنون[١] معرضاً بالطلبات الـتي كـان الإمـام الحسـين عليه الصلاة والسلام يتلقاها من شيعته وفي الواقع كانـت رسـالة الأحـنف تعـبّر عـن أخلاقـية الأمة المهزومة، فإنّ الأمة في حالة تعرضـها للهزيمة النفسية، وفي حالة فقدانها لإرادتها وعدم شعورها بوجودها كأمـة تنشـأ لديهـا بالـتدريج أخلاقية معيّنة هي أخلاقية هذه الهزيمة، وأخلاقية هـذه الهـزيمة تصـبح قـوة كـبيرة جداً بيد صانعي هذه الهزيمة لإبقاء هذه الهزيمة وإمـرارها، وتعمـيقها وتوسيعها، ويصبح العمل الشجاع تهوراً، والتفكير في شـؤون المسـلمين استعجالا، ويصبح الاهتمام بما يقع على الإسلام والمسلمين مـن مصـائب وكـوارث نوعـا مـن الخفة ، واللاتعقل نوعاً من العجلة، وقلة الأناة نوعا من التسرع في العمل أو التفكير.

هـذه الأخلاقـية هـي أخلاقـية الهـزيمة الـتي تصطنعها الأمة لكي تبرر هذه الهـزيمة حينما تهزم وتشعر بأنها قد انتهت مقاومتها، فتنسج بالتدريج مفاهيم

---

(١) مثير الأحزان، ابن نما الحلي : ١٧.

غير مفاهيمها الأولى ، وقيماً وأهدافاً ومثلاً غير القيم والمثل والأهداف التي كانت تتبناها في الأول ،لكي تبرر أخلاقياً ومنطقياً وفكرياً الموقف الذي تقفه.

فالإمام الحسين عليه الصلاة والسلام كان يريد في الواقع أن يبدل هذه الأخلاقية، ويصنع أخلاقية جديدة لهذه الأمة تنسجم مع القدرة على التحرك، والإرادة حينما كان يقول : ((لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برما))[١] لم يكن هذا مجرد شكوى ، وإنما كان عملية تغيير لأجل إيجاد أو في الواقع إرجاع هذه الأخلاقية الأخرى التي فقدها الأحنف بن قيس ، وفقدها كل الناس الّذين مشوا مع الأحنف بن قيس.

المشهد الرابع : مغادرة بني أسد محل سكناهم

استأذن حبيب بن مظاهر من الإمام الحسين عليه الصلاة والسلام أن يذهب ويدعو عشيرته ، ويدعو بني أسد للالتحاق بخط سيد الشهداء، وكل المسلمين يعرفون من هو حبيب بن مظاهر في مواقفه وجهاده ، وفي بياض تاريخه وصفاء سيرته ، وفي ورعه وتقواه ، يذهب حبيب بن مظاهر ليطلب العون والمدد من عشيرة بني أسد للإمام عليه الصلاة والسلام، وتكون النتيجة لذلك أن تغادر عشيرة بني أسد بأجمعها تلك الليلة المنطقة، وتنسحب هذه العشيرة انسحابا إجماعيا، ويرجع حبيب بن مظاهر ليبلغ الإمام الحسين

---

(١) تاريخ الطبري: ٣٠٥/٤. ومقتل الحسين، الخوارزمي: ٥/٢.

هذه النتيجة الغريبة وهي:

إنّ عشيرته تخشى أن تبقى بعد اليوم، تخشى أن تبقى حتى حيادية ، لأنه قد لا يكتفي عمر بن سعد بهذا الحياد، فتغادر المنطقة نهائياً، ولم يكن جواب سيد الشهداء على ذلك إلا أن قال:

((لا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم))(١)

هذا البرود والسكون ، هذه الهزيمة النفسية قبل الهزيمة الخارجية هي مرض الأمة الذي كان يعالجه الإمام الحسين عليه السلام.

المشهد الخامس: موقف أهالي الكوفة من رسول الإمام عليه السلام الصيداوي:

وأظنه، قيس بن مسهر(٢) الذي أرسله الإمام الحسين عليه السلام لكي يبلغ

---

(١) روى الخوارزمي : إن حبيباً أتى بني أسد وحدثهم واجتمع معه تسعون رجلاً على نصرة الإمام عليه السلام بعد أن وعظهم، إلاّ أن رجلاً منهم ذهب إلى ابن سعد وأخبره خبرهم، فأشخص لهم الأزرق بن الحرث في أربعمائة فارساً، فاقتتلوا معهم ثم نزحوا ليلاً عن منطقتهم خشية ابن سعد.

انظر: مقتل الخوارزمي : ١/ ٢٤٤.

(٢) الاستغاثة، أبي القاسم علي بن أحمد الكوفي، المتوفي ٣٥٢هـ: ٣٣. وترجمة الإمام الحسين بن عساكر: ٣٢٧. وكان الإمام عليه السلام قد أرسل قبله عبد الله بن يقطر رسولاً إلى مسلم رضي الله عنه وأُسر ثم قتله ابن زياد.

رسـالته إلى أهـل الكوفة يعطي لهم إشعاراً بأنه في الطريق، وانه على الأبواب هـذا الرسـول يدخل الكوفة بعد أن انقلبت، وبعد أن تغيرت الكوفة إلى غير الكوفـة، وسـيطر عبـيد اللّه بن زياد على كل القطاعات العسكرية في الكوفة يؤخذ [قيس بن مسهر] أسيراً إلى عبيد اللّه بن زياد، وقبل أن يصل إليه يمزق الكـتاب، ويقـف بـين يدي عبيد اللّه بن زياد يقول لـه : لماذا مزقت الكتاب؟ يقول: لأني لا أريد أن تطلع عليه ، يقول لـه: وماذا كان فيه ؟ فيقول: لو كنت أريـد أن أخبرك لما مزقت الكتاب ، يقول لـه: إني أقتلك إلا إذا صعدت على هذا المنبر وقلت بالصراحة شيئا في سب علي بن أبي طالب والحسن والحسين ، هـذا الرسـول الأمـين يغتـنمها فرصـة، ويصـعد عـلى المنبر في هذه اللحظة الحاسمـة ، في آخـر لحظـة مـن حـياته، في هـذا الإطـار العظـيم مـن الـبطولة والشـجاعة والتضـحية أمـام عبـيد اللّـه بن زياد، وأمام شرطته وجيشه يوجه خطابـه إلى أهـل الكوفـة ويقـول: أنـا رسـول الحسين إليكم، إنّ الحسين على الأبواب، فيؤدي هذه الرسالة بكل بطولة، وبكل شجاعة ، فيأمر عبيد الله بن زيـاد بـه فيقـتل[1]، ومـاذا يكـون الصـدى لمثل هذه الدفعة المثيرة القوية الآن رسـول الإمـام الحسـين الـذي كتـبوا لـه أهل الكوفة يطلبونه على المنبر بهذا

(١) تاريخ الطبري : ٤/٢٩٧.

الشكل غير الاعتيادي والسيف فوق رقبته وهو يودع الحياة في آخر لحظة من اللحظات ، وهو يبلغهم الرسالة بكل أمانة وشجاعة، ويضحي في سبيل تقديمها بدمه وبروحه، فماذا يكون أثر ذلك؟ يكون أثر ذلك: أنّه حينما يأمر عبيد اللّه بن زياد به أن يقتل فيقتل يأتي شخص[1] من أهل الكوفة فيقطع رأسه، فيقال له: لماذا قطعت رأسه؟ فيقول: لكي أريحه بذلك، هذه الأمة لا تفكر إلا على هذا المستوى من الشفقة في حياتها، الشفقة التي تشعر بها هي الشفقة على هذا المستوى، أما الشفقة على الوجود الكلي، الشفقة على الكيان، الشفقة على العقيدة قد انتزعت من قلوبها لأنها تكلف ثمنا غاليا الشفقة التي لا تكلف ثمنا هي أن تقطع رقبة هذا الشخص، وأنْ تريحه من هذه الحياة في ظل عبيد الله بن زياد.

هذه المظاهر من البرود والسكون بالرغم من قوة الإثارة هي دليل على عمق ما وصلت إليه الأمة من الخلال.

المشهد السادس : الاندفاع نحو خط السلطة

إلى جانب ذلك أو في عكس ذلك يوجد الاندفاع المحموم نحو خط

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام: ٧٩. والقاتل، هو عبد الملك بن عمير اللخمي، ولما عيب عليه، قال أردت أن أريحه.

السلطان، نحو خط الحكم القائم ، استطاع عبيد الله بن زياد خلال أسبوعين أو ثلاثة أسابيع على اكثر تقدير بعد مقتل مسلم بن عقيل إلى أول المحرم أن يجند عشرات الآلاف من أبناء هذا البلد الذي كان وما يزال إلى ذلك الوقت يحمل رسالة علي، والولاء له، جند من هذا البلد عشرات الآلاف، واستجاب له مئات من الأشخاص الّذين كانوا قد حاربوا مع الإمام علي في صفين وحاربوا مع الإمام علي في سائر مراحل جهاده ، استجاب له شخص من قبيل عمرو بن الحجاج ، ومن هو عمرو بن الحجاج؟ هو من أولئك الّذين اضطُهدوا في سبيل الإمام علي، من أولئك الّذين عاشوا المحنة أيام زياد ولكنه لم يستطع أن يواصل المحنة ، طلق عقيدته قبل أن يصل إلى آخر الشوط لأنه شعر أنّ هذه العقيدة تكلف ثمنا غاليا، وانه إذا طلقها أمكنه أن يشتري بدلا عنها دنيا واسعة، هذا الشخص الذي رافق الإمام علي في جهاده انهار أخيرا وانتهت إرادته ، انتهت شخصيته كإنسان مسلم يفكر في الإسلام عمرو بن الحجاج نفسه كلفه عمر بن سعد بأسوءِ عمل يمكن أن يُكلف به إنسان كلفه بالحيلولة دون سيد الشهداء والماء، بقي واقفا على الماء يمنع ابن رسول اللّه والبقية الباقية من ثقل النّبوّة عن أن يشربوا من الماء، واستجاب

لذلك شبث بن ربعي[١]، ومن هو شبث بن ربعي؟

هـو الـرجل الـذي عـاش مع جهاد أمير المؤمنين ، الرجل الذي كان يعي مدلول حرب صفين[٢]، وكان يدرك أنّ الإمام علياً في حرب صفين يمثل رسول اللّه صلى الله عليه وآله في غزوة بدر، ولكن الدنيا، الانهيار النفسي ،ولكن النفس القصير خنقه في النهاية ، فذاب وتميع ، واشتد تميعه بالتدريج إلى أن وصل إلى حد: إنّ عبيد اللّـه بـن زيـاد يبعـث إليه ليقاتل الحسين ابن رسول اللّه، فماذا يكون العـذر؟ مـاذا يكون الجواب؟ لا يملك أن يعتذر بعذر من الأعذار إلا أن يقول: ((أنا مريض)) كلمة باردة جدا على مستوى بروده النفسي، عبيد اللّه بن زياد يبعـث إلـيه الرسـول مـرة أخرى ليقول لـه : المسألة حدية ، لا مرض في هذه الحالـة، إمـا أن تكـون معـنا، وإمـا أن تكـون عدونـا، وبمجـرد أن يتلقّى هذه الرسـالة ويعـرف أنّ المسـالة حدية يقوم شبث بن ربعي ويلبس ما كان يلبسه ثم يخرج متجها إلى عبيد اللّه بن زياد وهو يقول : لبيك! هذه الاستجابات من هـذا الطـرف ، وذاك الـبرود، وتلـك السلبية من ذلك الطرف هم اكبر دليل على هذا المرض.

---

(١) مقتل الحسين، المقرم: ٢٣٩ – ٢٤٠.

(٢) انظر: تاريخ الطبري: ٣/ ٥٧٦، وما بعدها (وقعة صفين).

المشهد السابع : محنة مسلم وهانئ

والدليل الذي هو اكبر من هذا هي محنة مسلم وهانئ التي يقل نظيرها في التاريخ ،هذه المحنة تصور هذا المرض وهو في قمته ، وهو في شدته بأروع تصوير، أو بأفظع تصوير، قد يذهب وهم الإنسان إلى أنّ مسلم بن عقيل كيف اتفق له أن يفرط بكل هذه القوى الضخمة التي كانت بين يديه؟ كيف فرط بهذه القوى الشعبية التي بين يديه بين عشية وضحاها وبقى وحيدا فريدا يتسكّع في الطرقات ؟ في الواقع : أنّ هذه القوى لم تكن قوى إلاّ على الورق لم تكن هذه القوى قوى إلاّ في سجّل تسجيل الأسماء حينما سجّل الأسماء فبلغت ثمانية عشر ألف، أو بلغت عشرين ألف، أو بلغت ثلاثين ألف كانت قوى على الورق ، وذلك لان هؤلاء الثمانية عشر أو العشرين ألف كانوا جزءاً من هذه الأمة الميتة، من هذه الأُمة المنهارة هذا الانهيار العجيب المفاجئ في لحظة ، هذا الانهيار العجيب المفاجئ يعكس تلك الهزيمة المسبقة هزيمة النفس، هزيمة الوجدان، هزيمة الضمير، وتلك الهزيمة، أي هزيمة النفس والوجدان والضمير هي أساس هذه الهزيمة.

عبيد اللّه بن زياد يبعث إلى هانئ بن عروة يقول له: تعال زر الأمير، الأمراء لا يطيقون الجفاء، لماذا أنت منقطع عن الأمير؟ هذا في الوقت الذي كان مسلم بن عقيل في بيت لهاني بن عروة، والشيعة يذهبون إليه متسترين هانئ بن عروة يأتي إلى عبيد اللّه بن زياد فيتهمه بان مسلما موجود عندك

وانـك تفكـر في الخـروج وشق عصا الطاعة، هانئ بن عروة يصطدم مع عبيد اللّـه بن زياد ويقول لـه باني لا ادري أين مسلم ، يقول عبيد اللّه : لابدّ لك أن تجـده فيقول هانئ : لو أنّ مسلما كان تحت قدمي لما رفعت قدمي، ثم يقدم هانـئ لـه نصيحة بكـل قوة، وبكل شجاعة وهو من الأفراد القلائل الّذين استطاعت حـركة الحسين أن تكشـفهم في مجمـوع هـذه الأمة الميتة فقال: لي نصيحة لك، قال عبيد اللّه وما هي هذه النصيحة ؟ قال : النصيحة أن تذهب أنـت وأهـل بيـتك، وتحمـل معـك كـلما لديـك مـن أمـوال إلى الشـام سالما صـحيحا، لا شـغل لـنا بـك، كـان يتكـلم هانـئ بن عروة وهو يتخيل أنّ لـه رصـيداً، وان عشـرات الآلاف مـن خلفه سوف تنفذ إرادته إذا أصبحت هذه الإرادة بحاجـة إلى التنفـيذ حـينما اشـتد غضـب عبـيد اللّه بن زياد، وحينما غضـب هانـئ ، حينما أمر بان يحبس هانئ انعكس الخبر في الكوفة بان هانئاً قـتل أو في معرض القتل ، جاء عمرو بن الحجاج وجاء معه أربعة آلاف إنسان مـن عشيرته لكي يتفقدوا أحوال هانئ بن عروة ووقفوا بباب القصر يطالبون بحـياة هانـئ بـن عـروة ، عبيد الله بن زياد يبعث على شريح القاضي باعتباره قاضـيا لابـدّ أن تتوفر فيه شرائط فهو يعتبر شاهداً ثقة، فقال لـه: تعال ادخل إلى الغـرفة التي سجن فيها هانئ ، انظر إليه حيا، واشهد أمام هؤلاء بان هانئاً حـي، فدخـل شـريح القاضـي إلى الغـرفة فـرأى أنّ هانـئاً حـي، يقول شريح القاضـي لعـنة اللّـه علـيه بمجرد أن دخلت إلى الغرفة ورأيت هانـئ بن عروة

صاح في وجهي: أين ذهب المسلمون ؟ عشرة يهجمون على القصر الآن لأنقذوني[١]، لان القصر ليس فيه شرطة ، ليس فيه جيش ، يعني لو أنّ عشرة فقط كانوا مستعدين لان يموتوا في سبيل اللّه لتغير وجه الكوفة يومئذ لان البيت ليست فيه شرطة ، ولكن الشرطة كانت أوهام هذه الأمة التي فقدت شجاعتها وإرادتها هذه الأمة التي فقدت شخصيتها خيل لها أنّ هذا القصر هو جبروت، هذا القصر هو المعقل الذي لا يمكن اجتيازه، بينما هذا القصر كان أجوف لم يكن فيه شرطة ولا جيش، ولم يكن فيه سلاح بالقدر الكافي الذي يمكن أن يصمد أمام عشرة فقط، لذا قال هانئ : أين ذهب المسلمون عشرة فقط يكفون لإنقاذي ،يكفون للقضاء على هذا القصر، يكفون لاحتلال هذا القصر، شريح القاضي يقول : أنا رجعت إلى عمرو بن الحجاج وأنا مكلف بان أؤدي الشهادة الشرعية بان هانئ بن عروة حي حتى يرجع عمرو

---

(١) انظر: مقتل الحسين عليه السلام، أبو مخنف الأزدي : ٣٦ـ٤٠. ما يتعلق بقصة هانئ رضي الله عنه ، وموقف شريح، كما نقله أبو مخنف، والنص: (فخرجت ـ أي قال شريح ـ إليهم ومعي حميد بن بكر الاحمري أرسله معي ابن زياد وكان من شرطته ممن يقوم على رأسه وأيم الله لولا مكانه معي لكنت أبلغت أصحابه ما امرني به. وفي مجلة الفكر الإسلامي قد وقع مخرج هذا النص في اشتباه؛ إذ يقول: وأهمها انه ليس فيه ما نقل الشهيد قدس سره هنا من أن شريحاً هم بأن يبلغ رسالة هانئ، هامش٨٠.

بـن الحجـاج ، لان عمرو بن الحجاج والأربعة آلاف الّذين جاءوا معه قصارى همهم أن يكون هذا حيا، يقول رجعت فهممت أن ابلغ عبارة هانئ ابن عروة لعمـرو بـن الحجـاج ، أن أقـول لـه: إنّ هانئاً يطلب عشرة فقط ، يقول لو أنّ عشـرة يهجمـون على هذا (البعبع) على هذا الشبح الضئيل الذي يكمن فيه عبـيد اللّـه بن زياد، لتمزق هذا الشبح، وتحطم هذا (البعبع)، يقول: هممت ثـم التفـت إلى أنّ شـرطي عبـيد اللّـه بـن زياد واقف إلى جنبي فسكت وأدى الشـهادة المطلوبة منه رسميا وحكوميا بان هانئاً حي ، ورجع عمرو بن الحجاج وقتل هانئ في اليوم الثاني.

مسـلم بـن عقيل بنفسه يخرج مع أربعة آلاف شخص يطوقون قصر الإمارة وعبـيد اللّه بن زياد ليس معه إلا ثلاثون على ما تقول الرواية ، وعشرون من أشراف الكوفة مسلم بن عقيل معه أربعة آلاف [1] لكن أربعة آلاف ليس لهم قلـوب ، لـيس لهم أيدي ليس لهم إرادة ، اقرأوا أسماء قادة مسلم بن عقيل في هـذه المعـركة هـؤلاء الأربعـة آلاف فـيهم جماعـة مـن كبار يوم عاشورا لكنهم انهـزموا جميعا، لم يبق مع مسلم واحد أبداً، يعني أنّ حركة الحسين هي بنفسها صـنعت هـؤلاء، هـي بنفسـها صـعدت هـؤلاء، حـتى هـؤلاء السبعون الّذين

(١) مقتل الحسين عليه السلام أبو مخنف: ٤٣.

استشهدوا مع الحسين عليه السلام كان عدد منهم نتاج محنة حركة سيد الشهداء،وإلا فلماذا انهزموا ؟ على الأقل يبقى مع مسلم هذا الشخص الذي يعرف الطريق صلى في المسجد وتفرق الناس ، يقول التاريخ [١]: كانت تأتى المرأة فتنتزع زوجها وأباها وأخاها وتقول : مالك وعمل السلاطين هذا نهاية فقدان الإرادة، إنّ الرجل يذوب ويتميع لان امرأة واحدة تأتى وتنتزعه انتزاعا، هذه المرأة هي نفسها تلك المرأة التي وقفت بعد الإمام الحسين عليه السلام تلك الوقفات العظيمة على طول الخط، هذه المرأة هي نفس تلك المرأة التي أحبطت مؤامرة إمارة عمر بن سعد، حينما مات يزيد بن معاوية وبويع من قبل الأمويين في الكوفة لعمر بن سعد موقتا، فاصبح أميرا على الكوفة، من الذي اسقط إمارته ؟

أسقطته تلك المرأة التي كانت تذهب إلى زوجها وأبيها وأخيها تنتزعهم انتزاعا، وتقول لهم : لا شغل لك مع السلاطين ، هذه المرأة بنفسها قامت بمظاهرة وقفت أمام بيت عمر بن سعد تندب الحسين وتصيح: إنّ قاتل الحسين لا يمكن أن يكون أميراً في الكوفة حتى سقط عمر بن سعد[٢]

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام، أبو مخنف: ٤٥.

(٢) النص التاريخي : ((فقد خلع أهل الكوفة ـ بعد موت يزيد بن معاوية ـ ولاية بني أمية وإمارة ابن زياد ، وأرادوا أن ينصبوا لهم أميرا إلى أن ينظروا في أمرهم: ←

المشهد الثامن : التناقض بين موقف الأمة وعواطفها

واعجب مظهر من مظاهر هذا الانهيار هو التناقض الذي كان يوجد بين قلب الأمة وعواطف الأمة وعملها، هذا التناقض الذي عبّر عنه الفرزدق بقوله للإمام الحسين عليه الصلاة والسلام : إنّ قلوبهم معك وسيوفهم عليك، لا أنّ جماعة قلوبهم معك وجماعة أخرى سيوفهم عليك، بل الوحدات الثمانية في التناقض كلها محفوظ ، ولكن مع هذا لا تناقض لان هذا الشخص الذي لا يملك إرادته يمكن أن تتحرك يده على خلاف قلبه وعاطفته، ولهذا كنا نراهم يبكون ويقتلون الإمام الحسين ، لانهم يشعرون بأنهم بقتلهم للإمام الحسين يقتلون مجدهم ، يقتلون آخر آمالهم ، يقتلون البقية الباقية من تراث الإمام علي ، هذه البقية التي كان يعقد عليها كل الواعين من المسلمين الأمل في إعادة حياة الإسلام ، في إعادة الحياة إلى الإسلام ، كانوا يشعرون بأنهم

(فقال جماعة : عمر بن سعد بن أبي وقاص يصلح لها . فلما هموا بتأميره أقبل نساء من همدان وغيرهن من نساء كهلان والانصار وربيعة والنخع حتى دخلن المسجد الجامع صارخات باكيات معولات يندبن الحسين ويقلن أما رضي عمر بن سعد بقتل الحسين حتى أراد أن يكون أميرا علينا على الكوفة، فبكى الناس ، وأعرضوا عن عمر. وكان المبرزات في ذلك نساء همدان). مروج الذهب، المسعودي : ٣/ ٩٣.

يقتلون بهذا الأمل الوحيد الباقي للتخلص من الظلم القائم، ولكنهم مع هذا الشعور لم يكونوا يستطيعون إلا أن يقفوا هذا الموقف، ويقتلوا الإمام الحسين قتلوا الإمام الحسين وهم يبكون.

وأسال اللّه أن لا يجعلنا نقتل الإمام الحسين ونحن نبكي ، أن لا يجعلنا نقتل أهداف الحسين ونحن نبكي ، الإمام الحسين ليس إنساناً محدوداً عاش من سنة كذا ومات في سنة كذا، الإمام الحسين هو الإسلام ككل ، الإمام الحسين هو كل هذه الأهداف التي ضحى من اجلها هذا الإمام العظيم.

هذه الأهداف هي الإمام الحسين ، لأنها هي روحه ،وهي فكره ، وهي قلبه وهي عواطفه ، كل مضمون الإمام الحسين هي هذه الأهداف ، هي هذه القيم المتمثلة في الإسلام ، فكما أنّ أهل الكوفة كانوا يقتلون الحسين وهم يبكون فهناك خطر كبير في أن نمنى نحن بنفس المحنة أن نقتل الحسين ونحن نبكي يجب أن نشعر بأننا يجب أن لا نكون على الأقل قتلة للحسين ونحن باكون ، البكاء لا يعني أننا غير قاتلين للحسين ، لان البكاء لو كان وحده يعني أنّ الإنسان غير قاتل للحسين إذن لما كان عمر بن سعد قاتلا للحسين ، لان عمر بن سعد بنفسه بكى حينما مرت ـ زينب عليها الصلاة والسلام في موكب السبايا ـ بالضحايا، حينما التفتت إلى أخيها، حينما اتجهت إلى رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم تستنجده أو تستصرخه، أو تخبره عن جثة الإمام الحسين وهي بالعراء، عن السبايا وهم مشتتون، عن الأطفال وهم مقيدون ، حينما أخبرت جدها صلى الله عليه وآله وسلم

بكل ذلك ضج القتلة كلهم بالبكاء[١] بكى السفاكون بكى هؤلاء الّذين أوقعوا هذه المجازر، بكوا بأنفسهم، إذن فالبكاء وحده ليس ضماناً، العاطفة وحدها ليست ضماناً لإثبات أنّ هذا صاحب العاطفة هو لا يقف موقفاً يقتل فيه الإمام الحسين، أو يقتل فيه أهداف الإمام الحسين، لابدّ من امتحان، لابدّ من تأمل ، لابدّ من تدبر، لابدّ من تعقل لكي نتأكد من أننا لسنا قتلة للإمام الحسين ، ومجرد أننا نحب الإمام الحسين، مجرد أننا نزور الإمام الحسين مجرد أننا نبكي على الإمام الحسين، مجرد أننا نمشي إلى زيارة الإمام الحسين، كل هذا شيء عظيم ، شيء جيد، شيء ممتاز، شي راجح، لكن هذا الشيء الراجح لا يكفي ضماناً ودليلاً لكي يثبت أننا لا نساهم في قتل الإمام الحسين، لان بإمكان إنسان أن يقوم بكل هذا عاطفياً وفي نفس الوقت يساهم في قتل الإمام الحسين، يجب أن نحاسب أنفسنا، يجب أن نتأمل في سلوكنا، يجب أن نعيش موقفنا بدرجة اكبر من التدبر والعمق والإحاطة والانفتاح على كل المضاعفات والملابسات، لكي نتأكد من أننا لا نمارس من قريب أو بعيد

---

(١) النص: ((يا محمداه، يا محمداه، صلى عليك ملائكة السماء، هذا الحسين بالعرا، مرمل بالدماء، مقطع الأعضاء، يا محمداه وبناتك سبايا، وذريتك مقتلة تسفي عليها الصبا، قال: فأبكت والله كل عدو وصديق)). مقتل الحسين عليه السلام، أبو مخنف الأزدي: ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر قتل الإمام الحسين عليه الصلاة والسلام.

التحول من أخلاقية الهزيمة إلى أخلاقية الإرادة

الأمة حينما تنهزم وينتزع منها شخصيتها وتموت أرادتها تنسج بالتدريج كما قلنا أخلاقية معيّنة تنسجم مع الهزيمة النفسية التي تعيشها بوصفها أُمة بدون إرادة، أمة لا تشعر بكرامتها وشخصيتها بالرغم من وضوح الطريق وجلاء الأهداف وقدرتها على التمييز المنطقي بين الحق والباطل، وبالرغم من أنّ أطروحة معاوية قد تكشفت كأطروحة جاهلية في ثوب الإسلام، وان أطروحة علي عليه الصلاة والسلام قد اتضحت أنها التعبير الأصيل عن الإسلام في معركة ثانية مع الجاهلية، بالرغم من وضوح كل ذلك بعد الهدنة التي أعلنها الإمام الحسن عليه السلام بدأت الأُمة نتيجة لفقدان إرادتها تنسج أخلاقية معيّنة تنسجم مع هزيمتها النفسية والروحية والأخلاقية، وبهذا كان الإمام الحسين عليه السلام بين أخلاقيتين بين أخلاقية الهزيمة التي تعيشها الأمة الإسلامية قبل أن تهزم فعلياً يوم عاشوراء، والأخلاقية الأخرى التي كان يريد أن يبثها وأن ينشرها في الأمة الإسلامية، وهي أخلاقية الإرادة والتضحية والعزيمة والكرامة.

كان الإمام الحسين عليه السلام يواجه تلك الأخلاقية التي ترسخت، ورسخت من المفاهيم عن العمل ، والسلب والإيجاب ، والإثبات والنفي ما يشل طاقات التحرك، وكان يريد أن يغير تلك الأخلاقية دون أن يستفزها، كان

يواجه الأخلاقية التي تمثلت في كلام للأحنف بن قيس حينما وصف المتحركين في ركاب الإمام الحسين بأنهم أولئك الّذين لا يوقنون وأولئك الأشخاص الّذين يتسرعون قبل أن يتثبتوا من وضوح الطريق.

هذا المفهوم من الأحنف بن قيس كان يعبّر عن موقف أخلاقية الهزيمة من التضحية، إنّ التضحية والإقدام على طريق قد يؤدي إلى الموت نوع من التسرع وقلة الأناة والخروج عن العرف المنطقي للسلوك، هذا المفهوم هو معطى أخلاقية الهزيمة، هذا المفهوم الذي تبدد بعد حركة الحسين عليه الصلاة والسلام واحتل بديله مفهوم التضحية الذي على أساسه قامت حركة التوابين[1]، حركة أربعة آلاف لا يرون لهم هدفاً في طريقهم إلا التضحية، لكي يكفّروا بذلك عن سيئاتهم وموقفهم السلبي تجاه الإمام الحسين.

أخلاقية الهزيمة هي هذه الأخلاقية التي انعكست في كلام لأخي الحسين عمر الأطرف حينما، قال للإمام الحسين عليه السلام: أن تبايع يزيد خير لك من أن تقتل[2] من أن تموت، هذه أخلاقية الهزيمة هي التي تبدلت بعد هذا خلال

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/٢٥٧. وانظر: تاريخ الطبري: ٤/٤٢٦. حول حركة التوابين ووقعة عين الوردة عام ٦٥.

(٢) روى ابن طاووس بسنده : عن محمد بن عمر. قال: " سمعت أبي عمر بن علي بن أبي طالب يحدث أخوالي آل عقيل قال: لما امتنع أخي الحسين عليه السلام عن البيعة ﻟ

خط حركة الحسين عليه السلام، وانعكست في مفهوم لعلي بن الحسين حينما قال لأبيه : أو لسنا على الحق؟ قال: بلى، قال: إذن لا نبالي، أوقعنا على الموت أو وقع الموت علينا(١)، أخلاقية الهزيمة التي كان يواجهها الإمام الحسين عليه السلام هي الأخلاقية التي انعكست في كلام لمحمد بن الحنفية(٢) حينما كان ينصح الإمام الحسين ويقول له: إنّ أخشى ما أخشى أن تدخل إلى مصر وبلد من بلاد

ليزيد بالمدينة، دخلت عليه فوجدته خاليا، فقلت له: جعلت فداك يا أبا عبد الله، حدثني أخوك أبو محمد الحسن عن أبيه ((عليه السلام)) ثم سبقتني الدمعة وعلا شهيقي. فضمني إليه وقال: " حدثك أني مقتول؟ "، فقلت له: حوشيت يا بن رسول الله، فقال: " سألتك بحق أبيك بقتلي خبّرك ؟ " فقلت: نعم فلولا تأولت وبايعت ؟ فقال: " حدثني أبي أن رسول الله ((صلى الله عليه وآله وسلم)) أخبره بقتله وقتلي وأن تربتي تكون بقرب تربته، فتظن أنك علمت ما لم أعلمه والله، لا أعطي الدنية عن نفسي أبدا ولتلقين فاطمة أباها شاكية ما لقيت ذريتها من أمته، ولا يدخل الجنة أحد آذاها في ذريتها. " اللهوف في قتلى الطفوف، السيد ابن طاووس الحسني، مطبعة مهر، ط١، ١٤١٧هـ: ٢٠ـ٢١.

وفي مقتل الخوارزمي، أن عمر ممن شهد يوم الطف واستشهد بعد أخيه أبي بكر، وله هذه الأرجوزة:

خلوا عداة الله خلوا عن عمر خلوا عن الليث العبوس المكفهر

(١) مقتل الحسين، أبو مخنف : ٩٢.

(٢) تاريخ الطبري: ٢٥٣/٤.

المسلمين؛ فيختلف عليك المسلمون، فبعض يقفون معك وبعض يقفون ضدك، ويقع القتال بين أنصارك وأعدائك فتكون أضيع الناس دماً، الأفضل من ذلك أن تقف بعيداً عن المعترك، ثم تبث رسلك وعيونك في الناس ، فإن استجابوا فهو، وإلا كنت في أمن من عقلك ودينك وفضلك ورجاحتك، هذه هي أخلاقية الهزيمة التي تحولت فيما بعد ـ حيث اصبح دم الحسين عليه السلام هذا الدم الذي كان يتصوره محمد بن الحنفية انه سوف يكن أضيع دم، مفتاح تحريك الأمة ـ حينما قال المختار في سجن عبيد الله بن زياد: إني أعرف كلمة أستطيع بها املك العرب ، هذا الدم الذي كان يتصوره أنّه أضيع دم اصبح هو مفتاح السلطات والسيطرة على المنطقة كلها[1]

---

(١) إن المختار بن أبي عبيدة الثقفي (رحمه الله) ظهر بالكوفة ليلة الأربعاء لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر سنة ست وستين، فبايعه الناس على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله والطلب بدم الحسين بن علي (عليهما السلام) ودماء أهل بيته (رحمة الله عليهم) والدفع عن الضعفاء، فقال الشاعر في ذلك :

ولما دعا المختار جئنا لنصره ... على الخيل تردى من كميت وأشقرا

دعا يا لثارات الحسين فأقبلت ... تعادى بفرسان الصباح لتثأرا

الأمالي- الشيخ الطوسي : ٢٤٠. وروى أبو مخنف بسنده : عن عبد الله ابن عوف الاحمري قال: بعث سليمان بن صرد إلى وجوه أصحابه حين أراد الشخوص ←

أخلاقـية الهزيمة، هي الأخلاقية التي عبّر عنها الأمير الأموي يزيد بن معاوية في رسـالة له إلى عبيد الله بن زياد، يقول في الرسالة : إنّ آل أبي طالب هؤلاء أسـرع مـا يكونـون إلى سـفك الدمـاء، هـذا التعبير في الواقع هو ظاهرة من ظواهر أخلاقية الهزيمة ،حينما تبرز أخلاقية الهزيمة وتترسخ وتتعمّق تتحول كل

وذلـك في سـنة ٦٥ فـأتوه فـلما اسـتهل الهـلال هـلال شهر ربيع الآخر خرج في وجوه أصـحابه وقـد كـان واعد أصحابه عامة للخروج في تلك الليلة للمعسكر بالنخيلة فخرج حـتى أتى عسكره فدار في الناس ووجوه أصحابه فلم يعجبه عدة الناس فبعث حكيم بن مـنقذ الكـندي في خـيل وبعث الوليد بن غضين الكناني في خيل وقال اذهبا حتى تدخلا الكوفـة فـناديا يـا لـثارات الحسين وابلغا المسجد الأعظم فناديا بذلك، فخرجا وكانا أول خلـق الله دعـوا يا لثارات الحسين، قال فأقبل حكيم بن منقذ الكندي في خيل والوليد بن غضـين في خـيل حتى مّرا ببني كثير، وإن رجلا من بني كثير من الأزد يقال لـه عبد الله بن خـازم مـع امرأته سهلة بنت سبرة بن عمرو من بنى كثير وكانت من أجمل الناس وأحبهم إلـيه، سمـع الصـوت يـا لثارات الحسين وما هو ممن كان يأتيهم ولا استجاب لهم فوثب إلى ثـيابه فلبسـها ودعـا بسـلاحه وأمـر بإسراج فرسه، فقالت لـه امرأته ويحك أجننت قال لا والله ولكـني سمعت داعي الله فأنا مجيبه أنا طالب بدم هذا الرجل حتى أموت أو يقضى الله مـن أمري ما هو أحب إليه، فقالت له إلى من تدع بُنيّك هذا قال: إلى الله وحده لا شريك له، اللهم إني أستودعك أهلي وولدي اللهم احفظني فيهم.

تاريخ الطبري ـ الطبري : ٤ /٤٥١ـ ٤٥٢.

محاولـة جديـة لمقابلـة الظـلم والظـالمين إلى نـوع مـن السفك والقتل في نظر المثبّطين والمجمّديـن، هذه الأخلاقية التي يريد الإمام الحسين عليه السلام أن يحوّلها إلى أخلاقـية التضـحية والإرادة، إلى الأخلاقـية الإسـلامية الصـحيحة الـتي تمكّن الإنسـان المسـلم مـن أن يقـف موقفه الإيجابي والسلبي وفقاً لما تقرره الشريعة الإسلامية إيجاباً وسلباً.

دقة التحرك في عملية التحويل

وفي عملية التحويل هذه كان الإمام الحسين يواجه أدق مراحل عمله وذلك لأنه في نفس الوقت الذي يريد أن يبث في جسم الأمة وفي ضميرها ووجدانها أخلاقـية جديـدة كـان يحـافظ في نفس الوقت على أن لا يخرج خروجا واضحاً عن الأخلاقية التقليدية التي عاشتها الأمة نتيجة لهزيمتها الروحية ، كان يحرص عـلى أن لا يخرج بشكل واضح ومثير عن تلك الأخلاقية المنحطة التي عاشتها الأمـة ، وذلك لأنه كان يريد أن يُخلق ويُنشئ الأخلاقية الجديدة عن طريق هز ضـمير الأمة الإسلامية، ولم يكن بإمكانه أن يهز ضمير الأمة الإسلامية إلا إذا قـام بعمـل مشـروع في نظـر هـذه الأمة الإسلامية التي ماتت إرادتها وتغيرت أخلاقيتها، والتي أصبحت تعيش هذه المفاهيم التي انعكست في كلمات هؤلاء الّذيـن تحدثـنا عنهم، كان لابدّ أن يراعي الإمام الحسين عليه الصلاة والسلام في سـيره وتخطـيطه هـذه الأخلاقـية، وأن لا يسـتفزها لكي يبقى محتفظا لعمله بطـابع المشـروعية في نظر المسلمين الّذين ماتت أخلاقيتهم الحقيقية؟ وتبدلت

مفاهيمهم عن العمل والسلب والإيجاب.

الإمام الحسين عليه السلام يخطط لعملية التحويل

الإمام الحسين عليه السلام في الواقع قد اتخذ منذ البدء موقفاً إيجابياً واضحاً صريحاً بينه وبين ربه، كان قد صمم منذ اللحظة الأولى على أن يخوض المعركة مهما كلفه الأمر وعلى جميع الأحوال والتقادير، وأن يخوضها إلى آخر الشوط والى أن يضحي بآخر قطرة من دمه، كان يفكر تفكيراً إيجابياً مستقلا في ذلك، لم يكن يتحرك نتيجة لردود فعل من الأمة، بل كان هو يحاول أن يخلق ردود الفعل المناسبة لكي يتحرك، ومن أدلة ذلك أنّ الإمام الحسين عليه السلام بدأ بنفسه الكتابة إلى زعماء قواعده الشعبية في البصرة، نعم لم يرو لنا التاريخ أنّه كتب ابتداءً بشكل مكشوف واضح إلى زعماء قواعده الشعبية في الكوفة، ولكن التاريخ حدث بأنه كتب وابتدأ بالحديث والتحريك قواعده الشعبية في البصرة، وأعلن في رسالته لهم انه قد قرر الخروج على سلطان بني أمية قال لهم: بان هذا الخط الذي يمثله هو ويمثله أخوه وأبوه، هو الحق، إلا أنّه سكت وسكت أبوه وأخوه حينما كان الكتاب والسنة تراعى حرمتهما، أما حينما انتهكت حرمة الكتاب وحرمة السنة ، حينما أميتت السنة، حينما أحييت البدع، حينما انتشر الظلم لابدّ لي أن أتحرك ، ولابدّ لي أن أغير، ولابد لكم أن تحققوا في هذا الموقف درجة تفاعلكم مع رسالتكم قال ذلك بوضوح، وطلب منهم بشكل ابتدائي الالتفاف حول حركته، وهذا يعني أنّ الإمام

الحسين لم يكن في موقفه يعبّر عن مجرد استجابة لردود فعل عاطفية، أو منطقية في الأمة، بل كان هو قد بدأ منذ اللحظة الأولى في تحريك الأمة نحو خطته وخط عمله، موقفه من والي المدينة أيضاً واضح في ذلك، حينما استدعي من قبل والي المدينة وعرض عليه الوالي في نصف الليل أن يبايع يزيد بن معاوية، وحينما تكشّف لوالي المدينة أنّ امتناع الحسين عليه السلام عن البيعة هو بحسب الحقيقة لون من ألوان الرفض، صرّح بعد هذا الإمام الحسين بكل وضوح عن إيمانه بحقه في الخلافة، وقال: نصبح وتصبحون، وننظر وتنظرون أينا أحق بالخلافة،[1] وكان هذا واضحا في إعلانه العزم والتصميم على حركة مسلحة ضد السلطان القائم وقتئذٍ، هذا التهديد وتلك الرسالة الابتدائية لزعماء قواعده الشعبية في البصرة إلى غير هذا وذاك من القرائن والدلائل، يعبّر عن أنّ الإمام الحسين عليه الصلاة والسلام كان يخطط تخطيطاً ابتدائياً لتحريك الأمة وكان قد صمم على أن يتحرك مهما كانت الظروف والأحوال هذا واقع التخطيط.

شعارات الحسين عليه السلام

ولكن الإمام الحسين حينما كان يلقي شعارات هذا التخطيط على هذه

(١) مثير الأحزان، ابن نما الحلي : ١٤.

الأمـة الإسـلامية المهـزومة أخلاقـياً، المهـزوزة روحـياً،المتمـيعة نفسياً،الفاقدة لإرادتها، حينما كان يلقي شعارات هذا التحرك على هذه الأمة لم يكن في كل مـا يلقـيه صـريحاً واضـحاً محـدداً، وذلـك لأنه كان يجامل تلك الأخلاقية التي عاشتها الأُمة الإسلامية، وكانت هذه المجاملة جزءاً ضرورياً من إنجاح الحسين في هدفـه لأنـه إذا خـرج عـن هذه الأخلاقية فقد بذلك عمله طابع المشروعية في نظـر أولئك المسلمين، وبذلك يصبح هذا العمل غير قادر على أن يهز ضمير إنسان الأمة الإسلامية ، كما كان من المفروض أن يهزه.

الشعار الأول : حتمية القتل[١]

كان الإمام الحسين يُعْتَرض عليه، ويقال: لم تخرج ؟ يَعترض عليه عبد اللّه بن الزبير وغيره، فيقول له : بأني أنا أُقتل على كل حال سواء خرجت أو لم اخرج، إنّ بني أمية لا يتركونني، ولو كنت في هامة من هذه الهوام لأخرجوني وقتلوني [٢].

---

(١) روى ابن أعثم بطرق ثلاثة، وبألفاظ مختلفة، ومنها بسنده عن أم الفضل امرأة العباس ابن عبد المطلب قالت : دخل النبي صلى الله عليه وآله ذات يوم والحسين في حجري فأخذه وجعل يلاعبه وهو مسرور به، قالت أم الفضل : فبال الحسين فقطر من بوله على ثوب الرسول صلى الله عليه وآله فقرصته فبكى، فقال صلى الله عليه وآله: مهلاً يا أم الفضل ! فهذا الذي أصاب ثوبي يغسل، وقد أوجعت ابني. قالت فتركته في حجره وقمت لآتيه بماء أغسل ثوبه، فلما جئت نظرت إليه وعيناه تذرفان بالدموع فقلت: فداك أبي وأمي يا رسول الله ! دفعته إليك وأنت به مسرور ثم رجعت إليك وعيناك تذرفان بالدموع ! فلماذا يا رسول الله؟ فقال : نعم يا أم الفضل ! أتاني جبريل فأخبرني أن أمتي تقتل ولدي هذا بشط الفرات، وقد أتاني بتربة حمراء. الفتوح، ابن أعثم الكوفي : ٥٣/٤.

(٢) انظر: مقتل الحسين، الخوارزمي: ٢١٨/١، وهذا قول الإمام الحسين عليه السلام، لابن عمه عبد الله بن جعفر، حين أخبره بأنه يأخذ له الأمان من يزيد، ولا يهلك نفسه وأهله في خروجه إلى العراق.

إنّ بني أمية يتعقبوني أينما كنت ، فأنا ميت على أي حال سواء بقيت في مكة أو خرجت منها، ومن الأفضل أن لا اقتل في مكة؛ لكي لا تنتهك بذلك حرمة هذا الحرم الشريف(١).

فتراه طرح هذا الشعار، وهذا الشعار بالرغم من واقعيته منسجم مع أخلاقية الأمة المعاشة أيضاً، فأخلاقية الهزيمة التي تعيشها الأمة الإسلامية لا تجد منطقا تنفذ منه للتعبير عن نقد مثل هذا التحرك من الإمام الحسين عليه الصلاة والسلام، فهو عليه السلام يقول : أنا مقتول على كل حال، والظواهر كلها تشهد بذلك، الدلائل والإمارات والملابسات تشهد بأنّ بني أمية قد صمموا على قتل الإمام الحسين عليه السلام ولو عن طريق الاغتيال ولو كان متعلقا بأستار الكعبة ، إذن فطرح مثل هذا الشعار لأجل تفسير هذا الموقف كان مناسباً جداً مع إقناع أخلاقية الهزيمة، مع كونه شعاراً واقعياً في نس الوقت.

الشعار الثاني : غيبيّة قرار التحرك

يأتي أشخاص آخرون إليه يعترضون عليه، يقولون : لم تتحرك؟ يأتي محمد بن الحنفية ينصحه في أول الليل بنصائح عديدة فيقول له : انظر، أفكر فيما تقول فيذهب محمد بن الحنفية وفي آخر الليل يسمع بأن الإمام الحسين قد

---

(١) قال الإمام الحسين عليه السلام : ((لإن أُقتل خارجا منها بشبر احب إليَّ من أن أُقتل داخلا منها بشبر)). مقتل الحسين عليه السلام. أبو مخنف الأزدي: ٦٧.

تحرك ، فيسرع إليه ويأتي ويأخذ براحلته ويقول له:

يا أخي قد وعدتني أن تفكر، قال: نعم ، ولكني بت في هذه الليلة فرأيت رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال: إنّك مقتول[1]، فتراه عليه السلام يجيب بهذا الجواب ،يجيب بقرار غيبي [صادر] من أعلى، وهذا القرار الغيبي من أعلى لا يمكن لأخلاقية الهزيمة أن تنكره مادام صاحب هذه الأخلاقية مؤمنا بالحسين، ومؤمنا برؤيا الحسين، طبعا هو لم يحدث بهذه الرؤيا عبد اللّه بن الزبير الذي لم يكن مؤمنا برؤيا الحسين، بل حدث بذلك محمد بن الحنفية وأمثال محمد بن الحنفية، فهذا شعار آخر كان يطرحه وهو شعار حتمية الموت [االصادرة] من أعلى، وان هناك قرارا من أعلى يفرض عليه أن يموت، أن يضحي، أن يغامر، أن يقدم على هذه السفرة التي قد تؤدي إلى القتل، وهذا الشعار أيضاً كان بالرغم من واقعيته ينسجم مع أخلاقية الهزيمة ، وهو في نفس الوقت شعار واقعي.

الشعار الثالث : ضرورة إجابة دعوات أهل الكوفة

وكان في مرة ثالثة يطرح شعارا ثالثا، كان يقول للأشخاص الّذين يمر بهم في طريقه من مكة إلى العراق، في منازله المتعددة حينما كانوا ينصحونه بعدم

---

(١) انظر: مقتل الخوارزمي: ٢١٨/٢. وفي رواية الخوارزمي، أنه عليه السلام كان يحدث عبد الله بن جعفر: ((إعلم إني قد رأيت جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في منامي فاخبرني بأمر أنا ماض له؛ كان لي الأمر أو عليَّ)).

التوجّه إلى العراق، كان يقول لهم: إني قد تلقيت من أهالي الكوفة دعوة للذهاب إليهم، وقد تهيأت الظروف الموضوعية في الكوفة لكي اذهب، ولكي أُقيم حقاً وأُزيل باطلاً، فكان يعكس ويفسر سفرته على أساس أنها استجابة وأنها رد فعل، وأنها تعبير عن إجابة طلب، إنّ الأمة تحركت وأرادت، وإنّه قد تمت الحجة عليه ، ولابد له أن يتحرك، الإمام الحسين لم يكن في واقعه يقتصر في مرحلته الجهادية هذه على أن تطلب منه الأمة فيتحرك، وإلا لما راسل ابتداءً زعماء قواعده الشعبية بالبصرة ويطلب منهم التحرك، ولكنه في نفس الوقت كان يعكس هذا الجانب اكثر مما يعكس ذاك الجانب، لأن هذا الجانب اقرب انسجاماً مع أخلاقية الهزيمة، ماذا تقول أخلاقية الهزيمة أمام شخص يقول لها: باني قد تلقيت دعوة، وإن ظروف هذه الدعوة ملائمة للجواب والتحرك نحو الداعي، وبطبيعة الحال هناك فرق كبير بين إنسان يتحرك تحركاً ابتدائياً وإنسان آخر يتحرك إجابة لجماهير آمنت به وبقيادته وزعامته ، فهناك قول أخلاقية الهزيمة أن هذا متسرع، وأنّ هذا لا يفكر في العواقب، وانه ألقى بنفسه في المخاطر، أما حينما يكون العمل إجابة لدعوة من جماهير قد هيأت كل الأجواء اللازمة لهذه الدعوة، فهذه الأخلاقية المهزومة لا تقول عن هذا العمل وهذا التحرك: إنّه عمل طائش، إنّه عمل صبياني، إنّه عمل غير مدروس.

هذه الشعارات التي طرحها الإمام الحسين عليه الصلاة والسلام كانت

كلها واقعية وفي نفس الوقت كانت منسجمة مع أخلاقية الأمة المهزومة روحياً وفكرياً ونفسياً.

الشعار الرابع: ضرورة الثورة ضد السلطان الجائر

وكان يطرح أيضاً إلى جانب كل هذه الشعارات الشعار الواقعي حينما كان يؤكد على أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله، قال: ((من رأى سلطاناً جائراً يحكم بغير ما انزل اللّه فلم يغير من ذلك السلطان بفعل أو قول كان حقا على اللّه أن يدخله مدخله))[1] فكان إلى جانب تلك الشعارات التي يسبغ بها طابع المشروعية على عمله في مستوى أخلاقية الأمة كان يعطي أيضاً باستمرار ودائما الشعار الواقعي الحي الذي لابدّ وأنْ يكون هو الأساس للأخلاقية الجديدة التي كان يبنيها في كيان هذه الأمة الإسلامية.

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٣٠٤.

أساليب كسب أخلاقية الهزيمة

الأسلوب الأول : عدم المبادأة بالقتال :

من جملة الأساليب التي اصطنعها عليه افضل الصلاة والسلام للتوفيق بين الأخلاقيتين ، لمجاملة أخلاقية الهزيمة لكي يحولها بالتدريج إلى أخلاقية التضحية، إنّه طرح شعار:

أنْ لا يبدأ الآخرين بقتال[١]، هذا الشعار كان قد طرحه أمير المؤمنين علي عليه الصلاة والسلام[٢]، ولكن فرقاً كبيراً بين الشعار الذي طرحه الإمام علي عليه السلام والشعار الذي طرحه الإمام الحسين عليه السلام، الإمام علي عليه السلام كان رئيس دولة، ورئيس الدولة من المفروض أنْ لا يبدأ أحداً من المواطنين بقتال إلا إذا بدأه المواطن بشق عصا الطاعة والتمرد عليه والقتال، فكان من المفروض أنّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لا يبدأ عائشة مثلاً بقتال، لا يبدأ الزبير

(١) مقتل الحسين عليه السلام، الخوارزمي: ١/٢٣٠

(٢) يوم الجمل: ((فلما تواقفوا للقتال، أمر علي مناديا ينادي من أصحابه لا يرمين أحد سهما ولا حجراً، ولا يطعن برمح حتى أعذر إلى القوم، فأتخذ عليهم الحجة)). الإمامة والسياسة، ابن قتيبة الدينوري، تحقيق الشيري : ١ /٩١. وفي كلمة له مخاطباً معاوية في صفين: ونحن من رأينا الكف عنك حتى ندعوك ونحتج عليك.

البدء والتاريخ : ٥/٢٢٢. وانظر: البداية والنهاية : ٧/٢٥٦.

أو طلحة بقتال، لأنهم مواطنون في دولة هو رئيسها، ما لم يخرجوا عن الخط يحاربوا الوضع الشرعي الحاكم في تلك الدولة ، فكان شعار: أن لا يبدأ أحداً من المواطنين بقتال مفهوماً وواضحاً أما على مستوى حركة الحسين عليه السلام الذي خرج ثائراً على دولة قائمة وسلطان قائم ، فليس من المنطقي أن يقال:

إنّ شخصاً يثور على سلطان قائم لا يبدأ هذا السلطان القائم بقتال ولكن هذا الشعار قد طرحه عليه افضل الصلاة والسلام لكي يكون منسجماً مع أخلاقية الهزيمة أيضاً التي عاشتها الأمة الإسلامية ، لكي يسبغ على عمله طابع المشروعية على مستوى هذه الأخلاقية حينما التقى عليه افضل الصلاة والسلام مع طليعة جيش عبيد الله ابن زياد بقيادة الحر[1]، وكانت الطليعة عبارة عن ألف جندي اقترح عليه زهير بن القين[2] (على ما أظن) أن يبدأهم بقتال، وقال: إنّ هؤلاء أهون علينا ممن يجيء بعدهم، فلنبدأ بقتال هؤلاء ولنفتح الطريق إلى الكوفة، قال عليه الصلاة والسلام: إني لا ابدأهم بقتال ومن مصاديق تطبيق هذا الشعار كان وضع مسلم بن عقيل عليه السلام، فان مسلم بن عقيل قد ذهب إلى الكوفة رسولاً من قبل الإمام الحسين عليه الصلاة والسلام، إلا انه ذهب في إطار هذا الشعار، وهذا هو الذي يفسر لنا عدم

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام، الخوارزمي: ١/٢٣٤.

(٢) نفس المصدر.

قيام مسلم بن عقيل بأي عمل إيجابي سريع خلال الأحداث التي مرت به في الكوفة.

قد يخطر على ذهن البعض أنّ مسلم بن عقيل لم يستطع أن يزن الأحداث أو أن يقدّر الظروف تقديرها اللازم، وإن مسلم بن عقيل كان مدعواً إلى نوع من المباداة لكي يستلم زمام الموقف، إلا أنّ هذا التصور أنما ينتج عن تخيل، أنّ مسلم بن عقيل قد ذهب من قبل الإمام الحسين إلى الكوفة والياً،حاكماً ،سلطاناً، وليس في نصوص التاريخ أي دلالة على ذلك، الإمام الحسين حينما أرسل مسلم بن عقيل وكتب معه كتاباً لم يكن هناك في الكتاب أدنى إشارة إلى إعطاء مسلم بن عقيل صفة الولاية والحاكمية والسلطان ، وإنما قال لأهل الكوفة:

إني أرسلت ثقتي إليكم من أهل بيتي لكي يستطلع أحوالكم ويتأكد من إخلاصكم ويكتب إليّ بذلك، فإنْ كتب إليّ بما جاءت به كتبكم ورسلكم استجبت لدعوتكم وجئتكم[١].

مسلم بن عقيل كان مكلفاً في نص هذا الكتاب باستطلاع أحوال تلك القواعد الشعبية التي راسلت الإمام الحسين عليه السلام، ولم يكن مكلفا بأزيد من ذلك، وبالفعل لم يقم مسلم بأزيد من ذلك، دخل الكوفة ونزل ضيفا في بيت

(١) مقتل الحسين، الخوارزمي: ١/١٩٥.

المختار رحمة اللّه عليه، وبقي في بيت المختار مكشوف الحال تزوره الشيعة ويتجمعون عنده[١]، فيتحدث إليهم، ويؤكد لهم أهداف الإمام الحسين عليه السلام ويؤكدون له إخلاصهم واستعدادهم للعمل في تلك الأهداف، حتى يدخل عبيد اللّه بن زياد إلى الكوفة[٢]، حينئذٍ فيتوتر الجو ويتغير الموقف بشكل عام، مسلم بن عقيل يرى أنّ من المصلحة أن ينتقل إلى بيت آخر ويكون مكثه في الكوفة سرياً، لأن عبيد اللّه بن زياد بدأ عملية التعقيب والتفتيش عن مسلم بن عقيل ، فبينما الوالي السابق كان سلبياً أصبح عبيد اللّه بن زياد يفكر في مجابهة هذا التجمع وبذرة هذا التجمع، حينئذ انتقل مسلم بن عقيل من بيت المختار إلى بيت هانئ بن عروة[٣] رضوان اللّه عليه، وبقي هناك متكتما بمكثه، واخذ الشيعة يزورونه متكتمين، وكان ظهور مسلم بن عقيل في اليوم المشهود مع أربعة آلاف.

وكان العمل الذي مارسه حينما ذهب إلى قصر الإمارة مع هذا العدد من الشيعة وحاول أن يحتل قصر الإمارة وان يسيطر على مقاليد الموقف ، كان هذا العمل خارج نطاق التخطيط المتفق عليه بين مسلم والحسين، كان هذا العمل

---

(١) مقتل الإمام الحسين عليه السلام، أبو مخنف الأزدي: ١٩.

(٢) مقتل الإمام الحسين عليه السلام، أبو مخنف الأزدي: ٢٦.

(٣) مقتل الحسين : أبو مخنف الأزدي: ٣١.

بملاك الدفاع، لأنّ مسلم بن عقيل رضوان اللّه عليه وقع في موقع الدفاع، عبيد الله بن زياد بدأ بالهجوم، أخذ يحاول أن يتعقب مسلم بن عقيل، وأنْ يقضي على هذه البذرة، فكان مسلم بن عقيل في حالة دفاع، ولم يكن في حالة غزو أو هجوم، يعني أنّ الظروف اضطرته إلى أن يقف موقف المدافع، ولو لم يبدأ بهذه العملية إذن لهجم عليه عبيد اللّه بن زياد، وهجم على شيعته وهم في البيوت ، فكان على مسلم بن عقيل لا بمنطق رسالته من قبل الحسين لا بمنطق الحاكمية والسلطان والولاية، بل بمنطق الدفاع أن يبدأ بمثل هذه العملية كدفاع عن نفسه وعن قواعده التي التفت حوله حينما يحاول عبيد اللّه بن زياد أن يبدأ بالهجوم؛ اقرؤوا رسالة الإمام الحسين عليه الصلاة والسلام التي بعثها مع قيس بن مسهر الصيداوي إلى الكوفة، كان في الرسالة يقول:

إني سوف أرد إليكم قريبا، فانكمشوا على أمركم حتى آتي

الرسالة واضحة في أنّ الإمام الحسين عليه الصلاة والسلام لم يكن قد خطط لمسلم بن عقيل أن يملك الكوفة، وأنْ يسيطر على الكوفة كحاكمٍ ووالٍ وسلطانٍ، يقول: انكمشوا في أمركم يعني حاولوا أن تحفظوا هذا التجمع إلى أن آتي، فكان تحويل هذا التجمع إلى مجتمع، إلى سلطان، إلى دولة، كان كل هذا موقوفا على دخول الحسين عليه الصلاة والسلام، ولهذا أوصى بأن ينكمشوا في أمرهم

إذن فرسالة مسلم بن عقيل لم تكن إلا عبارة عن استطلاع أحوال تلك القواعد الشعبية، وتزويد الإمام الحسين بالمعلومات الواضحة المؤكدة عن تلك القواعد الشعبية، ولم يكن مسلم بن عقيل مكلفا بحرب، وإنما قام بما قام به في اللحظة الأخيرة كدفاع عن النفس، حيث لم يكن هناك طريق آخر للاستمرارية غير أن يتخذ هذا الموقف الدفاعي، كل هذا يعبّر في الواقع عن شعار عدم الابتداء بالقتال، هذا الشعار الذي كان من المفروض على الإمام الحسين عليه الصلاة والسلام أن يطرحه لكي يشعر الناس جميعاً بان العملية عملية فوق الشك، وإنّها مشروعة حتى على مستوى تصورات الإنسان المسلم المهزوم روحياً وأخلاقياً، ونحن إذا لاحظنا الإمام الحسين عليه السلام في مسيره من مكة إلى العراق نرى أنّه كان باستمرار يؤكد على ضرورة مواصلة السير والسفر لأنه مدعو، ولابد له أن يجيب هذه الدعوة.

قد بلغه ـ أي الإمام الحسين عليه السلام ـ في الطريق أنّ مسلم بن عقيل قتل ولم يغير ذلك من موقفه ، أي يسقط هذا الشعار، بل بقي هذا الشعار مرفوعاً وهو شعار أنّه مدعو من قبل أهل الكوفة ولابدّ له أن يجيب بالرغم من أنّه اطلع على أنّ مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة قد قتلا، بعد هذا اطلع على أنّ قيس بن مسهر الصيداوي قد قتل من قبل عبيد اللّه بن زياد، مع هذا لم يغير هذا الشعار، بل بقي يؤكد أنّه مدعو من قبل أهل الكوفة ولابد له أن يجيب هذه الدعوة ، حتى التقى مع الحر بن يزيد الرياحي ، جاء الطرماح قال

لـه: الحق بالجبل الفلاني وأنا اجمع لك عشرين ألف نفر من العشيرة الفلانية يلـتفون حولـك[١]، واللّـه يغنـيك بذلـك عـن الكوفة، قال عليه السلام: بيننا وبين القوم عهد، ولابد لي أن أسير إليهم.

بعـد كـل هـذه الدلائل من أهالي الكوفة على نكث العهد، مع هذا بقي الإمـام الحسـين يواصل تأكيده على هذا الشعار، إذن القصة في الواقع لم تكن قصـة أن يقتنع الحسين ،ولم يكن تحركه عليه السلام بينه وبين نفسه كنتيجة لرد فعل لطلـب قواعـده الشـعبية في الكوفـة لأنـه اطلـع في اثناء الطريق على أنّ هذه القواعـد الشـعبية في الكوفـة قـد خانته، قد قتلت رسوله، قد قتلت ثقته من أهل بيته، ومع هذا كان يواصل السفر إليها، كان هذا الشعار شعاراً منسجماً مع الأخلاقية التي تعيشها الأمة الإسلامية، وكان لابدّ له أن يطرح هذا الشعار لكـي يسـبغ على العملية طابع المشروعية في نظر أولئك الذي يحبون السلامة أولـئك الذيـن يـرون في التضـحية لونـاً مـن ألوان التهور واللامعقولية وقلة الأناة.

الأسلوب الثاني : حشد كل المثيرات العاطفية في المعركة

وكـان من الأساليب التي اتخذها أيضاً عليه افضل الصلاة والسلام لكسب

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام، أبو مخنف الأزدي: ٨٩. واسم الجبل ((اجأ)).

هـذه الأخلاقـية ومجاملـتها، إنّـه حشـد في المعـركة كل القوى والإمكانيات، لم يكـتف علـيه افضـل الصلاة والسلام بأن يعرض نفسه للقتل عسى أن تقول أخلاقـية الهزيمة: إنّ شخصاً حاول أن يطلب سلطانا فقتل، بل أراد أن يعرض أولاده للقـتل، أهلـه للقـتل، ونسـاءه للسـبي، أراد أن يجمع على نفسه كل ما يمكـن أن يجتمع على إنسان من مصائب وتضحيات وآلام، لان أخلاقية الهزيمة مهمـا شـككت في مشروعية أن يخرج إنسان للقتل، فهي لا تشكك في أن هذا العمـل الفظـيع الـذي قامـت به جيوش بني أمية ، قامت به جيوش الانحراف ضـد بقية النّبوّة، لم يكن عملاً صحيحاً على كل المقاييس، وبكل الاعتبارات، كـان لابـدّ للإمـام الحسـين عليه السلام أن يدخـل في المعـركة دمـه وأولاده وأطفاله ونسـاءه وحـريمه وكـل الاعتـبارات العاطفية، وكل الاعتبارات التاريخية، حتى الآثار التي كانت قد تبقت لـه من عهد رسول اللّه صلى الله عليه وآله ، حتى العمامة، حتى السـيف، لبس عمامة رسول اللّه، تقلّد سيف رسول اللّه صلى الله عليه وآله أدخل كل هذه المـثيرات التاريخية والعاطفية إلى المعركة، وذلك لكي يسد على أخلاقية الهزيمة كـل مـنفذ وكـل طريق إلى التعبير عن هزيمتها، وكل نوع من أنواع الاحتجاج عـلى هـذا العمل ، لكي يهز بذلك ضمير ذلك الإنسان المسلم المهزوز الذي تميعـت إرادتـه، وهكذا كان قد استطاع عليه الصلاة والسلام بهذا التخطيط الدقيق الرائع أن يهز ضمير ذلك الإنسان المسلم.

الدرس الذي يُفاد من التخطيط الحسيني

ومن هذا التخطيط يمكننا أن نستفيد درساً عاماً، وحاصل هذا الدرس: إنّ عملية التغيير في أخلاقية الأمة لا يجوز أن تقوم بأي مجابهة واضحة للأخلاقية الفاسدة الموجودة في الأُمة، لأنّ المجابهة الواضحة الصريحة للأخلاقية الفاسدة الموجودة في الأُمة يكون معناها الانعزال عن هذه الأمة والانكماش، وعدم القدرة على القيام بعمل مشروع في نظر هذه الأمة حينما نريد أن ننفذ إلى ضمير الأمة التي ماعت أخلاقياً، لابدّ لنا أيضاً في نفس الوقت الذي نفكر في إنشاء أخلاقيتها من جديد أن نفكر في عدم مجابهة الأخلاقية القائمة بالشكل الذي يعزل هذا الشخص الذي يريد أن يغير أخلاقية الأمة، فلابد له أن يفكر في انتهاج طريق في التغيير يستطيع به أن ينفذ إلى ضمير الأمة، وهو لا يمكنه أن ينفذ إلى ضمير الأمة إلا إذا حافظ باستمرار على معقولية ومشروعية عمله في نظر الأمة، كما عمل الإمام الحسين عليه الصلاة والسلام لم يبق لدى شخص من أبناء الأمة الإسلامية أي شك في أنّ عمل الإمام الحسين كان عملاً مشروعاً صحيحاً، وإنّ عمل بني أمية كان عملاً ظالماً عاتياً جباراً.

وهذا الوضوح في الرؤية هو الذي جعل المسلمين يدخلون بالتدريج إلى آفاق جديدة من الأخلاقية تختلف عن أخلاقية الهزيمة، هذا الوضوح هو الذي هز ضمير الإنسان المسلم، وهو الذي يهزه إلى يومنا هذا، فليس دم الإمام الحسين عليه السلام رخيصاً بدرجة يكتفي في ثمنه بأن يهتز ضمير الإنسان المسلم في

عصر واحد، أو في جيل واحد، لا يمكن أن يكون ثمن دم الإمام الحسين عليه السلام أنْ تتزلزل قواعد بني أمية فحسب، أو أن يكشف عن حقيقة بني أمية، أو أن تنتعش ضمائر جيل من أمة الإسلام، هذا لا يكفي ثمناً لدم الإمام الحسين الطاهر، بل إن ثمن دم الإمام الحسين الذي هو أغلى دم سفك في سبيل الإسلام أن يبقى محركاً، منوراً، دافعاً،مطهراً ، منقياً على مرّ التاريخ لكل أجيال الأمة الإسلامية، لابدّ وأن يهز ضميرنا وضمير كل واحد منا اليوم كما كان يهز ضمير المسلمين قبل ثلاثة عشر قرناً، لابدّ أن يهز ضمير كل واحد منا حينما نجابه أي موقف من مواقف الإغراء، أو الترغيب أو الترهيب، لابدّ وأن نستشعر تلك التضحية العظيمة حينما نلتفت إلى أننا مدعوون إلى تضحية جزئية بسيطة، حينما يتطلب منا الإسلام لوناً من التضحية وقدراً بسيطاً وضئيلاً من التضحية، لابدّ وأن نلتفت دائما إلى ذلك القدر العظيم غير المحدود من التضحية الذي قام به الإمام الحسين عليه السلام لكي نستصغر، ولكي يتضاءل أمامنا أي قدر نواجهه في حياتنا ونكلف أنفسنا بالقيام به في سبيل الإسلام.

إنّ الإسلام اليوم يتطلب منك قدراً قليلاً من التضحية بوقتك، براحتك، بمصالحك الشخصية،برغباتك بشهواتك، في سبيل تعبئة كل طاقاتك وإمكانياتك وأوقاتك لأجل الرسالة، أين هذه التضحية من تلك التضحية العظيمة التي قام بها الإمام الحسين عليه السلام؟ من تضحيته بآخر قطرة من دمه، بآخر شخص من ذريته، بآخر كرامة من كراماته بحسب مقاييس الإنسان الدنيوي؟ هذه التضحية، ونعيش دائماً مدلول هذا الدم الطاهر لكي يكون ثمن دم الإمام

الحسين حياً على مرّ التاريخ.

غفر اللّه لنا ولكم

الإمام علي بن الحسين عليه السلام [١]

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد وعلى آله الطاهرين وصحبه الميامين. وبعد، فإن هذه الصحيفة السجادية[٢] مجموعة من الأدعية المأثورة عن الإمام زين العابدين علي بن الحسين بن علي أبي طالب، من أئمة أهل البيت الّذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

وهو الرابع من أئمة أهل البيت، وجده الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وصي رسول الله صلى الله عليه وآله وأول من أسلم به[٣] وكان منه بمنزلة هارون من موسى كما صح في الحديث عنه[٤]، وجدته فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) انظر : ترجمته عليه السلام ، الطبقات الكبرى، محمد بن سعد : ٥ / ٢١١، وما بعدها.

(٢) كتب السيد الشهيد رضي الله عنه تقديم لإحدى طبعات الصحيفة السجادية، والتي صدرت عن دار التبليغ الإسلامي، وشغل هذا التقديم الصفحات: ٣ – ١٦، ولم تذكر سنة الطبع. ولا مكانه، كما نشرتها مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان، سنة١٩٢٩ ، وقد شغل التقديم، الصفحات : ٤ـ١٦.

(٣) المصنف، أبي بكر عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق، حبيب الرحمان الأعظمي: ٣٥٢/٥.

(٤) كتاب السنة، عمرو بن عاصم الضحاك، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ: ٥٨٩.

وبضعته وفلذة كبده وسيدة نساء العالمين(١) كما كان أبوها يصفها، وأبوه الإمام الحسين أحد سيديّ شباب أهل الجنة سبط الرسول وريحانته ومن قال فيه جده ((حسين مني وأنا من حسين))(٢) وهو الذي استشهد في كربلاء يوم عاشوراء دفاعاً عن الإسلام والمسلمين. وهو أحد الأئمة الاثني عشر الّذين أخبر عنهم النبي صلى الله عليه وآله كما جاء في صحيحي البخاري ومسلم وغيرهما، إذ قال: الخلفاء بعدي اثنا عشر كلهم من قريش(٣).

وقد ولد الإمام علي بن الحسين في سنة ثمان وثلاثين للهجرة(٤)، وقيل قبل ذلك بسنة أو سنتين، وعاش حوالي سبعة وخمسين عاماً قضى بضع سنين منها في كنف جده الإمام علي عليه السلام، ثم نشأ في مدرسة عمه الحسن وأبيه

---

(١) مسند أبي داود الطيالسي، دار الحديث، بيروت: ١٩٧، قال الرسول صلى الله عليه وآله: (يا فاطمة أما ترضين أن تكوني سيد نساء العالمين). والسنن الكبرى، النسائي: ٢٥٢/٤.

(٢) صحيح بن حبان، ابن حبان : ١٥ / ٤٢٨. المعجم الكبير، الطبراني : ٣ / ٣٢.

(٣) صحيح البخاري محمد بن إسماعيل: ١٢٧/٨، وصحيح مسلم، مسلم النيسابوري: ٣/٦. والمعجم الكبير، الطبراني: ١٢٠/٢٢.

(٤) روى الطبرسي رضي الله عنه أن الإمام عليه السلام: بقي مع جده أمير المؤمنين عليه السلام سنتين ومع عمه الحسن عليه السلام اثنتي عشرة سنه، ومع أبيه ثلاثا وعشرين سنة وبعد أبيه عشرين سنة، وتوفي بالمدينة سنه ٩٥.

تاج المواليد (المجموعة)، الشيخ الطبرسي، مطبعة الصدر، ١٤٠٦: ٣٧.

الحسـين سبطي الرسول، وتغذى من نمير علوم النّبوّة واستقى من مصادر آبائه الطاهـرين. وبرز على الصعيد العلمي والديني إماماً في الدين ومناراً في العلم ومـرجعاً في الحـلال والحـرام ومـثلاً أعـلى في الـورع والعبادة والتقوى، وآمن المسـلمون جمـيعاً بعلمه واستقامته وأفضليته، وانقاد الواعون منهم إلى زعامته وفقهه ومرجعيته.

قـال الزهـري: ((مـا رأيـت هاشمـياً أفضـل مـن علي بن الحسين ولا أفقه مـنه))[١]، وقـال في كلام آخر: (ما رأيت قرشياً أفضل منه)[٢]. وقال سعيد بن المسيب: ((ما رأيت قط مثل علي بن الحسين))، وقال الإمام مالك: ((سمّي زين العـابدين لكـثرة عبادته)). وقال سفيان بن عيينة[٣]: ((ما رأيت هاشمياً أفضل مـن زين العابدين ولا أفقه منه)). وعدّ الإمام الشافعي علي بن الحسين ((أفقه أهل المدينة))[٤]

---

(١) تـاريخ اسمـاء الـثقات ممن نقل عنهم العلم، عمر بن أحمد المعروف بابن شاهي، متوفي ٣٨٥هـــ، تحقيق صـبحي السـامرائي، الـدار السلفية، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ: ١٤١. التعديل والتجريح، سليمان بن خلف، متوفي ٤٧٤هـ، تحقيق أحمد لبزار.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ١٢٢/٩، وفيض القدير في شرح الجامع الصغير، محمد عبد الرؤوف المناوي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥: ٤٥٤/٦.

(٣) كنز العمال، المتقي الهندي: ٦٤١/٣.

(٤) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : ١٥ / ٢٧٤.

وقد اعترف بهذه الحقيقة حتى حكام عصره من خلفاء بني أمية على الرغم من كل شيء فلقد قال له عبد الملك بن مروان: ((ولقد أوتيتَ من العلم والدين والورع ما لم يؤته أحد مثلك قبلك إلا من مضى من سلفك))[١] وقال عمر بن عبد العزيز: ((سراج الدنيا وجمال الإسلام زين العابدين))[٢].

قد كان للمسلمين عموماً تعلق عاطفي شديد بهذا الإمام وولاء روحي عميق له، وكانت قواعده الشعبية ممتدة في كل مكان من العالم الإسلامي كما يشير إلى ذلك موقف الحجيج الأعظم منه حينما حج هشام بن عبد الملك وطاف وأراد أن يستلم فلم يقدر على استلام الحجر الأسود من الزحام فنصب له منبر فجلس عليه ينتظر، ثم أقبل زين العابدين وأخذ يطوف فكان إذا بلغ موضع الحجر انفرجت الجماهير وتنحى الناس حتى يستلمه لعظيم معرفتها بقدره وحبها له على اختلاف بلدانهم وإنتساباتهم، وقد سجّل الفرزدق هذا الموقف في قصيدة رائعة مشهورة[٣].

---

(١) فتح الأبواب، ابن طاووس، مؤسسة أهل البيت، ط١، ١٤١٥هـ: ١٧٠.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ٢/٣٠٥.

(٣) الأغاني، أبو فرج الأصفهاني: ١٠/٣٧٨ ـ ٣٨٠. فرأى ـ هشام بن عبد الملك ـ علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهم يطوف بالبيت والناس يفرجون له، فقال من هذا؟

ولم تكن ثقة الأمة بالإمام زين العابدين على اختلاف اتجاهاتها ومذاهبها مقصورة على الجانب الفقهي والروحي فحسب، بل كانت تؤمن به مرجعاً وقائداً ومفزعاً في كل مشاكل الحياة وقضاياها بوصفه امتداداً لآبائه الطاهرين، ومن أجل ذلك نجد أنّ عبد الملك حينما اصطدم بملك الروم وهدّده الملك الروماني باستغلال حاجة المسلمين إلى استيراد نقودهم من بلاد الرومان لإذلال المسلمين وفرض الشروط عليهم وقف عبد الملك متحيراً وقد ضاقت به الأرض كما جاء في الرواية وقال :

أحسبني أشأم مولود ولد في الإسلام، فجمع أهل الإسلام واستشارهم فلم يجد عند أحد منهم رأياً يعمل به، فقال له القوم[1]: إنك لتعلم الرأي والمخرج من هذا الأمر! فقال : ويحكم من ؟

قالوا : الباقر من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله، قال صدقتم، وهكذا كان. فقد فزع

فقال الأبرش الكلبي: ما أعرفه، فقال الفرزدق: ولكني أعرفه، فقال: من هو، فقال:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم

فليس قولك من هذا بضائره العرب تعرف من أنكرت والعجم

وذكر الأبيات الخ، قال فغضب هشام فحبسه بين مكة والمدينة.

(١) إن الذي يتحدث مع عبد الملك، هو روح بن زنباع، انظر: المحاسن والمساوئ، إبراهيم بن محمد البيهقي، دار الصادر، بيروت، لبنان (بدون تاريخ): ٣٦٧.

إلى الإمام زين العابدين فأرسل عليه السلام ولده محمد بن علي الباقر إلى الشام وزوده بتعليماته الخاصة فوضع خطة جديدة للنقد الإسلامي وأنقذ الموقف.

وقد قُدر للإمام زين العابدين أن يتسلم مسؤولياته القيادية والروحية بعد استشهاد أبيه، فمارسها خلال النصف الثاني من القرن الأول في مرحلة من أدق المراحل التي مرت الأمة وقتئذ، وهي المرحلة التي أعقبت موجة الفتوح الأولى فقد امتدت هذه الموجة، بزخمها الروحي وحماسها العسكري والعقائدي، فزلزلت عروش الأكاسرة والقياصرة وضمت شعوباً مختلفة وبلاداً واسعة إلى الدعوة الجديدة وأصبح المسلمون قادة الجزء الأكبر من العالم المتمدن وقتئذ خلال نصف قرن، وعلى الرغم من أنّ هذه القيادة، جعلت من المسلمين قوة كبرى على الصعيد العالمي من الناحية السياسية والعسكرية، فإنّها عرّضتهم لخطرين كبيرين خارج النطاق السياسي والعسكري، وكان لابدّ من البدء بعمل حاسم للوقوف في وجههما.

أحدهما : الخطر الذي نجم عن انفتاح المسلمين على ثقافات متنوعة وأعراف تشريعية وأوضاع اجتماعية مختلفة بحكم تفاعلهم مع الشعوب التي دخلت في دين الله أفواجاً، وكان لابدّ من عمل على الصعيد العلمي يؤكد في المسلمين أصالتهم الفكرية وشخصيتهم التشريعية المتميزة المستمدة من الكتاب والسنة، وكان لابدّ من حركة فكرية اجتهادية تفتح آفاقهم الذهنية ضمن ذلك الإطار لكي يستطيعوا أن يحملوا مشعل الكتاب والسنة بروح

المجتهد البصير والممارس الذكي الذي يستطيع أن يستنبط منها ما يفيده في كل ما يستجد له من حالات، كان لابدّ إذن من تأصيل للشخصية الإسلامية ومن زرع بذور الاجتهاد؛ وهذا ما قام به الإمام علي بن الحسين عليه السلام فقد بدأ حلقة من البحث والدرس في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله يحدّث الناس بصنوف المعرفة الإسلامية من تفسير وحديث وفقه ويفيض عليهم من علوم آبائه الطاهرين ويمرن النابهين منهم على التفقه والاستنباط، وقد تخرّج من هذه الحلقة عدد مهم من فقهاء المسلمين، وكانت هذه الحلقة هي المنطلق لما نشأ بعد ذلك من مدارس الفقه والأساس لحركته الناشطة.

وقد استقطب الإمام عن هذا الطريق الجمهور الأعظم من القراء وحملة الكتاب والسنة حتى قال سعيد بن المسيب: ((إنّ القرّاء كانوا لا يخرجون إلى مكة حتى يخرج علي بن الحسين، فخرج وخرجنا معه ألف راكب))[1]

وأما الخطر الآخر: فقد نجم عن موجة الرخاء التي سادت المجتمع الإسلامي في أعقاب ذلك الامتداد الهائل، لأنّ موجات الرخاء تعرّض أي مجتمع إلى خطر الانسياق مع ملذات الدنيا، والإسراف في زينة هذه الحياة المحدودة وانطفاء الشعور الملتهب بالقيم الخلقية والصلة الروحية بالله واليوم

---

(١) مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب: ٢٧٩/٣، وفيه إضافة إلى ما ذكره السيد الشهيد رضي الله عنه: إن الناس لا يخرجون من مكة حتى يخرج علي بن الحسين عليه السلام.

الآخر وبما تضعه هذه الصلة أمام الإنسان من أهداف كبيرة وهذا ما وقع فعلاً وتكفي نظرة واحدة في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني[١] ليتضح الحال.

وقد أحس الإمام علي بن الحسين بهذا الخطر وبدأ بعلاجه واتخذ من الدعاء أساساً لهذا العلاج. وكانت الصحيفة السجادية التي بين يديك من نتائج ذلك. فقد استطاع هذا الإمام العظيم بما أوتي من بلاغة فريدة وقدرة فائقة على أساليب التعبير العربي وذهنية ربانية تتفتق عن أروع المعاني وأدقها في تصوير صلة الإنسان بربه، ووجده بخالقه، وتعلقه بمبدئه ومعاده، وتجسيد ما يعبّر عنه ذلك من قيم خلقية وحقوق وواجبات.

أقول قد استطاع الإمام علي بن الحسين بما أوتي من هذه المواهب أن ينشر من خلال الدعاء جواً روحياً في المجتمع الإسلامي يساهم في تثبيت الإنسان المسلم عندما تعصف به المغريات وشده إلى ربه حينما تجره الأرض إليها وتأكيد ما نشأ عليه من قيم روحية، لكي يظل أميناً عليها في عصر الغنى والثروة كما كان أميناً عليها وهو يشد حجر المجاعة على بطنه.

وقد جاء في سيرة الإمام أنه كان يخطب الناس في كل جمعة ويعظهم ويزهدهم في الدنيا ويرغبهم في أعمال الآخرة ويقرع أسماعهم بتلك القطع

---

(١) يشير السيد الشهيد رضي الله عنه إلى ما نقله أبو الفرج عن حياة الملوك والولاة ومجونهم وترفهم، وآثاره على العامة.

الفنية من ألوان الدعاء والحمد والثناء التي تمثل العبودية المخلصة لله سبحانه وحده لا شريك له، وهكذا نعرف أنّ الصحيفة السجادية تعبّر عن عمل اجتماعي عظيم كانت ضرورة المرحلة تفرضه على الإمام إضافة إلى كونها تراثاً ربانياً فريداً يظل على مرّ الدهور مصدر عطاء ومشعل هداية ومدرسة أخلاق وتهذيب وتظل الإنسانية بحاجة إلى هذا التراث المحمدي العلوي وتزداد حاجة كلما ازداد الشيطان إغراء والدنيا فِتنة. فسلام على إمامنا زين العابدين يوم ولد ويوم أدى رسالته ويوم مات ويوم يبعث حياً.

النجف الأشرف

محمد باقر الصدر

رسالتنا في عصر الإمام الصادق[1]

إنّ ما يجعل لهذه الذكرى دلالتها الخاصة بالنسبة إلينا هذا الشبه العظيم بين عصرنا الحاضر وبين عصر الإمام الصادق عليه السلام، فهي ليست ذكرى نجدد فيها ولاءنا وتمسكنا بمبادئ هذا الإمام العظيم ومبادئ آبائه الميامين عليهم السلام فحسب، وإنما هي ذكرى تعيد إلى أذهاننا صور الكفاح المرّ الذي خاضه الإمام الصادق عليه السلام في سبيل حماية الإسلام من حملات أعدائه، والمحافظة على صفائه ونقائه، وعلى هذا فيجب أن تكون حافزاً لنا على الاستمرار في كفاحنا المعاصر في سبيل الإسلام ضد أعدائه ومحرفيه.

لقد كان عصر الإمام الصادق عليه السلام عصر فتن وأهواء، فتن هوج مزقت المجتمع الإسلامي وقذفت به في حروب ومنازعات شتى، وأهواء مضللة تسللت إلى عقول بعض المسلمين فثبت فيها الشك حول الإسلام ومبادئه العظيمة.

فلقد استغلّ أعداء الإسلام والدخلاء فيه إحتراب المسلمين واضطرابهم وتفرق كلمتهم وتشتت جمعهم، فبثوا في المسلمين مبادئهم الغريبة عن الإسلام ونشروها في صفوفهم، وقد التقط المسلمون كل ما أُلقي إليهم دون

---

(١) الموضوع مستل من كتاب رسالتنا للسيد الشهيد محمد باقر الصدر رضي الله عنه، نشر توحيد الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ: ٩٧ـ ١٠١.

تفكير ودون تدبر فانتشر الشك بينهم انتشار الوباء وغدا بدعة من هذه البدع التي يغرم المتعالمون بالتظاهر بها والتحدث عنها وطلب الشهرة عن طريقها(١)

وقد حمل الإمام الصادق عليه السلام أعباء الكفاح الديني في عصره المضطرب الحافل بشتى الفتن والبدع والأهواء وبقي صامداً في كفاحه حتى اغتالته قوى الشر في زمانه(٢).

فلقد كافح طغاة عصره من خلفاء وولاة ومتنفذين، فلم يقف منهم موقفاً ليناً، وهو يراهم يحرفون أحكام الإسلام فيظلمون الرعية ويستهترون بمقدرات الأمة ولا يرعون في أفعالهم إلاً ولا ذمة، بل كان يكافحهم بلسانه ويدعو الأُمة الإسلامية إلى أن تطبق المبدأ الإسلامي العظيم، مبدأ الأمر بالمعروف والنهي

---

(١) يشير السيد الشهيد إلى بداية نشوء الفرق والمذاهب الإسلامية التي تزامنت نشأتها مع قيام الدولة العباسية، فضلاً عما ظهر في هذا العصر من جماعات لا تؤمن بالله، كالدهريين والزنادقة وسواهم، ومن كبارهم الديصاني وابن أبي العوجاء. انظر: الاحتجاج، الشيخ الطبرسي: ٢/ ٧١ ـ ٧٢.

(٢) كانت ولادته عليه السلام بين عامي (٨٠ ـ ٨٣) باختلاف الروايات، وأما شهادته فكانت زمن المنصور الدوانيقي، عام ١٤٨هـ.

كشف الغمة الإربلي: ٢ / ٣٦٧.

عن المنكر وذلك ليشعر الحاكمون الظالمون في زمانه برقابة الأُمة ووعيها.

وكافح الفهم المزور للدين الإسلامي الذي يجعل منه رفضاً للحياة الدنيا وتخلياً عن العمل فيها ونبذاً لمتعها ومباهجها، فشرح عليه السلام في بيانات عظيمة ـ حفظتها لنا كتب الحديث ـ موقف الإسلام من الحياة الدنيا وحثه على العمل لها والاستمتاع بها في حدود ما شرعه الله تعالى في الدين الإسلامي.

وحمل عليه السلام راية الكفاح الديني الإسلامي ضد حركة الزندقة والإلحاد التي شاعت في عصره، والتي نشرها أعداء الإسلام بين المسلمين لأجل إضعافهم وعزل الإسلام عن حياتهم تمهيداً للسيطرة عليهم والتحكم فيهم.

وقد نهض الإمام الصادق عليه السلام لمقارعة أهل الباطل، وباحث الفلاسفة والدهريين وأهل الكلام والجدل الّذين جعلوا همهم الأكبر تضليل المسلمين وتشكيكهم في عقائدهم، فأبطل بحكمته مقالاتهم الفاسدة وسفسطتهم الفارغة وأوضح لهم اعوجاج مذاهبهم وإلتواء سبلهم ودعاهم إلى كلمة الحق وجادلهم بالتي هي أحسن.

وقد حفظت لنا كتب التاريخ كثيراً من مناظراته مع هؤلاء الضالين المضلين[١]

---

(١) انظر: الاحتجاج، الشيخ الطبرسي: ٢ / ٥٩ ـ ١٤٠، فهذه الصفحات تتضمن حوارات ومناقشات الإمام عليه السلام مع أصحاب الآراء والمذاهب المختلفة. نموذج: وروي عن ←

يونس بن يعقوب قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فورد عليه رجل من أهل الشام فقال: إني رجل صاحب كلام وفقه وفرائض، وقد جئت لمناظرة أصحابك. فقال له أبو عبد الله: كلامك هذا من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو من عندك؟ فقال: من كلام رسول الله بعضه، ومن عندي بعضه. فقال أبو عبد الله: فأنت إذا شريك رسول الله! صلى الله عليه وآله وسلم قال: لا. قال: فسمعت الوحي من الله تعالى؟ قال: لا. قال: فتجب طاعتك كما تجب طاعة رسول الله؟ قال: لا. قال: فالتفت إليّ أبو عبد الله فقال: يا يونس هذا خصم نفسه قبل أن يتكلم، ثم قال: يا يونس لو كنت تحسن الكلام كلمته. قال يونس: فيالها من حسرة. فقلت: جعلت فداك سمعتك تنهى عن الكلام، وتقول: ويل لأصحاب الكلام، يقولون: هذا ينقاد، وهذا لا ينقاد، وهذا ينساق، وهذا لا ينساق، وهذا نعقله، وهذا لا نعقله! فقال أبو عبد الله عليه السلام: انما قلت: ويل لقوم تركوا قولي بالكلام، وذهبوا إلى ما يريدون ثم قال: اخرج إلى الباب فمن ترى من المتكلمين فادخله! قال: فخرجت فوجدت حمران بن أعين، وكان يحسن الكلام، ومحمد بن نعمان الأحول، وكان متكلما، وهشام بن سالم، وقيس الماصر، وكانا متكلمين وكان قيس عندي أحسنهم كلاما، وكان قد تعلم الكلام من علي بن الحسين، فأدخلتهم، فلما استقربنا المجلس وكنا في خيمة لأبي عبد الله عليه السلام، في طرف جبل في طريق الحرم، وذلك قبل الحج بأيام، فاخرج أبو عبد الله رأسه من الخيمة فإذا هو ببعير يخب قال: هشام ورب الكعبة. قال: وكنا ظننا أن هشاما رجل من ولد عقيل، وكان شديد المحبة لأبي عبد الله، فإذا هشام بن الحكم، وهو أول ما اختطت

لحيته، وليس فينا إلا من هو اكبر منه سنا، فوسع له أبو عبد الله عليه السلام وقال: (ناصرنا بقلبه ولسانه ويده) ثم قال لحمران: كلم الرجل يعني: الشامي. فكلمه حمران وظهر عليه ثم، قال: يا طاقي كلمه! فكلمه فظهر عليه محمد بن نعمان. ثم قال لهشام بن سالم : كلمه ! فتعارفا ثم قال لقيس الماصر : كلمه ! واقبل أبو عبد الله عليه السلام يتبسم من كلامهما وقد استخذل الشامي في يده، ثم قال للشامي: كلم هذا الغلام ! يعني: هشام بن الحكم فقال : نعم ثم قال الشامي لهشام : يا غلام سلني في إمامة هذا يعني : أبا عبد الله عليه السلام؟ فغضب هشام حتى ارتعد ثم قال له : اخبرني يا هذا اربك انظر: لخلقه، أم خلقه لانفسهم ؟ فقال الشامي: بل ربي انظر: لخلقه ! قال : ففعل بنظره لهم في دينهم ماذا ؟ قال: كلفهم، وأقام لهم حجة ودليلا على ما كلفهم به، وأزاح في ذلك عللهم. فقال له هشام : فما هذا الدليل الذي نصبه لهم ؟ قال الشامي : هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. قال هشام : فبعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من ؟ قال : الكتاب والسنة. فقال هشام : فهل نفعنا اليوم الكتاب والسنة فيما اختلفنا فيه، حتى رفع عنا الاختلاف، ومكننا من الاتفاق ؟ فقال الشامي: نعم. قال هشام : فلم اختلفنا نحن وأنت، جئتنا من الشام تخالفنا، وتزعم أن الرأي طريق الدين، وأنت مقر بأن الرأي لا يجمع على القول الواحد المختلفين ؟ فسكت الشامي كالمفكر. فقال أبو عبد الله عليه السلام ! مالك لا تتكلم؟ قال: إن قلت: أنا ما اختلفنا كابرت، وان قلت إن الكتاب والسنة يرفعان عنا الاختلاف، أبطلت، لانهما يحتملان الوجوه، ولكن لي عليه مثل ذلك. فقال له عليه السلام أبو عبد الله : سله تجده مليا ! فقال الشامي لهشام : من انظر: للخلق ربهم أم

أنفسهم ؟ فقال : بل ربهم انظر: لهم. فقال الشامي: فهل أقام لهم من يجمع كلمتهم، ويرفع اختلافهم، ويبين لهم حقهم من باطلهم ؟ فقال هشام : نعم. قال الشامي: من هو ؟ قال هشام : اما في ابتداء الشريعة فرسول الله صلى الله عليه وآله، واما بعد النبي فعترته. قال الشامي : من هو عترة النبي القائم مقامه في حجته ؟ قال هشام: في وقتنا هذا أم قبله ؟ قال الشامي : بل في وقتنا هذا. قال هشام : هذا الجالس يعني : أبا عبد الله عليه السلام، الذي تشد إليه الرحال ويخبرنا بأخبار السماء وراثة عن أبيه عن جده. قال الشامي : وكيف لي بعلم ذلك ؟ فقال هشام : سله عما بدا لك. قال الشامي : قطعت عذري، فعلي السؤال. فقال أبو عبد الله عليه السلام: أنا أكفيك المسألة يا شامي : أخبرك عن مسيرك وسفرك، خرجت يوم كذا، وكان طريقك كذا، ومررت على كذا، ومر بك كذا، فاقبل الشامي كلما وصف له شيئا من أمره يقول: (صدقت والله) فقال الشامي : أسلمت لله الساعة ! فقال له أبو عبد الله عليه السلام : بل آمنت بالله الساعة، إنّ الإسلام قبل الإيمان وعليه يتوارثون، ويتناكحون، والإيمان عليه يثابون. قال: صدقت، فأنا الساعة اشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمدا رسول الله وأنّك وصي الأنبياء. قال : فاقبل أبو عبد الله عليه السلام على حمران، فقال : يا حمران تجري الكلام على الأثر فتصيب، فالتفت إلى هشام بن سالم، فقال: تريد الأثر ولا تعرف ! ثم التفت إلى الأحول، فقال : قياس رواغ، تكسر باطلا بباطل. إلا أنّ باطلك أظهر ثم التفت إلى قيس الماصر فقال : تكلم واقرب ما تكون من الخبر عن الرسول صلى الله عليه وآله ﴿ ﴾أبعد ما تكون منه، تمزج الحق بالباطل. وقليل الحق يكفي من كثير الباطل أنت والأحول قفازان حاذقان. قال

كما أنه عليه السلام قد وجه أصحابه والبارزين من طلاب مدرسته العلمية على قدر كفاءتهم ومقدرتهم ليخوضوا تلك المعارك الفكرية ويقفوا في وجه تيار الضلال الذي قاده أعداء الإسلام والدخلاء فيه.

وقد كانوا خير معين على الكفاح الذي اضطلع به الإمام الصادق عليه السلام، وقد كان هو المصدر الأول والمنتهى الأخير لما كان يقوم به صفوة أصحابه في ميدان الكفاح العقائدي[1]

هذا كله إلى جانب قيامه عليه السلام بأعباء منصب الإمامة الكبرى والخلافة العظمى، المنصب الذي يجعل منه مصدراً للتشريع الإسلامي. هذه ملامح من الكفاح الذي نهض بأعبائه الإمام الصادق عليه السلام والذي يجب أن يكون حافزاً لنا على الاستمرار في كفاحنا المعاصر في سبيل الإسلام ضد أعدائه ومحرفيه، فإن هذا الوباء العقائدي الوافد والذي يهدد الإسلام والمسلمين هو ما نعاني منه في عصرنا الحاضر. ولسنا بحاجة إلى التأكيد على أنّ المسلمين اليوم يواجهون طوفاناً من هذه العقائد والأفكار المنحرفة عن الإسلام والتي

يونس بن يعقوب : فظننت والله أنّه يقول لهشام: قريبا مما قال لهما، فقال : يا هشام لا تكاد تقع تلوي رجليك إذ هممت بالأرض طرت، مثلك فليكلم الناس اتق الزلة، والشفاعة من ورائك.

الاحتجاج: ٢ / ١٢٢ – ١٢٥.

(١) انظر: الاحتجاج: ٢/ ١٤٠ـ١٥٠، فهذه الصفحات توضح ما يشير إليه السيد الشهيد رضي الله عنه

يستهدف أعداء الإسلام من ورائها تجريد المسلمين من العقيدة التي تعصمهم من التردي والانهيار.

وقد مَهّد لانتشار هذه الأفكار الدخيلة في بعض الأوساط الإسلامية ما يعانيه المسلمون اليوم من فراغ عقائدي ظهرت معالمه واضحة على الحياة الإسلامية في العصور الأخيرة، فقد غدا الإسلام عند المسلمين اسماً فقط، اسماً لا صلة له بواقع الحياة ومناهج السلوك، اسماً إنْ وجد له مظهراً في علاقة المسلم بربه فإنه لا يجد مظهراً في علاقة المسلم بإخوانه في الدين وأعدائه في الدين وفي مسائل الحياة الكبرى.

لقد صادفت مبادئ الضلال هذا الفراغ العقائدي وهو الذي هيأ لها فرصة الشيوع والانتشار في بعض الأوساط الإسلامية، والفراغ العقائدي مظهر من مظاهر البعد عن القيم الإسلامية التي يجب أن يقوم عليها موقف الإنسان المسلم من الكون والحياة والإنسان ومشاكله.

وقد أفلح أعداء الإسلام بما أُتوا من سلطان سياسي وعسكري على حياة المجتمعات الإسلامية في أن يعزلوا هذه المجتمعات عن إيحاءات الإسلام وعن مبادئه وقيمه، وأن يوجهوا الحياة الإسلامية وفقاً لأفكار ومبادئ لا تمت إلى الإسلام بصلة ولا تلتقي معه على صعيد[1].

---

(١) الإشارة إلى الأحداث التي أعقبت الحرب الأولى، وسيطرة الإنسان الغربي على الوطن

وبذلك انقطعت الصلة الحية بين الإسلام وبين المسلمين ولم يعد له ظل على واقع حياتهم فكان الفراغ العقائدي وكان الوباء.

هذا هو الواقع العقائدي الذي يعيش فيه العالم الإسلامي في هذه الأيام وهو شبيه بما كافح الإمام الصادق عليه السلام في سبيل تبديله بواقع إسلامي حقيقي.

وقد نهج الإمام الصادق وآباؤه الطاهرون المصطفون صلوات الله عليهم جميعاً للمكافحين في سبيل الله من بعدهم النهج السليم في الدعوة إلى الله، وهو النهج الإسلامي الإنساني: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[١]

ونحن بعون الله على هديهم سائرون.

↩ الإسلامي، وما كان بعد ذلك من تقسيمه وتحكيم المناهج الغربية في حياتنا بميادينها المختلفة.

(١) سورة النحل/ ١٢٥.

الإمامة المبكرة عند الإمام الجواد عليه السلام [١]

بسم الله الرحمن الرحيم

وأفضل الصلوات على أفضل النبيين وآله الطيبين الطاهرين.

اليوم نجتمع بمناسبة وفاة الإمام التاسع عليه الصلاة والسلام، الإمام الجواد[٢] الذي قدّر الله سبحانه وتعالى أن يكون نفس وجود هذا الإمام على خط حياة أهل البيت دليلاً وبرهاناً على صحة العقيدة التي نؤمن بها نحن بالنسبة إلى أهل البيت عليهم الصلاة والسلام؛ لأن الظاهرة التي وجدت مع هذا الإمام وهي ظاهرة تولي الشخص للإمامة وهو بعد في سن الطفولة على أساس أنّ التاريخ يتفق ويجمع على أنّ الجواد توفي أبوه[٣] وعمره لا يزيد عن سبع سنين[٤]، ومعنى هذا أنه تولى زعامة الطائفة الشيعية روحياً ودينياً

---

(١) محاضرة ألقاها المرجع الشهيد السيد محمد باقر الصدر رضي الله عنه بتاريخ ٢٩/ ذي القعدة /١٣٨٨هـ، في النجف الأشرف، في ذكرى شهادة الإمام الجواد عليه السلام. مجلة الفكر الإسلامي، العدد: ١٨، ١٤٢٠هـ.

(٢) وكانت شهادته عليه السلام في سنة[٢٢٠هـ]. وكان عمره الشريف خمساً وعشرين عاماً.

(٣) توفي الإمام الرضا في طوس (إيران) سنة ٢٠٣هـ، عيون أخبار الرضا: ٢ /٢٢٧ ـ ٢٢٨.

(٤) كانت شهادة الإمام الرضا عليه السلام عام (٢٠٢هـ) وولادة الإمام الجواد (١٩٥هـ) فيكون عمره الشريف حال توليه منصب الإمامة سبع سنين.

وعلمياً وفكرياً، وهو لا يزيد عن سبع سنين.

هذه الظاهرة التي ظهرت لأول مرة في حياة الأئمة في الإمام الجواد عليه السلام لو درسناها بحساب الاحتمالات لوجدنا أنها كافية للاقتناع بحقانية هذا الخط الذي كان يمثله الإمام الجواد عليه الصلاة والسلام، إذ كيف يمكن أن نفترض فرضاً آخر غير فرض الإمامة الواقعية في شخص لا يزيد عمره عن سبع سنين ويتولى زعامة هذه الطائفة في كل المجالات الروحية والفكرية والفقهية والدينية ؟ في هذا الموضوع لا مجال للافتراض أنّ الطائفة لم يتكشّف لديها بوضوح هذا الصبي، لأن زعامة الإمام في أهل البيت لم تكن زعامة محوطة بالشرطة والجيش وأبهة الملك والسلطان الذي يحجب بين الزعيم ورعيته، ولم تكن زعامة دعوة سرية من قبيل الدعوات الصوفية أو الفاطمية التي تحجب بين رأس الدعوة وبين قواعد هذه الدعوة لكي يفترض أنّ هذا الرأس كان محجوباً عن رعيته مع إيمان الرعية به.

إمام أهل البيت كان مكشوفاً أمام الطائفة بكل طبقاتها تتفاعل معه مباشرة في مسائلها الدينية، وفي قضاياها الروحية والأخلاقية، والإمام الجواد عليه الصلاة والسلام نفسه أصر على المأمون حينما استقدمه إلى بغداد في أن يسمح له بالرجوع إلى المدينة، وسمح له بالرجوع إلى المدينة، ورجع إلى المدينة

أصول الكافي، الشيخ الكليني : ٤٩١/١.

وقضى بقية عمره أو أكثر عمره في المدينة[١].

إذن فقد قضى الإمام الجواد عليه الصلاة والسلام أكثر عمره، أو كل عمره وهو على المسرح، وهو مكشوف أمام المسلمين، أمام مختلف طبقات المسلمين بما فيهم الشيعة المؤمنون بزعامته وإمامته، فافتراض أنه لم يكن الإمام الجواد مكشوفاً أمام المسلمين وأمام طائفته بالخصوص خلاف طبيعة العلاقة التي أُنشأت منذ البداية بين أئمة أهل البيت وقواعدهم الشعبية في المسلمين، خصوصاً إذا أضفنا إلى ذلك أنّ الإمام الجواد قد سلّطت عليه أضواء خاصة من قبل الخليفة المأمون في القصة التي تعرفونها[٢].

يبقى افتراض آخر وهو افتراض أنّ المستوى العلمي والفكري للطائفة وقتئذ كان يَعْبُر عليه هذا الموضوع، كان بالإمكان على المستوى الفكري والعقلي والروحي للطائفة أن تصدّق هذه بإمامة طفل وهو ليس بإمام، هذا أيضاً مما يكذّبه الواقع التاريخي لهذه الطائفة وما وصلت إليه من مستوى

---

(١) كانت عودته إلى المدينة بعد زواجه من ابنة المأمون.

انظر: مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب: ٣/٤٨٩.

(٢) إن المأمون قد دعا الفقهاء والعلماء لمناظرة ومحاججة الإمام الجواد في الفقه وغيره من العلوم، لعلهم يضعوا من قدره، إلا أنه عليه السلام أفحمهم وأبطل حجتهم.

الثاقب في المناقب، ابن حمزة الطوسي: ٤٧٠، والصواعق المحرقة، ابن حجر الهيتمي: ٢٠٦

علمي وفقهي فإن هذه الطائفة قد خلّفها الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام وفيها أكبر مدرسة للفكر الإسلامي في العالم الإسلامي على الإطلاق، المدرسة التي تتكون من الجيلين المتعاقبين جيل تلامذة الإمام الصادق والكاظم عليهما السلام ، وجيل تلامذة تلامذة الإمام الصادق والكاظم، هذان الجيلان كانا على رأس هذه الطائفة في ميادين الفقه والتفسير والكلام والحديث والأخلاق، وكل جوانب المعرفة الإسلامية.

إذن فليس من الممكن أن نفترض أنّ المستوى الفكري والعلمي لهذه الطائفة كان يَعْبُر عليه مثل هذا، لا يمكن أن يَعْبُر على طائفة فيها هذه المدرسة التي كانت هي قبلة الفكر الإسلامي في كل ميادين المعرفة، أ يَعْبُر عليها مثل هذا التصور وتتصور أنّ شخصاً طفلاً هو إمام وهو ليس بإمام، إن أمكن لشخص أنْ يتصور أنّ رجلاً عالماً كبيراً مطلعاً بلغ الخمسين أو الستين يستطيع أن يقنع مجموعة من الناس بإمامته، وهو ليس بإمام، لأنه يتصف بدرجة كبيرة من العلم والمعرفة والذكاء والاطلاع، فليس بالإمكان أن نفترض ذلك في شخص لم يبلغ العاشرة من عمره. وكيف يستطيع أن يقنع بإمامته كذباً طائفة وهو مكشوف أمامها؟ وهذه الطائفة تشتمل على مدرسة فكرية من أضخم المدارس الفكرية التي وجدت في العالم الإسلامي يومئذ، مدرسة كان يوجد بعض قطّاعاتها في الكوفة، وبعض قطّاعاتها في قم وبعض قطاعتها في المدينة هذه المدرسة التي كانت موزَّعة في حواضر العالم الإسلامي، والتي كانت كلها

على صلة مباشرة بالإمام الجواد تستفتيه وتسأله، وتنقل إليه الأموال من مختلف الأطراف من شيعته، مثل هذه المدرسة لا يمكن أن نتصور فيها أن تغفل عن حقيقة طفل لا يكون إماماً.

يبقى افتراض آخر وهو أن الطائفة لم يكن عندها مفهوم الإمام والإمامة، كانت تتصور أنّ الإمامة مجرد تسلسل نسبي ووراثي ولم تكن تعرف ما هو الإمام، وما هي قيمة الإمام وما هي شروط الإمام، هذا الافتراض أيضاً يكذبه واقع التراث المتواتر المستفيض من أمير المؤمنين إلى الإمام الرضا عليه الصلاة والسلام عن شروط الإمام ومحصول الإمام وعلامات الإمام. التشيع قام بصورة أساسية على المفهوم الإلهي المعمّق للإمامة، هذا هو أوضح وأبده وأول مفهوم من مفاهيم التشيع، وهو أنّ الإمام إنسان فذ فريد في معارفه وأخلاقه وقوله وعمله، هذا هو المفهوم الأساسي للتشيع الذي بشرت به آلاف النصوص من عهد أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام إلى عهد الإمام الرضا عليه الصلاة والسلام[1]، كل الخصوصيات وكل التفاصيل أصبحت بالتدريج واضحة في

---

(١) إن الامامة هي منزلة الأنبياء، وإرث الأوصياء، إن الامامة خلافة الله وخلافة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومقام أمير المؤمنين عليه السلام وميراث الحسن والحسين عليهما السلام. إنّ الإمامة زمام الدين، ونظام المسلمين، وصلاح الدنيا وعز المؤمنين، إن الامامة أُسّ الاسلام النامي، وفرعه السامي، بالامام تمام الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد، وتوفير الفيء ⇐

ارتكاز الطائفة وذهنيتها حتى بعض التفاصيل الثانوية.

يقول الراوي في مناسبة قصة الإمام الجواد عليه الصلاة والسلام:

دخلت المدينة بعد وفاة الرضا أسأل عن الإمام بعد الرضا، فقيل إنّ الخليفة في قرية قريبة من المدينة فخرجت إلى تلك القرية ودخلت داخل القرية ـ وكأن هذه القرية كان فيها بيت للإمام موسى بن جعفر انتقل بالوراثة إلى أولاده وأحفاده ـ يقول فرأيت البيت غاصاً بالناس ورأيت أحد اخوة الإمام الرضا كان جالساً يتصدر المجلس، إلا أنّ الناس يقولون فيما بينهم: إنّ هذا ليس هو الإمام بعد الإمام الرضا، لأننا سمعنا من الأئمة أنّ الإمامة لا تكون في أخوين بعد الحسن والحسين[1] كل التفاصيل وكل الخصوصيات النسبية والمعنوية كانت واضحة ومحدّدة عندهم، إذن فهذا

والصدقات، وإمضاء الحدود والأحكام، ومنع الثغور والاطراف. الإمام يحل حلال الله، ويحرم حرام الله، ويقيم حدود الله، ويذب عن دين الله، ويدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والحجة البالغة الإمام كالشمس الطالعة المجلّلة بنورها للعالم وهي في الأفق بحيث لا تنالها الأيدى والأبصار.

الاحتجاج، الشيخ الطبرسي: ٢/ ٢٢٧.

(١) الهداية الكبرى، أبو عبد الله الحسين بن حمدان، الناشر مؤسسة البلاغ، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤١١هـ: ٣٩١. الفصول المختارة، الشيخ المفيد، تحقيق السيد مير علي شريفي، دار المفيد، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ: ٣٠٦.

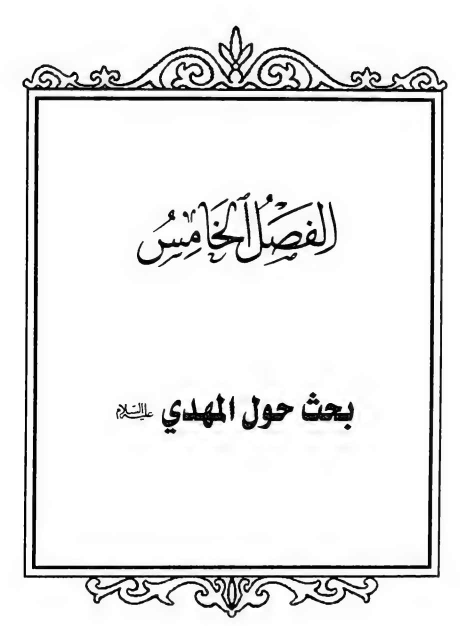
الافتراض أيضاً يكذبه واقع التراث المتواتر الثابت عن الأئمة السابقين عليهم الصلاة والسلام.

يبقى افتراض أخير وهو افتراض أن يكون هذا تبانياً على الزور والباطل من قبل هذه الطائفة، وهذا أيضاً مما يكذبه إيماننا الشخصي بذلك، الظرف الموضوعي لهذه الطائفة، لم يكن التشيع في يوم من الأيام في حياة هذه الطائفة طريقاً إلى الأمجاد، إلى المال، إلى الجاه، إلى السلطان، إلى المقامات العالية.

التشيع طيلة هذه المدة كان طريقاً إلى التعذيب، إلى السجون، إلى الحرمان، إلى الويل، إلى الدمار. كان طريقاً إلى أن يعيش الإنسان حياة الخوف والذل والتقية في كل حركاته وسكناته، لم يكن في يوم من الأيام طريقاً إلى مال أو جاه أو ثراء حتى يكون هذا التباني من قبل هذه الطائفة على ذلك في سبيل مطمع، لماذا يتبانى عقلاء هذه الطائفة ووجهاؤها وعلماؤها على إمامة باطلة؟ مع أن تبانيهم على هذه الإمامة الباطلة يكلفهم كثيراً من ألوان الحرمان، ولو أنّ هؤلاء الوجهاء والعلماء والأعلام تركوا هذه الطريقة واتبعوا الطريق الرسمي المكشوف وقتئذٍ المتبع من قبل سائر المسلمين لكانوا في طليعة سائر المسلمين، فالظروف الموضوعية للطائفة كانت بنفسها تشهد على أنّ هذا التباني على إمامة يكلفهم الاعتقاد بها ألوان العذاب وألوان الحرمان لا يمكن أن يكون ناشئاً إلا عن اعتقاد حق بهذه الإمامة.

إذن فكل الافتراضات الأخرى لا يمكن أن تكون مقبولة عند أي إنسان

يطّلـع عـلى تـاريخ الطائفة، وتاريخ الإسلام وقتئذٍ، وعلى الظروف الموضوعية الـتي تكتنف إمامة الجواد ولا يبقى إلا الفرض الوحيد المطابق للواقع، وهو أن يكون الإمام الجواد إماماً حقاً. نحن اليوم نجتمع بمناسبة هذا الإمام عليه الصلاة والسـلام، فـأردت أن أذكـر هـذا بمناسـبة كـون الـيوم يوم الإمام الجواد عليه الصلاة والسلام.



الفصل الخامس

بحث حول المهدي عليه السلام



﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِى الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾

القصص: ٥

ليس المهدي تجسيداً لعقيدة إسلامية ذات طابع ديني فحسب، بل هو عنوان لطموح اتجهت إليه البشرية بمختلف أديانها ومذاهبها، وصياغة لإلهام فطري، أدرك الناس من خلاله ـ على الرغم من تنوّع عقائدهم ووسائلهم إلى الغيب ـ أن للإنسانية يوماً موعوداً على الأرض. تحقق فيه رسالات السماء بمغزاها الكبير، وهدفها النهائي، وتجد فيه المسيرة المكدودة للإنسان على مرّ التاريخ استقرارها وطمأنينتها، وبعد عناءٍ طويل، بل لم يقتصر الشعور بهذا اليوم الغيبي والمستقبل المنتظر على المؤمنين دينياً بالغيب، بل امتدَّ على غيرهم أيضاً وانعكس حتى على أشدِّ الأيديولوجيات والاتجاهات العقائدية رفضاً للغيب والغيبيات، كالمادية الجدلية التي فسَّرت التاريخ على أساس التناقضات، وآمنت بيوم موعود، تصفّى فيه كل التناقضات ويسود فيه الوئام والسلام(١).

وهكذا نجد أنّ التجربة النفسية لهذا الشعور التي مارستها الإنسانية على مرّ الزمن، من أوسع التجارب النفسية وأكثرها عموماً بين أفراد الإنسان.

وحينما يدعم الدين هذا الشعور النفسي العام، ويؤكّد أنّ الأرض في

---

(١) يشير السيد الشهيد إلى المرحلة الأخيرة حسب الرؤية الماركسية للتاريخ وتطوره، وهي المرحلة الشيوعية، حيث تنتهي الصراعات، ويسود العدل.

انظر: اقتصادنا : ١٥٥، وما بعدها.

نهاية المطاف ستمتلأ قسطاً وعدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً [١]، يعطي لذلك الشعور قيمته الموضوعية ويحوّله إلى إيمان حاسم بمستقبل المسيرة الإنسانية، وهذا الإيمان ليس مجرد مصدر للسلوة والعزاء فحسب، بل مصدر عطاء وقوة، فهو مصدر عطاء، لأن الإيمان بالمهدي إيمان برفض الظلم والجور حتى وهو يسود الدنيا كلها، وهو مصدر قوة ودفع لا تنضب، لأنه بصيص نور يقاوم اليأس في نفس الإنسان، ويحافظ على الأمل المشتعل في صدره مهما ادلهمَّت الخطوب وتعملق الظلم، لأن اليوم الموعود يثبت أنّ بإمكان العدل أن يواجه عالماً مليئاً بالظلم والجور فيزعزع ما فيه من أركان الظلم، ويقيم بناءه من جديد، وإن الظلم مهما تجبَّر وامتدَّ في أرجاء العالم وسيطر على مقدراته فهو حالة طبيعية، ولابد أن ينهزم، وتلك الهزيمة الكبرى المحتومة للظلم وهو في

---

(١) النص: عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله، قال: ((لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لبعث الله فيه رجلاً من أهل بيتي يملأها عدلاً كما ملئت جوراً)).

وعن أبي سعيد الخدري، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فيبعث الله رجلا من عترتي من أهل بيتي، فيملا به الأرض قسطا كما ملئت ظلما وجورا، يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض.

المصنف، عبد الرزاق الصنعاني: ١١ /٣٧٢، المعجم الكبير، الطبراني : ١٠/ ١٣٣، السيوطي، جمع الجوامع، ج١. ص٦٦٩.

قمـة مجـده، تضع الأمل كبيراً أمام كل فرد مظلوم. وكل أُمة مظلومة في القدرة على تغيير الميزان وإعادة البناء.

وإذا كانـت فكـرة المهـدي أقـدم مـن الإسـلام وأوسـع مـنه، فـإن معالمهـا التفصـيلية الـتي حددهـا الإسـلام جـاءت أكـثر إشباعاً لكل الطموحات التي أنشـدت إلى هـذه الفكـرة مـنذ فجـر الـتاريخ الديني، أغنى عطاءً وأقوى إثارةً لأحاسـيس المظلومـين والمعذبـين عـلى مـرّ الـتاريخ وذلـك لأن الإسلام حوّل الفكـرة مـن غيـب إلى واقـع، ومن مستقبل إلى حاضر، ومن التطلّع إلى منقذ تـتمخض عنه الدنيا في المستقبل البعيد المجهول إلى الإيمان بوجود المنقذ فعلاً، وتطلعـه مع المتطلعين إلى اليوم الموعود، واكتمال كل الظروف التي تسمح لـه بممارسـة دوره العظـيم، فـلم يعـد المهـدي عليه السلام فكـرةً ننتظر ولادتها، ونبوءةً نـتطلع إلى مصـداقها، بـل واقعاً قائماً ننتظر فاعليته وإنساناً معيّناً يعيش بيننا بـلحمه ودمه نراه ويرانا، ويعيش مع آمالنا وآلامنا ويشاركنا أحزاننا وأفراحنا، ويشـهد كـل ما تزخر به الساحة على وجه الأرض من عذاب المعذبين وبؤس البائسين وظلم الظالمين، ويكتوي بكل ذلك من قريب أو بعيد، وينتظر بلهفة الـلحظة الـتي يـتاح لـه فيها أن يمدَّ يده إلى كل مظلوم وكل محروم، وكل بائس ويقطع دابر الظالمين.

وقد قدّر لهذا القائد المنتظر أن لا يعلن عن نفسه، ولا يكشف للآخرين حياته على الرغم من إنه يعيش معهم انتظاراً للّحظة الموعودة[١]

ومن الواضح أنّ الفكرة بهذه المعالم الإسلامية، تقرّب الهوة الغيبية بين المظلومين كل المظلومين والمنقذ المنتظر، وتجعل الجسر بينهم وبينه في شعورهم النفسي قصيراً مهما طال الانتظار.

ونحن حينما يراد منا أن نؤمن بفكرة المهدي بوصفها تعبيراً عن إنسان حي محدد يعيش فعلاً كما نعيش ويترقب كما نترقب، يراد الإيحاء إلينا بأن فكرة الرفض المطلق لكل ظلم وجور التي يمثلها المهدي، تجسَّدت فعلاً في القائد الرافض المنتظر، الذي سيظهر وليس في عنقه بيعة لظالم كما في الحديث[٢]

---

(١) روى الشيخ الطوسي بسنده : عن أبي هاشم داود بن القاسم الجعفري قال : سمعت أبا الحسن العسكري عليه السلام يقول : ((الخلف من بعدي الحسن فكيف لكم بالخلف من بعد الخلف ؟ فقلت : ولم جعلني الله فداك ؟ فقال : لأنكم لا ترون شخصه ولا يحل لكم ذكره باسمه. فقلت : فكيف نذكره ؟. فقال : قولوا : الحجة من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم)).
الغيبة، الشيخ الطوسي : ٢٠٢.

(٢) النص : وإني أخرج حين اخرج ولا بيعة لأحد من الطواغيت في عنقي.
الغيبة، الشيخ الطوسي، متوفي ٤٦٠هـ، تحقيق عبد الله الطهراني، مؤسسة المعارف الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤١١هـ : ٢٩٢.

وإن الإيمان به إيمان بهذا الرفض الحي القائم فعلاً ومواكبة له.

وقد ورد في الأحاديث الحث المتواصل على انتظار الفرج [١]، ومطالبة المؤمنين بالمهدي أن يكونوا بانتظاره، وفي ذلك تحقيق لتلك الرابطة الروحية، والصلة الوجدانية بينهم وبين القائد الرافض، وكل ما يرمز إليه من قيم، وهي رابطة وصلة ليس بالإمكان إيجادها ما لم يكن المهدي قد تجسَّد فعلاً في إنسان حي معاصر.

وهكذا نلاحظ أنّ هذا التجسيد أعطى الفكرة زخماً جديداً، وجعل منها مصدر عطاءٍ وقوة بدرجة أكبر، إضافة إلى ما يجده أي إنسان رافض من سلوة وعزاء وتخفيف لما يقاسيه من آلام الظلم والحرمان، حين يحس أنّ إمامه وقائده يشاركه هذه الآلام ويتحسَّس بها فعلاً بحكم كونه إنساناً معاصراً، يعيش معه وليس مجرد فكرة مستقبلية.

ولكن التجسيد المذكور أدى في نفس الوقت إلى مواقف سلبية تجاه فكرة المهدي نفسها لدى عدد من الناس الّذين صعب عليهم أن يتصوروا ذلك

---

(١) النص: ((من أفضل العبادة انتظار الفرج)) ، جامع البيان، ابن جرير الطبري: ٥ /٧١ المعجم الكبير، الطبراني: ١٠/ ١٠١. قال : رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ((أفضل العبادة انتظار الفرج)) ، أي انتظار الفرج بظهور المهدي عليه السلام.

ينابيع المودة، القندوزي : ٣ / ٣٧٣.

ويفترضوه. فهم يتساءلون! إذا كان المهدي يعبّر عن إنسان حي، عاصر كل هذه الأجيال المتعاقبة منذ أكثر من عشرة قرون، وسيظل يعاصر إمداداتها إلى أن يظهر على الساحة، فكيف تأتّى لهذا الإنسان أن يعيش هذا العمر الطويل، وينجو من قوانين الطبيعة التي تفرض على كل إنسان أن يمر بمرحلة الشيخوخة والهرم، في وقت سابق على ذلك جداً وتؤدي به تلك المرحلة طبيعياً إلى الموت، أو ليس ذلك مستحيلاً من الناحية الواقعية ؟ ويتساءلون أيضاً! لماذا كل هذا الحرص من الله (سبحانه وتعالى) على هذا الإنسان بالذات، فتعطل من أجله القوانين الطبيعية، ويفعل المستحيل لإطالة عمره والاحتفاظ به لليوم الموعود، فهل عقمت البشرية عن إنتاج القادة الأكفاء؟

ولماذا لا يترك اليوم الموعود لقائد يولد مع فجر ذلك اليوم، وينمو كما ينمو الناس، ويمارس دوره بالتدريج حتى يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً؟[١] ويتساءلون أيضاً! إذا كان المهدي اسماً لشخص محدَّد هو ابن الإمام الحادي عشر من أئمة أهل البيت عليهم السلام الذي ولد سنة[٢] [٢٥٦ هـ]

---

(١) آيات ذات دلالة في مورد هذه الإشكاليات : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ (مريم: ٢٩)، وانظر: الآيتين: آل عمران : ٦٤، المائدة : ١١٠، ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ (مريم: ١٢).

(٢) الإرشاد، الشيخ المفيد، دار المفيد (بدون تاريخ) : ٢/ ٣٣٩، ويروي الشيخ رضي الله عنه لـ

وتوفي أبوه سنة[1] [٢٦٠ هـ]، فهذا يعني أنه كان طفلاً صغيراً عند موت أبيه، لا يتجاوز خمس سنوات، وهي سن لا تكفي للمرور بمرحلة إعداد فكري وديني كامل على يد أبيه.

فكيف وبأي طريقة يكتمل إعداد هذا الشخص لممارسة دوره الكبير، دينياً وفكرياً وعلمياً ؟

ويتساءلون أيضاً؟ إذا كان القائد جاهزاً فلماذا كل هذا الانتظار الطويل مئات السنين؟

أو ليس في ما شهده العالم من المحن والكوارث الاجتماعية ما يبرّر بروزه على الساحة وإقامة العدل على الأرض ؟ ويتساءلون أيضاً! كيف نستطيع أن نؤمن بوجود المهدي، حتى لو افترضنا أنّ هذا ممكن؟ وهل يسوغ لإنسان أن يعتقد بصحة فرضية من هذا القبيل دون أن يقوم عليها دليل علمي أو شرعي قاطع؟ وهل تكفي بضع روايات تنقل عن النبي صلى الله عليه وآله لا نعلم مدى صحتها

ﺢأن الإمام ولد ليلة النصف من شعبان سنة خمس وخمسين ومائتين. وانظر: الغيبة، الشيخ الطوسي: ٢٣٤. (تاج المواليد المجموعة) الطبرسي : ٦١. ومصادر أخرى تشير إلى أن مولده عليه السلام سنة ٢٥٦هـ، وغيرها سنة ٢٥٧هـ.

(١) سر السلسلة العلوية، أبو نصر البخاري، متوفي ٣٤١هـ : ٣٩ـ٤٠. كشف الغمة، الإربلي: ٣ / ٢١١. تاريخ ابن خلدون : ٤ / ٢٩. ورأس الحسين ابن تيمية: ١٨٤.

للتسليم بالفرضية المذكورة؟ ويتساءلون أيضاً بالنسبة إلى ما أعدَّ له هذا الفرد من دور في اليوم الموعود!... كيف يمكن أن يكون للفرد هذا الدور العظيم الحاسم في حياة العالم، مع أنّ الفرد مهما كان عظيماً لا يمكنه أن يصنع بنفسه التاريخ، ويدخل به مرحلة جديدة، وإنما تختمر بذور الحركة التاريخية وجذوتها في الظروف الموضوعية وتناقضاتها، وعظمة الفرد هي التي ترشحه لكي يشكل الواجهة لتلك الظروف الموضوعية، والتغيير العملي عما تتطلبه من حلول؟ ويتساءلون أيضاً! ما هي الطريقة التي يمكن أن يتصور من خلالها ما سيتمُّ على يد ذلك الفرد من تحوّل هائل وانتصار حاسم للعدل ورسالة العدل على كل كيانات الظلم والجور والطغيان، على الرغم مما تملك من سلطان ونفوذ وما يتواجد لديها من وسائل الدمار والتدمير وما وصلت إليه من المستوى الهائل في الإمكانات العلمية والقدرة السياسية والاجتماعية والعسكرية[١]

---

(١) نصان يحملان هذه الدلالة: عن يزيد الكناسي قال: سمعت أبا جعفر الباقر عليه السلام يقول: " إن صاحب هذا الأمر فيه شبه من يوسف ، يصلح الله له أمره في ليلة.

كتاب الغيبة، محمد بن إبراهيم النعماني: ١٦٣.

" قال الحسين عليه السلام: في التاسع من ولدي سنة من يوسف، وسنة من موسى بن عمران، وهو قائمنا أهل البيت، يصلح الله تعالى أمره في ليلة واحدة ".

إعلام الورى بأعلام الهدى، الشيخ الطبرسي : ٢ /٢٣٠.

هـذه أسـئلة قد تردد في هذا المجال وتقال بشكل وآخر، وليست البواعث الحقيقـية لهـذه الأسـئلة فكـرية فحسب، بل هناك مصدر نفسي لها أيضاً، وهو الشعور بهيبة الواقع المسيطر عالمياً وضآلة أي فرصة لتغييره من الجذور، وبقدر مـا يبعـثه الواقـع الـذي يسـود العالم على مرّ الزمن، من هذا الشعور تتعمّق الشـكوك وتـترادف التسـاؤلات. وهكـذا تـؤدي بالهـزيمة والضـآلة والشـعور بالضـعف لـدى الإنسان، إلى أن يحسّ نفسياً بإرهاق شديد لمجرد تصور عملية التغـيير الكـبرى للعالم التي تفرغه من كل تناقضاته ومظالمه التاريخية، وتعطيه محـتوىً جديـداً قائمـاً عـلى أسـاس الحـق والعـدل، وهـذا الإرهاق يدعوه إلى التشكك في هذه الصورة ومحاولة رفضها لسبب وآخر.

ونحن الآن نأخذ التساؤلات السابقة تباعاً، لنقف عند كل واحد منها وقفة قصيرة بالقدر الذي تتسع له هذه الوريقات.

كيف تأتّى للمهدي هذا العمر الطويل؟

وبكلمة أخرى هل بالإمكان أن يعيش الإنسان قروناً كثيرة كما هو المفترض في هذا القائد المنتظر لتغيير العالم، الذي يبلغ عمره الشريف فعلاً أكثر من ألف ومائة وأربعين سنة، أي حوالي [١٤] مرة من عمر الإنسان الاعتيادي الذي يمرُّ بكل المراحل الاعتيادية من الطفولة إلى الشيخوخة ؟ وكلمة الإمكان هنا تعني أحد ثلاثة معانٍ:

الإمكان العملي،

والإمكان العلمي،

والإمكان المنطقي أو الفلسفي،

وأقصد بالإمكان العملي، أن يكون الشيء ممكناً على نحو يتاح لي أو لك أو لإنسان آخر فعلاً أن يحققه، فالسفر عبر المحيط، والوصول إلى قاع البحر والصعود إلى القمر، أشياء أصبح لها إمكان عملي فعلاً، فهناك من يمارس هذه الأشياء فعلاً بشكل وآخر.

وأقصد بالإمكان العلمي، أنّ هناك أشياء قد لا يكون بالإمكان عملياً لي أو لك، أن نمارسها فعلاً بوسائل المدنية المعاصرة، ولكن لا يوجد لدى العلم ولا تشير اتجاهاته المتحركة إلى ما يبرّر رفض إمكان هذه الأشياء ووقوعها وفقاً لظروف ووسائل خاصة، فصعود الإنسان إلى كوكب الزهرة لا يوجد في العلم ما يرفض وقوعه، بل إنّ إتجاهاته القائمة فعلاً تشير إلى إمكان ذلك وإن لم

يكن الصعود فعلاً ميسوراً لي أو لك، إنّ الفارق بين الصعود إلى الزهرة والصعود إلى القمر ليس إلا فارق درجة، ولا يمثل الصعود إلى الزهرة إلا مرحلة تذليل الصعاب الإضافية التي تنشأ من كون المسافة أبعد، فالصعود إلى الزهرة ممكن علمياً وإن لم يكن ممكناً عملياً فعلاً. وعلى العكس من ذلك الصعود إلى قرص الشمس في كبد السماء فإنه غير ممكن علمياً، بمعنى إنّ العلم لا أمل له في وقوع ذلك، إذْ لا يُتصور علمياً وتجريبياً إمكانية صنع ذلك الدرع الواقي من الإحتراق بحرارة الشمس، التي تمثل آتوناً هائلاً مستعراً بأعلى درجة تخطر على بال إنسان.

وأقصد بالإمكان المنطقي أو الفلسفي أن لا يوجد لدى العقل وفق ما يدركه من قوانين قَبْلية ـ أي سابقة على التجربة ـ ما يبرّر رفض الشيء والحكم باستحالته. فوجود ثلاث برتقالات تنقسم بالتساوي وبدون كسر إلى نصفين ليس له إمكان منطقي، لأن العقل يدرك ـ قبل أن يمارس أي تجربة ـ أنّ الثلاثة عدد فردي وليس زوجاً، فلا يمكن أن تنقسم بالتساوي لأن إنقسامها بالتساوي يعني كونها زوجاً، فتكون فرداً وزوجاً في وقت واحد وهذا تناقض، والتناقض مستحيل منطقياً. ولكن دخول الإنسان في النار دون أن يحترق وصعوده للشمس دون أن تحرقه الشمس بحرارتها ليس مستحيلاً من الناحية المنطقية إذ لا تناقض في افتراض أنّ الحرارة لا تتسرب من الجسم الأكثر حرارة إلى الجسم الأقل حرارة، وإنما هو مخالف للتجربة التي أثبتت

تسرب الحرارة من الجسم الأكثر حرارة إلى الجسم الأقل حرارة إلى أن يتساوى الجسمان في الحرارة.

وهكذا نعرف أنّ الإمكان المنطقي أوسع دائرة من الإمكان العلمي، وهذا أوسع دائرة من الإمكان العملي.

ولا شكّ في أنّ إمتداد عمر الإنسان آلاف السنين ممكن منطقياً، لأن ذلك ليس مستحيلاً من وجهة نظر عقلية تجريدية، ولا يوجد في افتراض من هذا القبيل أي تناقض، لأن الحياة كمفهوم لا تستبطن الموت السريع ولا نقاش في ذلك. كما لا شك أيضاً ولا نقاش في أنّ هذا العمر الطويل ليس ممكناً إمكاناً عملياً على نحو الإمكانات العملية للنزول إلى قاع البحر أو الصعود إلى القمر، ذلك لأن العلم بوسائله وأدواته الحاضرة فعلاً، والمتاحة من خلال التجربة البشرية المعاصرة، لا تستطيع أن تمدد عمر الإنسان مئات السنين، ولهذا نجد أنّ أكثر الناس حرصاً على الحياة وقدرة على تسخير إمكانات العلم، لا يتاح لها من العمر إلا بقدر ما هو مألوف.

وأما الإمكان العلمي فلا يوجد علمياً اليوم ما يبرر رفض ذلك من الناحية النظرية. وهذا بحث يتصل في الحقيقة بنوعية التفسير الفسلجي لظاهرة الشيخوخة والهرم لدى الإنسان، فهل تعبّر هذه الظاهرة عن قانون طبيعي يفرض على أنسجة جسم الإنسان وخلاياه بعد أن تبلغ قمة نموها أن تتصلب بالتدريج وتصبح أقل كفاءة للإستمرار في العمل، إلى أن تتعطل في لحظة

معيّنة، حتى لو عزلناها عن تأثير أي عامل خارجي، أو أنّ هذا التصلب وهذا التناقص في كفاءة الأنسجة والخلايا الجسمية للقيام بأدوارها الفسيولوجية نتيجة صراع مع عوامل خارجية كالميكروبات أو التسمم الذي يتسرب إلى الجسم من خلال ما يتناوله من غذاء مكثف، أو ما يقوم به من عمل مكثف أو أي عامل آخر؟ وهذا سؤال يطرحه العلم اليوم على نفسه، وهو جاد في الإجابة عليه، ولا يزال للسؤال أكثر من جواب على الصعيد العلمي.

فإذا أخذنا بوجهة النظر العلمية التي تتجه إلى تفسير الشيخوخة والضعف الهرمي ـ بوصفه نتيجة صراع واحتكاك مع مؤثرات خارجية معيّنة ـ فهذا يعني أنّ بالإمكان نظرياً، إذا عزلت الأنسجة التي يتكون منها جسم الإنسان عن تلك المؤثرات المعيّنة أن تمتد بها الحياة وتتجاوز ظاهرة الشيخوخة وتتغلّب عليها نهائياً. وإذا أخذنا بوجهة النظر الأخرى التي تميل إلى افتراض الشيخوخة قانوناً طبيعياً للخلايا والأنسجة الحية نفسها بمعنى أنها تحمل في أحشائها بذرة فنائها المحتوم، مروراً بمرحلة الهرم والشيخوخة وانتهاءً بالموت.

أقول: إذا أخذنا بوجهة النظر هذه فليس معنى هذا عدم افتراض أي مرونة في هذا القانون الطبيعي، بل هو على افتراض وجوده قانون مرن، لأننا نجد في حياتنا الإعتيادية ولأن العلماء يشاهدون في مختبراتهم العلمية أنّ الشيخوخة كظاهرة فسيولوجية لا زمنية، قد تأتي مبكرة وقد تتأخر ولا تظهر إلا في فترة متأخرة، حتى أنّ الرجل قد يكون طاعناً في السن ولكنه يملك

أعضاء لينة ولا تبدو عليه أعراض الشيخوخة كما نص على ذلك الأطباء.

بل أنّ العلماء استطاعوا عملياً أن يستفيدوا من مرونة ذلك القانون الطبيعي المفترض، فأطالوا عمر بعض الحيوانات مئات المرات بالنسبة على أعمارها الطبيعية، وذلك بخلق ظروف وعوامل تؤجل فاعلية قانون الشيخوخة.

وبهذا يثبت علمياً أن تأجيل هذا القانون بخلق ظروف وعوامل معيّنة أمر ممكن علمياً، ولئن لم يتح للعلم أن يمارس فعلاً هذا التأجيل بالنسبة إلى كائنٍ معقد معيّن كالإنسان فليس ذلك إلا لفارق درجة بين صعوبة هذه الممارسة بالنسبة إلى الإنسان وصعوبتها بالنسبة إلى أحياء أخرى. وهذا يعني أنّ العلم من الناحية النظرية وبقدر ما تشير إليه إتجاهاته المتحركة لا يوجد فيه أبداً ما يرفض إمكانية إطالة عمر الإنسان، سواءً فسرنا الشيخوخة بوصفها نتاج صراع واحتكاك مع مؤثرات خارجية أو نتاج قانون طبيعي للخلية الحية نفسها يسير بها نحو الفناء.

ويتلخص من ذلك: إنّ طول عمر الإنسان وبقاءه قروناً متعددة أمر ممكن منطقياً وممكن علمياً ولكنه لا يزال غير ممكن عملياً، إلا أنّ اتجاه العلم سائر في طريق تحقيق هذا الإمكان عبر طريق طويل.

وعلى هذا الضوء نتناول عمر المهدي (عليه الصلاة والسلام) وما أحيط به من استفهام أو استغراب.

ونلاحظ: إنّه بعد أن ثبت إمكان هذا العمر الطويل منطقياً وعلمياً، وثبت أنّ العلم سائر في طريق تحويل الإمكان النظري إلى إمكان عملي تدريجياً، لا يبقى للإستغراب محتوىً إلا استبعاد أن يسبق المهدي العلم نفسه، فيتحول الإمكان النظري إلى إمكان عملي في شخصه قبل أن يصل العلم في تطوره إلى مستوى القدرة الفعلية على هذا التحويل، فهو نظير من يسبق العلم في اكتشاف دواء ذات السحايا أو دواء السرطان.

وإذا كانت المسألة هي أنه كيف سبق الإسلام ـ الذي صمم عمر هذا القائد المنتظر ـ حركة العلم في مجال هذا التحويل؟ فالجواب: أنه ليس ذلك هو المجال الوحيد الذي سبق فيه الإسلام حركة العلم. أو ليست الشريعة الإسلامية ككل، قد سبقت حركة العلم والتطور الطبيعي للفكر الإنساني قروناً عديدة؟ أو لَمْ تنادِ بشعارات طرحت خططاً للتطبيق لم ينضج الإنسان للتوصل إليها في حركته المستقلة إلا بعد مئات السنين؟ أو لَمْ تأت بتشريعات في غاية الحكمة لم يستطع الإنسان أن يدرك أسرارها ووجه الحكمة فيها إلا قبل برهة وجيزة من الزمن؟ أو لَمْ تكشف رسالة السماء أسراراً من الكون لم تكن تخطر على بال إنسان، ثمّ جاء العلم ليثبتها ويدعمها؟ ! فإذا كنا نؤمن بهذا كله فلماذا نستكثر على مرسل هذه الرسالة (سبحانه وتعالى) أن يسبق العلم في تصميم عمر المهدي؟ وأنا هنا لم أتكلم إلا عن مظاهر السبق التي نستطيع أن نحسها نحن بصورة مباشرة، ويمكن أن نضيف إلى ذلك مظاهر

السبق التي تحدثنا بها رسالة السماء نفسها.

ومثال ذلك: أنها تخبرنا بأن النبي صلى الله عليه وآله قد أُسري به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى(١)، وهذا الإسراء إذا أردنا أن نفهمه في إطار القوانين الطبيعية فهو يعبّر عن الاستفادة من القوانين الطبيعية بشكل لم يتح للعلم أن يحققه إلا بعد مئات السنين، فنفس الخبرة الربانية التي أتاحت للرسول صلى الله عليه وآله التحرك السريع قبل أن يتاح للعلم تحقيق ذلك، أتاحت لآخر خلفائه المنصوصين(٢) العمر المديد قبل أن يتاح للعلم تحقيق ذلك. نعم، هذا العمر المديد الذي منحه الله تعالى للمنقذ المنتظر يبدو غريباً في حدود المألوف حتى اليوم في حياة الناس وفي ما أُنجز فعلاً من تجارب العلماء. ولكن أو لَيْسَ الدور التغييري الحاسم الذي أعد له هذا المنقذ غريباً في حدود المألوف في حياة الناس. وما مرت بهم تطورات التاريخ؟ أو ليس قد أُنيط به تغيير العالم، وإعادة بنائه الحضاري من جديد على أساس الحق والعدل؟

فلماذا نستغرب إذا اتسم التحضير لهذا الدور الكبير ببعض الظواهر

---

(١) ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. الإسراء: ١.

(٢) المنصوصون أي الّذين نص عليهم النبي صلى الله عليه وآله، وهم أمير المؤمنين عليه السلام والأئمة ومن ولده عليهم السلام وآخرهم الإمام المهدي المنتظر عليه السلام.

الغريبة والخارجة عن المألوف كطول عمر المنقذ المنتظر؟ فإن غرابة هذه الظواهر وخروجها عن المألوف مهما كان شديداً، لا يفوق بحال غرابة نفس الدور العظيم الذي يجب على اليوم الموعود إنجازه.

فإذا كنا نستسيغ ذلك الدور الفريد تاريخياً على الرغم من أنه لا يوجد دور مناظر له في تاريخ الإنسان، فلماذا لا نستسيغ ذلك العمر المديد لا نجد عمراً مناظراً له في حياتنا المألوفة ؟

ولا أدري هل هي صدفة أن يقوم شخصان فقط بتفريغ الحضارة الإنسانية من محتواها الفاسد وبنائها من جديد، فيكون لكل منهما عمر مديد يزيد على أعمارنا الاعتيادية أضعافاً مضاعفة؟ أحدهما مارس دوره في ماضي البشرية وهو نوح الذي نص القرآن الكريم على أنه مكث في قومه ألف عام إلا خمسين سنة [١]، وقدر له من خلال الطوفان أن يبني العالم من جديد. والآخر يمارس دوره في مستقبل البشرية وهو المهدي الذي مكث في قومه حتى الآن أكثر من ألف عام وسيقدر له في اليوم الموعود أن يبني العالم من جديد.

فلماذا نقبل نوح الذي ناهز ألف عام على أقل تقدير ولا نقبل المهدي؟

---

(١) ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾. العنكبوت: ١٤.

المعجزة والعمر الطويل

وقد عرفنا حتى الآن أن العمر الطويل ممكن علمياً، ولكن لنفترض أنه غير ممكن علمياً، وأن قانون الشيخوخة والهرم قانون صارم، لا يمكن للبشرية اليوم ولا على خطها الطويل أن تتغلّب عليه، وتغير من ظروفه وشروطه فماذا يعني ذلك؟ إنّه يعني أنّ إطالة عمر الإنسان ـ كنوح أو كالمهدي ـ قروناً متعددة، هي على خلاف القوانين الطبيعية التي أثبتها العلم بوسائل بالتجربة والإستقراء الحديثة، وبذلك تصبح هذه الحالة معجزة عطلت قانوناً طبيعياً في حالة معيّنة للحفاظ على حياة الشخص الذي أُنيط به الحفاظ على رسالة السماء، وليست هذه المعجزة فريدة من نوعها، أو غريبة على عقيدة المسلم المستمدة من نص القرآن والسنة، فليس قانون الشيخوخة والهرم أشد صرامة من قانون إنتقال الحرارة من الجسم الأكثر حرارة إلى الجسم الأقل حرارة حتى يتساويان، وقد عطل هذا القانون لحماية حياة إبراهيم عليه السلام حين كان الأسلوب الوحيد للحفاظ عليه تعطيل ذلك القانون فقيل للنار حين أُلقي فيها إبراهيم ﴿قُلْنَا يَا نارُ كوني بَرْداً وَسَلاماً على إبراهيم﴾[١].

فخرج منها كما دخل سليماً لم يصبه أذى، إلى كثير من القوانين الطبيعية

(١) الأنبياء: ٦٩.

الـتي عطلت لحماية أشخاص من الأنبياء وحجج الله على الأرض ففلق البحر لموسى[١].

وشـبّه للـيهود أنهـم قبضـوا عـلى عيسـى ولم يكونـوا قد قبضوا عليه[٢]، وخـرج النبي محمد صلى الله عليه وآله من داره وهي محفوفة بحشود قريش التي ظلت ساعات تتربـص به لتهجم عليه، فستره الله تعالى عن عيونهم وهو يمشي بينهم[٣] كل

---

(١) الآيـات المـباركة : ﴿ فَلَمَّـا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾. ٦١ ﴿قَالَ كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ ٦٢ ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَـانفَلَقَ فَكَـانَ كُـلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾. ٦٣ ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ ﴾ ٦٤ ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَـى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ ٦٥. ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾. ٦٦ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ٦٧. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ٦٨.

(٢) ﴿وَقَوْلِهِـمْ إِنَّـا قَتَلْـنَا الْمَسِـيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾. النساء: لآية: ١٥٧.

(٣) الـنص الـتاريخي: وخـرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ حفنةً من تراب وأخذ الله على أبصارهم عنه فلا يرونه فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيـات من ﴿ يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ - إلى قوله - ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾ حـتى فـرغ رسـول الله صـلى الله عليه وسلم من هؤلاء الآيات فلم يبق منهم رجل إلا وضـع على رأسه ترابا ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب فأتاهم آت ممن لم يكن

هذه الحالات تمثل قوانين طبيعية عطلت لحماية شخص، كانت الحكمة الربانية تقتضي الحفاظ على حياته، فليكن قانون الشيخوخة والهرم من تلك القوانين.

وقد يمكن أن نخرج من ذلك بمفهوم عام وهو أنه كلما توقف الحفاظ على حياة حجة الله في الأرض على تعطيل قانون طبيعي وكانت إدامة حياة ذلك الشخص ضرورية لإنجاز مهمته التي أُعِدَّ لها، تدخلت العناية الربانية في تعطيل ذلك القانون لإنجاز ذلك، وعلى العكس إذا كان الشخص قد انتهت مهمته التي أُعِدَّ لها ربانياً فإنه سيلقى حتفه ويموت أو يستشهد وفقاً لما تقرره القوانين الطبيعية.

معهم فقال: ما تنتظرون ههنا قالوا: محمد قال خيبكم الله قد والله خرج عليكم محمد ثم ما ترك منكم رجلا إلا وقد وضع على رأسه ترابا وانطلق لحاجته أفما ترون ما بكم قال: فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب ثم جعلوا يطلعون فيرون علياً على الفراش متسجيا ببرد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائم عليه برده فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا فقام علي عن الفراش فقالوا: والله لقد صدقنا الذي حدثنا فكان مما نزل من القرآن في ذلك اليوم وما كانوا أجمعوا له ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.

تاريخ الطبري: ٢ /١٠٠، ودلائل الإمامة، محمد بن جرير الطبري: ٢٢١.

ونواجه عادة بمناسبة هذا المفهوم العام السؤال التالي: كيف يمكن أن يتعطل القانون، وكيف تنفصم العلاقة الضرورية التي تقوم بين الظواهر الطبيعية؟ وهل هذه إلا مناقضة للعلم الذي اكتشف ذلك القانون الطبيعي، وحدّد هذه العلاقة الضرورية على أسس تجريبية واستقرائية ؟ والجواب: إنّ العلم نفسه قد أجاب على هذا السؤال بالتنازل عن فكرة الضرورة في القانون الطبيعي وتوضيح ذلك: إنّ القوانين الطبيعية يكتشفها العلم على أساس التجربة والملاحظة المنتظمة، فحين يطرد وقوع ظاهرة طبيعية عُقيب ظاهرة أخرى يستدل بهذا الاطراد على قانون طبيعي، وهو أنه كلما وجدت الظاهرة الأولى وجدت الظاهرة الثانية عُقيبها، غير أنّ العلم لا يفترض في هذا القانون الطبيعي علاقة ضرورية تبين الظاهرتين نابعة من صميم هذه الظاهرة وذاتها، وصميم تلك وذاتها لأن الضرورة حالة غيبية لا يمكن للتجربة ووسائل البحث الاستقرائي والعلمي إثباتها، ولهذا فإن منطق العلم الحديث يؤكد أنّ القانون الطبيعي ـ كما يعرفه العلم ـ لا يتحدث عن علاقة ضرورية بل عن اقتران مستمر بين ظاهرتين، فإذا جاءت المعجزة وفصلت إحدى الظاهرتين عن الأخرى في قانون طبيعي لم يكن ذلك فصماً لعلاقة ضرورية بين الظاهرتين.

والحقيقة أنّ المعجزة بمفهومها الديني، قد أصبحت في ضوء المنطق العلمي الحديث مفهومة بدرجة أكبر مما كانت عليه في ظل وجهة النظر الكلاسيكية

علـى علاقـات السـببية، تفـترض أنّ كـل ظاهـرتين تقـترن أحدهما بالأخرى إطـراداً، فالعلاقـة بيـنهما علاقة ضرورة، والضرورة تعني أنّ من المستحيل أن تنفصـل إحـدى الظاهـرتين عن الأخرى، ولكن هذه العلاقة تحولت في منطق العـلم الحديـث إلى قـانون الاقـتران أو التـتابع المطـرد بـين الظاهـرتين دون افتراض تلك الضرورة الغيبية.

وبهـذا تصـبح المعجـزة حالـة استثنائية لهذا الاطّراد في الاقتران أو التتابع دون أن تصطدم بضرورة أو تؤدي إلى استحالة.

وأمـا عـلى ضـوء الأسـس المنطقـية للإستقراء فنحن نتفق مع وجهة النظر العلمـية الحديـثة في أنّ الاسـتقراء لا يـبرهن عـلى علاقـة الضـرورة بـين الظاهـرتين، ولكـنّا نرى أنه يدل على وجود تفسير مشترك لاطّراد التقارن أو التعاقـب بـين الظاهرتين باستمرار، وهذا التفسير المشترك كما يمكن صياغته عـلى أسـاس افـتراض الضـرورة الذاتـية، كذلـك يمكن صياغته على أساس افـتراض حكمـة دعـت مـنظم الكـون إلى ربـط ظواهـر معيّنة بظواهر أخرى باستمرار وهذه الحكمة نفسها تدعو أحياناً على الاستثناء فتحدث المعجزة[١]

---

(١) توضيح : لنفرض أن هذا الاقتران بين (أ) و (ب) تكرر في حالات كثيرة جدا، فسوف نجـد أن هـذا الـتكرار يجعلـنا نفـترض رابطة بين (أ) و (ب)، ونتجه إلى أن نستدل من ظهـور إحداهمـا على وجود الأخرى. وهذا يعني أن تعدد الأمثلة والتكرار، هو الذي ﴿

لماذا كل هذا الحرص على إطالة عمره ؟

ونتناول الآن السؤال الثاني وهو يقول: لماذا كل هذا الحرص من الله

يمدنا بالينبوع القادر على منحنا فكرة الضرورة، فكيف يكون ذلك؟. إن هيوم يوضح بهذا الصدد: أن التكرار وتعدد الأمثلة نفسه، لا يمكن أن يكون هو المولد لفكرة الضرورة، لأن تعدد الأمثلة لا يعني بالنسبة إلينا إلا تعدد الانطباعات. لأن كل مثال يولد انطباعا خاصا وكل واحد من تلك الانطباعات لا يمكن أن يكون هو المولد لفكرة الضرورة؛ لأن الضرورة ليست شيئا محسوسا لكي تدخل في نطاق الانطباع الحسي. كما لا يمكن أيضا أن يكون تعدد الانطباعات المتماثلة وتكرارها سببا لإيجاد فكرة الضرورة، لأن الفكرة لا تنشأ إلا عن انطباع، وتعدد الانطباعات ليس انطباعا، فلا يمكن أن يؤدي إلى تنمية مضمون تلك الانطباعات. ويستنتج هيوم من ذلك التفسير الذي تبناه، وهو: إنّا حين نشاهد (أ) و (ب) مقترنتين مرات كثيرة نحصل على انطباع من الإحساس بكل مرة من تلك المرات. وهذه الانطباعات التي تساوي عدد المرات ليس في أي واحد منها القدرة على إيجاد فكرة الضرورة. ولكنا نحصل إلى جانب تلك الانطباعات على انطباع يثيره في الذهن نفس تكرار الأمثلة التي اقترنت فيها (أ) مع (ب) وهذا الانطباع، هو عبارة عن تهيؤ الذهن واستعداده لكي ينتقل من موضوع إلى فكرة ما يصاحبه عادة. وهذا الانطباع هو الذي يولد فينا فكرة الضرورة، أي فكرة العلة والمعلول. هذه هي طبيعة الضرورة التي تمثلها فكرة العلة والمعلول. هي شيء قائم في الذهن لا في الأشياء. انظر: الأسس المنطقية للاستقراء، محمد باقر الصدر، دار الفكر، بيروت – لبنان، ١٩٧٢.

سبحانه وتعالى على هذا الإنسان بالذات، فتعطل من أجله القوانين الطبيعية لإطالة عمره؟ ولماذا لا تترك قيادة اليوم الموعود لشخص يتمخض عنه المستقبل، وتنضجه إرهاصات اليوم الموعود فيبرز على الساحة ويمارس دوره المنتظر؟

وبكلمة أخرى: ما هي فائدة هذه الغيبة الطويلة وما المبرر لها ؟

وكثير من الناس يسألون هذا السؤال وهم لا يريدون أن يسمعوا جواباً غيبياً، فنحن نؤمن بأنّ الأئمة الاثني عشر مجموعة فريدة لا يمكن التعويض عن أي واحد منهم، غير أنّ هؤلاء المتسائلين يطالبون بتفسير اجتماعي للموقف، على ضوء الحقائق المحسوسة لعملية التغيير الكبرى نفسها والمتطلبات المفهومة لليوم الموعود.

وعلى هذا الأساس نقتطع النظر مؤقتاً عن الخصائص التي نؤمن بتوفّرها، في هؤلاء الأئمة المعصومين ونطرح السؤال التالي:

إننا بالنسبة إلى عملية التغيير المرتقبة في اليوم الموعود، بقدر ما تكون مفهومة على ضوء سنن الحياة وتجاربها، هل يمكن أن نعتبر هذا العمر الطويل لقائدها المدّخر، عاملاً من عوامل إنجاحها وتمكنه من ممارستها وقيادتها بدرجة أكبر.

ونجيب على ذلك بالإيجاب، وذلك لعدة أسباب منها ما يلي:

إنّ عملية التغيير الكبرى تتطلب وضعاً نفسياً فريداً في القائد الممارس لها

مشحوناً، بالشعور، بالتفوق والإحساس، بضآلة الكيانات الشامخة، التي أُعِدَّ للقضاء عليها ولتحويلها حضارياً إلى عالم جديد، فبقدر ما يعمّر قلب القائد المغير من شعور بتفاهة الحضارة التي يصارعها وإحساس واضح بأنها مجرد نقطة على الخط الطويل لحضارة الإنسان، يصبح أكثر قدرة من الناحية النفسية على مواجهتها والصمود في وجهها ومواصلة العمل ضدها حتى النصر، ومن الواضح أنّ الحجم المطلوب من هذا الشعور النفسي يتناسب مع حجم التغيير نفسه، وما يراد القضاء عليه من حضارة وكيان، فكلما كانت المواجهة لكيان أكبر ولحضارة أرسخ وأشمخ تطلبت زخماً أكبر من هذا الشعور النفسي المفعم. ولما كانت رسالة اليوم الموعود تغيير عالم مليء بالظلم، بالجور، تغييراً شاملاً بكل قيمه الحضارية وكياناته المتنوعة.

فمن الطبيعي أن تفتش هذه الرسالة عن شخص أكبر في شعوره النفسي من ذلك العالم كله، عن شخص ليس من مواليد ذلك العالم الّذين نشأوا في ظل تلك الحضارة التي يراد تقويضها واستبدالها بحضارة العدل والحق، لأن من ينشأ في ظل حضارة راسخة، تعمر الدنيا بسلطانها وقيمها وأفكارها، يعيش في نفسه الشعور بالهيبة تجاهها لأنه ولد وهي قائمة، ونشأ صغيراً وهي جبارة، وفتح عينيه على الدنيا فلم يجد سوى أوجهها المختلفة، وخلافاً لذلك شخص يتوغل في التاريخ عاش الدنيا قبل أن تر تلك الحضارة النور، ورأى الحضارات الكبيرة سادت العالم الواحدة تلوا الأخرى ثمّ تداعت وانهارت، رأى ذلك

بعينيه ولم يقرأه في كتاب تاريخ، ثمّ رأى الحضارة التي يقدر أن تكوّن الفصل الأخير من قصة الإنسان قبل اليوم الموعود، رآها وهي بذور صغيرة لا تكاد تتبين، ثمّ شاهدها وقد اتخذت مواقعها في أحشاء المجتمع البشري تتربص الفرصة لكي تنمو وتظهر، ثمّ عاصرها وقد بدأت تنمو وتزحف وتصاب بالنكسة تارة ويحالفها التوفيق تارة أخرى، ثمّ واكبها وهي تزدهر وتتعملق وتسيطر بالتدريج على مقدَّرات عالم بكامله، فإن شخصاً من هذا القبيل عاش كل هذه المراحل بفطنة وانتباه كاملين ينظر إلى هذا العملاق ـ الذي يريد أن يصارعه ـ من زاوية ذلك الامتداد التاريخي الطويل الذي عاشه بحسه لا في بطون كتب التاريخ فحسب، ينظر إليه لا بوصفه قدراً محتوماً، ولا كما كان ينظر " جان جاك روسو "[١] إلى الملكية في فرنسا، فقد جاء عنه أنه كان يرعبه مجرد أن يتصور فرنسا بدون ملك، على الرغم من كونه من الدعاة الكبار فكرياً وفلسفياً إلى تطوير الوضع السياسي القائم وقتئذٍ، لأن ((روسو)) هذا نشأ في ظل الملَكية وتنفس هواءها طيلة حياته، وأما هذا الشخص

---

(١) روسو: ((١٧١٢ــ ١٧٧٨)) كاتب وفيلسوف فرنسي، وليس من ريب في أن مقالاته ورواياته قد مهدت السبيل لاندلاع الثورة الفرنسية، ، عرف بتمجيده للطبيعة، وللطبيعة البشرية، أشهر آثاره، ((في العقد الاجتماعي)) ، و ((أميل)).

موسوعة المورد، منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى١٩٨٣: ٨/ ١٦٩ــ ١٧٠.

المتوغل في التاريخ، فله هيبة التاريخ وقوة التاريخ والشعور المفعم بأن ما حوله من كيان وحضارة، وليد يوم من أيام التاريخ تهيأت له الأسباب فوجد وستتهيأ الأسباب فيزول، فلا يبقى منه شيء كما لم يكن يوجد منه شيء بالأمس القريب أو البعيد، وإن الأعمار التاريخية للحضارات والكيانات مهما طالت فهي ليست إلا أياماً قصيرة في عمر التاريخ الطويل. هل قرأت سورة الكهف ؟ [١] وهل قرأت عن أولئك الفتية الّذين آمنوا بربهم وزادهم الله هدى ؟ وواجهوا كياناً وثنياً حاكماً، لا يرحم ولا يتردد في خنق أي بذرة من بذور التوحيد والارتفاع عن وحدة الشرك، فضاقت نفوسهم ودب إليها اليأس وسدّت منافذ الأمل أمام أعينهم، ولجأوا إلى الكهف يطلبون من الله حلاً لمشكلتهم بعد أن أعيتهم الحلول وكبر في نفوسهم أن يظل الباطل يحكم، ويظلم ويقهر الحق ويصغي كل من يخفق قلبه للحق، هل تعلم ماذا صنع الله تعالى بهم؟ إنّه أنامهم ثلاثمائة سنة وتسع سنين في ذلك الكهف، ثمّ بعثهم من نومهم ودفع بهم إلى مسرح الحياة [٢]، بعد أن كان ذلك الكيان الذي

---

(١) ﴿نحنُ نَقصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً﴾. الكهف: ١٣.

(٢) ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً﴾. الكهف: ١٧. ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً﴾. الكهف: ٢٥.

بهرهم بقوته وظلمه، قد تداعى وسقط وأصبح تاريخاً لا يرعب أحداً ولا يحرك ساكناً، كل ذلك لكي يشهد هؤلاء الفتية مصرع ذلك الباطل الذي كبر عليهم امتداده وقوته واستمراره، ويروا إنتهاء أمره بأعينهم ويتصاغر الباطل في نفوسهم، ولئن تحققت لأصحاب الكهف هذه الرؤية الواضحة بكل ما تحمل من زخم وشموخ نفسيين من خلال ذلك الحدث الفريد الذي مدد حياتهم ثلاثمائة سنة [(١)]، فإن الشيء نفسه يتحقق للقائد المنتظر من خلال عمره المديد الذي يتيح له أن يشهد العملاق وهو قزم والشجرة الباسقة وهي بذرة، الإعصار وهو مجرد نسمة.

أضف إلى ذلك: إنّ التجربة التي تتيحها مواكبة تلك الحضارات المتعاقبة والمواجهة المباشرة لحركتها وتطوراتها لها أثر كبير في الإعداد الفكري وتعميق الخبرة القيادية لليوم الموعود، لأنها تضع الشخص المدّخر أمام ممارسات كثيرة للآخرين بكل ما فيها من نقاط الضعف والقوة ومن ألوان الخطأ والصواب وتعطي لهذا الشخص قدرة أكبر على تقييم الظواهر الاجتماعية بالوعي الكامل على أسبابها، وكل ملابساتها التاريخية.

---

(١) ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أو بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً﴾. الكهف: ١٩.

ثـمّ إنّ عملـية التغيير المدّخرة للقائد المنتظر تقوم على أساس رسالة معيّنة هي رسالة الإسلام، ومن الطبيعي أن تتطلب العملية في هذه الحالة قائداً قريباً مـن مصـادر الإسـلام الأولى، قـد بنيـت شخصـيته بناءً كاملاً بصورة مستقلة ومنفصـلة عـن مؤثـرات الحضـارة التي يقدر لليوم الموعود أن يحاربها، وخلافاً لذلـك الشـخص الـذي يولـد وينشـأ في كـنف هـذه الحضارة وتتفتح أفكاره ومشـاعره في إطارهـا، فإنـه لا يـتخلّص غالـباً مـن رواسـب تلـك الحضـارة ومرتكـزاتها، وإن قـاد حملـة تغـييرية ضـدها، فلكـي يضمن عدم تأثر القائد المدّخـر بالحضـارة الـتي أعـد لاستبدالها لابدّ أن تكون شخصيته قد بنيت بناءً كـاملاً في مـرحلة حضـارية سـابقة هـي أقرب ما تكون في الروح العامة، ومن ناحية المبدأ إلى الحالة الحضارية التي يتجه اليوم الموعود إلى تحقيقها بقيادته.

كيف اكتمل إعداد القائد المنتظر؟

ونـأتي الآن على السؤال الثالث القائل: كيف اكتمل إعداد القائد المنتظر مـع أنـه لم يعاصـر أبـاه الإمـام العسـكري إلا خمـس سنوات تقريباً وهي فترة الطفولـة الـتي لا تكفي لإنضاج شخصية القائد فما هي الظروف التي تكامل من خلالها؟

والجواب: إنّ المهدي عليه السلام خلَّف أباه في إمامة المسلمين، وهذا يعني أنه كان إماماً بكل ما في الإمامة من محتوى فكري وروحي في وقت مبكر جداً من حياته الشريفة.

والإمامـة المـبكرة ظاهـرة سـبقه إليها عدد من آبائه عليهم السلام، فالإمام محمد بن علـي الجـواد عليه السلام[1] تـولى الإمامـة وهو في الثامنة من عمره والإمام علي بن محمـد الهـادي تـولى الإمامة وهو في التاسعة من عمره والإمام أبو محمد الحسن العسكري والد القائد المنتظر تولى الإمامة وهو في الثانية والعشرين من عمره[2].

---

(١) ولد الإمام الجواد سنة (١٩٥هـ) وكانت شهادته سنة (٢٢٠هـ)، وقد تولى مهام الإمامة عـام ٢٠٢هـ. أما الإمام الهادي عليه السلام، فكانت ولادته (٢١٤هـ، وشهادته عام ٢٥٤هـ). أصول الكافي، الشيخ الكليني رضي الله عنه : ١/٤٦٩، ٤٩٦.

(٢) كانـت ولادة الإمام الحسن العسكري عليه السلام عام (٢٣٢هـ)، وأما شهادته فكانت في أيام المعتمد العباسي عام (٢٦٠هـ). أصول الكافي : ١/٥٠٣.

ويلاحـظ أنّ ظاهرة الإمامة المبكرة بلغت ذروتها في الإمام المهدي عليه السلام[١]، والإمام الجواد عليه السلام ونحن نسميها ظاهرة لأنها كانت بالنسبة إلى عدد من آباء المهـدي عليه السلام تشـكل مدلولاً حسياً عملياً، عاشه المسلمون ووعوه في تجربتهم مـع الإمـام بشـكل وآخـر، ولا يمكـن أن نطالب بإثبات لظاهرة من الظواهر أوضح وأقوى من تجربة أُمة.

ونوضح ذلك ضمن النقاط التالية:

أ ـ لم تكـن إمامـة الإمام من أهل البيت مركزاً من مراكز السلطان والنفوذ الـتي تنتقل بالوراثة من الأب إلى الابن ويدعمها النظام الحاكم كإمامة الخلفاء الفاطمـيين، وخلافـة الخلفـاء العباسـيين، وإنمـا كانـت تكتسب ولاء قواعدها الشـعبية والواسـعة عـن طريق التغلغل الروحي والإقناع الفكري لتلك القواعد بجدارة هذه الإمامة لزعامة الإسلام وقيادته على أسس روحية وفكرية.

ب ـ إنّ هـذه القواعـد الشـعبية بنيـت مـنذ صـدر الإسلام[٢]، وازدهرت

---

(١) كانـت ولادة الإمـام المهدي عليه السلام في النصف من شعبان سنة (٢٥٥هـ)، فيكون عمره الشريف حين تولى الإمامة خمس سنين، حيث كانت شهادة والده عليه السلام سنة ٢٦٠هـ.

(٢) إن تـاريخ هـذا البـناء يعـود إلى يوم إعلان الدعوة سنة ثلاث بعد المبعث المبارك، وإن توالـي الأحـداث، والرعاية الخاصة من قبل النبي صلى الله عليه وآله لبعض الصحابة، دون سواهم ـ وهـم الّذيـن والـوا علياً في حياة الرسول صلى الله عليه وآله وبعد رحيله ـ فمثلاً، أن الرسول صلى الله عليه وآله

واتسعت على عهد الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام وأصبحت المدرسة التي رعاها هذان الإمامان، في داخل هذه القواعد تشكل تياراً فكرياً واسعاً في العالم الإسلامي يضم المئات من الفقهاء والمتكلمين والمفسرين والعلماء في مختلف ضروب المعرفة الإسلامية والبشرية المعروفة وقتئذٍ، حتى قال الحسن بن علي الوشاء: إني دخلت مسجد الكوفة فرأيت فيه تسعمائة شيخ كلهم يقولون حدثنا جعفر بن محمد[(١)]

ج ـ إنّ الشروط التي كانت هذه المدرسة وما تمثله من قواعد شعبية في المجتمع الإسلامي، تؤمن بها وتتقيد بموجبها في تعيين الإمام والتعرف على

صلى الله عليه وآله وسلم أخبر حذيفة بالمنافقين الّذين أرادوا أن ينفروا ناقة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يوم العقبة ولم يخبر الخلفاء الثلاثة، ولا أبا عبيدة بن الجراح، وهو أمين أُمة، وإن عمر يسأل حذيفة ليعرف هل هو معهم؟ أم لا.. ، وشواهد أخرى كأخباره عليه السلام لأبي ذر بما سيلاقيه بعده، وعمار بأن أخر رزقه من الدنيا ضياح لبن، كما أخبر عمرو بن الحمق الخزاعي، أنه يشترك في قتله الجن والأنس، وفعلاً فقد لدغته حية، وبعيدها بفترة قليلة طاف جند معاوية برأسه. وما ذكرناه قد أجمع مؤرّخو المسلمين عليه، وأهل التراجم والسير. الإمامة والسياسة، تاريخ اليعقوبي ، تاريخ الطبري، الأخبار الطوال، طبقات ابن سعد، الإصابة، وفيات الأعيان...

تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٢٣٢

(١) رجال النجاشي : ٤٠، رقم [٨٠].

كفاءته للإمامة شروط شديدة، لأنها تؤمن بأن الإمام لا يكون إماماً إلا إذا كان أعلم علماء عصره.

د ـ إنّ المدرسة وقواعدها الشعبية كانت تقدم تضحيات كبيرة في سبيل الصمود على عقيدتها في الإمامة لأنها كانت في نظر الخلافة المعاصرة لها تشكل خطاً عدائياً، ولو من الناحية الفكرية على الأقل، الأمر الذي أدى إلى قيام السلطات وقتئذٍ وباستمرار تقريباً بحملات من التصفية والتعذيب، فقتل من قتل، وسجن من سجن، ومات في ظلمات المعتقلات المئات.

وهذا يعني أنّ الإعتقاد بإمامة أئمة أهل البيت كان يكلفهم غالياً ولم يكن له من الإغراءات سوى ما يحس به المعتقد أو يفترضه من التقرب إلى الله تعالى والزلفى عنده[١]

---

(١) وقد أرخت الزهراء عليها السلام في خطبتها التي سبق أن أشار إليها السيد الشهيد رضي الله عنه فبدأ ذلك بضرب سلمان والمقداد، ومن ثمّ النفي الذي بدأه عثمان بن عفان بأبي ذر وتسيير مالك الأشتر، وعمرو بن الحمق، وكميل بن زياد، وإغارات جند معاوية على أطراف العراق، وإنقاصه لأعطياتهم، وما فعله ولاته، زياد وغيره بشيعة علي، إلى حين مقتل حجر الخير رضي الله عنه عام (٥١هـ)، وتتابع السلاطين ذلك وتوارثوه إلى يومنا هذا الذي نشهده وتشهدونه. وإن استشهاد السيد الصدر رضي الله عنه عام ١٩٨٠ شاهد آخر في هذا العصر وليس الأخير.

هـــ ـ إنّ الأئمـة الـذي دانت هذه القواعد لهم بالإمامة لم يكونوا معزولين عـنها ولا مـتقوقعين في بـروج عالـية شأن السلاطين مع شعوبهم، ولم يكونوا يحتجـبون عنهم إلا أن تحجبهم السلطة الحاكمة بسجن أو نفي، وهذا ما نعرفه مـن خـلال العـدد الكبير من الرواة والمحدثين عن كل واحد من الأئمة الأحد عشـر ومن خلال ما نقل من المكاتبات التي كانت تحصل بين الإمام ومعاصريه ومـا كان الإمام يقوم به من أسفار من ناحية، وما كان يبثه من وكلاء في مختلف أنحاء العالم الإسلامي من ناحية أخرى.

ومـا كـان قـد إعـتاده الشـيعة من تفقد أئمتهم وزيارتهم في المدينة المنورة عـندما يؤمـون الديـار المقدسـة مـن كل مكان لأداء فريضة الحج[١]، كل ذلك يفـرض تفـاعلاً مسـتمراً بدرجـة واضحة بين الإمام وقواعده الممتدة في أرجاء العالم الإسلامي بمختلف طبقاتها من العلماء وغيرهم.

و ـ إنّ الخلافـة المعاصـرة للأئمـة عليهم السلام كانـت تنظر إليهم وإلى زعامتهم الروحـية والإمامـية بوصـفها مصـدر خطر كبير على كيانها ومقدراتها، وعلى هـذا الأسـاس بذلـت كـل جهودها في سبيل تفتيت هذه الزعامة وتحملت في

---

(١) الـنص : ((إن الواجـب على الناس بعدما يقضون مناسكهم أن يأتوا الإمام فيسألونه عن معالم دينهم، ويُعلمونه ولايتهم ومودتهم له)).
الكافي، الكليني : ١/ ٣٩٢.

سبيل ذلك كثيراً من السلبيات، وظهرت أحياناً بمظاهر القسوة والطغيان حينما اضطرها تأمين مواقعها إلى ذلك، وكانت حملات الاعتقال والمطاردة مستمرة للأئمة أنفسهم على الرغم مما يخلفه ذلك من شعور بالألم أو الإشمئزاز عند المسلمين وللناس الموالين على اختلاف درجاتهم. إذا أخذنا هذه النقاط الست بعين الاعتبار، وهي حقائق تاريخية لا تقبل الشك، أمكن أن نخرج بنتيجة وهي:

إنّ ظاهرة الإمامة المبكرة كانت ظاهرة واقعية ولم تكن وهماً من الأوهام، لأن الإمام الذي يبرز على المسرح وهو صغير فيعلن عن نفسه إماماً روحياً وفكرياً للمسلمين، ويدين له بالولاء والإمامة كل ذلك التيار الواسع لابدّ أن يكون على قدر واضح وملحوظ، بل وكبير من العلم والمعرفة وسعة الأفق والتمكن من الفقه والتفسير والعقائد، لأنه لو لم يكن كذلك لما أمكن أن تقتنع تلك القواعد الشعبية بإمامته مع ما تقدم من أنّ الأئمة كانوا في مواقع تتيح لقواعدهم التفاعل معهم، وللأضواء المختلفة أن تسلط على حياتهم وموازين شخصيتهم.

فهل ترى أنّ صبياً يدعو إلى إمامة نفسه وينصب منها علماً للإسلام وهو على مرأى ومسمع من جماهير قواعده الشعبية ؛ فتؤمن به وتبذل في سبيل ذلك الغالي من أمنها وحياتها بدون أن تكلف نفسها اكتشاف حاله وبدون أن تهزها ظاهرة هذه الإمامة المبكرة لاستطلاع حقيقة الموقف وتقييم

هذا الصبي الإمام؟ [١]

وهب أنّ الناس لم يتحركوا لاستطلاع الموقف، فهل يمكن أن تمر المسألة أياماً وشهوراً، بل أعواماً دون أن تتكشف الحقيقة على الرغم من التفاعل الطبيعي المستمر بين الصبي الإمام وسائر الناس ؟

وهل من المعقول أن يكون صبياً في فكره وعلمه حقاً ثمّ لا يبدو ذلك من خلال هذا التفاعل الطويل ؟

وإذا افترضنا أنّ القواعد الشعبية لإمامة أهل البيت لم يتح لها أن تكتشف واقع الأمر، فلماذا سكتت الخلافة القائمة ولم تعمل لكشف الحقيقة إذا كانت في صالحها ؟ وما كان أيسر ذلك على السلطة القائمة لو كان الإمام الصبي صبياً في فكره وثقافته كما هو المعهود في الصبيان، وما كان أنجحه من أسلوب أن تقدم هذا الصبي إلى شيعته وغير شيعته على حقيقته وتبرهن على عدم كفاءته للإمامة والزعامة الروحية والفكرية. فلئن كان من الصعب الإقناع بعدم كفاءة شخص في الأربعين أو الخمسين قد أحاط بقدر كبير من ثقافة عصره لتسلّم الإمامة فليس هناك صعوبة في الإقناع بعدم كفاءة صبي اعتيادي مهما كان ذكياً وفطناً للإمامة بمعناها الذي يعرفه الشيعة الإماميون، وكان هذا

---

(١) انظر: موضوع سابق الإمامة المبكرة، ((الإمام الجواد عليه السلام)).

أسهل وأيسر من الطرق المعقدة وأساليب القمع والمجازفة التي انتهجتها السلطات وقتئذٍ. إنّ التفسير الوحيد لسكوت الخلافة المعاصرة، عن اللعب بهذه الورقة هو أنها أدركت أنّ الإمامة المبكرة ظاهرة حقيقية وليست شيئاً مصطنعاً(١)

والحقيقة أنها أدركت ذلك بالفعل بعد أن حاولت أن تلعب بتلك الورقة فلم تستطع، والتاريخ يحدثنا عن محاولات من هذا القبيل (٢)، وفشلها بينما لم

---

(١) إن موقف المأمون من الإمام الجواد عليه السلام، وما أعقب ذلك من مواقف خلفاء بني العباس تجاه الأئمة وإلى ما بعد شهادة الإمام العسكري عليه السلام، يوضح ما يشير إليه السيد الشهيد رضي الله عنه هذه، انظر: الإرشاد، الشيخ المفيد : ج٢، وكشف الغمة. : ج٢، ج٣ حول ما ورد فيها عن تلك المواقف.

(٢) يشير السيد الشهيد رضي الله عنه ، إلى ما قام به المأمون من جمع العلماء والفقهاء تحت تأثير ضغط العباسيين عليه، ليختبروا الإمام ويسألوه مسائل لا قدرة له عليها إلا أن المحاولة باءت بالفشل، النص : قال لهم المأمون: (وأما أبو جعفر محمد بن علي فقد اخترته لتبريزه على كافة أهل الفضل في العلم والفضل مع صغر سنة والأعجوبة فيه بذلك وأنا أرجو أنْ يظهر للناس ما قد عرفته منه: فيعلموا: أنّ الرأي ما رأيت فيه، فقالوا: إنّ هذا الصبي وان راقك منه هديه فانه صبي لا معرفة له ولا فقه فأمهله ليتأدب ويتفقه في الدين ثمّ اصنع ما تراه بعد ذلك، فقال لهم ويحكم إني اعرف بهذا الفتى منكم وان هذا من أهل بيت علمهم من الله ومواده وإلهامه ولم يزل آباؤه ←

﴿أغنياء في علم الدين والأدب عن الرعايا الناقصة عن حد الكمال فان شئتم فامتحنوا أبا جعفر بما يبين لكم ما وصفت من حاله، قالوا له قد رضينا لك يا أمير المؤمنين ولأنفسنا بامتحانه فخل بيننا وبينه لننصب من يسأله بحضرتك عن شيء من فقه الشريعة فان أصاب في الجواب عنه لم يكن لنا اعتراض في أمره وظهر للخاصة والعامة سديد رأي أمير المؤمنين، وان عجز ذلك فقد كفينا الخطب من ذلك في معناه، فقال لهم المأمون شأنكم وذلك متى أردتم فخرجوا من عنده واجمع رأيهم على مسألة يحيى بن أكثم وهو يومئذ قاضي الزمان على أن يسأله مسألة لا يعرف الجواب عنها ووعدوه بأموال نفيسة على ذلك، وعادوا إلى المأمون فسألوه أن يختار لهم يوما للإجماع فأجابهم إلى ذلك واجتمعوا في اليوم الذي اتفقوا عليه وحضر معهم يحيى بن أكثم، أمر المأمون أنْ يفرش لأبي جعفر دست ويجعل له فيه مسورتان ففعل ذلك، وخرج أبو جعفر عليه السلام يومئذ وهو ابن تسع سنين واشهر، فجلس بين المسورتين، وجلس يحيى بن أكثم بين يديه، وقام الناس في مراتبهم، والمأمون جالس في دست متصل بدست أبي جعفر عليه السلام، فقال يحيى بن أكثم للمأمون أتأذن لي يا أمير المؤمنين أن اسأل أبا جعفر، فقال المأمون استأذنه في ذلك فاقبل عليه يحيى بن أكثم فقال تأذن لي جعلت فداك في مسألة، فقال له أبو جعفر عليه السلام سل إن شئت قال يحيى: ما تقول جعلت فداك في محرم قتل صيدا؟ فقال له أبو جعفر عليه السلام قتله في حل أو حرم؟ عالما كان المحرم أم جاهلا ؟ قتله عمدا أو خطأ؟ حرا كان المحرم أم عبدا؟ صغيرا كان أو كبيراً؟ مبتدياً كان بالقتل أو معيدا؟ من ذوات الطير كان الصيد أو من غيرها؟﴾

يحدثنا إطلاقاً عن موقف تزعزعت فيه ظاهرة الإمامة المبكرة أو واجه فيه الصبي الإمام إحراجاً يفوق قدرته أو يزعزع ثقة الناس فيه.

وهذا معنى ما قلناه من أنّ الإمامة المبكرة ظاهرة واقعية في حياة أهل البيت وليس مجرد افتراض، كما أنّ هذه الظاهرة الواقعية لها جذورها وحالاتها المماثلة في تراث السماء الذي امتد عبر الرسالات والزعامات الربانية ويكفي مثالاً لظاهرة الإمامة المبكرة في التراث الرباني لأهل البيت عليهم السلام يحيى عليه السلام إذ قال الله سبحانه وتعالى: (يا يحيى خُذِ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الحكْمَ صَبِيّاً) [1].

ومتى ثبت أنّ الإمامة المبكرة ظاهرة واقعية ومتواجدة فعلاً في حياة أهل البيت لم يعد هناك اعتراض فيما يخص إمامة المهدي عليه السلام وخلافته لأبيه وهو صغير.

من صغار الصيد كان أو من كباره؟ مصراً على ما فعل أو نادماً؟ ليلا كان قتله الصيد أو نهارا محرما كان بالعمرة إذ قتله أو بالحج كان محرما؟ فتحير يحيى بن أكثم وبان في وجهه العجز والانقطاع، ولجلج حتى عرف جماعة أهل المجلس أمره، فقال المأمون: الحمد لله على هذه النعمة والتوفيق لي في هذا الرأي. ثمّ نظر إلى أهل بيته وقال لهم: أعَرِفْتُم الآن ما كنتم تنكرونه).

كشف الغمة، ابن أبي الفتح الإربلي: ٣ / ١٤٦.

(١) مريم: ١٢. هامش في الأصل.

كيف نؤمن بأن المهدي قد وجد ؟

ونصل الآن إلى السؤال الرابع وهو يقول: هب أنّ فرضية القائد المنتظر ممكنة بكل ما تستبطنه من عمر طويل وإمامة مبكرة وغيبة صامتة فإن الإمكان لا يكفي للاقتناع بوجوده فعلاً، فكيف نؤمن فعلاً بوجود المهدي ؟

وهل تكفي بضع روايات تنقل في بطون الكتب عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله للاقتناع الكامل بالإمام الثاني عشر على الرغم مما في هذا الافتراض من غرابة وخروج عن المألوف، بل كيف يمكن أن نثبت أنّ للمهدي وجوداً تاريخياً حقاً وليس مجرد افتراض توفرت ظروف نفسية لتثبيته في نفوس عدد كبير من الناس؟

والجواب: إنّ فكرة المهدي بوصفه القائد المنتظر لتغيير العالم إلى الأفضل قد جاءت في أحاديث الرسول الأعظم عموماً وفي روايات أئمة أهل البيت خصوصاً، وأكدت في نصوص كثيرة بدرجة لا يمكن أن يرقى إليها الشك، وقد أُحصي أربعمائة حديث عن النبي صلى الله عليه وآله من طرق إخواننا أهل السنة [1]

---

(١) يلاحظ كتاب المهدي ـ للسيد (العم) الصدر ـ قدس الله روحه الزكية. هامش في الأصل يشير إلى السيد صدر الدين الصدر رضي الله عنه وقد تتبع في كتابه الموسوم الأخبار والروايات من طرق العامة، والتي تتعلق بقضية الإمام المهدي عليه السلام من جوانبها العديدة. وللكتاب طبعات عديدة، وكانت الطبعة الأولى عام ١٩٧٨، وصدر عن مركز تبليغات الحوزة العلمية في قم طبعة منقحة، سنة ١٤٢١هـ.

كما أحصي مجموع الأخبار الواردة في الإمام المهدي من طرق الشيعة والسنة فكان أكثر من ستة آلاف رواية[١]، وهذا رقم إحصائي كبير لا يتوفر نظيره في كثير من قضايا الإسلام البديهية التي لا يشك فيها مسلم عادة.

وأما تجسيد هذه الفكرة في الإمام الثاني عشر (عليه الصلاة والسلام) فهذا ما توجد مبررات كافية وواضحة للاقتناع به.

ويمكن تلخيص هذه المبررات في دليلين:

أحدهما: إسلامي.

والآخر: علمي.

فبالدليل الإسلامي نثبت وجود القائد المنتظر، وبالدليل العلمي نبرهن على أنّ المهدي ليس مجرد أسطورة وافتراض بل هو حقيقة ثبت وجودها بالتجربة التاريخية. أما الدليل الإسلامي، فيتمثل في مئات الروايات الواردة عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة من أهل البيت عليهم السلام والتي تدل على تعيين

---

(١) يلاحظ كتاب منتخب الأثر في الإمام الثاني عشر للشيخ لطف الله الصافي. هامش في الأصل، والكتاب طبع في إيران عدة طبعات، طبعة مكتبة الصدر، طهران، لا تحمل تاريخاً، كما نشرته مكتبة داوري، أوفست، وبدون تاريخ أيضاً ويقع الكتاب (٥٢٥) صفحة. ويجد القارئ فيه إحصاء حول الروايات التي يشير السيد الشهيد رضي الله عنه إليها.

المهـدي وكونه من أهل البيت[١] ومن ولد فاطمة[٢] ومن ذرية الحسين[٣] وإنه التاسـع مـن ولـد الحسين[٤] وإن الخلفاء إثنا عشر[٥]، فإن هذه الروايات تحدد تلـك الفكـرة العامـة وتشخصـها في الإمام الثاني عشر من أئمة أهل البيت، وهـي روايـات بلغـت درجة كبيرة من الكثرة والانتشار على الرغم من تحفظ

---

(١) النص: قال رسول صلى الله عليه وآله : (المهدي منّا أهل البيت).

الفـتن، نعـيم بـن حمـاد المروزي: ٢٣٢، المصنف، ابن أبي شيبة الكوفي : ٨ / ٦٧٨. وكنز العمال، المتقي الهندي : ٢٦٧/١٤، بتفاوت بالألفاظ.

(٢) نسبة المهدي: روى المروزي قال : حدثنا ابن المبارك وابن ثور وعبد الرزاق، عن معمر عـن قـتادة، قـال عبد الرزاق عن معمر عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، قال: قلت لسـعيد بـن المسيب: المهدي حق هو ؟ قال: حق، قال: قلت: ممن هو ؟ قال: من قريش قلـت: من أي قريش ؟ قال: من بني هاشم قلت: من أي بني هاشم ؟ قال: من بني عبد المطلب قلت: من أي عبد المطلب ؟ قال: من ولد فاطمة.

كـتاب الفـتن، نعـيم بـن حمـاد المـروزي : ٢٢٨. والمعجـم الكبير، الطبراني: ٢٣ / ٢٦٧. والجامع الصغير، جلال الدين السيوطي : ٢ / ٦٧٢، بتفاوت بالألفاظ. وطرق مختلفة.

(٣) الـنص : يخرج رجل من ولد الحسين من قبل المشرق ولو استقبلته الجبال لهدمها واتخذ فيها. كتاب الفتن- نعيم بن حماد المروزي : ٢٢٩.

(٤) كفاية الأثر، الخزاز القمي : ٢٥٠.

(٥) صحيح البخاري محمد بن إسماعيل: ١٢٧/٨، وصحيح مسلم، مسلم النيسابوري: ٦/ ٣

الأئمة عليهم السلام واحتياطهم في طرح ذلك على المستوى العام وقاية للخلف الصالح من الاغتيال أو الإجهاز السريع على حياته. وليست الكثرة العددية للروايات هي الأساس الوحيد لقبولها، بل هناك إضافة إلى ذلك مزايا وقرائن تبرهن على صحتها، فالحديث النبوي الشريف عن الأئمة أو الخلفاء أو الأمراء بعده وإنهم اثني عشر إماماً أو خليفة أو أميراً على اختلاف متن الحديث في طرقه المختلفة. قد أحصى بعض المؤلفين رواياته فبلغت أكثر من مائتين وسبعين رواية مأخوذة من أشهر كتب الحديث عند الشيعة والسنة[١] بما في ذلك البخاري[٢] ومسلم[٣] الترمذي[٤] وأبي داود[٥] ومسند أحمد[٦] ومستدرك الحاكم على الصحيحين[٧].

---

(١) منتخب الأثر، لطف الله الصافي : ١٠ ـ ٩٧، وقد أحصى الروايات التي يشير إليها السيد الشهيد رضي الله عنه ؛ فكانت [٢٧١] رواية، من مصادر الفريقين.

(٢) سبق تخريج ذلك.

(٣) سبق تخريج ذلك.

(٤) سنن الترمذي، محمد بن عيسى : ٣/ ٣٤٠، الحديث : ٢٣٢٣.

(٥) سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني : ٢ / ٣٠٩، الحديث: ٤٢٧٩.

(٦) مسند أحمد، أحمد بن حنبل، متوفي ٢٤١هـ، دار الصادر، بيروت، لبنان: ٥ / ٨٧.

(٧) نص : روى الحاكم بسنده عن مجالد بن سعيد عن الشعبي عن مسروق قال كنا جلوسا ليلة عند عبد الله ـ أي عبد الله بن مسعود ـ يقرئنا القرآن فسأله رجل ☜

ويلاحظ هنا أنّ البخاري الذي نقل هذا الحديث كان معاصراً للإمام الجواد والإمامين الهادي والعسكري وفي ذلك مغزىً كبير، لأنه يبرهن على أنّ هذا الحديث قد سجّل عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قبل أن يتحقق مضمونه وتكتمل فكرة الأئمة الاثني عشر فعلاً، وهذا يعنى أنه لا يوجد أي مجال للشك في أن يكون نقل الحديث متأثراً بالواقع الإمامي الاثني عشري وانعكاساً له، لأن الأحاديث المزيفة التي تنسب على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وهي انعكاسات أو تبريرات لواقع متأخر زمنياً لا تسبق في ظهورها وتسجيلها في كتب الحديث ذلك الواقع الذي تشكل انعكاساً له، فما دمنا قد ملكنا الدليل المادي على أنّ الحديث المذكور سبق التسلسل التاريخي للأئمة الاثني عشر، وضبط في كتب الحديث قبل تكامل الواقع الإمامي الاثني عشري، أمكننا أن نتأكد من أنّ هذا الحديث ليس انعكاساً لواقع وإنما هو تعبير عن حقيقة ربانية نطق بها من لا ينطق عن هوى.

فقال: يا أبا عبد الرحمان هل سألتم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كم يملك هذه الأمة من خليفة؟ فقال عبد الله: ما سألني عن هذا أحد منذ قدمت العراق قبلك. قال: سألناه فقال اثنا عشر عدة نقباء بنى إسرائيل. لا يسعني التسامح في هذا الكتاب عن الرواية عن مجاهد وأقرانه رحمهم الله. المستدرك، محمد بن محمد الحاكم النيسابوري : ٤ / ٥٠١.

فقال : ((إنّ الخلفاء بعدي إثني عشر))(١)

وجـاء الواقـع الإمـامي الاثـني عشري إبتداءً من الإمام علي وإنتهاءً المهدي لـيكون التطبيق الوحيد المعقول لذلك الحديث النبوي الشريف(٢) وأما الدليل

---

(١) إن المصادر التي سبق أن أشرنا إليها هي مَظان هذا الحديث.

(٢) ونـنقل جملة من أقوال علماء المذاهب الأخرى الّذين أعطوا دلالة للحديث على وفق الواقـع التطبـيقي للـتجربة الإسـلامية، ومـثله ملـوك بـني أمية وبني العباس. قال ابن الجوزي في كشف المشكل : هـذا الحديـث قـد أطلتُ البحث عنه، وتطلّبتُ مظانّه، وسـألتُ عنه، فما رأيت أحداً وقع على المقصود به.... وقد نقله بألفاظ مختلفة، وبطرق متعددة.

كشف المشكل : ٤٤٩/١، وذكر ابن حجر هذه العبارة في فتح الباري : ١٨١/١٣. وقال ابن بطال عن المهلب : لم ألقَ أحداً يقطع في هذا الحديث ـ يعني بشيء معين ـ فتح الباري : ١٨٠/١٣.

قـال القاضي عياض : لعل المراد بالاثني عشر في هذه الأحاديث وما شابهها أنهم يكونون في مـدة عـزّة الخلافة وقوة الإسلام واستقامة أموره، والاجتماع على مَن يقوم بالخلافة، وقـد وُجـد فـيمن اجـتمع علـيه الـناس، إلى أن اضطرب أمر بني أمية، ووقعت بينهم الفِتـنة زمن الوليد بن يزيد، فاتصلت بينهم إلى أن قامت الدولة العباسية، فاستأصلوا أمـرهم. فـتح الـباري : ١٣/ ١٨١. قـال ابـن حجر العسقلاني : كلام القاضي عياض أحسـن ما قيل في الحديث وأرجحه، لتأييده بقوله في بعض طرق الحديث الصحيحة ←

العـلمي، فهو يتكون من تجربة عاشتها أمة من الناس فترة امتدت سبعين سنة تقريباً وهي فترة الغيبة الصغرى. ولتوضيح ذلك نمهد بإعطاء فكرة موجزة عن

↩ ((كلّهـم يجـتمع عليه الناس))، وإيضاح ذلك أن المراد بالاجتماع انقيادهم لبيعته، والـذي وقـع أن الناس اجتمعوا على أبي بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي، إلى أن وقع أمـر الحَكَمـين في صفّين، فتسمّى معاوية يومئذ بالخلافة، ثم اجتمع الناس على معاوية عـند صـلح الحسن، ثم اجتمعوا على ولده يزيد، ولم ينتظم للحسين أمر، بل قُتل قبل ذلـك، ثـم لما مات يزيد وقع الاختلاف إلى أن اجتمعوا على عبد الملك بن مروان بعد قـتل ابـن الـزبير، ثـم اجـتمعوا عـلى أولاده الأربعة : الوليد ثم سليمان ثم يزيد ثم هشـام، وتخلـل بـين سـليمان ويـزيد : عمـرُ بن عبد العزيز، فهؤلاء سبعة بعد الخلفاء الراشـدين، والـثاني عشـر هـو الولـيد بن يزيد بن عبد الملك، اجتمع الناس عليه لما مات عمّه هشام، فولي نحو أربع سنين، ثم قاموا عليه فقتلوه، وانتشرت الفتن وتغيرت الأحـوال مـن يومـئذ، ولم يـتفق أن يجتمع الناس على خليفة بعد ذلك... الأحوال من يومئذ، ولم يتفق أن يجتمع الناس على خليفة بعد ذلك....

فـتح الـباري : ١٣ /١٨٢. وهو قول البيهقي أيضاً في دلائل النّبوّة، حيث قال بعد أن ساق بعضـاً مـن الأحاديث السابقة: وقد وُجد هذا العدد بالصفة المذكورة إلى وقت الوليد بـن يـزيد بن عبد الملك، ثم وقع الهرج والفِتنة العظيمة كما أُخبر في هذه الرواية، ثـم ظهـر ملـك العباسية.. ثم قال : والمراد بإقامة الدين ـ والله أعلم ـ إقامة معالمه وإن كان بعضهم يتعاطى بعد ذلك ما لا يحل.

دلائل النّبوّة، البيهقي : ٦ / ٥٢٠ ـ ٥٢١.

الغيبة الصغرى: إنّ الغيبة الصغرى تعبّر عن المرحلة الأولى [١] من إمامة القائد المنتظر (عليه الصلاة والسلام) فقد قدّر لهذا الإمام منذ تسلّمه للإمامة أن يستتر عن المسرح العام ويظل بعيداً باسمه عن الأحداث وإن كان قريباً منها بقلبه وعقله.

وقد لوحظ أنّ هذه الغيبة إذا جاءت مفاجأة حققت صدمة كبيرة للقواعد الشعبية للإمامة في الأمة الإسلامية، لأن هذه القواعد كانت معتادة على الاتصال بالإمام في كل عصر والتفاعل معه والرجوع إليه في حل المشاكل المتنوعة ؛ فإذا غاب الإمام عن شيعته فجأة وشعروا بالانقطاع عن قيادتهم الروحية والفكرية سببت هذه الغيبة المفاجئة؛ الإحساس بفراغ دفعي هائل قد يعصف بالكيان كله ويشتت شمله؛ فكان لابدّ من تمهيد لهذه الغيبة لكي تألفها هذه القواعد بالتدريج وتكيف نفسها شيئاً فشيئاً على أساسها. وكان هذا التمهيد هو الغيبة الصغرى التي اختفى فيها الإمام المهدي عن المسرح العام غير أنه كان دائم الصلة بقواعده وشيعته عن طريق وكلائه ونوابه والثقات من أصحابه الّذين يشكلون همزة الوصل بينه وبين الناس المؤمنين بخطه الإمامي.

---

(١) وتبدأ بشهادة الإمام الحسن العسكري عليه السلام سنة [٢٦٠هـ] وتنتهي بوفاة السفير الرابع علي السمري رضي الله عنه عام (٣٢٩هـ).

❖ النواب الأربعة ❖

قد شغل مركز النيابة عن الإمام في هذه الفترة أربعة ممن أجمعت تلك القواعد على تقواهم وورعهم ونزاهتهم التي عاشوا ضمنها وهم كما يلي:

١ ـ عثمان بن سعيد العمري(١)

٢ ـ محمد بن عثمان بن سعيد العمري(٢)

٣ ـ أبو القاسم الحسين بن روح(٣)

٤ ـ أبو الحسن علي بن محمد السمري(٤)

---

(١) تولى منصب السفارة بعد شهادة الإمام العسكري عليه السلام سنة ٢٦٠هـ، وهو أحد وكلاء الإمام العسكري، ولم تحدد المصادر سنة وفاته، ودفن في بغداد. وكان الإمام العسكري عليه السلام يكثر مدحه والثناء عليه في مناسبات مختلفة أمام مواليه وشيعته فقد قال فيه عليه السلام: ((هذا أبو عمرو الثقة الأمين؛ ثقة الماضي ـ أي الإمام الهادي عليه السلام ـ وثقتي في المحيا والممات؛ فما قاله فعني قوله وما أدى فعني يؤدي)). وقال عليه السلام: ((أمام وفد من اليمن)) : يا عثمان إنك الوكيل والثقة، المأمون على مال الله)).

الغيبة، الشيخ الطوسي: ٢١٥ـ٢١٦.

(٢) كانت وفاته بين عامي (٣٠٢ـ٣٠٥هـ)، ودفن إلى جانب أبيه. ببغداد، وتولى السفارة والنيابة بعد وفاة والده رضي الله عنه.

(٣) تولى السفارة، بعد وفاة السفير الثاني، أما سنة وفاته فكانت ٣٢٠هـ، ودفن ببغداد أيضاً.

(٤) وهو آخر السفراء رضي الله عنه، وكانت مدة سفارته حوالي تسعة أعوام، وتوفي عام ٣٢٩هـ، ودفن ببغداد أيضاً، وبانتهاء نيابته وسفارته تبدأ مرحلة الغيبة الكبرى.

وقد مارس هؤلاء الأربعة مهام النيابة بالترتيب المذكور وكلما مات أحدهم خلفه الآخر الذي يليه بتعيين من الإمام المهدي عليه السلام(١) وكان النائب يتصل بالشيعة ويحمل أسئلتهم إلى الإمام، ويعرض مشاكلهم عليه ويحمل إليهم أجوبته شفهية أحياناً وتحريرية في كثير من الأحيان، وقد وجدت الجماهير التي فقدت رؤية إمامها العزاء والسلوة في هذه المراسلات والاتصالات غير المباشرة، ولاحظت أنّ التوقيعات والرسائل كانت ترد من الإمام المهدي عليه السلام بخط واحد وسليقة واحدة طيلة نيابة النواب الأربعة التي استمرت حوالي سبعين عاماً، وكان السمري هو آخر النواب.

فقد أعلن عن انتهاء مرحلة الغيبة الصغرى التي تتميز بنواب معيّنين، وابتداء الغيبة الكبرى التي لا يوجد فيها أشخاص معيّنون بالذات للوساطة بين الإمام القائد والشيعة.

وقد عبّر التحول من الغيبة الصغرى إلى الغيبة الكبرى عن تحقيق الغيبة

---

(١) فقال لهم ـ أي محمد بن عثمان حين دنى أجله ـ هذا أبو القاسم الحسين بن روح، القائم مقامي، والسفير بينكم وبين صاحب الأمر عليه السلام، والوكيل والثقة الأمين؛ فأرجعوا إليه وعولوا عليه في مهماتكم فبذلك أُمرت وقد بلغت. الغيبة، الشيخ الطوسي: ٢٢٧. وكان النص على عثمان وولده محمد قد صدر عن الأمام العسكري عليه السلام، كما صدر توثيق عن الإمام المهدي عليه السلام، الغيبة، الطوسي: ٢١٩ – ٢٢١.

الصغرى لأهدافها وانتهاء مهمتها لأنها حصّنت الشيعة بهذه العملية التدريجية عن الصدمة والشعور بالفراغ الهائل بسبب غيبة الإمام عليه السلام، واستطاعت أن تكيّف وضع الشيعة على أساس الغيبة وتعدهم بالتدريج لتقبل فكرة النيابة العامة عن الإمام، وبهذا تحولت النيابة من أفراد منصوصين إلى خط عام [١] وهو خط المجتهد العادل البصير بأمور الدنيا والدين تبعاً لتحول الغيبة الصغرى إلى غيبة كبرى [٢]

والآن بإمكانك أن تقدّر الموقف في ضوء ما تقدم لكي تدرك بوضوح أنّ

---

(١) التأسيس لذلك التحول كان بالنص الصادر عن الإمام المهدي عليه السلام : ((وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا فانهم حجتي عليكم وأنا حجة الله عليهم)). كمال الدين، الشيخ الصدوق: ٢ / ٦٨٤، رقم : ٤. وكشف الغمة، ابن أبي الفتح الإربلي : ٣ / ٣٣٩.

(٢) شروط التأهيل للشهادة والمرجعية : إن مجموعة من الشروط التي يجب أن يتوافر عليها من يتصدى لقيادة الأمة وتولي زمام الأمر وهي: العدالة، العلم، الوعي بالواقع وما يدور به من مستجدات، وكيفية استيعاب المبادئ الإسلامية لإشكالياته المختلفة. قال تعالى : ﴿ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾. (سورة المائدة: ٤٤) الرقابة : إن الوعي مستبطن للرقابة على الواقع، حيث لا معنى للرقابة بدون وعي وإدراك بما يراد من الشهيد ومراقبته لظروف ومستجدات الواقع وفقاً للأحكام والمفاهيم الرسالية. الإسلام يقود الحياة، السيد الشهيد رضي الله عنه : ١٤٨.

المهدي حقيقة عاشتها أمة من الناس وعبّر عنها السفراء والنواب طيلة سبعين عاماً من خلال تعاملهم مع الآخرين، ولم يلحظ عليهم أحد كل هذه المدة تلاعباً في الكلام أو تحايلاً في التصرف أو تهافتاً في النقل.

فهل تتصور ـ بربك ـ أنّ بإمكان أُكذوبة أن تعيش سبعين عاماً ويمارسها أربعة على سبيل الترتيب كلهم يتفقون عليها ويظلون يتعاملون على أساسها وكأنها قضية يعيشونها بأنفسهم ويرونها بأعينهم دون أن يبدر منهم أي شيء يثير الشك ودون تأن يكون بين الأربعة علاقة خاصة متميزة تتيح لهم نحواً من التواطؤ ويكسبون من خلال ما يتصف به سلوكهم ـ من واقعية ـ ثقة الجميع وإيمانهم بواقعية القضية التي يدعون أنهم يحسونها ويعيشون معها ؟ !

لقد قيل قديماً ـ إنّ حبل الكذب قصير ـ ومنطق الحياة يثبت أيضاً أنّ من المستحيل عملياً بحساب الاحتمالات أن تعيش أكذوبة بهذا الشكل وبكل هذه المدة وضمن كل تلك العلاقات والأخذ والعطاء ثمّ تكسب ثقة جميع من حولها.

وهكذا نعرف أنّ ظاهرة الغيبة الصغرى يمكن أن تعتبر بمثابة تجربة علمية لإثبات ما لها من واقع موضوعي والتسليم بالإمام القائد بولادته وحياته وغيبته هو إعلانه العام عن الغيبة الكبرى التي استتر بموجبها عن المسرح ولم يكشف نفسه لأحد[1]

---

(١) رسالة الإمام عليه السلام لآخر سفرائه : بسم الله الرحمن الرحيم

لماذا لم يظهر القائد إذن ؟

لماذا لم يظهر القائد إذن طيلة هذه المدة ؟

وإذا كان قد أَعَدَّ نفسه للعمل الاجتماعي، فما الذي منعه عن الظهور على المسرح في فترة الغيبة الصغرى أو في أعقابها بدلاً عن تحويلها إلى غيبة كبرى، حيث كانت ظروف العمل الاجتماعي والتغييري، وقتئذٍ أبسط وأيسر وكانت صلته الفعلية بالناس من خلال تنظيمات الغيبة الصغرى تتيح له أن يجمع صفوفه ويبدأ عمله بداية قوية ولم تكن القوى الحاكمة من حوله قد بلغت الدرجة الهائلة من القدرة والقوة التي بلغتها الإنسانية بعد ذلك من

يا علي بن محمد السمري أعظم الله أجر إخوانك فيك، فإنك ميت ما بينك وبين ستة أيام فأجمع أمرك ولا توص لأحد يقوم مقامك بعد وفاتك، فقد وقعت الغيبة التامة؛ فلا ظهور إلا بإذن الله تعالى ذكره، وذلك بعد طول المدة وقسوة القلوب وامتلاء الأرض جوراً، وسيأتي لشيعتي من يدعي المشاهدة ألا فمن أدعى المشاهدة قبل خروج السفياني والصيحة فهو كذاب مفتر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. قال الراوي: فنسخنا هذا التوقيع وخرجنا من عنده فلما كان اليوم السادس عدنا إليه وهو يجود بنفسه، فقيل له: من وصيك من بعدك فقال: ((لله أمر هو بالغه)) ، وقضى فهذا آخر كلام سمع منه رضي الله عنه وأرضاه.

الغيبة، الشيخ الطوسي: ٢٤٣.

خلال التطور العلمي والصناعي ؟

والجواب: إنّ كل عملية تغيير اجتماعي يرتبط نجاحها بشروط وظروف موضوعية لا يتأتى لها أن تحقق هدفها إلا عندما تتوفر تلك الشروط والظروف.

وتتميز عمليات التغيير الاجتماعي التي تفجرها السماء على الأرض بأنها لا ترتبط في جانبها الرسالي بالظروف الموضوعية، لأن الرسالة التي تعتمدها عملية التغيير هنا ربانية ومن صنع السماء لا من صنع الظروف الموضوعية ويرتبط نجاحها وتوقيتها بتلك الظروف.

ومن أجل ذلك انتظرت السماء مرور خمسة قرون من الجاهلية حتى أنزلت آخر رسالاتها على يد النبي محمد صلى الله عليه وآله لأن الارتباط بالظروف الموضوعية للتنفيذ كان يفرض تأخرها على الرغم من حاجة العالم إليها منذ فترة طويلة قبل ذلك.

والظروف الموضوعية التي لها أثر في الجانب التنفيذي من عملية التغيير:

منها: ما يشكّل المناخ المناسب والجو العام للتغيير المستهدف.

ومنها: ما يشكّل بعض التفاصيل التي تتطلبها حركة التغيير من خلال منعطفاتها التفصيلية.

فبالنسبة إلى عملية التغيير التي قادها مثلاً لينين في روسيا [١] بنجاح كانت ترتبط بعامل من قبيل قيام الحرب العالميّة الأولى، وتضعضع القيصرية، وهذا ما يساهم في إيجاد المناخ المناسب لعملية التغيير، وكانت ترتبط بعوامل أخرى جزئية ومحدودة من قبيل سلامة لينين مثلاً في سفره الذي تسلل فيه على داخل روسيا وقاد الثورة، إذ لو كان قد اتفق له أي حادث يعيقه لكان من المحتمل أن تفقد الثورة بذلك قدرتها على الظهور السريع على المسرح.

وقد جرت سنة الله تعالى التي لا تجد لها تحويلاً في عمليات التغيير الرباني على التقيّ من الناحية التنفيذية بالظروف الموضوعية التي تحقق المناخ المناسب والجو العام لإنجاح عملية التغيير، ومن هنا لم يأت الإسلام إلا بعد فترة من الرسل وفراغ مرير استمر قروناً من الزمن.

فعلى الرغم من قدرة الله (سبحانه وتعالى) على تذليل كل العقبات والصعاب في وجه الرسالة الربانية وخلق المناخ المناسب لها خلفاً بالإعجاز لم يشأ أن يستعمل هذا الأسلوب، لأن الامتحان والابتلاء والمعاناة التي من خلالها يتكامل الإنسان يفرض على العمل التغييري الرباني أن يكون طبيعياً وموضوعياً من هذه الناحية، وهذا لا يمنع عن تدخل الله (سبحانه وتعالى)

---

(١) كانت قيادة لينين للثورة ضد القياصرة عام ١٩١٧، أي بعد قيام الحرب العالميّة الأولى ـ ١٩١٤ ـ بثلاث سنين.

أحياناً فيما يخص بعض التفاصيل التي لا تكوّن المناخ المناسب وإنما قد يتطلبها أحياناً التحرك ضمن ذلك المناخ المناسب، ومن ذلك الإمدادات والعنايات الغيبية التي يمنحها الله تعالى لأوليائه في لحظات حرجة فيحمي بها الرسالة، وإذا بنار نمرود تصبح برداً وسلاماً على إبراهيم [١].

وإذا بيد اليهودي الغادر التي ارتفعت بالسيف على رأس النبي (صلى الله عليه وآله) تشل وتفقد قدرتها على الحركة [٢]، وإذا بعاصفة قوية تجتاح مخيمات الكفار والمشركين الّذين أحدقوا بالمدينة في يوم الخندق [٣]، وتبعث في نفوسهم الرعب، إلا أنّ هذا كله لا يعدو التفاصيل وتقديم العون في لحظات حاسمة بعد أن كان الجو المناسب والمناخ الملائم لعملية التغيير على العموم قد تكوّن بالصورة الطبيعية ووفقاً للظروف الموضوعية.

وعلى هذا الضوء ندرس موقف الإمام المهدي عليه السلام لنجد أنّ عملية التغيير التي أُعد لها ترتبط من الناحية التنفيذية كأي عملية تغيير اجتماعي أخرى

---

(١) النص القرآني : ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾. الأنبياء : ٦٩.

(٢) مسند أبي يعلى الموصلي : ٣/ ٣١٣. الإرشاد، الشيخ المفيد : ١ / ١٢٥. وقد حصل ذلك عند حصار النبي صلى الله عليه وآله ليهود خيبر.

(٣) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٢ / ٧١، وكانت وقعة الخندق (الأحزاب في ذي القعدة سنة خمس هجرية).

بظروف موضوعية تساهم في توفير المناخ الملائم لها، ومن هنا كان من الطبيعي أنْ توقت وفقاً لذلك.

ومن المعلوم أنّ المهدي لم يكن قد أعد نفسه لعمل اجتماعي محدود، ولا لعملية تغيير تقتصر على هذا الجزء من العالم أو ذاك، لأن رسالته التي أدخر لها من قبل الله (سبحانه وتعالى) هي تغيير العالم تغييراً شاملاً، وإخراج البشرية كل البشرية من ظلمات الجور إلى نور العدل.

وعملية التغيير الكبرى هذه لا يكفي في ممارستها مجرد وصول الرسالة والقائد الصالح وإلا لتمت شروطها في عصر النّبوّة بالذات، وإنما تتطلب مناخاً عالمياً مناسباً وجواً عاماً مساعداً يحقق الظروف الموضوعية المطلوبة لعملية التغيير العالميّة.

فمن الناحية البشرية يعتبر شعور إنسان الحضارة بالنفاذ عاملاً أساسياً في خلق ذلك المناخ المناسب لتقبل رسالة العدل الجديدة، وهذا الشعور بالنفاد يتكون ويترسخ من خلال التجارب الحضارية المتنوعة التي يخرج منها إنسان الحضارة مثقلاً بسلبيات ما بنى مدركاً حاجته إلى العون، متلفتاً بفطرته إلى الغيب أو إلى المجهول.

ومن الناحية المادية يمكن أنْ تكون شروط الحياة المادية الحديثة أقدر من شروط الحياة القديمة في عصر كعصر الغيبة الصغرى على إنجاز الرسالة على صعيد العالم كله، وذلك بما تحققه من تقريب المسافات والقدرة الكبيرة على

التفاعل بين شعوب الأرض وتوفير الأدوات والوسائل التي يحتاجها جهاز مركزي لممارسة توعية لشعوب العالم وتثقيفها على أساس الرسالة الجديدة.

وأما ما أشير إليه في السؤال من تنامي القوى والإرادة العسكرية التي يواجهها القائد في اليوم الموعود كلما أجِّل ظهوره، فهذا صحيح، ولكن ماذا ينفع نمو الشكل المادي للقوة مع الهزيمة النفسية من الداخل وانهيار البناء الروحي للإنسان الذي يملك كل تلك القوى والأدوات ؟ وكم من مرة في التاريخ إنهار بناء حضاري شامخ بأول لمسة غازية لأنه كان منهاراً قبل ذلك وفاقداً الثقة بوجوده والقناعة بكيانه والاطمئنان إلى واقعه[١]

وهل للفرد كل هذا الدور؟

ونأتي إلى سؤال آخر في تسلسل الأسئلة المتقدمة، وهو السؤال الذي يقول:

هل للفرد مهما كان عظيماً القدرة على إنجاز هذا الدور العظيم ؟

وهل الفرد العظيم إلا ذلك الإنسان الذي ترشحه الظروف ليكون واجهة لها ـ أي لتلك الظروف ـ في تحقيق حركتها ؟

---

(١) انهارت الإمبراطورية الفارسية، وحررت شعوبها في فترة زمنية لا تتجاوز العقدين من الزمان في بداية الفتوح الإسلامية الخالدة. وكان ذلك بين عامي (١٤ – ٢١) هـ.

والفكـرة في هـذا السـؤال ترتـبط بوجهـة نظـر معيّنة للتاريخ تفسره على أسـاس أنّ الإنسـان عـامل ثانوي فيه والقوى الموضوعية المحيطة به هي العامل الأساسي، وفي إطار ذلك لن يكون الفرد في أفضل الأحوال إلا التعبير الذكي عن إتجاه هذا العامل الأساسي[١]

ونحـن قـد أوضـحنا في مواضع أخرى من كتبنا المطبوعة: أنّ التاريخ يحتوي على قطبين: [٢]

أحدهما: الإنسان.

والآخر: القوى المادية المحيطة به.

وكما تؤثّر القوى المادية وظروف الإنتاج والطبيعة في الإنسان يؤثّر الإنسان

---

(١) يشير السيد الشهيد رضي الله عنه إلى مرتكزات النظرية الماركسية في تفسير التاريخ، حيث ربطت كل التغييرات التي تحدث في الحياة الاجتماعية على أساس ما يحصل من تطور بوسائل الإنتاج، وهي العامل الأوحد الذي يثري عملية التغيير، وعنه تنشأ التحولات في المجتمع البشري، انظر: اقتصادنا، السيد الشهيد الصدر، نظريات العامل الواحد : ٤١، وما بعدها.

(٢) اقتصادنا، وقد أشرنا في الهامش السابق إلى ما يشير إليه السيد الشهيد رضي الله عنه والمدرسة القرآنية، السنن التاريخية، تحليل عناصر المجتمع، حيث أوضح السيد الشهيد فيها مسألة التأثير المتبادل بين الإنسان والقوى المحيطة به : ١٠٢، وما بعدها.

أيضاً فيما حوله من قوى وظروف، ولا يوجد مبرر لافتراض أنّ الحركة تبتدأ من المادة وتنتهي بالإنسان إلا بقدر ما يوجد مبرر لافتراض العكس، فالإنسان والمادة يتفاعلان على مرّ الزمن وفي هذا الإطار بإمكان الفرد أنْ يكون أكبر من ببغاء في تيار التاريخ، وبخاصة حين ندخل في الحساب عامل الصلة بين هذا الفرد والسماء. فإن هذه الصلة تدخل حينئذٍ كقوة موجهة لحركة التاريخ؛ وهذا ما تحقق في تاريخ النبوات وفي تاريخ النّبوّة الخاتمة بوجه خاص، فإن النبي محمد صلى الله عليه وآله بحكم صلته الرسالية بالسماء تسلم بنفسه زمام الحركة التاريخية وأنشأ مداً حضارياً لم يكن بإمكان الظروف الموضوعية التي كانت تحيط به أنْ تتمخض عنه بحال من الأحوال، كما أوضحنا ذلك في المقدمة الثانية للفتاوى الواضحة(١)

---

(١) يشير السيد الشهيد رضي الله عنه إلى ما بحثه في الفتاوى الواضحة تحت عنوان ((إثبات نبوة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله)): إن دراسة مقارنة لتاريخ عمليات التطور في مختلف المجتمعات يوضح أن كل مجتمع يبدأ فيه هذا التطور فكرياً على شكل بذور متفرقة في أرضية ذلك المجتمع، وتتلاقى هذه البذور فتكون تياراً فكرياً وتتحدد بالتدريج معالم هذا التيار وتتضح في داخله القيادة التي تتزعمه حتى يبرز على المسرح كواجهة لجزء يعيش في المجتمع تناقض الواجهة الرسمية التي يحملها المجتمع ومن خلال الصراع يتسع هذا التيار حتى يسيطر على الموقف. وخلافاً لذلك نجد أن محمداً صلى الله عليه وآله في تاريخ الرسالة الجديدة لم يكن حلقة من سلسلة ولم يكن يمثل جزءاً من تيار، ولم تكن

ومـا أمكن أنْ يقع على يد الرسول الأعظم يمكن أنْ يقع على يد القائد المنتظر من أهل بيته الذي بشر به ونوه عن دوره العظيم.

ما هي طريقة التغيير في اليوم الموعود؟

ونصـل في الـنهاية إلى السـؤال الأخـير من الأسئلة التي عرضناها، وهو السـؤال عـن الطـريقة التي يمكن أنْ نتصور من خلالها ما سيتم على يد ذلك

للأفكـار والقـيم والمفاهـيم التي جاء بها بذور أو رصيد في أرضية المجتمع الذي نشأ فـيه، وأمـا التـيار الذي تكون من صفوة المسلمين الأوائل على يد النبي فقد كان صنع الرسـالة والقـائد ولم يكـن هـو المـناخ المسبق الذي ولدت فيه الرسالة وتكوّن القائد، ومـن أجل ذلك نجد أن الفارق بين عطاء النبي وعطاء أي واحد من هؤلاء لم يكن فارق درجـة كـالفوارق الـتي تبدو بين بذرة وأخرى من البذور التي تكوّن التيار الجديد. بل كـان الفـارق أساسياً لا حد لـه، وهذا يبرهن على أن محمداً لم يكن جزءاً من تيار، بل كـان التـيار الجديد جزءاً منه. وعلى ضوء ذلك كله ننتهي إلى [[أن]] التفسير الوحيد المعقـول والمقـبول لـلموقف، وهـو افـتراض عـامل إضـافي وراء الظـروف والعوامـل المحسوسـة، وهو عامل الوحي عامل النّبوّة الذي يمثل تدخل السماء في توجيه الأرض). ﴿وَكَذَلِـكَ أَوْحَيْـنَا إِلَـيْكَ رُوحـاً مِـنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْـنَاهُ نُـوراً نَهْـدِي بِـهِ مَـنْ نَشَـاءُ مِـنْ عِـبَادِنَا وَإِنَّـكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. الشورى: ٥٢. الفتاوى الواضحة، السيد الشهيد رضي الله عنه .

دار التعارف للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثامنة، ١٤٠٣هـ: ٢٧ ـ ٧٣.

الفرد من انتصار حاسم للعدل وقضاء على كيانات الظلم المواجهة له؟

والجواب: المحدد على هذا السؤال يرتبط بمعرفة الوقت والمرحلة التي يقدر للإمام المهدي عليه السلام أنْ يظهر فيها على المسرح وإمكان افتراض ما تتميز به تلك المرحلة من خصائص وملابسات لكي ترسم ـ في ضوء ـ ذلك الصورة التي قد تتخذها عملية التغيير والمسار الذي قد تتحرك ضمنه، وما دمنا نجهل المرحلة ولا نعرف شيئاً عن ملابساتها وظروفها فلا يمكن التنبؤ العلمي بما سيقع في اليوم الموعود وإنْ أمكنت الافتراضات والتصورات التي تقوم في الغالب على أساس ذهني لا على أسس واقعية عينية.

وهناك افتراض أساسي واحد بالإمكان قبوله على ضوء الأحاديث التي تحدثت عنه والتجارب التي لوحظت لعمليات التغيير الكبرى في التاريخ، وهو افتراض ظهور المهدي عليه السلام في أعقاب فراغ كبير يحدث نتيجة نكسة وأزمة حضارية خانقة.

وذلك الفراغ يتيح المجال للرسالة الجديدة أن تمتد وهذه النكسة تهيئ الجو النفسي لقبولها، وليست هذه النكسة مجرد حادثة تقع صدفة في تاريخ الحضارة الإنسانية وإنما هي نتيجة طبيعية لتناقضات التاريخ المنقطع عن الله (سبحانه وتعالى) التي لا تجد لها في نهاية المطاف حلاً حاسماً فتشتعل النار التي لا تُبقي ولا تذر ويبرز النور في تلك اللحظة ليطفئ النار ويقيم على الأرض عدل

السماء[١]

وسأقتصر على هذا الموجز من الأفكار تاركاً التوسع فيها وما يرتبط بها من تفاصيل إلى الكتاب القيم الذي أمامنا، فإننا بين يدي موسوعة جليلة في الإمام المهدي عليه السلام[٢] وضعها أحد أولادنا وتلامذتنا الأعزاء وهو العلامة البحاثة السيد محمد الصدر (حفظه الله تعالى) وهي موسوعة لم يسبق لها نظير في تاريخ التصنيف الشيعي حول المهدي عليه السلام في إحاطتها وشمولها لقضية الإمام المنتظر من كل جوانبها، وفيها من سعة الأفق وطول النفس العلمي واستيعاب الكثير من النكات واللفتات ما يعبّر عن الجهود الجليلة الذي بذلها المؤلف في إنجاز هذه الموسوعة الفريدة، وإني لأحس بالسعادة وأنا أشعر بما تملؤه هذه الموسوعة من فراغ وما تعبّر عنه من فضل ونباهة وألمعية وأسأل المولى (سبحانه وتعال) أن يقر عيني به ويريني فيه علماً من أعلام الدين[٣]

---

(١) نبوءة قرآنية : ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأرض زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أو نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. يونس: من الآية٢٤.

(٢) لقد صدر من هذه الموسوعة أربعة أجزاء، الغيبة الصغرى، والكبرى، واليوم الموعود، وتاريخ ما بعد الظهور، وذكر لنا بعض الأخوة المطلعين، أن هناك أجزاء أخرى لم تطبع.

(٣) لقد تحققت دعوة السيد الشهيد الصدر رضي الله عنه في تلميذه البار، فكان علماً بارزاً من أعلام الدين، وكان لمرجعيته الدور الفاعل في إحداث متغيرات كبيرة، داخل ←

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين.

وقد وقع الابتداء في كتابة هذه الوريقات في اليوم الثالث عشر من جمادي الثانية، سنة ١٣٩٧ هـ، ووقع الفراغ منها في غرة اليوم السابع عشر من الشهر نفسه.

والله ولي التوفيق.

محمد باقر الصدر

النجف الأشرف

العراق وخارجه، اغتالته يد الغدر والخيانة، في ذي القعدة عام ١٤١٩هـ.

المحتويات

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس



إنّ الأئمة (ع) بالرغم من التآمر على إقصائهم عن مجال الحكم، كانوا يتحملون باستمرار مسؤوليتهم في الحفاظ على الرسالة وعلى التجربة الإسلامية وتحصينها ضد التردي إلى الهاوية، هاوية الانحراف والانسلاخ من مبادئها وقيمها انسلاخاً تاماً.

فكلما كان الانحراف يقوى ويشتد، وينذر بخطر التردي إلى الهاوية، كان الأئمة (ع) يتخذون التدابير اللازمة ضد ذلك، وكلما وقعت التجربة الإسلامية أو العقيدة في محنة أو مشكلة، وعجزت الزعامات المنحرفة عن علاجها بحكم عدم كفاءتها، بادر الأئمة (ع) إلى تقديم الحل، ووقاية الأمة من الأخطار التي كانت تهددها.